ﭬليم كيشوكوف

الحدوة المكسورة



التقدم • أعلام الأدب السوفيتي

عليم
كيشوكوف

الحدوة المكسورة

رواية

دار التقدم
موسكو

ترجمة عن الروسية د. فوزى عطية

Алим Кешоков

Сломанная подкова

Роман

Книга первая

На арабском языке

مقدمة

رواية « الحدوة المكسورة » واحدة من كتب كثيرة مكرسة للحرب الوطنية العظمى للشعوب السوفيتية ضد الفاشية الهتلرية. ولقد طمحت فى هذه الرواية الى احياء تلك الأيام الدرامية لاحداث الحرب فى موطنى ، القوقاز الشمالى . جرت الأحداث الحربية هنا فى ظروف خاصة ، فأمام الهتلريين انتصبت جبال القوقاز المنيعة الوعرة ، وحيث تقطن فى الوديان شعوب يتكلم كل منها لغته الخاصة ، وحيث كل مدينة عبارة عن عاصمة . لقد أمل الهتلريون فى تجزئة شعوب القوقاز الشمالى الى فرق متباعدة ، وحاولوا بذر الشقاق بينها وعزلها عن عائلة الشعوب السوفيتية متعددة القوميات التى تعيش فى وئام .

ولكن تلاحم شعوب القوقاز الشمالى وموقفها العنيد فى التصدى للعدو أحبطا تلك المخططات : فهنا أيضا ، فى القوقاز الشمالى ، كما فى كل جبهات الحرب الوطنية العظمى (١٩٤١ ـ ١٩٤٥) منيت الآلة العسكرية الهتلرية بالفشل والانهيار .

غالبا ما أسأل : لماذا اسميت روايتى « الحدوة المكسورة » ؟

الحدوة عند جبليى القوقاز ، كما ـ بالمناسبة ـ عند شعوب أخرى كثيرة رمز للسعادة بشكل ما ، للفال الحسن ، رمز للنجاح .

احدى شخصيات روايتى اذ تشاهد حدوة مطلية بالنيكل مثبتة على رادياتير احدى سيارات حمل العدو ، تتنبأ واثقة : لن يكون للهتلريين هنا ، فى القوقاز ، سعادة حربية ! هذه النبوءة تطلقها جبلية عجوز · وهى لا تتأكد خلال سير كل الأحداث الحربية فى الرواية ، ولكنها أيضا تتحقق فى مصير تلك الحدوة المطلية بالنيكل نفسها ، التى سرعان ما تتدلى محطمة بائسة على رادياتير سيارة الحمل الفاشية تلك ، كما لو أنها تشهد : لا ولن تكون ثمة نجاحات هتلرية ·

لقد شاركت بنفسى فى الكثير من الأحداث المذكورة فى الرواية ، وذهبت الى الجبهة للمرة الثانية ضمن فرقة الخيالة التى كرس الكثير من صفحات هذا الكتاب لاحياء مأثرتها الحربية ·

الوحدة العسكرية التى تتكلم عنها الرواية تشكلت فى تلك اللحظة التى بدأ العدو يطرق فيها ، لو أمكن القول ، بوابة القوقاز · كان قرار كل شعوب وقوميات القوقاز الشمالى ـ اركاب كل من يستطيع حمل السلاح على الجواد ، جماعيا · هكذا ولدت الفرقة التى شغلت فيها منصبا متواضعا كقائد لفصيلة مدفعية هاون · وحتى فى تشكيلتى الصغيرة كان هناك أناس من مختلف القوميات والأعمار : من طلاب المدارس الشباب ذوى السبعة عشرة ربيعا الى الرجال الرعاة وصيادى الأمس الذين قاربوا الخمسين أو تجاوزوها · عن كل هذا كتبت فى روايتى هذه ·

كان ثمة فتيات فى الفرقة أيضا ، احداهن قدر لها أن تكون ملهمتى لخلق بطلتى المفضلة ابتشارا · ابتشارا ليست فقط فتاة لطيفة ، ذكية ، وظريفة · انها مملوءة بالحيوية ، اجتماعية بما يفوق المعتاد ، مثابرة ، وناكرة للذات · طبيعتها الفعل بالدرجة الأولى لا الكلام · فى الرواية هناك مشهد : فى احرج لحظات

المعركة ، عندما يتغير ميزان القوى فى أحد الاشتباكات لصالح العدو ، هجمت ابتشارا ، من غير أن تفكر على العدو جارة الرجال خلفها بحماستها تلك · لم تفكر فى تلك اللحظة بنفسها ، بحياتها ، بل فى كسر هجوم العدو مهما كان الثمن لكى لا يعطى فرصة ليخطو ولو خطوة واحدة على أرضها الحبيبة ، أرض بلادها السوفيتية العزيزة · فى هذا يكمن جوهر ابتشارا ، الفتاة السوفيتية ، الكمسمولية ·

رواية « الحدوة المكسورة » عن أولئك الذين أراد مسحهم عن وجه الأرض أشر عدو لكل شعوب العالم ، الفاشية الهتلرية · هذا الكتاب عن اولئك الذين أبدوا رجولة وعنادا وارادة لا تنثنى للنصر فى الاشتباك المميت مع الهتلريين ، عن أولئك الذين اجترحوا المآثر باسم الحياة على الارض وفى سبيل حرية وسعادة وطنهم الحبيب ·

أتوجه الى القارىء العربى بكلمات التحية :

ـ السلام عليكم :

سأكون جد مسرور لو قرأتم كتابى وأعجبكم · وسأكون فرحا بشكل خاص لو أحببتم أبطالى · وقدرتم مزاياهم الروحية العالية ، وطنيتهم ، حبهم للحرية ، ورجولتهم فى الكفاح ضد عدو وطنهم ·

سأكون سعيدا لو أصبح كتابى هذا تعبيرا آخر للصداقة القائمة بين شعوب الاتحاد السوفيتى والبلدان العربية ·

عليم كيشوكوف

وادى الحملان البيضاء

الكتاب الأول

الفصـــل الأول

بيكان ، ميسوست ، وآخرون

اهتزت قرية ماشوكو الجبليـــة كلها لخبر توزيع أبقـــار الكولخوز (*) على الأهالى عندما كان أهل القرية يتـابعون بقلق أنباء تقدم القوات الالمانية · وقد ارتبطت أخبـــار تعثر القـــوات السوفيتية بما تناقلته الألسن من اشاعات حول توزيع الأبقـــار وانتشرت فى القرية التفسيرات ، والقيل والقال ، بدرجة كان يصل معها فى بعض الأحيان الى حد السخافة واثارة الضحك·غير أن كل فرد من أبناء القرية كان يعتقد فى قرارة نفسه انه ما دامت رائحة الدخان قد فاحت ، فالنار مشتعلة حتما فى مكان ما ·

كان توزيع أبقار الكولخوز يشغل كير جميع أهل القرية · ولم يكن تفكير ميسوست فى هذا الأمر أقل من غيره · فامنيته هى الحصول على تلك البقرة الأصيلة ، التى ذاع صيتها كلها لما تحققه من رقم قياسى فى انتاج اللبن · وكانت هذه البقرة محل اهتمـــام بالغ من ادارة الكولخوز ، كما لم تكن الادارة تأتمن عليها ســوى افضل الحلابات ·· نعم ، لقد بلغت العناية بهذه البقرة قدرا يجعل

(*) مزرعة جماعية · المترجم

المرء يتخيل انها ليست بقرة ، بل جوادا أصيلا من خيرة السلالات لكاباردينية ٠

آه ، لو كانت ملكة الابقـــار هذه من نصيبه ! هذه البقرة المنعمة ٠٠ كانت هذه هى امنيته التى يحلم بها ٠

من المرجح أن بيكان ديدانوف ـ السروجى والرئيس المؤقت للكولخوز ـ وابتشارا كازانوكوفا المديرة الشابة للمزرعة الحيوانية كانا قد حددا كل من سيكون من نصيبه هذه الأبقار ٠ وكان من بين الاشاعات التى رددتها الألسن عامة ، اشـــاعة مفادها ان البقرة صاحبة الرقم القياسى ستكون من نصيب ميسوست ٠

ورغم ما تحمله هذه الاشـــاعة من سخافة لا تتفق والعقل ٠ الا انها أخذت تزحف من بيت الى آخر ٠ وبدأت العجـــائز يترددن مذعورات على بيت حبيبة ، حيث كن يقلن لها :

ـ اكشفى لنا الطالع ٠

فترد حبيبة قائلة :

ـ لن اكشف لكن الطالع ٠٠ اذهبن الى ابنتى ابتشـــــارا فانها مديرة المزرعة الحيوانية ، وستخبركن بالحقيقة كاملة ٠

ـ ولكن ألم تقل لك ابتشـــارا شيئا ما ؟

أما حبيبة فكانت تفسر لهن الأمر قائلة :

ـ ان الأمر وما فيه هو ان يســـتلم كل فرد بقرة ٠ عليكن الاحتفاظ بالابقار واطعامها ٠ اشربن لبنها بالهناء والشفاء واصنعن منه القيمر والجبن وكلن الزبد منه ٠ وفى مقـــابل ذلك احفظن الماشية للكولخوز ٠ مفهوم ؟

ورغم ان العجـــائز كن يومئن برؤوسهن ، الا أنهن لم يكن

يصدقن هذا الكلام ·· فقد عشن الكثير من الحروب فى حياتهن ، وكانت كل حرب تسلبهن شيئا ما ، تارة جوادا وأخرى ـ سرجا ، وثالثة ـ لحما لاطعام القوات · ولكن ما لم تشهده العجائز حتى الآن هو ان الحرب تهب أبقارا · بل ولم يحدث ذلك فى أى وقت من الأوقات من قبل ·

لم تكن حبيبة نفسها تصدق ذلك حتى دعيت الى المزرعة الحيوانية لتستلم بقرة · وفكرت حبيبة فى نفسها قائلة : « حبذا لو اصطحبت معى حفيدتى دانوتشكا فربما يكون للبقرة عجل صغير يدخل الفرحة الى قلبها ·

كانت دانوتشكا قد بلغت الثانية من عمرها للتو · وهى طفلة دائبة الحركة والوثب ، لا تكاد تستقر عليها العين فى مكان واحد · وكانت حبيبة تسمى زوجة ابنهـا ـ أم دانوتشكا أرينا بدلا من أيرينا · وتعمل أيرينا فيدوروفنا طبيبة فى مدرسة المدينة ، حيث كانت تصطحب معها ابنتها دانوتشكا · وحينما كانت الأم تقوم بفحص وعلاج الأطفال ، تعكف دانوتشكا على حقن دمى العرائس ووضع الضمادات لها ·

وكان هناك ساعى البريد سنترال الذى ما ان رأى حبيبة فى طريقها لتسلم البقرة ، حتى ضحك فى وجهها مازحا وقد كشف عن لثته الحمراء وأسنانه الصفراء · وعرض عليهـا سنترال خدماته :

ـ الم اقل لك منذ زمن طويل أن عليك اعداد مكان خاص لانك ستتسلمين بقرة · والآن الى اين ستأخذينها ؟ انى على اتم استعداد لاقامة حظيرة لها فى ليلة واحدة لو اردت · لن اتقاض اجرا كبيرا

نظير ذلك · كل ما اريده هو زجاجة « فودكا » من سعة ربع دلو (*) بجانب المشهيات طبعا · فلا يمكن بطبيعة الحال ، الاحتفاظ بالبقرة دون حظيرة · ماذا ستفعلين حين يحل الشتاء ؟ ستموت البقرة من البرد ان لم يكن لها حظيرة تحفظها ·

لم تكن الحظيرة هى التى تشغل بال حبيبة ، بل كان فكرها منصبا على اختيار اسم للبقرة · ماذا لو اسمتها خابلياشا باسم بقرتها السابقة ، التى ضمت الى ماشية الكولخوز خلال عملية نشر التعاونيات · لقد انقضى وقت طويل منذ ذلك العهد · غير ان حبيبة لم تنس بعد بقرتها العزيزة ، مع انها كانت من سلالة غير أصيلة · وقد يصعب حصر الليالى التى ذرفت حبيبة فيها الدمع من أجل بقرتها خابلياشا ، التى أصبحت ضمن الملكية العامة وضمت الى ماشية الكولخوز · ومن فرط حبها لبقرتها ، كانت حبيبة تتحرى عن المرعى الذى ترعى فيه البقرة ، وتتردد عليه حاملة الهدايا لبقرتها ، وكانت ترجو الراعى ان يلقى اليها بحزمة اضافية من الدريس · وكان الراعى يحتد غضبا منها ويزجرها قائلا :

ـ أتعتقدين اننا سنميت الأبقار جوعا ؟ · أراك جئت بحفنة من دقيق الذرة · أمر عجيب ·· أتعتقدين ان هذه الحفنة ستشبعها؟ من الأفضل ان تلقى هذا الدقيق لفراخك ولا تأت به الى هنا ·

وهنا تذكرت حبيبة كيف ولدت خابلياشا أول عجل لها · كان ذلك فى سنة اتسمت بسوء الأحوال والقحط ، حيث كان الناس ينتفخون ويموتون جوعا · وتناوبت حبيبة وزوجها المرحوم تيمركان الجلوس فى الحظيرة خشية أن تفوتهم عملية الولادة · غير أن كل شىء تم فى سلام · الحمد لله · وفى الصباح

(*) زجاجة سعتها ٣ر١ لتر · المترجم

سمع خوار العجل الوليد ، وفى نفس الوقت استيقظ ابنها البيان كان العجل أشقر اللون ، ضعيفا لا يقوى على الوقوف على أرجله، فكانت تميل فى كل اتجاه ، وأخذ رأسه الصغير يهتز على رقبته النحيفة ، فتتراقص النجمة الصغيرة التى تكلل جبهته ، ويلمع أنفه الاسود فيبدو وكأنه قد صنع من جلد ٠٠ لم تكن أرجله تقوى على حمله ، فكان يسقط ثم ينهض ، فيعاود السقوط على قطعة اللباد الدافئة المفروشة خصيصا من أجله ٠

لم يكن العجل بالنسبة لالبيان سوى مولود صغير مسل يكاد يكون لعبة ، أما بالنسبة لتيمركان وحبيبة فالأمر مختلف ٠ فقد كانا يريان فيه بقرا جديدا ، وعجولا جديدة بعد عامين أو ثلاثة ٠ ولم يكن مقدرا لهذه الآمال أن تتحقق ٠

فقد كان القحط شديدا بدرجة جعلت الناس يأكلون نبات القراص المسلوق والكسب المبلول ٠٠ هذا اذا كان هناك كسب ٠ واقتضت الظروف ذبح العجل كى لا تموت الأسرة من الجوع ٠ وما أن حرمت خابلياشا وليدها حتى توقفت عن در اللبن ٠ وحاولت حبيبة بشتى الطرق در لبنها ٠٠ فكانت تمسح عليها ، وتداعبها وتلاطفها بعذب الكلام ، وتقرأ لها من القرآن ٠٠ ولكن دون جدوى ٠ وحينئذ نصحها السروجى بيكان بعمل دمية من جلد العجول وحشوها بالتبن ووضعها خلف السور بحيث تراها خابلياشا ٠ ونجحت الحيلة ، وخدعت خابلياشا وعادت تدر اللبن من جديد ٠

أفاقت حبيبة من ذكرياتها على كلمات أغنية عسكرية يتغنى بها طابور من الجنود ٠ ورددت بينها وبين نفسها : « يا ترى هل هذه هى أفواج الفرقة القوقازية فى طريقها الى جبهة القتال ؟ ان ولدى البيان من بين رجالها » ٠

اندفعت مسرعة نحو البوابة ، لدرجة انها نسيت أن تغطى راسها بالمنديل فهرعت الى الخارج مكشوفة الراس محبوسة الأنفاس ٠

ناجت حبيبة نفسها قائلة :

« البيان ، يا بنى العزيز ، يا آخر عصب فى أسرة كازانوكوف ، أصحيح انك ذاهب الى جبهة القتال انت الآخر ؟ وكيف تذهب دون أن تودع أمك ؟ ٠ »

كانت سرايا الجنود تتحرك واحدة تلو الأخرى ، تثير سحبا من الغبار ، قادمة من ناحية طريق ابريكوسفيا ٠ وانسابت الأغانى العسكرية فى سماء القرية ، وأخذت حبيبة تتفحص وجوه المقاتلين بحثا عن البيان غير أن عينيها لم تتمكن من ملاحقة الوجوه والنمعن فيها أثناء سير الجنود ٠

غير أنها شعرت بالفرحة والسعادة لمصير ولدها ، لما رأته من حسن هندام الجنود ومنظرهم النظيف المرح ٠

لقد أخطأت حبيبة ، فلم يكن هؤلاء الجنود من الفرقة القوقازية التى يخدم بها ابنها البيان ؛ بل كانوا رجال وحدات « حامية ماشوكو العسكرية » وكانت هذه الحامية وليدة الصدفة فى المنطقة حيث كانت مكونة من طلبة احدى الكليات العسكرية التى هجرت الى المنطقة ٠

كانت الخطوة العسكرية تهدر بانتظام ورتابة ، حيث ترتفع أرجل الجنود وتنخفض فتدق الأرض بخطوات يملؤها العزم والاصرار ٠ ونضحت على ظهور الجنود وبزاتهم العسكرية بقع

العرق الداكنة ، ومع ذلك كانوا يسيرون فى خطوات مشحونة بالنشاط والحيوية ، غير عابئين بقيظ الصيف ، والاكثر من هذا ٠٠ كانوا يغنون مرددين :

لا تنس التمويه ،
ولا تنس الخندق
ومهارة القتال خير ما تبديه
وكن مستعدا لكل شىء

لم تفهم حبيبة معنى كلمات الأغنية ، غير انها ، بأدائها الجماعى ، وصلت الى أعماق نفسها فهزتها ، ودمعت عيناها ٠ فقد تخيلت حبيبة ان الجنود يتغنون بامهاتهم وبقراهم الحبيبة ، وبيوتهم ، وبأرضهم كلها ٠٠ تخيلت حبيبة العجوز ، وداع الجنود لاخواتهم ، وخطيباتهم ، وقراهم فى الأغنية ، بل وربما كانوا يودعون حياتهم الشابة أيضا ٠

ظلت حبيبة واقفة طويلا عند البوابة تودع بناظريها جنود الجيش الأحمر ٠٠ فرحى الحرب تدور هناك ٠٠ فى أواسط روسيا الا ان أنفاسها تلهب الحشائش هنا ٠ فبين الحين والحين كانت تظهر فى القرية الفصائل العسكرية ، يرتدى بعض أفرادها الزى العسكرى ، والبعض الآخر ملابسه المدنية ٠ وكانوا يجرون فى المراعى ، ويزحفون ، ويحفرون الحفر ، ثم يختفون بعد ذلك ، ولا أحد يدرى أين ذهبوا ٠٠ ويجىء بدلا منهم رجال آخرون ٠ وقارنت حبيبة بينهم وبين الجنود الذين رأتهم الآن واستنتجت قائلة لنفسها « ان الجنود الذين يمرون من هنا الآن هم جنود بحق ٠٠ كما أن السلاح لديهم كاف ٠٠ مدافع رشاشة وبنادق » ٠ وتذكرت حبيبة ان البيان قد أفلت لسانه ذات مرة

وأخبرها بأن السلاح لدى الفرقة الجديدة الجارى تكوينها الآن ، قليل حيث كان نصيب كل فردين بندقية واحدة · فقالت حبيبة لنفسها : اذن ليست هذه هى الفرقة القوقازية وبالتالى ليس البيان من هؤلاء الجنود ·

اتجه رجال الجيش الأحمر ناحية المدرسة · ومما يثير الدهشة ان كلاب القرية التزمت الهدوء كلية هذه المرة ، فلم تثب من البوابات ، ولم تندفع مسرعة تنبح نباحها المرتفع المعهود · وبدلا من ذلك سار صبية القرية خلف رتل الجنود مثيرين الغبار ، محاولين تقليد خطوات المقاتلين العسكرية ، بل ومحاولين كذلك الغناء معهم ، فخرجت الكلمات الروسية محرفة من أفواههم ·

ظلت حبيبة تتابع الجنود حتى اختفوا عن ناظريها ، ثم اتخذت طريقها نحو المزرعة الحيوانية · وكانت المزرعة أشبه بسوق الماشية · وكان بيكان ديدانوف ـ رغم كونه رئيسا مؤقتا للكولخوز ـ يشعر بأنه سيد الموقف ويتصرف وكأنه قائد فى ميدان القتال · فلم يكن يحفل بعناد البعض ، وبالمجتمعين ممن لا يملكون ماشية ، فيقول : الا تريد أخذ البقرة ؟ لا عليك سيأخذها غيرك · ثم يستدعى التالى · وفى هذه الأثناء أخذ ميسوست العجوز يتجول فى المزرعة ، ويدس أنفه فى كل صغيرة وكبيرة محاولا أن يشم شيئا ما ·

كان ميسوست قبل قيام الكولخوزات ـ يكتفى بصاحب البقرتين والثورين · فقد كان يتاجر باللحم كل اسبوع فى السوق، أما البقرتان والثوران ، فرصيد ثابت لديه فى الدار · والآن كان يأمل ، فى بادىء الأمر ، ان يعطوه البقرة ذات الرقم القياسى فى انتاج اللبن · غير أنه حين شعر ان بيكان لا ينوى اعطاءه اياها بأى حال من الأحوال ، استسلم فى حساباته مرتضيا الحصول على ثور من ثيران الكولخوز المنتجة ·

وكان ميسوست الحذر ، دقيق الحســابات ، يرى بوضوح تام الحياة التى ستبدأ فى ظل الالمان · فالقوات الالمانية لن تتوقف هنا بالطبع ، بل ستواصل تقدمها ، حيث لا يوجد ما يمكن أن تفعله هنا · وستتحول العملة السوفييتية الى أوراق لا قيمة لها · ولكن الحياة لن تتوقف · فالناس سيواصلون البيع والشراء · وستنتخب القرية عمدة لها ، كما كان الحــال قبل ذلك ، وهذا وضع يمكن الاستفادة منه · فياحبذا لو حصل على طاحونة الكولخوز ، حيث يمكن تحصيل ثمن الطحن من كل فرد ، فيجمع المال وهو مستريح ولكن · من المرجح أن أفضل شيء هو العمل راعيــا بالأجر · نعم · هذا هو أفضل الأعمــال حيث تتغير السلطة كي لا يكون المرء بمثابة حبة قمح بين حجرى الرحى : فلا تقع عليه العيــون لأنه سيكون وحده فى المرعى طوال الوقت · ان السلطتين تعنيان حجرى الرحى ، أحدهما ثابت والآخر يدور ، ثم يثبت هذا الأخير ، ويبدأ الأول فى الدوران ·· ولا يصعب بالطبع تخيل الحال التى تصبح اليها حبة القمح الصغيرة حين تقع بين حجرين دائرين · وياحبذا كذلك امتلاك ثور منتج ، وبخاصة الآن حين يصبح فى كل دار بقرة ولربما بقرتين · لن يرضى احد ان تبقى البقرة عقيما · وهنا يملى ميسوست شروطه : اذا كنت ترغب فى جمع البقــرة بالثــور ، يمكنك ذلك ، ولكن ادفع عشرة روبلات على ألا تكون بالعملة السوفييتة ، بل بالعملة الالمانية ·

وهنــا قاطع بيكان أحلام ميســوست الحلوة ، حين بدأ يلقى ما يشبه الخطبة بين المجتمعين :

ـ يا أهل ماشوكو لا تقولوا فيما بعد اننى لم أخبركم بشيء · اسمعوا ما أقول لكم · نحن اليوم نقضى على عدم ملكية الماشية · اننا لا ندرى ما سيكون عليه الغد · هل ستشرق الشمس ، تتلبد السماء بالغيوم ، أم تهب عاصفة ونبقى كلنا دون مأوى ، هذا أمر

غير معروف ٠ ربما يحدث ويصبح كولخوزنا كالعربة بلا عجلات ، ولن نجد أمامنا سوى هيكل وحده ، مما يجعلنا ذات يوم نعمل على رفع هذا الهيكل وتركيب عجلات له ٠ نحن اليوم نوزع الأبقار ، ولكننا على ثقة من انكم ستحافظون عليها ، ولن يقتصر ذلك على الأبقار وحدها ، بل ستحافظون على نسلها كذلك ٠

وارتفع صوت ميسوست قائلا :

ـ ولكن لكى يكون هناك نســـل ، ينبغى وجود ثور ٠ اين يمكن الحصول على الثور ؟ ومن الذى يمكنه الموافقة على الاحتفاظ بثور دون فائدة ؟ بطبيعة الحال لن يستفيد المرء من الثور شيئا ٠ لا صوف ، ولا لبن ولا زبد ٠ يا ترى هل يطعمه لوجه الله ؟ ٠

كان بيتو ـ المختص بتربية الحيوانات فى المزرعة ـ يخرج فى هذه اللحظة بقرة أخرى من الحظيرة ، فضحك ضحكة مكتومة وقال :

ـ اذا وجدت البقرة ، وجد الثور ٠

وسرت ضحكة بين الجميع ، واحمرت وجنتا ابتشارا وهى جالســـة بجوار كوراتســـا الى مائدة تدونان المحضر ٠ وكانت ابتشارا تشعر بالخجل قبل حكاية الثـــور هذه ، ذلك لأن ادارة الكولخوز قررت تسجيل أفضل بقرة فى المزرعة باسم أمها حبيبة ٠

لكن ابتشارا عارضت قرار المزرعة ، موضحة انه لا يليق أن تأخذ مديرة المزرعة الحيوانية البقرة صاحبة الرقم القياسى لنفسها ٠ غير أن كوراتسا ـ وهى على كل حال رئيســة لجنــة الاشراف والمتابعة ـ قطعت جدال ابتشارا قائلة :

ـ نحن لا نوزع الابقار بصفة نهائية ٠٠ وهل تعتقدين ان هناك

من يمكنه رعاية البقرة صاحبة الرقم القياسى أفضـــــل من مديرة المزرعة الحيوانية • خذى البقرة دون نقاش •

عرفت كوراتسا بأنها تكاد تكون أكثر من فى الكولخوز دأبا على رغم ما تبدو عليه صورتها كأمرأة محبة للمرح والضحك خالية من الهموم •

لم يتفق المرحوم زوجها والكولخوز فغادره للعمل فى مصنع للطوب الأحمر حيث أصبح صانع قوالب صب ، وبدأ يصف نفسه بأنه عامل ذو خبرة • ونقل زوجها بيته الصغير الى المدينة السكنية العمالية • ولكن كوراتسا لم تقطع صلتهـــا بالكولخوز ، فكانت تعمل فى الصيف به ، وفى الشتاء تعمل بالمصنع ، مما جعلها تمزح آنذاك قائلة : « انى انتمى الى طبقتين فى وقت واحد ، فانى عاملة لبعض الوقت ، وفلاحة فى البعض الآخر • ولذا ينبغى الاشتراك فى مجلتين » •

وكان زوجها يمزح هو الآخر رادا عليها قائلا : « انك لا تنتمين الى طبقتين ، بل تشبهين الانسان وهو فى منتصف الطريق ، والذى لم يصل المدينة ولكنه ترك القرية من ورائه » •

ونعـــود الى احداث المزرعة ، احتـــد بيكان من التعليق الخبيث لميسوست وقال :

ــ نحن لا نتحدث هنا عن الثور • نحن نوزع الابقار لا لأننا نعوم فى رخاء ، ولا لأننا بلغنا حد الشبع ، بل نريد توزيع ماشية الكولخوز فى أماكن مختلفة متمثلة فى بيوت الفلاحين ، كى لا تقع فى أيدى العدو اذا حدث ودنس الألمان ــ لا قدر الله ــ أرضنا • الاترون أن قطعان الماشية تصل الى مراعينا من مختلف المناطق : من منطقة نهر الدون ومن ستافربول • لا شىء ورائنا سوى بحر قزوين • ولسنا الآن فى عجلة من أمرنا ، ولكن اذا صدرت الأوامر، فسنقوم بالتهجير نحن كذلك •

وعاد ميسوست يحشر مجساته من جديد متسائلا :

ـ وهل كان هناك أمر بتوزيع ماشية الكولخوز على الفلاحين ؟

كان ميسوست يعلم ـ حيث وصل الى اسماعه ـ أن السلطات العليا لم تلتق فى الرأى حول هذا الموضوع • فهناك من يعارض القضاء على عدم ملكية الماشية مما يعنى فى الواقع الغاء المزارع الحيوانية فى الكولخوزات • وهل هناك شك فى أن الألمان سيستولون على هذه الماشية اذا لم تهجر الى أماكن اخرى ؟ ولكن ما جدوى أن تكون الماشية موزعة على الفلاحين ؟ الا يستوى بالنسبة للألمان الاستيلاء على البقرة سواء كانت فى حظيرة الكولخوز أو فى حظيرة الفلاح الخاصة ؟

اذن هذا هو الفخ الذى قرر ميسوست أن يوقع بيكان فيه فلينكمش ويخف وليعلم أن الأرض من تحته ليست صلبة كما يعتقد • وربما يعتقد أن ميسوست ينوى ابلاغ رئيس لجنة الدفاع بأن المدعو بيكان ديدانوف فى القرية الفلانية يوزع بمحض هواه ماشية الملكية العامة • لا فلينكمش ، ربما يجعله الخوف أكثر تساهلا ، ويعطى ميسوست فى نهاية المطاف ثورا ـ ان لم تكن البقرة صاحبة الرقم القياسى ـ على أسوأ الفروض •

غير أن بيكان احتدم غضبا أكثر من ذى قبل وقال :

ـ لست أنت الذى توزع الابقار ، كما أنك لست المسئول عن ذلك ـ ولكنه لم يجب على السؤال المباشر الخاص بأوامر توزيع الماشية ـ وهنا قال ميسوست :

ـ نحن لا نقصد شيئا • ولكن يحدث فى بعض الاحيان ان يصدر أمر اليوم ثم يصدر آخر غدا • فتوزع الابقار الآن ، ثم نجبر على جمعها مرة ثانية غدا •

وارتفع صوت ساعى البريد سنترال هو الآخر صائحا :

ـ أقسم أنه على حق · يحدث فى كثير من الاحيان أن تسعى فى الخير فلا تجد سوى العقاب جزاء لك ·

وتلعثم ساعى البريد حوفا من أن يتذكر الجميع ـ اذا انزلق فى الانتقاد والشتم ـ كيف انه كاد يدخل السجن ذات مرة لأنه كان يغالط العجائز الأميـــات المحالات على التقاعد فى الحساب أثناء تسليمهن المعاش ، غير أن أقرباءه أنقذوه آنذاك ·

وتلعثم ساعى البريد خوفا من أن يتذكر الجميع ـ اذا انزلق ولكن الوفاق والوئام يربطان بينهم وكأنهم أسرة واحدة · فسنترال هذا ليس مثـــل ميســــوست · آل أديجيونوف ـ الذين ينتمى اليهم ميسوست ـ يشكلون فى القرية سبع عشرة أسرة ، غير أن كلا منها مغلقة على نفسها · ومن الصعب طلب المســاعدة من أى منها ·

ولقد انعكس عدم وجود وئام بين أهل ميسوست عليـــه ، حيث لم ينتخب حتى ولو مــرة واحــدة لأى من المنــاصب ذات المسئولية · ركم كان يتحرق شوقا الى السلطة ! وكم كان ينعصر قلبه ألما ويصر على أسنانه حين كان الكولخوز ينتخب رئيسا للمجلس القروى ، أو للجمعية الاستهلاكية القروية ، أو للكولخوز شخصا آخر غير ميسوست لا يقارن به بالمرة والأكثر من ذلك أن ميسوست يستطيع ، على سبيل المثال ، أن يسبقه على جحش أعرج ويتفوق عليه · ولكن هذا الذى لا يساوى شيئا يصبح رئيسا للكولخوز أو للجمعية الاستهلاكية القروية أما ميسوست فيبقى فى الظل تقتله الحسرة · والآن لا بأس ، سيأتى يوم يفيق فيه أبناء قرية ماشوكو ويدركون حكمة هذا الرجل الذى يستخفون به · فلم يكن ميسوست يشك فى أنه رجل حكيم ، كما أنه لم يكن يشك فى أن وقته سيحين ثم كان لا يزال يعيش على هذا الأمل ·

لم يرد بيكان بالايجـــاب أو النفى على سؤال ميسوست المباشر حول وجود أوامر بتوزيع الابقار · فلم يكن لديه أمر كتابى، غير أن طالب ســـوسماكوف كبير المســـئولين الزراعيين فى الجمهورية كان قد جاء قبل يومين ودار بينهما حديث ثقة حيث قال له طالب :

ـ أن الوقت عصيب · ولا تدرى الآن حين ترقد للنوم · هل ستستيقظ بنفسك أم ستجبر على الاستيقاظ ، كما لا تدرى من الذى سيجبرك على ذلك · ينبغى الاعتماد على النفس لأن الوقت سيكون متأخرا حين يعبر الألمان نهر الدون · أتعرف المثل القائل : الوقت متأخر لحفر البئر بعد ما أشتعلت النيران فى البيت ـ ثم خفض طالب صـــوته واستطرد قائلا ـ الرئاســـة فى الجمهورية لا تريد العوم طالما لم يصل الماء الى الحلق · اذن فلنفكر نحن بأنفسنا · أعتقد أنه يجب توزيع ماشية الكولحوزات فى صورة القضاء على عدم ملكية بعض الناس لابقار · أنا أعرف الكاباردينى جيدا · لن يترك قريته لو اطلقت عليه النار من مدفع · لن يترك مقابر اسلافه· واذا حدث واجبر على ترك قريته فالى أين يذهب ؟ أنه لا يعرف لغات أخرى غير لغته . كما أنه نصف متعلم · وفى حقيقة الأمر ، اذا كان لا بد من الموت ، فمن الافضل أن يموت المرء فى داره · واذا ما صدرت أوامر بتهجير الماشية ، سوف نهجرها الى أى مكان فى الشرق · ولكن ماذا بعد ذلك ؟ هل ستعود الماشية من جديد ؟ لا · لن تعود ستذبح وتؤكل · بالطبع سيأكلها أخوتنا السوفييت ، لا الألمان · ولكن من أين سنأتى بعد ذلك بماشية ؟ أما اذا ما وزعنا الآن الماشية على البيوت ، فقد يبقى ولو ثلثها · قضاء أخف من قضاء · فهمت ؟ وحين نعود من التهجير نطلب من أهالى القـرية اعادة الماشية ، وحينئذ سيكون لدينا رصيد من الماشية ننشىء منه مزرعة حيوانية عامة · ما رأيك ؟

قدر بيكان السروجى حصافة عقل ضيفه وقال :

ـ لا يحتاج المرء الى الكثير من الحكمة كى يركب المخاطر ، ولكن الصعب هو تجنبها ·ففى هذه الحالة يحتاج الانسان الى رؤية ثاقبة · لقد فهمت ما قلته يا طالب سوسماكوف وسأتحمل مسئوليتى ·

ودع كل منهما الآخر كما يودع أعز الاصدقاء بعضهم البعض · ولم يكن بيكان هو الوحيد الذى حدثه سوسماكوف بحديث الثقة هذا · فقد زار سوسماكوف القرى الأخرى كذلك · وبدأ بعض رؤساء الكولخوزات توزيع الماشية على الفور · كما قرر بيكان العمل هو الآخر · وفى الواقع تقاطر على المزرعة الحيوانية عدد من الناس أكثر مما دعاه ، ومما كان يود رؤيته · ولكن ما من شىء يمكن عمله الآن · فحين سمع الناس بتوزيع الأبقار ، ولم يستطيعوا البقاء فى منازلهم ، كما هرعوا من الحقول حيث كانوا ينزعون الحشائش الضارة من حقول الذرة · غير أن المشكلة ليست فى عدد الناس ، بل فى ميسوست عليه اللعنة ·

ـ ان كل ما يتمناه ميسوست أن يكون الآمر الناهى هنا
ـ سمع الجميع صوت حبيبة التى تكلمت لا بقصد الدفاع عن بيكان بل لتثبت وجودها ـ ولكن للأسف لا يوجد من يأتمر بأمره وينفذ أوامره · من المرجح ان الله يحيطه بعنايته ويحفظه كى يصبح جنرالا دفعة واحدة · وكم نود لو نظرنا الى زوجته آنذاك · زوجة الجنرال

ـ آه ·· وأنت هنا كذلك أيتها الدجاجة الرقود البلشفية !
ـ تظاهر ميسوست وكأنه رأى حبيبة لأول مرة ـ اقسم بالله أنك قد أصبحت جنرالا بين الدجاجات منذ زمن بعيد · وحتى لو وضعنا تحتك بيضة دجاجة رومية ، ستفرخين حتما فرخة بلشفية ·

ـ حمدا لله · حسبتك ستقارنني بزوجتك التى لا تلد لك سوى الضعاف المرضى ·

قالت حبيبـــة ذلك وشعرت ببعض الأسى · ان تمارا ابنة ميسوست فتـــاة هادئة شاحبة اللون وتعانى مرض رئتيها · ولكن ما ذنبها فى ذلك ؟ وتمارا تأتى الى ابتشـــارا كثيرا ، ولمست حبيبـــة أنه اذا كان الله قد حرمها الصحة ، الا أنه لم يبخل عليها بالجمال · فرغم شحوبها تبرق عيناها بالحيوية ، ولذا تجذب انظار الشبان · ان جمال الفتاة بالنسبة للشبان بمثابة الزهرة العطرة بالنسبة للنحلة ·

سمع بيكان صوت حبيبة ، فقال :

ـ كنت قد عزمت اعطاء بقرتك لشخص آخر · ظننت أنك لا تريدينها ·

وفى هذه الأثنـــاء كان بيتو جيرجوف يخرج من الحظيرة بقرة عجفاء ضامرة غير معروفة الأصل للعجـــوز خديجـــة وهى من اللواتى أحلن على التقاعد · كان بيتو يقـــود البقرة من قرنها الوحيد ، المفلوج علاوة على ذلك · وأخذت البقرة تتشبث بالأرض برجليها الخلفيتين معاندة فى السير ·

ـ ها خذى يا خديجـــة · الدولة تمنحك معاشا ، وها هو الكولخوز يمنحك بقرة · وهل هناك ما يجعل الانسان يشكو من مثل هذه الحياة ؟ ان المتقدمين فى السن موضع تكريم لدينا فى كل مكان

ـ وربت بيتو على رقبة البقرة فتصاعد منها غبار كثيف كما لو كان لحاف قديم ينظف ـ أن ما تعطيه من لبن يكفى خمسة أفواه ·· الحقيقة أن لك فما واحدا ، ولكنه شبيه بجحر الفأر : مهما سكبت فيـــه يبتلعـــه · خذى يا خديجة واصنعى ما يحلو لك من زبد وجبن ·· ولكن حذار من أن يضيع اللبن هباء ·

خطت العجوز خطوات قصيرة سريعة نحو البقرة واستدارت الى الجمع قبل أن تلمس قرنها المفلوج ، وبدت وكأنها تريد أن تقول شيئًا ما • غير أن الكلمات خانتها من فرط الفرحة والانفعال •

ولكن خديجة لم تستطع الاستغناء عن الخطاب • فاستقامت وقالت يملؤها الامتنان :

ـ لا أدرى لمن أعبر عن شكرى ـ قالت خديجة بصوت متهدج ـ واذا كان الماء يشق له دوما مجرى على الأرض ، فان الشكر يشق طريقه الى القلب • فليمنح الله طول العمر والصحة لمن قال لى اليوم : خذى يا خديجة هذه البقرة وحافظى عليها • الله يعلم أننى ضعيفة ، وليس لدى الكثير من القوة ، ولا أستطيع قتل العدو ، ولكنى سأحافظ على هذه البقرة كما أحافظ على عينى ، فلن تسقط منها شعرة واحدة ما دمت على قيد الحياة •••

أخذت خديجة تبتعد عن المزرعة الحيوانية • والعجيب أن البقرة بدت وكأنها كانت تنتظر هذه الكلمات • فسارت طواعية تنساب خلف العجوز •

ـ فليهبك لبنها طول العمر ـ صاحت كوراتسا وقد أثلجت صدرها كلمات العجوز • وامتدح بيكان العجوز قائلا :

ـ أقسم بكل كتب كارل ماركس أن خديجة أكثر وعيا من أى شخص آخر يصغرنا سنا رغم انها لا تقرأ الصحف ـ وفى هذه المرة لم يجد فيسوست ما يقوله • ربما أخجله هذا القسم الغريب الذى قاله بيكان وأصدر بيكان الأمر التالى :

ـ والآن أخرج بقرة لحبيبة !

واستفسر مسئول تربية الحيوانات متسائلا :

ـ البقرة صاحبة الرقم القياسى ؟ التى تنتج دلو لبن ؟

وهنا تهصرت أحشاء ميسوست ونظر نظرة مشوبة بالكراهية الى صاحبة البقرة ذات الرقم القياسى السعيدة • وتذكر فى هذه اللحظة تيمركان الذى كان ميسوست يعتبر ذكره فلفلا على الشفتين • لقد جاء تيمركان بالسلطة السوفيتية الى القرية • فلنر هل ستصمد هذه السلطة أم لا ؟ ولماذا لا تعطى البقرة الأصيلة لمن نهب خلال عملية نشر التعاونيات ؟ لقد جاء تيمركان الى الكولخوز ببقرة عقيم أشبه بالعنزة أما الآن فها هى زوجته تتسلم البقرة صاحبة الرقم القياسى • ربما تقدم لها هذه البقرة كمهر ؟ فان ابن بيكان بالتبنى يخطب ود ابتشارا • ولكن اذا كان ذلك مهرا ، فليقدم بيكان بقرة من عنده ، لا بقرة من ملكية الكولخوز •

أخرج بيتو من الحظيرة بقرة سمينة جميلة القرنين جوزية اللون • وكانت البقرة تسير فى تبختر وخيلاء وكأنها تعرف مقدار نفسها • وأخذ ضرعها الضخم يهتز فبدا كقربة وردية من جلد العنز تنوء بحملها الثقيل من الخمر •

ــ ولكن أين العجل ؟ صاحت حبيبة فى قلق • وهنا لم يقو ميسوست على الاحتمال فانفجر قائلا :

ــ لقد نقب الغراب العين ، أما الآن فينعق طلبا للحاجب كذلك • يا لجشع النفس البشرية •

كان ميسوست طوال الوقت يغالب رغبته الجامحة فى أن يقذف بكل ما تراكم فى صدره خلال تلك السنوات الطوال ، مدركا أنه لو فعل ذلك ، فلن يمكنه الحصول ، بالطبع ، على ثور من الكولخوز • فأخذ يحاول ضبط النفس بقدر المستطاع ويبتلع ما لا يروق له ، ويكبح الكلمات المندفعة فى حلقة ، بل كان يحاول

حتى الابتسام · غير أنه لم يستطع رغم ذلك كبت كلمة واحدة انطلق بها لسانه ·

ـ أنها المهر ·

ـ أى مهر ؟ ـ لم يفهم مسئول تربية الحيوانات شيئا ـ أنها بقرة أصيلة حقا ·

ـ أنها تشبه خابلياشا ـ تنهدت حبيبة فرحة رغم أنه لا يوجد على الاطلاق وجه للشبه بين هذه البقرة وخابلياشا · فقد كان الراعى فى بعض الأحيان يصف البقرة خابلياشا بأنها بقرة سباق ، ذلك لطول أرجلها وضمور بطنها وعلى كل حال أصبحت لدى حبيبة بقرة من جديد ·

الأخ والأخت والأم حبيبة

سرعان ما ستبلغ ابتشارا السادسة عشرة · وتجرى الأعوام وتجىء الشيخوخة · الا أن ابتشارا لم تر شيئا فى الحياة بعد · نعم لم تر شيئا ·

تركت ابتشارا الكتاب جانبا واستندت بذراعيها على عتبة النافذة ، وأخذت تنظر الى الافق البعيد حيث تجاوزت قمم الجبال المغطاة بالثلوج البيضاء زرقة السماء · هناك فى الجبال حرب تدور بين البرد والدفء · فقد بدأ الدفء هجومه من السفوح، وأخذ يزحف حثيثا غازيا منحدرات الجبال ، فيكسوها بالخضرة · غير أن الثلوج ظلت صامدة فى المنحدرات الوعرة وعلى قمم الجبال · وكلما ازداد ضوء شمس ايار نصوعا ، ازدادت الثلوج بريقا يعمى الأبصار وكأنها تحتفل بأنتصارها ·

لقد حان الوقت الذى تسميه الأم بالأيام السبعة والتى

يجب الاحتفاظ فيها بسبع اباط من الدريس كي تعيش الأبقار التى هزلت خلال الشتاء ، حتى ظهور الحشائش الخضراء · ولكن الدريس لا يوجد الآن فى المزرعة · وما العمل اذا كانت المزرعة تطالب بانتاج اللبن فى الوقت الذى لا تقدم فيه علفا ؟ ينبغى الخروج بالماشية الى منحدرات الجبال حيث الأماكن المشمسة · وهناك لم يحن بعد وقت ظهور الحشائش الخضراء · أما حشائش العام الماضى فقد ابتلت ، أو جمدت تحت ثلوج الشتاء ، أو انطمست أو جفت ، ولذا ما من فائدة ترجى منها ·

غير أن الانسان وهو فى سن السادسة عشرة يمكنه أن ينسى الأبقار والحشائش لبعض الوقت ·

حولت ابتشارا عينيها عن الجبال ونظرت الى أمها التى كانت مشغولة بشىء ما بالقرب من الموقد وسألتها :

ـ أمى ·· هل كان الشبان يدعونك الى أمسيات السمر حين كنت فى السادسة عشرة ؟

بدت الدهشة الصادقة على وجه حبيبة ، وردت قائلة :

ـ الى أمسيات السمر ؟ لقد كنت متزوجة وأنا بنت السادسة عشرة ! لقد تغير الزمن الآن · فلا تتزوج الفتاة ما دامت تتعلم فى المدرسة · أما نحن فلم نكن نتعلم القراءة والكتابة ، كما أنه لم يكن من المهم فى حالة الزواج بلوغ الفتاة أو عدم بلوغها · كان تحديد الصلاحية للزواج يتم بالنظر · وفى بعض الأحيان كانوا ينزعون لعبها من الصبية ويسوقونها الى العريس ، كانت الفتيات يتزوجن فى سن الرابعة عشرة اذا كن جميلات ··· كما أن الفتاة التى حرمها الله الجمال لم تكن تبقى عانسا فكان الزواج يتم بالمهر · أن كل من فى حاجة الى زوجة سيأخذ أى فتاة دون أن يهتم بأنها عرجاء أو ذات أنف طويل ·

ـ ودون حب ؟!

ـ اذا أعجبت الفتاة شابا يرسل الأهل الخطاب فى طلبها ٠

ـ وهل أرسلوا الخطاب فى طلبك أيضا ؟

كانت ابتشارا تعلم جيدا كيف تزوجت أمها ، ولكنها كانت تعلم كذلك مدى ما تشعر به أمها من سعادة وهى تحكى كيف تم ذلك ٠ وكانت الأم تتباهى بصفة خاصة بالمهر الذى دفع من أجلها ٠

لقد جاء تيمركان ٠٠ وهو شـــاب متعلم يتسم بقوة الشباب والعزم ٠ وكان التعليم آنذاك ظاهرة غاية فى الندرة ٠ كاباردينى ويستطيع كتابة طلب لأى انســـان حتى ولو كان الأمير اتوجوكين رئيس الدائرة ٠ هذا أمر نادر ٠

كان لدى حبيبـــــة ثلاثة أخـــوة ٠ جاء تيمركان اليهم ووضع طبنجة من طبنجات الضباط على المائدة وقال :

ـ أختكم فى الغرفة المجاورة ٠ وطبنجتى على المـائدة ٠ زوجونى أختكم وستكون الطبنجة من نصيب الأخ الأكبر ٠

ـ لم يكن مهرك سوى طبنجة فقط ؟

ـ هل هذا قليل ؟ ـ استاءت حبيبـــة من بلادة الابنـة ٠ واستطردت قائلة ـ أتدرين كم كانت قيمة الطبنجة آنذاك ؟ لقد كانوا يقدمون جوادا كاباردينيا أصيلا مقابل الطبنجة وليس فتاة مخطاء ٠ أتدرين كم كان مهر دانيزات ؟ أربعين سلة من كيزان الذرة ٠

كانت حبيبة تشير كل مرة الى هذه السلال وكأنهـــا تريد أن تقول مؤكدة : وهكذا كم كنت أفضل وأجمل من جارتى دانيزات الزوجة الحالية لبيكان ٠

ـ وهل وافقت ؟

ـ لم يسألنى أحد ٠ لم يكن زماننا مثـــل هذا الزمان حيث

يكبر الأولاد لا يعرفون طاعة للوالدين · هذا عقاب من الله · فاذا أرادت الأبنة الزواج ، فعلت ذلك ، واذا أراد الأبن الزواج فعل ذلك ·

واستغرقت ابتشارا من جديد فى قراءة الكتاب الذى تدور أحداثه حول الحب · ولم تكن هذه الأحاديث تهمها ، اذ أنها لن تفكر فى الزواج قبل الانتهاء من الدراسة فى المعهد ·

كانت ابتشارا ترى كيف تحاول الأم جاهدة خلق الظروف كى يشق ابنها وابنتها طريقهما فى الحياة بنجاح ·

وتحب حبيبة ترديد :

« لقد أصبح جلدى مثل الغربال من كثرة المصائب » · وكانت تتذكر بعض الأحيان ضربات القدر التى ينزلها بها الله وكأنه يمتحن أرادتها وأيمانها · فقد كان قدرها بمثابة جمر فى راحة اليد استعرته من موقد جارك وتحمله الى موقدك ناقلا أياه من يد الى أخرى ·

عندما توفى زوجها تيمركان كان البيان يدرس فى موسكو · وتحتم عليه أن يتحايل بشتى الطرق كى يتمكن من حضور الجنازة · لقد خرجت القرية كلها تودع تيمركان الى مثواه الأخير · ليس فى هذا ما يثير العجب · فان كل جديد ظهر فى القرية فى تلك السنوات كان مرتبطا بصورة أو بأخرى باسم تيمركان : المدرسة ، ودار الحضانة ، وروضة الأطفال ، ولجنة تعاون الفلاحين ، والحمام العام ، ونادى القرية ·· كل هذا ارتبط باسمه ·

وبعد الجنازة أعلن البيان أنه لن يعود الى موسكو لأنه لا يستطيع ترك أمه وأخته تحت رحمة القدر · وهنا تبدت ابتشارا لأول مرة عنيدة أيضا حيث قالت :

ـ لسنا صغارا ٠٠ لدينا ، والحمد لله ، أياد وأرجل ٠ لن نموت من الجوع ، بل وسنساعدك أيضا ٠ أما أنت فينبغى أن تكمل تعليمك ٠

استسلم الأخ لعمليات الاقناع هذه ورحل ليكمل تعليمه ٠ وفى الواقع أخذت ابتشارا تساعده بالفعل ٠ فقد كانت تجنى له ثمار الكمثرى من حديقة والدهما وتضعها فى صندوق من الابلكاش وترسله له فى موسكو ٠ وكان البيان يتسلم هذه الطرود ، غير أن الكمثرى كانت تفسد فى الطريق ، لدرجة أنه كان من الممكن رمى الصندوق دون فتحه والقاء نظرة على ما بداخله ٠ وبطبيعة الحال لم يكن البيان يخبر ابتشارا بذلك فى خطاباته ، بل على العكس ، كان يشكرها ويمتدح مذاق ورائحة الكمثرى ، ويعدها باحضار هدية لها من موسكو ٠ وواصلت ابتشارا بذل كل جهدها فى مساعدته ٠ فتخبز له أقراصا من دقيق الذرة وتضعها كذلك فى صندوق الأبلكاش وترسله فى طرد ٠ لم تكن الأقراص تفسد مثل الكمثرى ، بل كانت تتغطى بزغب عفن أخضر وتصبح صلدة مثل الحجر ٠ ويعود البيان مرة أخرى الى امتداح طعم الأقراص ، ولكنه بدأ يشير بالحاح متزايد الى أن ابتشارا تهتم به أكثر من اللازم ، ويذكرها بأن ذلك ربما يعوقها عن استذكار دروسها ومساعدة أمها فى شئون البيت ٠

وبالاضافة الى طرود الكمثرى والأقراص كانت ابتشارا تضع فى أظرف خطاباتها الطويلة أوراق الزهور التى تحبها ، وأوراق الأشجار المزروعة فى حديقتهم ، بل ووضعت له ذات مرة ورقة من فئة الخمسة روبلات ٠ وترجع حكاية المساعدة المادية هذه الى انها كانت قد حصلت فى المدرسة على مكافأة عبارة عن صندل لامتيازها فى الدراسة ٠ غير أن الصندل كان مما يرتديه الرجال ما جعلها تبيعه وترسل من ثمنه الخمسة روبلات هذه ،

واشترت لأمها من الباقى حذاء خفيفا · فقد كانت حبيبة تذرع الطريق مرتين فى اليوم لاحضار الماء من مكان بعيد · كما كان يتوجب عليها الذهاب بالغلال الى الطاحونة ، هذا بجانب احصاء ما تقطعه من كيلومترات وهى تلف وتدور طوال اليوم فى البيت لتدبير شئونه · لم تكن حبيبة تسمح على الاطلاق لابتشارا بأن تمد يدها للمشاركة في أى من شئون البيت حيث تقول لها : « ان عملك هو الكتب والدراسة · ان أخاك يتلقى بذرة العلم من العنبر مباشرة ، أما أنت ، فعليك الوصول الى البيدر حبة وراء حبة · عليك بالتعلم · وحين يعود البيان ستثيرين دهشته ويقول : أين اكتسبت أختى هذه المعارف ؟ !

كانت ابتشارا تجلس حتى وقت متأخر من الليل تستذكر دروسها على ضوء مصباح كيروسين ، كبير الشبه بزجاجته لمدخنة حديدية فى مصنع للطابوق ، بها من الرقع ما لم تقع عليه عين انسان من قبل · ولكن مهما امتد جلوس ابتشارا للمذاكرة كانت تتمكن من النوم القدر الكافى وتستعيد قواها وتأتى الى المدرسة وكلها مرح وحيوية متوردة الوجنتين من أثر الصقيع ·

وذات مرة قال أحدهم فى اجتماع مدرسى : ابتشارا فتاتنا ذات الهمة · وأن كانت الكلمات لا تخرج عن كونها كلمات تقال ، الا انها لازمتها وأصبحت بمثابة كنية لها حيث كان الجميع يرددون: « وماذا تقول فى هذا ابتشارا فتاتنا ذات الهمة ؟ » أو « لماذا لم تحضر فتاتنا ابتشارا ذات الهمة ؟ يا ترى أهى مريضة ؟ » ·

وفى المدرسة تجلس ابتشارا على درج واحد مع صديقتها عزيزة · وعزيزة فتاة تصدق عليها كنية الخجول ، ان لم تكن المتحشمة · ولكن الفتاتين تصادقتا · والصديق لا ينفع

من غير صديق ، فبدت الاثنتـــــان كفرخي نسر فى عش واحد · وكانتا تنظران خلف الدرج كرأسي طلقتين تظهران من مكمنهما فى السترة الجركسية (*) وبخاصة حين كانتا تنحنيان وتتستران بغطاء الدرج لتضحكا من الصبية وهم يرتبكون أمام السبورة ·

ولقد الف اصلانوكو ـ زميلهمـــــا فى الفصـــــل والذى لم يكن يمر حفل للهواة فى المدرسة بدونه ـ وغنى بنفسه أغنية على وزن أغنية « التفاحة » تقول كلماتها :

يا كأس نبيذ
أحمر اللون ،
يا ابتشارا
يا نارية اللون ·

لقد ترك الفتى المدرسة والتحق بفرق اعداد السائقين ثم دخل الجيش · غير أن أغنيته الخرقاء هذه انتشرت فى المدرسة ·وكانت ابتشارا تغضب حين تسمع اقرانها يتغنون بهذه الاغنيــة ، ولكن هل من الممكن تكميم أفواه الجميع ؟

وفجأة سكتت أغنية الدعاية هذه تلقائيا وبدون اعداد (آه · لو أستمروا فى غنائها كل يوم) فقد خيمت الحرب بظلالها السوداء على القرية والمدرسة · وكان المسئولون بين الحين والحين يصرفون التلاميذ عن الدروس ، ويأخذونهم الى مواقع بناء المنشآت الدفاعية للمشاركة فى العمل ·· ولم يعد لديهم مزاج للتغنى بأغنية « الكأس وابتشارا » ·· وتراجعت الأغنية وأصبحت بين طيات فترة ما قبل الحرب ·

(*) السترة الجركسية : سترة يتقاطع على صدرها حزامان ، بهمـا مكامن للمظروفات النارية · ويشتهر بارتدائها فرسان القوقاز · المترجم

تلقت ابتشارا اشعارا يستدعيها للحضـــور الى لجنـــة الكومسمول بالناحية · وكان سكرتير اللجنـــة تشـــوكا يحب ابتشارا دون أن يعلم أحد · هل كان سيضرب لهـــا موعدا ؟ ستعرف الأم بذلك ، سيكثر الكلام ، قررت ابتشارا عدم الذهاب · غير انها تلقت اشعارا آخر يؤكد على حتمية الحضور · وقطعت إبتشارا الطريق مشيا على الأقدام الى القرية المجـــاورة التى تبعد سبعة كيلومترات ·

استقبل تشوكا سكرتير لجنـــة الكومسمول بالناحيـــة ـ ابتشارا بصرامة متكلفة ، لم يكن يقصـــد بهـــا ابتشـــارا بقدر ما كان يقصد الموجودين فى المكان · وغضبت ابتشـــارا فى بادىء الأمر لهذا الاستقبال الفاتر ، غير انها سرعان ما لمست أن تشوكا لا يزال كما هو دون تغيير · فاذا طلبت منه القفز من أعلى الجبل ، أو القاء نفسه فى الماء أو النار من أجلهـــا لفعل ذلك ·· انه الحب ، وما عساه أن يفعل ؟

عادت ابتشارا الى البيت فى وقت متـــأخر من المســـاء · وعلى عتبة الباب أخبرت أمها بما كان له وقع الصاعقة عليها

ـ وهكذا ·· لن أحصل على غلال المعرفة لا فى عنبر ولا من بيدر ·· لقد انتهت المدرسة بالنسبة لى ·

ضربت حبيبة كفا على كف وقالت بانزعاج :

ـ كيف ·· هل ستتزوجين ؟

ـ أى زواج ·· لقد تقرر انشاء مزرعة حيوانية من الشباب وعينت مديرة لها ·

ـ وهل وافقت على ذلك ؟

ـ انهـــا الحرب ·· اذا اقتضت الحرب أن تقصى ضفيرتيك فستفعلين ذلك ·

ومما أنزل السكينة فى قلب حبيبة بعض الشىء أن ابتشارا لم تكن الفتاة الوحيدة التى تركت المدرسة · فقد كان هذا مصير كل التلاميذ والتلميذات وبخاصة من هم فى الصفوف النهائية حيث تم توزيعهم جميعا على أماكن مختلفة · غير أن المرأة العجوز لم تستطع فهم الاسلوب الذى ستتعامل الفتيات الصغيرات به مع الأبقار ، اذ لم يسبق ان اقتربت أى منهن قبل الآن من ضرع بقرة · أما فى هذا الظرف فعليهن حلب واطعام الأبقار ، بل والجمع بين البقرة والثور ثم · ما يسمى بالاخصاب ·· هل من المعقول أن تقوم الفتيات بهذا العمل ؟ وبعد ذلك تجىء العجول ، وتحتاج الى رعاية خاصة ·· ولكن الحرب هى الحرب ·

ـ سنواصل هناك دروسنا كذلك ـ قالت ابتشارا وهى تجمع الكتب وتضعها فى الحقيبة ـ فالمعلمون سيكونون معنا · وستكون الدروس وسط المروج الخضراء وفى الهواء الطلق المنعش وعبير الزهور يحيط بنا ·· وهل هذا أمر سيىء ؟ ! ان ما يؤسفنى فقط هو أن أصلانوكو فى الجيش ·

ـ وكيف قبل عديم الشارب هذا فى الجيش

ـ ليس الجيش فى حاجة الى الشارب هناك ·· ان كل ما يحتاجه هو اطلاق النار ولا شىء غيره · ولكن اصلانوكو شاعر ويكتب الأغانى ·· ولقد كتب فى شعرا ·· أتودين سماعه ؟

وأرهفت حبيبة اذنيها · فان كل كاباردينى يعلم انه اذا كتبت أغنية فى أحد ما ، فاما لأنه أدهش الجميع بمأثرة قام بها أو أبدى شجاعة وبطولة خارقتين ، واما على النقيض من ذلك، وصم نفسه بالعار فى أعين الآخرين وأصبح أضحوكة · وكانت حبيبة تعلم علم اليقين ان ابتشارا لم تقم بمأثرة ما · اذن ما من شىء آخر سوى العار وهو ما لايمكن معرفة شىء عنه حال

حدوثه ·· فان الاقارب آخر من يعلم كالعادة ·

ـ ما هذه الأغنية ؟ وما الذى فعلته كى تستحقى ان تكتب عنك أغنية ؟

ـ لم أفعل شيئا ·· لقد كتبت الأغنيـــة وحسب ·· ها هى اسمعى ·

اتخذت ابتشارا الوضع المنـــاسب لالقاء الشعر فى وقفتها ، واخذت تلقى قصيدة لم تكن موزونة بالنســـبة لسمع حبيبـــة وانتهت القصيدة بالكلمات التالية :

سأعود الى القرية وسط تهليل الأطفال
وقد دافعت عن الوطن وتركت البندقية والمخلة
وسأرقص الرقصة الكاباردينية ·· رقصة النصر
كما ترقص العفاريت فى عينى ابتشارا

وهدأت نفس حبيبة · فليست هنــــاك مأثرة ، كما انه ليس هناك عار ·

ـ كيف ترين الأغنية يا أماه ؟

لم يكن من المهم لابتشــــارا مدى تقييم أمها للأغنية بقـدر اهتمامها بأن القصائد تكتب فيها ·

ولوحت حبيبة بيدها قائلة :

ـ اذا لم تشحم عجلات العربة بالشحم ، فانها تحدث صريرا كهذه الأغانى ·

وسكنت نفس حبيبـــة كلية وشرعت تشتغل بشـــئون البيت المعتادة · توجهت الى عشة الفراخ وأخذت ثلاث بيضـــات ، ثم قطعت كمية كبيرة من الحطب وأخذتهـــا وهى تهم بالجلوس الى الموقد لتشعله ، تكمل رأيها فى أبنتها قائلة :

ـ ماذا لو كنت ولدا ؟ اقسم بالله انك كنت ستجعلين القرية لا تعرف الهدوء ليلا أو نهارا ·

وكانت ابتشـــارا قد جلست قبل ذلك بمدة الى مكتبهـــا واندمجت فى كتابة شيء ما · أما الأم فواصلت حديثها بصوت عال :

ـ ولكنت قد جعلت الأمر يختلط على الشبان فى معرفة كل شيء ، ولم يكن الأمر ينتهى دون اراقة دماء · تقـــول الأغنيـــة « العفـــاريت فى عينى ابتشـــارا » · وماذا يستحق المديح فى هؤلاء العفاريت ؟! العفـــاريت تعنى المشاكسة · ولا تحتـــاج المشاكسة الى كثير من العقل وهل يفكر اخوك بعد انضمامه للفرقة القوقازية فى المشاكسة الآن ؟ فليهبه الله الســـلامة · آه ، لو كان الأمر بيدى لكنت قد جعلت جسدى معبرا له بين حافتى هوة ·· وهذا المدعو تشوكا · لا يكل من ذرع الطريق الينـــا بدراجتـــه · ·· ولكنه سرعان ما سيدرك أن بيتنا ليس مقصده ·

تحولت ابتشارا عما تكتبه وأرهفت السمع لما تقوله امها ·

ـ يعتقد انه رجل ·· لا يعرف انه ينطبق عليه القـــول : « لا ينفـــع طبلة ولا طار » لست أدرى من التى توافق أن تصبح زوجة لهذا الشاب ! كما ان أخاك لن يرغب فى مصاهرته والارتباط به بصلة القرابة · ولو كان مثل الآخرين لكانوا قد ضموه للفرقة القوقازية · لقد أخذوا الجميع ولم يتركوا غيره · فاذا كان غير جدير بحمل السلاح ، فانه غير جدير بأن تكون له زوجة ·

ـ عمن تتحدثين يا حبوبة ؟ ـ هكذا كانت ابتشـــارا تقرع أمها ـ بزوجة من تشغلين بالك ؟ الوقت حرب ·· وهل من المناسب التفكير فى الزواج ؟

ولكن حبيبة كانت قد اطلقت العنان لتأملاتهـــا · وكان من

الصعب ايقافها • ولم تعر كلمات ابنتها اهتماما واستطردت قائلة:

ـ هذا الفارس الذى يمتطى دراجة ٠٠ فارس الدراجات ٠٠ يا له من عريس ! سيأتى فى طلب يدك لا راكبا مركبة ، بل على دراجته هذه ذات العجلتين والشبيهة بهيكل عظمى لحمار ٠٠ اننى أعرف تشوكا معرفة جيدة ٠٠ يجلس فى رئاســـة الكومسمول ويتطلع الى الفتيات الجميلات من أعضـــاء الكومسمول فى كل القرى ، وبدلا من البندقية ، يمسك بالاقلام • ان أخاك البيـــان • رعاه الله بعنايته وحماه من رصاص الأعداء • سرعان ما سيترك زوجته الشابة وطفلته ويتجه الى جبهة القتال • ولو كان تشــوكا جديرا بأية زوجة لارتدى الزي العسكرى •

وهنا احتدت ابتشارا وقالت :

ـ أريد أن أخبرك بأنهم أخـــذوا تشـــوكا فى الفـــرقة القوقازية مثله مثل أخى البيـــان • ولكن ينبغى أن يبقى البعض فى النـــاحية ، ولذا تركوه ٠٠ انه ســـكرتير لجنة الكومسمول بالناحية •

ـ اذن ٠٠ الأجدر به أن يجلس هنـــاك فى كومسموله ويكف عن اللف والدوران بدراجته •

ـ انه من قريتنا ولذا يأتى الى هنا فى بعض الاحيان •

ولكن حبيبة لم تحد عن رأيها فردت قائلة :

ـ ان الوقت مبكر لكى تفكرى فى الزواج ٠٠ الوقت مبكر !

ـ وانت هرعت الى الزواج فى سن السادسة عشرة !

سقطت الملعقة الخشبية الكبيرة من يد حبيبـــة فى النار • وتنبهت ابتشارا الى ما قالته فجأة ، ولكن الوقت كان متـــأخرا ٠٠ فمن غير الممكن الامساك بالسهم بعد اطلاقه • أسرعت الابنة واحتضنت أمها من الخلف وضمتها وأخذت تقبلها فى كل مكان •

وكانت نفس ابتشـــارا ستستريح لو أن حبيبـــة غضبت ، وسبتها وضربتها · ولكن المرأة العجوز ظلت صامتة وكانها تحولت الى حجر ·

ـ أرجو المعذرة يا ماما ·· أرجو المعذرة ·· اننى غبية رعناء ·· لن أتركك أبدا ·· لن أتركك ·

أبعدت حبيبـــة ابتشـــارا وبدا كأنها شعرت بالخجل من ضعفها ، وانتشلت الملعقة الخشبية من النار حيث بدأت تحترق ،

وابتعدت ابتشارا وجلست من جديد الى المكتب · وسـيطر على المكان هدوء كريه · لم تستطع الأم أن تغفر للفتاة جرأتهـــا بسرعة ، أما الابنة ، فبالرغم من انها تعى ذنبها ، الا انها لم تجد الكلمات للاعتذار · وكانت الأم ، بطبيعة الحال ، أول من تنازلت قائلة :

ـ أقسم بالله ـ وأخذت تخفف من كمية الجمر تحت القـدر كى لا تحترق العصيدة ـ أقسم بالله اننى لن أبخل عليك بمباركتى لزواجك ·· تزوجى ، ولكن كل ما أتمناه ألا تصدعى رأسى بجرأتك· لم يكن عبثا أن تقول الأغنية بأن العفـــاريت تقفز من عينيك · كيف تخرج من بين شفتيك كلمات « هرعت الى الزواج » ؟ ! ألم تحترق شفتاك لهذا ؟ هل نسيت اننى أمك ، أم تعتبريننى مثـــل عزيزة ؟ لقـــد رأيتكما تجلسان معا تحت الشجرة تقرآن البخت لمعرفة المكان الذى سيأخذكما اليه العريسان · أما أنا فأقول لك المـــكان دون قراءة البخت : ســـيأخذك عريسك الى « فيرخنى تشوبراك » أما عزيزة فسيأخذها عريســـها الى مصنع الطابوق الأحمر · أطلب من الله أن يعود ابن كوراتســـا من جبهة القتال حيا صحيح البدن ·· ولا تشغلى بالك ، فلم يعد هناك مهر الآن · واذا كان مهرى هو طبنجة من طبنجات الضباط ، ومهر دانيزات كيزان ذرة ، فان الزواج يتم الآن بلا مقابل ، بل ونشكر العريسان

على ذلك ·· ولكن ما يحصل عليه بلا مقـــابل ، يمكن أن يرد ببساطة ·· هرعت الى الزواج !! ان فكرتك عن أبيك فكرة سيئة·· الله يرحمه ويريحه فى مرقده · كانت أى فتاة تتمنى الزواج به ·· ليس من المشرف للمدعو تشوكا هذا أن يسير على السجاجيـــد فى مكتبه فى الوقت الذى يقاتل فيه الجميع فى الغابات والمستنقعات· هل تعتقدين أن أخاك سيوافق على زواجك من هذا المتعطل ؟ ربما فى ذهن أخيك زوج ممتاز لك · فانه لن يختار لك زوجا ســيئا · فسيجد لك شخصا جديرا بك ، وقد لا يبخل بدفع المهر ·

ــ لن يغتنى الانسان بالمهر بدرجة تجعله يأكل الزبد بالعسل كل يوم ·

ــ كما ان عدم وجود المهر لن يحميك من الجوع كذلك ·

ــ لم تقدمى مهرا لزوجة ابنك ·· فكيف ستأخذين مهرا من الآخرين لابنتك ؟

وانتصرت من جديد جرأة ابتشارا وشعرت الابنة ، انهـــا وصلت بأمها الى طريق مسدود مرة أخرى ، ومست جراحهـا · غير أن حبيبـــة لم تحد ، ولم تلوح بالملعقة الخشبية ، كما كانت ابتشارا تتوقع ، ولم تغضب وقالت :

ــ ان زوجة ابنى روسية ·· ألا تعرفين ذلك ؟ ان عادات الروس تختلف عن عاداتنا · وأؤكد لك لو طلبت زوجة ابنى مهرا لما بخلت بشىء · فاننى راضية وسعيدة بها ··

سكنت الأم والابنة لفترة طويلة ، غير ان كلا منهمـــا كانت تدرك أفكار الأخرى · لقد تزوج البيان دون مباركة من الوالدين · فقد جاء من موسكو بالفتاة ايرا الشـــقراء الخجول المستكينة والتى لا تبدى اعتراضا قط ، وقال : « ها هى يا ماما زوجة ابنك·· ناديها ايرينا فيدوروفنا » ·

لم يكن هناك نقود لاقامة حفل الزواج ، فان كل ما كان لدى البيـــان منها ، كان قد دفعه لســـــائق العربة التى نقلتهمـا ٠ فليس من اللائق الوصول الى بيت العائلة بهذه الزوجة الشـــابة والحقائب سيرا على الأقدام ٠

وعلاوة على ذلك كانت الحقائب ثقيلة حيث اكتظت بالاطباق والفناجين وغير ذلك من أوان ٠٠ وهو ما كان بمثـــابة صـــداق ايرينا ٠

كان زواج البيــــان بمثابة صاعقة نزلت على حبيبــــــة ٠ فلم تكن تتوقع منه أن يقوم بهذا ، ولذا تغير سلوكها فى المنزل ، فأصبحت دائمة التجهم ، تشيح بوجهها عنه ، فضلا عن التزامهـا الصمت طوال الوقت ٠ وكانت تنظر الى بنت موسكو القادمة هذه وكأنها عدوة لها ٠ وأكثر من ذلك كان الأمل يداعب حبيبة فى اخفاء أمر زواج ابنها عن أهل القرية ٠ ولكن هل من الممكن اخفاء أى خبر مهما كان تافها عن أهل القرية ؟ فكانت تخرج بقرتها كل صباح من المنزل لتسلمها الى الراعى وتعود ادراجها منتحية جانبا كيلا يراها أحد من الأهالى ٠ غير أن الأرض تنشق عن احدى جاراتها فتبادرها بالسؤال :

ــ هل حقيقة ما سمعناه ، يا حبيبــة ، ان البيان جاء بزوجة من موسكو ؟

وترد عليها حبيبة متمتمة بكلمات غير مفهومة ٠ ولكن ما هى الا بضع خطوات أخرى حتى تصادف جارة ثانية تسألها :

ــ لا نكاد نصدق ، هل انتهى حفل العرس ؟ فلم نسمع غناء ولم نشهد رقصا ٠

وتمتعض حبيبة وتبصق متبرمة ، وتتمنى لو انشقت الأرض وابتلعت هؤلاء النسوة ، ويضيق صدرها ويصبح غاية ما تتمناه

عدم الخروج من البيت على الاطلاق · وها هى امرأة ثالثة تطبق عليها بالسؤال · ولكن السؤال يجىء هذه المرة مشحونا بمزيد من المرارة ذلك لأن لهذه المرأة ابنة فى سن الزواج ·

وفى الواقع فان ايرينا فيدوروفنا لم تمكث طويلا فى القرية ، حيث أصبحت بعد التحاقها بالعمل فى المدينـــة ، تعيش فى غرفة بالطابق الثالث فى أحد بيوتها الكبيرة ·

وأخذت حبيبة تقول فى بعض الأحيان بغية اخافة ابتشارا :

ـ كفانى السير فى أوحال القــرية وسماع كلماتك السليطة سأتوجه الى زوجة ابنى والتى اعتبرها ابنتى الكبرى · ان رعاية الحفيدة أمر يتناسب والعجائز ·

وكان من المحتمل أن تفى حبيبة بوعدها ـ حتى ولو لعشرة أيام ، الا أنه لم يكن هناك متسع فى مسكن ايرينا فيدوروفنا حيث تم اسكان بعض المهجرين من أوديسا فى المطبخ ·

وكان ينبغى على ايرينا أن تقدم الغرفة كذلك لسكنى المهجرين، غير أن الانتقال الى القرية كان يعنى فقدانها العمل ، وهو ما لم تكن ترغب فيه · فقد كان عليها ان تحتفظ بعملها ودخلها منه ذلك لأن الأسعار آخذة فى الارتفاع من يوم لآخر فضلا عن انها تركت مرتب البيان الذى تصرفه ببطاقة الضباط لحبيبة ·

كان الارق يلازم حبيبة فترة طويلة كلما تهيأت للنوم · ولم تكن تكف أثناء رقادها عن الدعاء قائلة : « يارب ياقوى يا قادر على كل شىء يا رحمن يا رحيم · الكل يتوجهون اليك بالسؤال ، أما انت فعزيز لا تسأل أحدا شيئا · يا رب تقبل دعائى ولا تجعل زوجة ابنى أرملة · يا رب لا تجعلها تلقى نفس مصيرى ، ولأكن

وحدى أرملة حتى الممات · أدعوك يا ربى ألا تجعل اطفالى أرامل· يا رحمن يا رحيم انك ترى انى أتحمل كل ما تقسم لى به وأتقبل كل المحن بنفس راضية ، فاحفظ أولادى من مصيرى المرير · يا رب تقبل دعاء عبدتك المسكينة » ·

كانت حبيبة تؤمن أن الله أحاطها برعايته وانه يحفظ أولادها من كل المصائب · وهل هناك شك فى أن دعواتها كانت السبب فى انقاذ ابنها فى المعارك التى دارت فى منطقة نهر الدون ؟ فقد تمكن تحت وابل الرصاص وسيل القنابل من السباحة عبر نهر الدون ، وبذا ظل على قيد الحياة · نعم لقد تقبل الله دعاءها ، وان لم يكن ذلك ، لما عاد البيان الى قريته الحبيبة ، حيث يقوم الآن بتدريب المقاتلين الشبان فى فرقة الخيالة · الحمـــد لله الرحمن الرحيم ! وها هو البيان يزور اسرته مرة فى الاسبوع ، ويأخذ ابنته الصغيرة دانوتشكا يتنزه بها على جواده الاسود ، وفى بعض الاحيـــان يعرج على بيت والدته ليزورها هى واخته · أليس هذا فضلا من الله العلى القدير ؟

كما أن البيان كان يعتقد هو الآخر ان القدر قد بدأ يتلطف به بعد سلسلة طويلة من المصائب · فقد مر بفترة تعاقبت عليه فيهـا الخطوب واحدة تلو أخرى · فما كاد ينتهى من الدراسة فى السنة الأولى بالمعهد حتى توفى والده · وأغلق المعهد بعدما اجتـــاز امتحان السنة الثانية مما اضطره الى العودة الى القرية والالتحاق بعمل ·

وما أن حصل على غرفة فى المدينة وتهيأ لترتيب حيـــاته العائلية حتى استدعى للخدمة فى الجيش · ولم يكن شهر العسل قد انتهى بعد حتى تحتم عليه الافتراق عن ايرينا ·

وما أن انتهى من الخدمة العسكرية وعاد الى اسرته (وقبل ذلك بقليل وضعت زوجته ابنتها دانوتشكا) حتى بدأت الحرب ٠

وفى جبهة القتال كان نصيبه منطقة نهر الدون حيث كانت تدور رحى معارك ضارية من أجل الاستيلاء على مدينة رستوف ٠ كان ذلك فى تشرين أول عام ١٩٤١ ٠ وتمكن البيان من الوصول الى الضفة الأخرى للنهر باعجوبة ٠ ومنذ ذلك الحين تغير مجرى الأحداث ٠ فقد تم ارسال البيان لمواصلة الخدمة فى الفرقة الحديثة التشكيل والمعروفة باسم الفرقة القوقازية وهى الفرقة التى تم تشكيلها وتزويدها بالسلاح والعتاد من تبرعات شعوب منطقة كاباردينا ـ بلكاريا ٠

تمركزت الفصيلة التى يقودها البيان فى أرض تابعة للكولخوز على بعد سبعة كيلو مترات من المدينة ٠ وكان من الممكن تحين الفرصة يوميا لزيارة الأسرة ٠ واعتادت ايرينا ودانوتشكا الجلوس بالقرب من النافذة انتظارا لظهور الفارس على جواده الاسود المسمى كازبك ٠ وكان نصيب دانوتشكا من هذه الزيارات ما يحمله لها والدها من هدايا والتى كانت عبارة عن حفنة من المشملة يجمعها لها من الغابة أثناء تدريبات الفصيلة ، وعلبة خشاف من تعيين الضباط وقطعة ملبس أو قطعة من السكر ٠ غير ان التنزه مع والدها على الجواد الأسود كازبك كان يستحوذ على اعجابها أكثر من كل هذا ٠ وتعلمت دانوتشكا كيف تحث الجواد وتشد اللجام ٠ والجواد كازبك يسر الناظرين بجماله ، ولونه الأسود والغرة البيضاء فى جبهته ٠ والبياض الذى يعلو ثلاث من قوائمه ٠ وفى الحقيقة لم يكن من المقرر أن يخصص جواد لقائد فصيلة مدفعية الهاون ، الا أن الفرقة القوقازية كانت فى المراحل الأولى من تشكيلها ، ولذا كان كل فرد يتصرف وفقا لما يراه ٠ وحين

علم البيان بتخصيص قطيع كبير من الجياد للفرقة ، اختار لنفسه جوادا وجاء به الى الأرض التابعة للكولخوز ٠

كان مجيء الجواد الى الفصيلة مناسبا للجميع ، لا بالنسبة لقائدها وحده ٠ فقد كانت الأرض التابعة للكولخوز محاطة بحقل محروث بهدف زراعته فى الخريف مما يجعل من العسير السير على الأقدام أو اجتياز المنطقة ركوبا فى حالة سقوط زخات قليلة من المطر ٠ ولم يكن فى مقدور المقاتلين ، الذين كانوا يرتدون أحذية خفيفة من الجلد الخام غير المدبوغ (حيث لم يكونوا قد تسلموا بعد الزى العسكرى) السير خطوة واحدة فى هذه الأرض الوحلة الغروية ٠ ولم يكن يخطر على بال احد حتى مجرد ذكر السيارات٠ وهذا طبيعى ، فمن الذى كان يمكنه تقديم سيارة لفصيلة ـ لا تخرج عن كونها مجموعة من أبناء مختلف القوميات القوقازية ـ شكلت لتوها ولم تزود بعد بالعتاد (الهاونات) ولم تسلح ، ولم تتسلم مهماتها ؟

وعلى هذا كان الجواد كازبك يفيدهم سواء فى الذهاب الى قيادة الفوج أو لاحضار المؤن ٠ ومع حلول المســـاء كان قائد الفصيلة يسمح لنفسه بنزهة بالجواد تمتد عدة ســاعات ، وفى بعض الاحيان ، حتى الصباح ٠

وفى هذه الساعات القليلة المختلسة تبذل ايرينا بقدر الامكان كل جهدها لجعل البيان يشعر بأنه يعيش فى جو أسرى يتنسم فيه الروح العائلية ، ويستريح من أشغاله وينسى أن الحرب تدور فى مكان ما ، ولا يتذكر سواها ـ الزوجة الشابة ـ وابنتهما دانوتشكا غير أن هذه الحرب لم تكن بالحرب التى يمكن نسيانها حتى ولو كان الانسان بين الاحضان الدافئة لزوجته المحبوبة أو وسط رنين براءة ضحكات ابنة لا تكف عن الحركة ٠

أخذ البيان يزداد مع كل يوم توترا وتفكيرا · وسيطر عليه القلق · فقد اقترب موعد اشتراك الفرقة فى القتال فى الوقت الذى لم تتسلم فيه عتادها بعد · وكان البيان يدرب رجاله على مدافع هاون مصنوعة من الخشب · فقد كانت الفصيلة تضم نجـــارا استطاع صنع مدفع من الخشب مسترشدا بالرســـومات المرفقة بميثاق وحدات الهاون وبالمواصفات التى قدمها له البيان · وأتقن النجار صنع المدفع الخشبى وصقله بكل همة وحمـــاس وطلاه باللون الأسود ، وجاء المدفع فى صورة يصعب تمييزه عن المدفع الحقيقى اذا نظر اليه المرء من بعيد وعلى كل حال لم يفطن الفلاحون التعاونيون الذين كانوا يشاهدون التدريبات فى الحقل ، الى أن المقاتلين يتدربون على مدفع خشبى ·

وتلاحظ ايرينا قلق البيان فترجوه قائلة :

ـ لا تفكر فى هذه المشاغل · انك الآن فى منزلك ، فكر فينا ،

ولكن البيان لم يكن ليستطيع الا أن يفكر فى مشاغله ·

وذات يوم جاء البيان الى البيت يبدو عليه الفرح والسرور· وبادرته ايرينا متسائلة وقد استوعبت الاصطلاحات العسكرية التى يستخدمها زوجها :

ـ أراك فرحا ، هل تسلمتم العتاد ؟

ـ لا ، لم نتسلمه ولكننا تسلمنا شـــهادة تقدير من مجلس السوفييت الأعلى وهذه أول مكافأة لفصيلتنا ·

وفض البيان حافظة حمراء ناصعة اللون مكتوب عليها بحروف مذهبة :

ـ أنظرى الى هذه الكلمات « شـــهادة تقدير » للنجاحات فى الاعدادالقتالى والسياسى ·

ـ تهانى بالمكافأة ـ قالت أيرينا بجدية٠أما دانوتشكا فقد مدت يديها الصغيرتين لتعبث بالحافظة وقد اجتذبها لونها الأحمر الزاهى ٠

ـ هذا يعنى أننا سرعان ما سنشترك فى المعارك ٠

فسألته ايرينا بصوت مرتعش ٠

ـ وهل هناك أمر بذلك ؟

ـ لا ٠٠ لا يوجد أمر بذلك ، ولكنك ترين هذه الشهادة ٠

ـ وما وجه الارتباط بينها وبين الأوامر ؟

ـ هناك ارتباط مباشر ٠ اذا كانت هناك أوامر صدرت ، فان قائد الفصيلة لا يعلم بها الا فى اللحظة الأخيرة ٠ فقائد الفصيلة قائد صغير ٠ وهلم اذن نزن الأمور ٠ أن تسليم الشهادة يعنى أننا قدمنا نتائج تدريباتنا ٠ وأية نتائج هذه ؟ أنها نتائج الاعداد القتالى والسياسى ٠ ومتى تقدم عادة هذه النتائج ؟ أنها تقدم فى النهاية كما تقضى القواعد المعمول بها ٠ نفهم من ذلك أن فترة الاعداد قد انتهت ، وما دامت قد انتهت ، فما الذى يجعلنا نتلكأ هنا فى الوقت الذى تدور فيه الحرب ؟

وبطبيعة الحال ، يصعب رفض منطق البيان ، الا أن ايرينا أخذت تجادله وكأنها تحاول دفع القدر المحدق به ، حيث قالت :

ـ أن الشهادة لا تعنى شيئا ٠ فمن الممكن أن يكون الهدف من مكافأتكم بها هو بعث الروح الحماسية فيكم ٠ أن الشهادة لا تعنى صدور الأوامر ٠

لم يناقشها البيان مكتفيا بفكرة « فلتخطىء اذا أرادت » ٠ غير أنه حذرها قائلا :

ـ ولكن حذار من أن تبوحى بتقديراتنا الى أحد ، فينبغى ان تحتفظ زوجة الضابط بأسراره ـ وأضاف مازحا بلهجة ملصقات التحذير المعلقة على المنازل ـ أن الثرثار كنز بالنسبة للجاسوس ٠

في هذه الليلة لم يغمض لأحد جفن فى المنزل سوى لدانوتشكا فقد ظل البيان راقدا فى فراشه مغمض العينين دون نوم · ومرت أمام عينيه ، كشريط سينمائى ، أحداث المعركة التى جرت عند نهر الدون ونجا منها بمعجزة · فقد ارتفع الغبار حتى بلغ عنان السماء · وانطبقت السماء على الأرض ، وأخذت مياه النهرتغلى ، وألسنة اللهب الحمراء تلمع بين طيات الدخان الأسود · وما من شيء يسمع سوى صرير الحديد · وانبعث من الحفر التى أحدثتها اطلاقات المدفعية دخان ممزوج بالكبريت يزيد من اختناق الجو · وها هو حذاء أحد الجنود تظهر منه ساق نزف ولا أثر بجواره لجسد الجندى نفسه · وكانت المدافع الرشاشة تحصد برصاصها المقاتلين الذين كانوا يتخبطون فى مياه نهر الدون ، ومع كل لحظة أخذ عدد المقاتلين يتناقص أكثر فأكثر · ولعل أوضح صورة من صور هذا الشريط السينمائى البشع هو صورة شجيرة الصفصاف والتى بدت منتوفة الوريقات · أنها الشجيرة التى أمسك بها البيان وهو يسبح نحو الشاطيء لينجو بحياته · وتذكر البيان كيف كان يخمن فى هذه اللحظات العصيبة هل سيتمكن من الوصول الى الشاطيء أم لا ؟ ومرت أمام عينيه لحظة أمساكه بهذه الأغصان اللزقة المرنة وكيف وجد أنها متينة ·

لقد تمت استعادة مدينة رستوف بثمن فادح من الضحايا الذين لا حصر لهم حيث اتسمت معارك الاستيلاء عليها بمزيد من الضراوة ·

وكان البيان الآن على يقين ، نابع من احساسه الداخلى ، أن الفرقة القوقازية سوف ترسل الى منطقة نهر الدون ·

لم تنم زوجته الراقدة بجواره هي الأخرى · من غير المعروف ما الذى رأته فى مخيلتها من صور للمستقبل وهل كانت هذه الصور

وليدة خيالها القلق ، أكثر بشاعة من تلك التى تذكرها زوجها ؟

وفى الصباح أسرع البيان الى القرية ليزور والدته وأخته · وكان مجيئه فى الوقت المناسب ، حيث سيطر التجهم على الأم والأخت منذ خلاف الأمس ·

واحتضنت حبيبة ابنها وضمته الى صدرها بقوة ولم تتح له امكانية تحية أخته رغم انها كانت أول من صاحت مبتهجة برؤيته · وقالت حبيبة وهى تحتضنه :

ـ يا قرة عينى · كم يسعدنى أن أجعل من جسدى جسرا على الهاوية لتمر عليه وأنت فى طريقك · يا بنى ، يا وحيدى ، هل هى شمس الصباح التى أضاءت لك الطريق حتى بيتك الحبيب ؟ فليهبك الله من سنوات الحياة قدر خطواتك · قل لى ، كيف الحال ؟ اجلس · هل أنت قادم من الفوج أم من عند ايرينا ؟ لم أر دانوتشكا منذ مدة طويلة · هذه العصفورة الصغيرة الغالية على القلب · لقد بدأت تزقزق ··

وما أن تركت حبيبة البيان من بين ذراعيها حتى تعلقت ابتشارا برقبته وبدأت فى النحيب وهو ما لم يعهده فيها من قبل ·

وقال البيان لنفسه : « لعلهما تودعانى قبل الذهاب الى الجبهة · يا ترى هل تعرفان أكثر مما أعرف ؟ » وسأل البيان :

ـ ماذا بكما ؟

ـ اسأل أختك ـ بادرته حبيبة بصوت مختلق بعض الشىء يعكس صدى الرغبة فى العفو عن الابنة ممزوجا بصرامة الأم ـ لقد اعتزمت اختك الزواج · انها تخاف أن تبقى عانسا · أتعرف أى كلمات سليطة قالتها لى بالأمس ؟ لقد قالت لى بأنى هرعت الى الزواج وأنا بنت السادسة عشرة · ولذا طلبت منى السماح بالزواج

هى الأخرى · لقد تعود المدعو تشوكا موتايف التردد على قريتنا · لقد أخذوه فى لجنة الحزب بالاقاليم الا أن مصيره كان الطرد من هناك · أرسل الى الفرقة القوقازية ، واتضح ان الزى العسكرى ليس معدا كى يناسبه انه لا يفلح فى شىء سوى أن يكون زوجا ·

وهنا صاحت ابتشارا قائلة :

ـ من أين لك بهذا الكلام ؟ لا أريد الزواج ! ·

واندفعت ابتشارا الى الفناء وجرت الى وسط الحديقة · وأراد البيان أن يعيدها الا أن أمه أوقفته قائلة :

ـ لا داعى لذلك ، فان عيون الفتيات تصبح أكثر صفاء ونقاء بالدموع · حسنا انك جئت الآن والا كانت قد ذهبت الى المزرعة الحيوانية حيث تستجيب لكل ما يخطر ببالها ، ولا راد لها فى ذلك · لقد اشتركت فى عمليات حفر الخنادق على مدى شهرين عند منطقة بروخلادنايا · ولكنى لم أشعر بالقلق بشأنها لأنى كنت أعلم ان بجانبها الآلاف مثيلاتها · أما فى الزراعة الحيوانية فالأمر يختلف لأنها وحدها هناك ، فضلا عن انها الرئيسة ولذلك سوف تفعل كل ما يخطر على بالها ·

كان البيان مهيأ لتصديق كلام أمه حول موضوع الزواج · فقد لاحظ حين جاء آخر مرة أن ابتشارا كانت فى حالة من الانفعال أكثر من قبل وكأن شيئا ما بداخلها يلذعها ويؤجج أحاسيسها · وحين أصبحا وحدهما امسكت ابتشارا بحفنة من حبات الفول وقطعة من الفحم النباتى والقت بها على سطح حقيبته بمهارة كبيرة، تماما مثلما تفعل الام التى تعد أمهر قارئة غيب فى القرية كلها · وغمزت ابتشارا بعينيها المتوهجتين الى اخيها قائلة :

ـ أتريد أن أقول لك أين سيأخذنى العريس حين أتزوج ؟

واقترب البيان من أخته · لقد تعلمت ابتشارا قراءة الغيب

من وضع حبات الفول فقد كان اتجاه سرة الحبات وبينها قطعة الفحم النباتى يرمز الى بيت الزوجية · كما كان بين الحبات حبة بيضاء ترمز الى العروس وأخرى أكبر حجما وهذا رمز للعريس · وأخذت ابتشارا تقرأ الغيب وكأنها منجم يستطلع الأحوال بالنظر الى النجوم :

ـ أنظر ·· أنظر · هذا هو بيت الزوجية ، وها هو ··

ـ لن تقول الحبات لك الحقيقة ·

ـ قال البيان ضاحكا ـ لا تنسى انك عضوة بالكومسمول ·

ـ انتظر ولا تقاطعنى · انك لا تفهم · ان حبات الفول تقول الحقيقة لأمى فلم لا تقولها لى ؟! لقد استطلعت امى من حبات الفول انك ستعود صحيحا معافى ·

والآن اعتقد البيان وهو يتذكر حادثة قراءة الغيب هذه ان اخته لم تكن تريد آنذاك أكثر من التباهى بزوجها المقبل وليس بالقدرة على قراءة الغيب من مواقع حبات الفول · انها تعلم الى أين سيأخذها · هذا أمر واضح · فانه سيأخذها الى فيرخنى تشوبراك حيث منزل تشوكا موتايف الخالى · وها هى الآن تستشيط غضبا · وتجرى الى الحديقة هاربة حيث تقف الآن على الارجح تبكى ، ورجت حبيبة البيان قائلة :

ـ أرجوك أن تتحدث مع أختك · فمن الممكن توقع أى شىء منها · ليس فى مقدورى السيطرة عليها طوال الوقت كما نسيطر على الجواد البرى · فتارة تريد الذهاب الى جبهة القتال · وتارة أخرى تعتزم الالتحاق بفرق الدفاع الجوى · ولقد حدثونى عن هذا المسمى نطاد أو طناد ، لست أدرى ·

ـ تقصدين منطاد الدفاع الجوى ؟

ـ نعم منطاد · سمعت ان بعض الفتيات كن يحملنه ، ولكنه انطلق من بين أيديهن · ولم تتمكن احداهن من افلاته فى الوقت

المناسب ، ويبدو أنه انغلق على يدها فحلق بها فى السماء · والآن موضوع المزرعة الحيوانية هو الموضوع الجديد ·

اتجه البيان الى اخته التى كانت تقف فى عمق الحديقة على شاطىء قناة الرى تنظر الى المياه وهى تصدر خريرا مرحا اثناء جريانها عبر المئات من حدائق الفاكهة ومزارع الخضراوات· كانت القناة لا تزال عامرة بالمياه منذ الربيع ، فنهر تشوبراك الذى تأخذ القناة مياهها منه فى أوج فيضانه الآن ، تهدر مياهه باكتساح كل ما يقف فى طريقها ليعوق مجراها المندفع المز الرغوة ·

أعاق صوت هدير المياه ابتشارا عن سماع اخيهــــ وهو يناديها ، ولكنه اقترب منها وهو يردد فى نفسه قائلا :
« يا لتفاهة هذه الاحاديث بالمقارنة بما يدور حولنا الآن »·
وبادر البيان ابتشارا بالحديث عما يشغله :
ـ أتعرفين يا اختى لماذا جئت اليكم ؟ سوف نتسلم العتاد · أتدرين ما معنى هذا ؟
ـ خذنى أنا الأخرى معك ـ ردت عليــــه ابتشــــارا وامسكت بكف أخيها وضغطت عليها بشدة · كانت تنظر اليــــه بعينين صافيتين رائعتين مما جعل البيان يبتسم متذكرا كلمات أمه من أن عيون الفتيات تصبح أكثر صفاء ونقاء بالدموع ·

وقال لها البيان مداعبا :
ـ يا لك من حمقاء ·
ـ وهل من فى فصيلتك أذكى منى ؟
ـ وماذا بشأن امنا ؟ هل نتركها وحدها ؟
صمتت ابتشارا واستطرد البيان قائلا :

ـ اسمعى ، هنا نحن سنتسلم مدافع الهــــاون ٠٠ مدافع حقيقية ٠ ولدينا الآن مدفع هاون خشبى ٠ وانى اعلم ان لديك جماعة للتدريب العسكرى ٠ ما رأيك لو تأخذيه ليكون بمثابة وسيلة تعليمية ؟ لم نعد بحاجة اليه الآن ٠

ـ تقول مدفع هاون ؟ ـ لم تفهم ابتشارا على الفور ٠ فلم يكن قد تسنى لها فيما سبق رؤية مثل هذا السلاح ، ولــكنها لم تتعود على رفض أى شىء ، ولا سيما اذا كان سلاحا يمكن أن يذكرها بأخيها ـ نعم نأخذه ٠ ولكن لا تعطيه لأحد غيرى ٠ ان جمــاعة التدريب العسكرى تجتمع مرتين كل اسبوع حيث ندرس السلاح من واقع الصور ٠ هل يتطلب الأمر مني الذهاب وأخذه منك ؟

ـ لا ٠٠ لا حاجة الى ذلك ، سأحضره بنفسى ٠

ـ أتعلم أن هذا المدفع جاء فى الوقت المناسب ٠ لقد أخبرنى تشوكا انه سوف يتم تشكيل فصيلة للدفاع المدنى فى كل مزرعة تعاونية ٠

« مرة أخرى تشوكا هذا » ـ تجهم البيــــان ولكنه لم يرد مقاطعة اخته التى استهواها موضوع مدفع الهاون الخشبى ٠

نظرت حبيبة من بعيد الى الابن والابنة مندمجين فى الحديث بحماس ، وبدأت تشعر بالسرور وقالت فى نفسها « حمدا لله ٠ لقد تحادثا دون ما اساءة » ٠ وأحست بارتياح ومزيد من الهناء فى قرارة نفسها ٠

غير أن شفتيها ارتعدتا ، وسرت موجة باردة فى صــــدرها يا ترى هل هذه هى آخر مرة يتعانق فيها الأخ واخته فى حديقــة الأب القديمة ؟ وحين سمعت حبيبة وقع اقدامهما على عتبة البيت، تمالكت نفسها ، وجلست فى مواجهة نار الموقد كى لا يريا الدموع

وهى تتساقط من عينيها ، واذا حدث ورأياها ، فانهما سيعتقدان بلا شك انها من الدخان ٠

زاد وهج النيران فى أتون الموقد ، وارتفع لبن البقرة خابلياشا فائرا فى القدر على شكل قبعة فراء بيضاء اللون مستديرة ٠

العرض العسكرى ٠ الشحن

ابتشارا وراء المنصة

مما يثير الحيرة والعجب فى نفس واحد هو كيف علم الاهالى بارسال الفرقة الى جبهة القتال ؟ فقد كان كل من يتعلق به الأمر على يقين من أنه قد احتفظ بموضوع ارسال الفرقة فى سرية تامة ٠ غير ان الاهالى اخذوا ، وكأنهم تلقوا اشارة بدء المسيرة ، يتقاطرون على محطة شحن البضائع قبيل الموعد المحدد لارسال الفرقة مباشرة ٠ جاء الاهالى من كل صوب : من القرى المحيطة ، والقرى الواقعة على ضفاف الانهار القريبة ، حتى نهرى تيريك وتشوبراك ٠

كان السور المحيط بمحطة الشحن يشكل حائلا أمام الجموع الغفيرة من المودعين ، ولكن الى حين ٠ فلم يكن يسمح بالدخول الى ساحة الشحن الا للعسكريين وممثلى السلطات وامتلأت ساحة الشحن حتى سور المحطة بالمقاتلين ، والسيارات ، وعربات الجر ، والجياد ، والصناديق والحزم ٠

وصلت حبيبة وابتشارا الى المحطة ومعهما دانوتشكا ٠ واتخذتا مكانا مريحا عند السور حيث نزعت احدى قوائمه محدثة

فتحة فيه مما يتيح امكانية الدخول الى المحطة من خلالها · ووجدت دانوتشكا فى هذه الفتحة فرصة طيبة فدخلت الى المحطة أكثر من مرة · كان المقاتلون يعيدونها خشية أن يركلها جواد من الجياد ·

كانت عربات رجال مدفعية الهاون تنتظر دورها فى الشحن· واقترب البيان من السور عدة مرات يرجو اهله عدم المعاناة والعودة الى البيت قائلا :

ـ انكن بذلك تعذبن الطفلة · لقد وقفتن هنا طوال الليل وهذا يكفى ، ولا أريد أن تبقين هنا · أتسمعننى ؟

لم تغضب كلمات البيان أمه أو أخته أو زوجته · فقد كن يدركن انه يصعب عليه رؤية دموع أهله ، وترديدهن « حافظ على نفسك » أو « فليرض عنك الله كما ترضى عنك أمك » أو « عليك بالكتابة حال وصولك الى مواقعكم » · كن يدركن كل هذا ، بل وسمعن منه كلمات أكثر غضبا ، الا أنهن لم يتركن المكان ·

دخلت فناء محطة البضائع سيارات سوداء اللون ماركة « ام » · لقد حضر المسئولون · كانت ابتشارا تعرف كثيرين منهم ، ذو القرنى كولوف ـ أكبر مسئول فى الجمهورية وهو أشقر الشعر ممشوق القوام أنيق الملبس وملامح وجهه تشبه الملامح الروسية · ومن خلفه باخوف ، وهو رئيس القوميسيرية الشعبية للشئون الداخلية (*) · يصاحبهما لفيف من العسكريين وقائد الفرقة العقيد كوبانتسيف ، والذى يحمل العبء الأكبر من المسئولية فى نقل القوات والعتاد · ومن آن لآخر تجد القادة الآخرون يسرعون نحوه حيث يقدمون تقاريرهم ويتلقون الأوامر ، ثم يهرعون لتنفيذها ·

(*) وزارة الداخلية · (المترجم) ·

سار العمل فى شحن عربات القطار على قدم وســـاق ٠ وتكاتف المقاتلون فى دفع سيارات النقل وعربات الجر وتثبيتها على عربات السكك الحديدية المسطحة ، كما أخذوا يتعاونون فى سحب الجياد ودفع المعاندة منها الى عربات البضاعة المزودة بمدافىء ٠ وبح صوت المساعدين وهم يصيحون ويستخدمون السباب فى حث المقاتلين الذين كانوا يتحركون بسرعة دون حاجة الى مثل هذا الالحاح ٠

وتعجبت ابتشارا ٠ فلم تلمس فى هؤلاء المقاتلين والقـادة بين رائح وغاد فى ساحة الشحن صور المقاتلين والقـــادة التى شهدتها منذ وقت قريب فى مدينة نالتشيك أثناء العرض العسكرى الذى أقيم لوداع الجنود قبل الذهاب للجبهة ٠ لقد كان منظرهم آنذاك مختلفا ، كما ان كل شىء كان مختلفا تماما ٠

كان ذلك فى أحد أيام شهر آيار ٠ وجاء هذا اليوم صـافى السماء ، فيه كل ما يحتاجه الاحتفال وكأنه خلق خصيصا لهـذا العرض العسكرى ٠ فقد غمرت شمس آيار الساطعة بنـــورها المنازل البيضاء الحديثة الطلاء ، وأضفت مزيدا من الجمال على خضرة الأشجار الزاهية التى نبتت منذ عهـــد قريب ولم تكتمل أوراقها بعد ، وعلى برج القفز بالمظلات المتأنق بالزينات ٠

وكانت الجبال القليلة الارتفاع المحيطة بالمدينـــة تبدو هى الأخرى وكأنها ارتدت حلة العيد استعدادا للعرض العســكرى ٠ وبرزت عند سفحها المسيج بحزام من أحراش الاشجار المخضرة أبنية المصحات وبيوت الراحة المستطيلة الشكل بطوابقها المتعددة ولونها الابيض ٠ ولم يكن من الممكن ان يعتقد المرء من على بعـد أن هذه المبانى قد تحولت الى مستشفيات عسكرية تضم ـ بدلا من القاصدين الراحة السعداء الذين يتجولون فى ممرات الحدائق ـ

جرجى يئنون ، وينزفون الدم · ويصرون أســنانهم من الآلام ويهذون من الحمى ، بل ويموت بعضهم ·

فى هذا الصباح بدأ الاهالى يتــوافدون الى نالتشيك فى جمــاعات من كل صوب وهم فى أبهى حللهم على عربات الجر ، وظهور الخيل ، فضلا عن السائرين · وضمت الجماعات نســاء بملابسهن متعددة الالوان ، وجموع صبية ، وعجائز بذقون بيضاء من الشيب يدقون الأرض بوقار بعصيهم الطويلة برتابة خطواتهم القصيرة · كان الجميع يرغبون فى مشاهدة العرض العســكرى الفريد وعرض الفروسية حيث يقفــون على مهــارة وشجاعة وفروسية ابنائهم وأخواتهم وعرسانهم وزملائهم فى المدرسـة وقد اصبحوا فى سلك القوات المسلحة ·

ظلت ابتشارا تسير بسرعة على عربتها ذات العجلتين طوال الليل · فقد كانت تخشى أن تتأخر ويفوتها الاحتفال · وكانت قد عرجت الى المنزل كى تأخذ حبيبة معها الا أن والدتها وجارتهــا دانيزات كانتا قد رحلتا سيرا على الاقدام منذ فترة طويلة ·

وفى الطريق أخذت ابتشارا ، وهى تسبق الجمرع ، تتمعن فى وجوه النساء اللاتى يسرن حاملات الرباطات والسلال · وخلف الامهات كان الاطفال يسرعون بخطــاهم القصيرة · وكان صبية البلكار يمتطون ظهور الحمير ، تسير بخطى قصيرة هى الاخرى · ووجدت ، وهى فى طريقها ، احد المشوهين يتوكأ على عكازين فى الطريق المترب · وأرادت ابتشارا أن تأخذه معها فى العربة، ولكنها عدلت عن ذلك خشية أن تجد أمها فتطلب منه النزول ·

ورغم ذلك تأخرت ابتشارا · فحين وصلت الى الميدان ، أمام مبنى « مجالس السوفييت » الضخم الجارى بناءه ، كان عرض

الفروسية فى سبيله الى الانتهاء · واعتقدت ابتشارا انها أضاعت العرض العسكرى ايضا ، غير ان المشاهدين الاكثر حظا اخبروها بأن العرض العسكرى سيبدأ بعد عرض الفروسية ·

أحاطت جموع كثيفة من الاهالى بالميدان حيث لم يعد هناك مكان لقدم · وهنا أدركت ابتشارا على الفور الميزة التى لديها · فوقفت على عربتها وأصبحت ترى بوضوح من فوق الرؤوس كل ما يجرى فى الميدان ·

وقبل أن تتمكن من امعان النظر فيما يجرى فى الميـــدان سمعت صوتا طفوليا سعيدا يصيح :

ـ ابا ! ·

يا الهى انها دانوتشكا بلا شك · فهى الوحيدة التى تنادى ابتشارا بهذا اللقب · وفى الواقع شقت ايرينا طريقها بين الجموع نحو ابتشارا وهى تحمل دانوتشكا ·

قفزت ابتشارا من العربة وتبادلت القبلات مع ايرينا ، أما دانوتشكا فقد احتضنت ابتشارا بيديها الصغيرتين ـ أثناء ذلك ـ وأخذت تقبلها وبعد هذا صعد ثلاثتهن الى العربة ·

جذب جواد ابتشارا اهتمام دانوتشكا أكثر من أى شىء آخر ·· أكثر من عرض الفروسيةوالعرض العسكرى · وكان الجواد ـ وهو من جياد المزرعة ـ هزيلا منهك القوى فضلا عن انهاكه خلال مسيرة الليل الا أن سخرية القدر جعلته يحمل اسم شاجدى وهو نفس الاسم الرنان الذى كان يحمله الجواد الكاباردينى الاسطورى المشهور ، وانشغلت دانوتشكا بمقارنة هذا الجواد العجوز بالجواد الجميل كازبك الذى يمتطيه والدها ·

كان أول سؤال بادرت ابتشارا به ايرينا هو :

ـ الم ترى البيان ؟ ـ فأجابتها ايرينا :

ـ لكنه من رجال مدفعية الهاون · ولا يشترك رجال هذه الوحدات فى عرض الفروسية ·

وكم كانت ابتشارا تود ، مثلها مثل ايرينا تماما ، أن يمـرق البيـــان أمام هذا الجمع الغفير على جواد سريع خفيف الحـركة ليعرض على الجميع الشجاعة وفنون الفروسية الكاباردينية ، وهى الفنون التى تحظى بتقدير يفوق أيا من مظاهر بســـالة الرجال · ولكن ما العمل ؟ النظام هو النظام · فمن غير الممكن الخروج الى الميدان دون اذن ، ولمجرد الرغبة ، كما ان رجال مدفعية الهاون ضروريون ، وفى الوقت الذى كان فيه عرض الفروســـية لا يزال مستمرا ، بدأت الافواج تستعد لمسيرة الاحتفال · واذا كان الأهالى قد شاهدوا خلال عرض الفروسية أفضل الفرسان وأمهرهم وهم يتركون الاسرجة بسرعة البرق ويكادون يمسون الأرض بأجسادهم ثم يعودون مرة أخرى الى الأسرجة ويواصلون الاندفاع بالجياد الثائرة ، فان كل فرد من الجماهير ، يرى الآن بين صفوف المقاتلين قريبا له ، يلوح له بيديه ، ويناديه ، ويصيح له ، وفى الجـانب الآخر يستطيع المقاتل اذا تلفت ، أن يجد من بين جمهور المشاهدين والده أو والدت ، زوجته أو أخته ·

شحذت ايرينا وابتشارا انتباههما ·

ظهرت سيارة تحمل جهازا مضادا للطائرات عبارة عن أربعة رشاشات ثقيلة متحدة المحور · وكانت هذه هى المرة الأولى التى يعرض فيها مثل هذا السلاح فى مدينة نالتشيك · نظر عجوز يرتدي قبعة ضخمة من الجوخ متعجبا من هذه السيارة الرهيبة لدرجة أنه أزاح حافة القبعة الى أعلى كى يتمكن من الرؤية بصورة أفضل · وهنا قال عجوز آخر موضحا :

ـ انه ضد الطائرات · يطلق أربع دفعات مرة واحـدة راشا

السماء كلها بحيث تسقط حتى النجوم ويجعلها تتناثر . أما الطائرات فيمحوها بمنتهى البساطة مثلما تزيل نوى الكريز من جدران الفنجان .

لم يعجب العجوز من أن هذا الرشاش يمكنه المساس بالنجوم على هذا النحو . الا أنه واصل النظر متابعا السيارة وقد مرت أمامه .

وسأل أحد المشاهدين :

ـ عجبا ! واذا كانت هناك دبابات ، فما العمل ؟ لقد عاد ابن أخى وقد فقد رجليه ، ويقول بأن الألمان يحدثون خسائر كبيرة لاستخدامهم الدبابات .

وجاءه الرد من أحدهم :

ـ ان الدبابة تواجهها دبابة مثلها ، كما يواجه الفارس فارسا مثله ، وجندى المشاة جنديا من المشاة كذلك .

لم يشترك فى العرض العسكرى فوج المدفعية ذاك ، لأن تسليحه لم يكن يزيد عن أربعة مدافع مضادة للدبابات فقط ، ولذا رأت القيادة أنه من المضحك اشراكه فى العرض .

فجأة صاحت ايرينا وابتشارا فى صوت واحد تقريبا :

ـ البيان .. البيان .. أنظر ..

رفعت ايرينا دانوتشكا على كتفيها قائلة :

ـ أنظرى ها هو بابا . ها هو بابا . لا ليس هناك . أنظرى هنا ..

كانت الطفلة تنظر فى اتجاه آخر تماما . فقد كانت تلتفت الى العصافير التى تجمعت على روث الجياد يبعث دخانا يميل الى الصفرة على الأسفلت الساخن .

ـ البيان ! ـ صاحت ابتشارا بأعلى صوتها وأخذت تلوح بمنديلها بشدة فوق رأسها . سمع البيان صوتها والتفت فرأى زوجته وأخته وابنته ولوح لهن بيده .

كان ايقاع اللحن العسكرى ينبعث مدويا من فرقة الآلات النحاسية التى تعزف على ناصية الميدان بالقرب من منزل أصفر اللون متعدد الطوابق . وحين كانت الجياد تمر فى محاذاة الفرقة، تنحنى وتجفل وترقص فى مكانها فلم تكن هذه الجياد الكاباردينية النصفبرية تتقبل مثل هذا الضجيج وقد زبيت وسط المراعى العالية فى الجبال وبين أحضان الهدوء الدائم حيث الموسيقى ألحان حفيف الحشائش وخرير المياه فحسب .

وفى مواجهة المجموعة الموسيقية كانت قيادة الفرقة وقادة الجمهورية وممثلو الأوساط الاجتماعية يتابعون العرض العسكرى من شرفة منزل ذى ثلاثة طوابق .

أصيبت ابتشارا وايرينا بخيبة أمل كبيرة حين شاهدتا ما كان البيان يسميه « بطاريتنا » و « رجال مدفعية الهاون » . فقد كانت البطارية مكونة من عربتين تخرج منهما مدخنتان تشبهان مداخن السماوارات ، احداهما أكبر من الأخرى . وخلف العربتين يسير حوالى أربعين من المقاتلين يحملون الكمامات الواقية من الغازات . ويتقدم هذه الوحدة الفرعية التى لا توحى بالمهابة على جوادين قائدا فصيلتين أحدهما البيان . ويحس المرء أن القائدين لا يريدان اجتذاب الاهتمام لادراكهما أن منظر وحدتهما يبدو شاحبا فى أعين الجمهور الذى يتوق الى رؤية مقاتلين مسلحين بأسلحة تبث الرعب فى قلوب الأعداء .

وهذا ما كان يدركه كذلك الواقفون فى الشرفة . الا حبيبة التى

اتخذت مكانها بالقرب من الفرقة الموسيقية ٠

كانت تحب الموسيقى بشتى أنواعها منذ الطفولة ٠ وسواء كان عزفا على مزمار أو غناء ، ترى الدموع فى عينيها وتشعر بالدفء والشجن ٠ والآن تحس حبيبة وهى تسمع المارش العسكرى برعشة تسرى فى جسدها ٠ فقد بدا لها أن هذه الأفواج تتوجه من الميدان الرئيسى هنا ـ وعلى صوت هذه الموسيقى الى جحيم المعارك مباشرة ليبدأ المقاتلون فى تمزيق العدو بسيوفهم ، تماما كما كان يفعل فى الماضى آباء هؤلاء الذين يتم توديعهم اليوم وهم ذاهبون الى جبهة القتال ٠

ـ يا لكثرتهم ٠٠ ـ همست دانيزات فى أذن حبيبة ـ أعداد لا حصر لها ٠ فها هم يسيرون دون انقطاع ٠ المحير حقا هو من أين جمعوا هذا العدد الهائل من الشباب فى الوقت الذى يقولون فيه أنه لم يعد هناك شباب فى القرى ٠

ـ الحرب كالبئر التى لا قرار لها ، تبتلع كل ما تحشريه فيها ـ أجابتها حبيبة دون أن تحيد بنظرها عن العرض العسكرى خشية أن تفوتها رؤية ولدها ٠

لم يمض سوى عدة أيام بعد عرض الوداع هذا ـ كما سمى ـ حتى اهتزت القرى والمدن كلها للانباء غير المعلنة ٠ ولكن ليس كل الأهالى هذه المرة توجهوا الى مدينة ناالتشيك لانه تقرر أن يتم ارسال وحدات الفرقة من محطات سكك حديدية مختلفة ، الى جانب أن عملية الارسال لن تتم فى وقت واحد ٠ وعلم كل فرد من الأهالى مما تناقلته الألسن اسم المحطة التى يمكن توديع الابن أو الاخ أو الزوج منها والموعد المحدد لذلك ٠

كانت عملية ارسال فرقة الخيالة القوقازية تجرى من كل

محطات السـكك الحديدية الواقعة بين مدينة نالتشيك ومنطقة بروخلادنايا حيث كان يتم نقل القوات والعتاد على العربات المسطحة والمغلقة· واتسمت العملية بالسرعة ذلك لأن جبهة القتال لم تكن تحتمل الانتظار وقد احتدمت المعارك وارتفع هديرها وأخذ يقترب من سفوح جبال القوقاز ·

نظرت ابتشارا الى عملية النقل فلم تر تلك الصورة التى كان عليها الجنود بمشيتهم المنتظمة أثناء العرض العسكرى آنذاك · فقد رأتهم الآن دائبى الحركة سريعى الخطوات بصورة عملية ·

جذبت القـاطرة البخـارية العـربات المسطحة المشحونة · واتخذ المقاتلون أماكنهم بين العربات والصناديق وسيارات النقـل وقد وضعوا حاجياتهم وأكياسهم بما فيها من مأكولات زودتهم بها منازلهم ·

توالى رنين المهماز الذى لم ينزعه العقيد أنطون كوبانتسيف منذ الحرب العالمية الأولى· اتسمت حركة العقيد بالسرعة رغم سنه· ولم يكن أنطون كوبانتسيف قد بلغ الخمسين بعد ، الا أنه بدا أكبر من عمره · وكوبانتسيف جندى لا يعرف الخوف استعاض عن نقص التعليم بخبرته الفائقة كقائد · ورغم هذا تحرك على سلم الترقى ببطء رغم كونه قائدا لا غبار عليه · ولعل النياشين والشارات التى تزين صدره تؤكد حاجة هذه الحرب لامثاله من ذوى الخبرة · عكفت قيادة الدائرة العسكرية طويلا على اختيار قائد لهذا التشكيل القوقازى الفريد من نوعه كيلا تضيع الفرقة بين العدد الهائل من القوات التى تحارب فى جبهات الحرب الوطنية العظمى (*) وبحيث

(*) هى الحرب العالمية الثانية كما يطلق عليها خارج الاتحـاد السوفييتى · المترجم ·

5—3127

يصبح تاريخها القتالى مليئا بالانتصارات · وذكر المسئولون العديد من الأسماء ·وذارتمناقشات مختلفةتباينت فيها الآراء ·وكان هناك رأى يقــول بوجوب أن يقود هذا التشكيل أحد أبناء أى من الشعوب التى تتكون منها الفرقة · غير أن القيادة لم تجد الشخص المناسب وكان أنطون قيدوروفتش كوبانتسيف يعـــالج فى هذه الفترة فى المستشفى العسكرى بمدينة نالتشيك · ونصـــحت قيادة الدائرة العسكرية كولوف بالتعرف عليه · كان كولوف على معرفة بالعقيد منذ اليوم الذى دخل فيه مستشفى نالتشيك العسكرى للعلاج · وأرسل كولوف برقية سريعة الى قيادة الدائرة جاء فيها : « تطلب لجنة الدفاع الموافقة على تعيين العقيــد كوبانتسيف قائدا للفرقة القوقازية » ·

ولكن كولوف استعجل بارسال هذه البرقية · فان نقاشا حاميا كان ما يزال يدور فى لجنة الدفاع حول تشكيل هذه الفرقة أو عــدم تشكيلها · وكان ذو القرنى كولوف ينادى فى اللجنة بتشكيـــل الفرقة · وكان ذلك أمرا بديهيا لأنه صاحب فكرة انشائها · فقد كان يريد بهذه الطريقة الاعراب عن ولاء الكاباردينيين والبلكار الذى لا حد له لقضية الصداقة مع الشعوب الأخرى ولزعيم البـــلاد شخصيا · كما كان يأمل أن يرى الجميع عزم أبناء الجبال على مواجهة القوة الغاشمة للعدو حتى آخر رجل ، وعدم جدوى تعــلق الفاشيست بأمل تفكك الدولة متعددة القوميات وخيانة بعض الشعوب للقضية المشتركة والنضال المشترك ·

غير أن فكرة تشكيل الفرقة القوقازية لاقت معارضة من جانب بعض أعضاء اللجنة وقامت المعارضة على أساس أن هذه الحرب هى حـــرب مشــــتركة ، لا كاباردينية ، ولا كالميـــكية ، ولا

اينجوشسكية (*) ، بل حرب وطنية للوطن كله بقومياته المتعددة· كما أن أبناء كل شعب يشتركون فى الحرب فعلا حيث يوجدون بين المقاتلين الآخرين ضمن تشكيلات الافواج والفرق العديدة · وقال معارضو كولوف أنه وفقا للدستور : ليس كل شعب صغير هو الذى يدافع عن جمهوريته الصغيرة أو اقليمه ، بل أن الشعوب جميعا تدافع معا عن وطنها الواحد المشترك · ومن الأفضل فى ظل هذه الظروف التركيز على الواجبات الأخرى التى يتطلبها الوطن والجبهة ، أما تكوين التشكيلات العسكرية فهذا أمر ينبغى تركه للمسئولين عن ذلك ·

وانتصر كولوف فى النقاش وعندئذ طرأ موضوع آخر حول ماهية الفرقة التى ينبغى تشكيلها : فرقة مشاة أم خيالة ؟ وانقسمت الآراء من جديد · ونادى المتمسكون بالتقاليد العريقة والغيورون عليها بتشكيل فرقة خيالة · وضربوا الأمثلة قائلين بأن الكاباردينيين كانوا يقاتلون ضمن صفوف قوات سوفورف وكوتوزف (**) بكتائب منفصلة ، كما أنهم اشتركوا كذلك فى حملات القوات الروسية على مدى العصور كلها · وأكد معارضو فكرة تشكيل فرقة للخيالة أن هذا النوع من القوات قد أصبح فى المرتبة الثانية فى ظروف الحرب الحديثة · واذا كانت الخيالة تعمل فيما مضى بنجاح فى مناطق البرارى ، فان الدبابات والمشاة الميكانيكية قد ضيقت عليها الخناق فى الوقت الحالى · ولقد دعا ذو القرنى كولوف العقيد كوبانتسيف والمعروف بتعصبه الشديد للخيالة الى اجتماع لجنة الدفاع وأثبت العقيد أن الخيالة سلاح لم يفقد أهميته وأن وحدات خيالة رومانية

(*) من القوميات المتآخية فى الاتحاد السوفييتى · المترجم ·

(**) الكسندر سوفورف (١٧٣٠ ــ ١٨٠٠) ، ميخائيل كوتوزف (١٧٤٥ ــ ١٨١٣) من أشهر القادة العسكريين الروس · المترجم ·

ومجرية تشترك فى القتال على الجبهات ومن الممكن وضع الفرقة القوقازية فى مواجهتها ٠

شفى كوبانتسيف فى الوقت الذى كانت الفرقة تقضى فتــرة الاعداد القتالى وفقا لبرنامج مكثف ٠ وكلف كولوف أقدم أسطوات النقش بالذهب أن يقوموا بعمل أدق النقوش على الفضة لتزيين جراب ومقبض سيف قائد الفرقة ، أما صانع السروج المعــــروف بيكان ديدانوف فقد وضع كل حبه للجياد ولحرفته فى السرج الذى صنعه للشخص الذى سيقود فى القتال أبناء كاباردينيا وبلكاريا الأمجاد٠ ولكن الى جانب السيف والسرج كانت هناك حاجة الى الكثير كى تصبح الفرقة قوة حقيقية قادرة على تأدية مهامها القتالية ٠ غيــر أن الموقف فى الجبهة لم يكن يسمح بتركها فى عمق المؤخرة ، كمــا أنه لم يكن فى الامكان بقاؤها عالة على الجمهورية أكثر من ذلك فى الوقت الذى لم يعد فيه فى المزارع التعاونية غلة للعلف أو مؤن ٠

بينما كان كوبانتسيف وكولوف يتفقدان القطار المعد للسفر أصدر سلطان خولامبايف رئيس القسم السياسى بالفــرقة أوامره باحضار سيارة نقل وانزال جوانبها وجعلها وسط ساحة المحطة ذلك لأن الناس قد اجتمعوا بالفعل مما يقضى بعقد اجتماع صغير قبل أن تنتفض العربات وتصطك معداتها الثقيلة اعلانا عن بدء تحركها٠

كان كل من كولوف وكوبانتسيف قد ألقى أربع كلمات فى أربع محطات سكك حديدية قبل ذلك ٠ واقتضى الأمر القاء كلمة هنا كذلك أمام الجماهير التى ملأت الميدان المحيط بالمحطة والشوارع والأزقة المتفرعة منه ٠

ازيلت كل الحواجز وتدفقت الجماهير فملأت ساحة المحطة

على الفور وانتشرت بطول الخط الحديدى وأحاطت بسيارة النقل التى أعدت لتكون بهيئة منصة ·

وكانت حبيبة هى الأخرى هناك · ولقد أخذت معها الحذاء الذى كان يرتديه المرحوم زوجها تيميركان حين كان بين صفوف الفدائيين · حمدا لله ، فان هذا الحذاء مصحوب بحسن الحظ · فليأخذ البيان هذا الحذاء السعيد معه وهو يتجه الى جبهة القتال· وهل يضيره أن الحذاء من الموديلات القديمة التى كانت سائدة قبل الثورة ؟ فرقبة الحذاء تلمع كالجديدة ، أما كعباه فسيزيدان طوله خمسة سنتيمترات على الفور ·

والبيان يذكر هذا الحذاء منذ الطفولة · فلم يحتذه والده أبدا ، وظل معلقا طول الوقت على جدران الغرفة ، أما حبيبة فكانت تمسح عنه الغبار من وقت لآخر بخرقة جافة · ولقد حاول البيان ذات مرة احتذاءه من باب الهزل ، ولكن هيهات · فكعبه يشبه كعب أحذية النساء ، أما نعله فقد جف تماما ولا يكاد يكفى ليرقص به المرء رقصة واحدة اذ سيتفتت تماما · وهكذا ظل الحذاء على الجدران ·

أخذت ايرينا ترجو البيان قائلة :

ـ خذه ولا تغضب والدتك · ماذا يضيرك لو أخذته ؟

أخذ البيان الحذاء وناوله أحد رجال فصيلته وأمره باخفائه فى أى مكان · ربما يحتاج اليه فى الموقع ·

أثار نقيب طويل القامة انتباه كل من كان يراقب عملية اعداد القطار · وكان من الصعب حقا ألا يثير الاهتمام · فقد كان يستند على عصا ويشير بها الى مكان وضع هذه العربة أو تلك السيارة· كما أنه يرتدى فردة حذاء فى الوقت الذى كانت فيه رجله الأخرى ملفوفة بالضمادات · انه النقيب لوكوتوش نائب قائد الفوج · لقد

كان هو الآخر ـ مثله مثل قائد الفرقة ـ يعالج فى مستشفى نالتشيك العسكرى ، ولكن ما أن علم بتشكيل الفرقة ، حتى قطـــع علاجه وحصل على منصب جديد ·

وقال البيان مازحا وهو يومىء برأسه مشيرا الى النقيب :

ـ تنقصـه فردة حذاء كما ترون فى الوقت الذى قدمتم لى زوجا ثانيـــا ·

غير أن المزاح لم يثر الضحك · وغيرت ايرينا بسرعة مجرى الحديث · فبدأت تتحدث عن ابتشارا ، وانها تحلم بالتـــوجه الى الجبهة ، وانه لم يكن من العبث أن يصفوها فى المدرسة «ابتشارا المتهورة » · وأثناء الحديث لم يلحظ أحد اختفاء دانوتشكا · وفجأة دوى بالقرب صوت رجالى غليظ يصيح :

ـ ابنة من هذه التى تريد أن تذهب معنا الى جبهة القتال ؟

والتفت الجميع واذا بالنقيب الأعـــرج يقف بالقرب ويحمل دانوتشكا على يديه ويبتسم :

ـ هل هى ابنتكم ؟ خذوها استحلفكم بالله خشية أن يركلها جواد ، فانها تلعب بالقرب من حوافر الجياد مباشرة ·

أخذت ايرينا ابنتها من النقيب وهى تقول :

ـ لا تحتمل الوقوف خمس دقائق فى مكان واحد · لقد كانت لتوها هنا · شكرا لك ·

واستدار النقيب ليبتعد ، الا أن البيان استوقفه قائلا :

ـ أيها الرفيق النقيب · أعرفك بعائلتى · أقدم لك والدتى وزوجتى وأختى الصغرى ، وعلى فكرة انها ليست متزوجة ولكن لديها عريس · ولا أقصد هنا سوى توضيح الموقف فقط ·

احمرت وجنتا ابتشارا من الخجل وقالت :

ـ ما هذه الثرثرة · ليس لدى عريس · اننـــا نعمـــل معا وحسب ·

وتوجه البيان الى قريباته قائلا :
ـ أقدم لكن النقيب لوكوتوش · لقد خرج حديثا من المستشفى العسكرى · سوف نذهب سويا الى جبهة القتال ·

وهنا بدأت حبيبة تنوح وتدعو الله قائلة :
ـ يا بنى فليهبك الله الصحة ولتظللك رعايته وتعود سليمـا معافى · أرجو أن يكون جرحك طفيفا · لقد عاقب اللهوالدتك فسقاها كأس الحزن وأسال دمك · أين هى يا ولدى ؟
ـ فى لينينجراد ·
ـ وكيف ذلك ؟ ـ قالت حبيبة مذعورة ـ يقولون ان الألمان يحاصرون هذه المدينة · أى أقدار سيئة قادتها الى هناك ؟

لم يتمكن لوكوتوش من الرد عليها ، فقد سمع صوتا من بين الجموع يناديه من بعيد ·
ـ أرجو المعذرة انهم ينادوننى ·

استدار النقيب واختفى وسط الجموع وهو يعرج وينقل العصا بمهارة الى يده اليسرى كلما اقتضى الأمر أداء التحية العسكرية للرؤساء ·

وعلى الرغم من أن المنصة المقامة وسط ساحة المحطة كانت قد أعدت ، الا أن وجوه الجمع لم تتوجه اليها بعد · فقد ظل الأهالى واقفين على شكل جماعات وحلقات صـــغيرة حيث اندمجوا فى الحديث مع أقاربهم ·

كان الجنود يلوحون بأيديهم على العربات · وأخذ رجال المدفعية المضادة للطائرات يراقبون السماء ، وقد استقروا على أسطح العربات ، كما وضع المدفع الرشاش ذو الأربع فوهات على عربة مسطحة وهو المدفع الذى رأته ابتشارا أثناء العرض العسكرى ·

راقبت أبتشارا بطرف عينيها تشوكا موتايف ولاحظت أنه كان يحوم بعيدا عنهم ولم يجسر على الاقتراب خوفا من حبيبة · وأخيرا استجمع شجاعته واقترب من البيان قائلا :

ـ خذ هذا · انه من أحد شعاب تشوبراك · ـ وقدم له حجرا ثقيلا يصعب حمله فى الجيب وقت الحرب ـ خذه · انه قطعة من الأرض الحبيبة انه طلسم ·

فقال البيان مازحا :

ـ حسنا · سأحفظه فى عبى دائما ·

ـ فليكن ذلك ، ولكن أرجو ألا يفارق ظلك ، كما لا تفارق كراهيتك لهتلر كيانك ·

ثم أخرج تشوكا من جيبه زنادا وفتيلا طويلا وقدمهما الى البيان الذى قال :

ـ ولم هذا أيضا ؟

ـ انها الطريقة البدائية للحصول على النار ·

ـ ورغم ذلك فهى الطريقة المأمونة تؤتى ثمارها مهما كان الجو · فانك لا تستطيع اشعال سيجارة بالثقاب بأى حال من الأحوال لو كانت هناك رياح · أما هذه فهى الطريقة الأفضل ، كما أنها لا تتطلب تمويها لعدم وجود شعلة ·

وانتحى تشوكا والبيان جانبا :
ـ شكرا · سوف أحمله معى ·

وقال تشوكا :
ـ لا تقلق بالك بشأن حبيبة وابتشارا وايرينا ·يمكنك الاعتماد على وأؤكد لك أنه لن يحدث لهن مكروه ما دمت حيا · سوف نقتسم معا كل شيء : المأوى والدفء والأكل ولن أسمح لأحد أن يسيء اليهن ويمكنك مراسلتى ، اذا رغبت طبعا ، وسوف أرد برسالتين على كل رسالة تبعثها لى · لست أدرى ما الذى ينتظرنا؟ هل هناك ما ينتظرنا أم لا ؟ من الممكن أن يستدعونى أنا الآخر فى أى وقت · وانى على استعداد لذلك ولا أتهرب منه · انك تعلم هذا جيدا · انى أرغب فى الالتحاق بالجيش ولكنهم تجاوزونى ولم يستدعونى · انى أحسدك ، غير أن حسدى ليس حسدا أسود · ان غاية ما أتمناه هو أن تعود الى بيتك ·

أطلقت القاطرة مزيدا من البخار ، وأطل السائق من قمرته وألقى نظرة على القطار الذى كانت العربة المسطحة وعليها المدفع الرشاش المضاد للطائرات فى نهايته ·

ـ حسنا ، حسنا · ـ قال البيان وتعانق هو وتشوكا · ساد الاضطراب الأهالى وهم يقفون بجانب القطار وأعطى البروجى اشارة الجمع وبدأ الجنود ابعاد الأهالى عن القطار · وصاح النقيب لوكوتوش فى مكبر الصوت مطالبا الأهالى الاقتراب من المنصة ·

بدأ الاجتماع وافتتحه ذو القرني كولوف بكلمة قصيرة فلم تكن هناك حاجة الى التحدث عن تاريخ الفرقة للواقفين حوله حيث كل شيء كان يجرى أمام أعينهم ، دون احتساب تلك الاجتماعات التى

عقدت فى المزارع التعاونية ومختلف المصانع حيث كان الحديث يدور حول الفرقة الوليدة · بعد الكلمات التى القيت فى تلك الاجتماعات تم الاعلان عن بدء جمع التبرعات لتزويد وتسليح الفرقة مع تعداد الأشياء التى يفضل التبرع بها ومنها : عباءات الجوخ ، فراء الاغنام ، الخناجر والاحزمة المطعمة بالفضة ، الالجمة والسروج للجياد ، واحزمة الرصاص التى ترتدى على الصدر - ان وجدت - الاحذية الجلدية ، الاحزمة الجلدية والجوارب ، شكايم الجياد ، السياط وركاب الخيل ، المهاميز ، والسيوف طبعا · وانشئت مراكز خاصة لتلقى هذه الأشياء · وجاء الأهالى بكل ما لديهم كى تتمكن الفرقة من التزود بالمهمات والسلاح وفقا لكل القواعد الحديثة · وكانوا يحملون من مختلف القرى الى هذه المراكز الغلال والزبد واللحوم والجبن والجريش حارمين أنفسهم منها ·

كان هذا أيضا ما تحدث عنه ذو القرنى كولوف باقتضاب معربا عن الشكر للكادحين باسم التنظيمات الحزبية والسوفييتية بالجمهورية ·

- لقد قمنا بكل ما طلب منا - قال كولوف من المنصة المقامة على السيارة - كى يتوجه أخوتنا وابناؤنا - مقاتلو الفرقة - الى جبهة القتال وهم مستعدين للحرب · وربما نشعر بنقص فى بعض الأشياء لفترة طويلة لأننا قدمنا للفرقة كل ما لدينا · غير اننا فى مقابل ذلك لن نشعر بوخز فى الضمير · لم نبخل بشىء على الفرقة· ويمكن القول بأننا قد أحطنا الفرقة بالدفء أكثر من خمسة أشهر وتقاسمنا مع المقاتلين لا الملبس وحده ، بل ودم قلوبنا كذلك · لقد أدفأناهم بالأمل والايمان بأنهم سيكونون درعا صلبا للأرض السوفييتية ، يسدون طريق العدو بصدورهم ويصمدون فى هذا

الصراع المميت . ها هى جحافل الالمان الفاشست المسعورة تندفع ناحية الشرق . ولقد أدفأنا مقاتلينا كذلك كى يسمعوا دقات قلوبنا ، ويسمعوا دقات قلب الشعب المضطربة ، وكيلا يتوقفوا عن الاحساس بهذه الدقات وهم فى مواجهة العدو .

ويلتفت كولوف ناحية المقاتلين وكأنه يخاطب الراحلين الى جبهة القتال :

ـ أيها المقاتلون الاحباء الاعزاء ! اننا نودعكم اليوم ونحن على يقين من أنكم لستم ذاهبين الى حفل أو زيارة ، بل نودعكم وأنتم فى سبيلكم الى جبهة القتال لنزال العدو . ونحن ننتظر منكم المآثر والبطولات وننتظر البسالة وولاء البنوة . نتمنى لكم النصر .. النصر ثم النصر .

وليكن اليوم الذى سوف نستقبلكم فيه كمنتصرين أمجاد يوما مشمسا كيومنا هذا ، ولتهدأ قلوبنا بالاحساس بأننا قد أدينا واجبنا على أكمل وجه . أرواحنا فداء للنصر ! فداء للوطن ! وفداء لستالين ! أورا ! (*)

وقبل ان تخمد عاصفة التصفيق والصيحات ـ وكانت ابتشارا تصيح « أورا » أعلى من الجميع وتصفق أقوى من الجميع ـ أمسك تشوكا بكوعها وقد شق لنفسه بصعوبة طريقا بين الجمع .

القت ابتشارا نظرة حادة على تشوكا تعنى « ماذا تريد » ؟ وواصلت تصفيقها وهى تنظر بحماس تجاه المنصة والرفيق كولوف. الا أن تشوكا قال لها :

(*) أورا ـ هتاف التأييد . المترجم .

ـ لقد جئت بتكليف من رئيس القسم السـياسى بالفرقة كى تلقى كلمة فى هذه المناسبة . قولى بضع كلمات لتوديع المقـاتلين باسم شبابنا . سوف يقدمون لك الكلمة . أفهمت ؟

كان ذلك مفاجأة لابتشارا لدرجة انها تجهمت من الرهبة . وقالت لتشوكا :

ـ أوه . لا يا تشوكا يا عزيزى . لا داعى لذلك . لن أستطيع قول شىء .

ـ انه تكليف كومسمولى، كما ان سلطان خولامبايف قوميسير الكتيبة يطلب منك ذلك هو الآخر . وأنا أيضا أرجوك . كلمتان فقط. انك تودعين أخاك ويمكن ان تقولى للجميع ما تودين قوله له . لقد كنت تتمتعين دائما بالقدرة علي الحديث ومن الصعب ايقافك أثناء الاجتماعات .

لا أحد كان يعرف كيف سينتهى هذا الحديث . لولا تدخل حبيبة قائلة :

ـ بطبيعة الحال ، يمكنك مجـادلتى طوال اليـوم وتجدين الكلمات لذلك . أما هنا فأراك تتظاهرين بأنك كالحمل الوديع . لست بحاجة الى الكلمات هنا ، وما عليك الا أن تتركى قلبك يعبر عمـا يجيش به . هؤلاء الرجال يخرجون للحـرب ، ولا أحد يدرى من الذى سيسمح القدر له من بينهم بالالتقاء بأهله ثانية .

وحثت ايرينا ابتشارا قائلة :

ـ اذهبى . اذهبى . فربما تكونين قد جمعت ما يمكنك قوله اذ تصلين المنصة .

كان كل ما تتذكره ابتشارا ان تشوكا أمسك بيدها وجرها نحو المنصة . كما انها لا تذكر كيف وجدت نفسها على السيارة بجوار الرفيق كولوف مباشرة ، وكيف بدأت الكلام وماذا قالت .

نظرت ابتشارا الى المكان الذى كانت تقف فيه حبيبة والبيان وايرينا منذ لحظة وكأنها تتلهف تشجيعهم لها ، غير انها لم تر أحدا منهم · وبدا لها ان صوت الرفيق كولوف يأتي من بعيـد وهو يقول :

ـ أقدم الكلمة باسم شبابنا الى ابتشارا كازانوكوفا مديرة المزرعة الحيوانية الكومسمولية ·

ومرق كل شيء أمام عينيها واختلط فى ناظريها بحر من مناديل النساء وطواقى الجنود خاكية اللون والقليل من قبعـــاتِ الرجال الفرو والكابات ذات الشريط الأزرق · وانقضت عدة ثوان ســـاد الهدوء فيها المكان · كل هذا وابتشارا لا تستطيع ايجاد أول كلمة تقولها · وصمتت الجموع مدركة صعوبة الموقف بالنسبة لها ·

ـ مقاتلينا الاعزاء ! ـ احمرت وجنتا ابتشارا وظهرت عليهما بقع حمراء أو « رايات » كما كان يصفها تشوكا ـ أخى البيان ! ـ قوى صوت ابتشارا وأصبح أكثر رنينا ـ كنا نود ان نستقبلكم لا نودعكم · لا أجد أمامى سوى مناديل النساء ورؤوس الأطفال ، لا أرى قبعات الرجال الفرو حيث خرجوا للحرب·انكم لستم أول من يذهب الى ساحة القتال · ولكنى أدعو الله ألا يخرج للحرب بعدكم أحد آخر ويترك الزوجات يبكين ويترك الأطفال والأحباء · نحن نودعكم ونشعر بأننا ننتزع قطعة من قلوبنا ، سوف تذهبون ونبقى نحن والألم يعتصرنا · انظروا الى الأرض وقد ازدهرت وارتدت حلة الربيع فى أبهى صورها تماما مثل فتياتنـــــا ، وانظروا الى الجبال وهي تقف شامخة كالعجائز أثناء العرس ·· تقف كما كانت منذ الأزل · انظروا ها نحن اخوتكم وأمهاتكم وزوجاتكم ـ هذا هو الوطن · دافعوا عنا واصمدوا فى مواجهة العدو كما تصمد الجبال فى وجه الرياح · لا تسمحوا للعدو أن يسخر منا ومن أرضنا ·

انكم أملنا . أتسمعنى يا البيان يا أخى العزيز ؟ أتسمعنى ؟ ـ انقطع صـــوت ابتشـــارا واغرورقت عيناها لا اراديا بالدموع

وصاحت حبيبة عن قرب من بين الجمع قائلة :
ـ انه يسمع يا بنيتى . نعم يسمع ، اكملى .

كان صوت الأم مفاجأة لابتشارا فأرتبكت وحارت ، ولـكنها كانت قد قالت كل ما عندها . وغرق المـكان فى عاصـــفة من التصفيق .

نزلت ابتشارا مسرعة من المنصة وقد احمرت وجنتاها وبدا عليها الانفعال ، وشعرت انها أسعد من على الأرض . وانضمت الى أهلها . احتضن البيان ابتشارا . وهنأتها ايرينا ، أما حبيبة فقابلت لها لائمة :
ـ ها قد تحدثت جيدا رغم انك كنت تتصنعين مرددة « لا أعرف ماذا أقول » اننى أعرف لسانك أفضل من أى أحد آخر .

كان العقيد كوبانتسيف آخر من القى كلمة . وكان موقفه على المنصة أصعب من ابتشارا ، حيث كان يدرك ، بل الأصح ، يخمن باحساس القائد العســكرى ذى الخبرة انه ما دامت الأمور تقضى اشراك فرقة غير متكاملة وغير مسلحة كفاية فى الجيش العامل ، فان هذا يعنى أن الظروف تضطر القيـادة الى ذلك . فكيف اذن يمكنه ان يعد هذا الشعب الذى يسمعه ـ الشعب الذى أعطى هذه الفرقة كل شىء من الخبز حتى حلى النساء ـ كيف يمكنه ان يعـده بانتصارات باهرة وأمجاد مدوية ؟ فالعقيـد يعرف حالات كثيرة سحقت فيها الفرق الحديثة بعد أيام قليلة من اشراكها فى القتال ، ولم يبق منها سوى رقمها ورايتها . ومن الذى يمكنه ان يقـــدم

ضمانا بأن الفرقة القوقازية لن تسحق هى الأخرى ؟ ولكن الواقع أن المجتمعين كانوا يريدون أن يسمعوا منـــه تأكيدات بأنه كقائد للفرقة سوف يحافظ عليها بل ويقودها حتى برلين ، ويعود بها الى هنا ـ الى هذا العش الحبيب والأرض الحبيبة ٠

تحدث قائد الفرقة بصوت جهورى وهو يســـند يده اليسرى على حزامه اذ كانت العظام لا تزال تؤلمه ، أما يده اليمنى فأخذ يلوح بها دون توقف وكأنه يلقى الكلمات فى كل اتجاه :

ـ ان الوطن لن ينسى تضحياتكم ٠ وسيسجل التاريخ بأحرف من ذهب جهودكم الضخمة فى قضية النصر على العدو ٠ ان رجال الفرقة القوقازية ٠ وهم يعملون على تحقيق النصر بأقل قدر من الخسائر ، سوف يردون صنيعكم بالمآثر القتالية فى سبيل الوطن ساندوا الجبهة بقوة كما تفعلون الآن ٠ أما نحن المقاتلين والقـادة فسوف نستنزف العدو ونمزقه فى أرضنا ، ثم نطرد الوحش الفاشى ونجهز عليه فى عقر داره ، انتظرونا بالنصر ٠٠ والنصر السريع ٠

وانفجرت من جديد صيحة « أورا » وعاصـــفة مدوية من التصفيق ، غير انها اختلطت هذه المرة بصيحات ونحيب النســـاء العالى ٠ ودوى صوت البروجى وتبعه انطلاق صفارة القـاطرة ٠ وأسرع المقاتلون ، وهم يحتضنون ويقبلون كل من يصادفهم ، الى العربات ٠ وازداد نحيب النســـاء قوة وســـاد المكان الصياح والولولة ٠

أخذت القاطرة تنفث فى بادىء الأمر دخانا شحيحا ثم بدأ يزداد كثافة ٠ وارتعدت العربات وشرعت فى التحرك ٠ وتطاير مع الرياح شرر أحمر يخبو على الفور ٠ فقد كان يخرج من المدخنـة

فى حزم كثيفة فى البداية ثم يقل وينطفىء · وأصبح الجو فى سماء المحطة صافيا يخلو من الدخان ·

وربما سيكون هذا هو المنوال الذى ستتبعه حمامات الجنود البيضاء ، خطاباتهم المثلثة الشكل ، وعليها عنوان « الجيش العامل » · وحدة البريد رقم « ··· » حيث تأتى من البعيد المجهول بكثافة فى بادىء الأمر ثم تصبح أقل فأقل ·

فى وادى الحملان البيضاء

عاد اسم « وادى الحملان البيضاء » ـ الذى اطلقه الأجداد وتعود عليه كل فرد فى قرية ماشوك ـ الى التألق والتردد على كل لسان حين عمرت مزرعة الألبان بأربعين فتاة من تلميذات الأمس وقد ارتدين المناديل والفوط البيضاء وامتلأ الوادى الأخضر بأصوات الفتيات طوال اليوم · وأصبح الوادى مقصد الشباب فى القرية يعرجون عليه مهما كانت وجهتهم : سواء كانوا فى سبيلهم على ظهور الجياد الى المراعى فى الجبال العالية ، أو الى أماكن قطعان الخيل ، أو ـ على النقيض من ذلك ـ أثناء عودتهم الى بيوتهم أو مجيئهم لزيارة ذويهم ·

كانت ابتشارا هى التى تدير المزرعة · ولهذا لم يفوت تشوكا موتايف ـ سكرتير لجنة الكومسمول بالناحية الى جانب جمعه لوظيفة رئيس ادارة المراعى ـ فرصة واحدة تمكنه من التواجد فى الوادى ·

لم تكن حبيبة فى بادىء الأمر تود حتى سماع كلمة «مزرعة» ،

غير أنها تعودت وأصبحت المساعدة الأولى لابتشـــارا · وكانت حبيبة تعتمد ، وهي ترشد ابتشارا ، على الفأل أكثر من اعتمادها على معرفة الأسس التى يقضى بها علم تربية الحيوانات ، ورغم هذا كانت ابتشارا تصدق كل كلمة تقولها لايمانها بأن كل ما تقوله حبيبة لا بد وأن يتحقق · وكان بيتو المتخصص فى تربية الحيوانات يلجأ الى الكتاب التعليمى لأتفه الأسباب ، وهو الكتاب الذى لا يفارقه حتى فى نومه ، أما حبيبة فتقرأ الطالع من حبات الفول ، أو تقيس المسافة بين ظفر الأصبع الوسطى وبين الكتف ثم العكس : من الكتف حتى الظفر وذلك باستخدام الفرشوك (*) · كما انها تستطيع قراءة البخت من البروزات الموجودة على الأصابع حيث تقوم بعدها فيما بين اصبعى الابهـــام والخنصر ثم العكس وبعـــد ذلك تقول هل ستتحقق الامنية أم لا ·

ألم تقل حبيبة فى الربيع أن محصول هذا العام سيكون وفيرا لدرجة أنه لن يوجد العدد الكافى من الثيران لنقله ؟ ويبـــدو أن كلماتها تحققت · كما أنها وعدت ابتشارا بنتاج لم تشهد المزرعة مثله من قبل ·

وبالفعل بدأت فى المزرعة فترة ولادة الابقار فجعلت ابتشارا فى دوامة من العمل حرمتها النوم · فما ان تضع رأسها على المخدة لتنعم بنوم حلو تنسى فيه متاعبها ، حتى تجد من يوقظها ويستدعيها للعمل ، فلا تجد مفرا من الاسراع حاملة مصباحا بغية انقاذ عجل ولد قبل موعده بشهر ، أو بقرة متعسرة ولادتهـــا · وكان على ابتشارا وحدها ان تتخذ القرار : هل ينبغى ذبح العجل أو البقرة قبل أن تموت كيلا يضيع اللحم سدى ، أو يقتضى الأمر انتظـــار المتخصص فى تربية الحيوانات ·

(*) الفرشوك ـ ٤٤ر٤ سم ، وحدة قياس روسية قديمة · المترجم ·

6—3127

ومن المعـروف ان العجل يمكن أن يولد ضعيفا لدرجة أنه لا يستطيع الوقوف على أقدامه والوصول الى لبن الأم · وفى هذه الحالة تراه على القش مبلول الجسد* يرتعد ويرف بأرجله الضعيفة· وفى كثير من الأحيان تصاب العجول الحديثة الولادة بنزلات البرد· ويكفى العجل أن يصاب بالتهاب رئوى حتى يموت قبل أن تتمكن مربية العجول من اطلاق اسم عليه ·

هذا بينما تشوكا يرسل الى مزرعة الحيوانات التوجيهـات الواحد تلو الآخر يطالب فيها ويؤكد « مسئولية الحلابة عن كل لتر من اللبن » · و « مســـئولية الحـــلابة عن كل عجل يولد » و « وجوب امداد الجبهة بمزيد من اللحم » و « من غير الممكن اشباع الجندى بالكلام » و « جودة لبن البقرة مرهونة بجودة العلف » ·

وكم يحتاج المرء فى مثل هذه الحالة من العقل والجهد ليكون مسئولا عن هذا وذاك مسئولية كاملة ؟ وكبلت المشاغل ابتشـــارا المسكينة لدرجة انها لم تكن تجد الوقت لتصفيف شعرها ، فماذا لو يأتى تشوكا الى المزرعة فتقدم له التقـــارير وقد حرمت امكانية تصفيف شعرها ·

لقد نسى جميع من فى المزرعة طعم النوم منذ مدة طويلة · وحدث بالامس أن غلب النعاس احدى الحلابات بجانب البقرة · فما كان من العجل الا أن انتهز هذه الفرصة ورضع الحليب كله · وكانت الفتيات تقفز من الاسرة ما أن تنبلج أول خيوط ضوء النهار تماما مثلما يفعل الجنود فى ثكناتهم · وكان النظام يقضى أن تكون كل فتاة مستعدة للعمل ومعها المحـــلاب (وعاء اللبن) والكرسى الصغير التى تجلس عليه أثنـــاء العمل ، وذلك خلال ثلاث دقائق فقط · أما كل من تتأخر فى اعداد نفسها فيوقع عليها الجزاء متمثلا

فى الذهاب الى الينبوع ـ الذى يوجد أسفل ثلاثين درجة شديدة الانحدار ـ واحضار المياه وذلك علاوة على نوبتها المحددة فى جدول احضار المياه ٠

وبالأمس أصدر تشوكا توجيها جديدا يقضى بالاستعداد لجز الحشائش ، وتخصيص أفضل أعضاء الكومسمول لهذا العمل ٠ وها هو يذكر من جديد كلمة « أفضل » ولكن من أين يمكن جمعهم ؟ فقد تم منذ عهد قريب وفقا لأحد توجيهات تشوكا هذه ارسال سبعة من أفضل الكومسموليين الى فرقة التدريب للدفاع الجوى ، كما أن أفضل الكومسموليين لم يعودوا بعد من عملية بناء المنشآت الدفاعية ٠

لم ينته بعد الاكتتاب فى سندات الدولة ٠ وهذا داخل فى نطاق مسئولية ابتشارا ٠ كما انه لم يتم جمع المعدل المطلوب من الحشائش الطبية ٠ وهل هناك شخص آخر غير ابتشارا يتحتم عليه تحمل مسئولية جمع التبرعات لتشكيل رتل الدبابات المسمى « تشوبراك الحمراء » ؟

لقد كادت ابتشارا ان تنسى طعم النوم ، لكنها تمكنت من النعاس على العربة وهى فى طريقها من القرية الى المزرعة الحيوانية ـ وهذا على كل حال أفضل من لا شىء ٠ ألم يكن من الأفضل أن تذهب خلسة الى الجبهة مع البيان آنذاك وتختفى فى مكان ما تحت قطعة من المشمع ؟ ثم يرفع أخوها المشمع فجأة فيرى، اخته ٠ لا شك أنه كان سيطردها ٠ لا ، ان أخاها يحبها ٠ وكان من الممكن أن تجد لنفسها عملا فى الجبهة بسرعة ٠ فها هى الصحف تؤكد أن الجبهة تزخر بالفتيات ٠ يا ترى اين كان من الممكن ان توجد الآن؟ لقد أرسل البيان رسالة يقول فيها بأنهم قد أعدوا شوربة

6*

من السمك الطازج . واذا كانوا يصيدون السمك ، فأين هم يا ترى الآن ؟ ربما عند نهر الدون ؟ بالطبع هناك . كم تتوق النفس للذهاب الى هناك . ان العقيد قائد الفرقة ربت على كتفها لأن كلمتها أمام الجمع كانت ممتازة . ولا شك ان ايرينا ستنتقل للعيش مع امها حبيبة ودانوتشكا فى حالة ذهابها الى الجبهة . ان الأمر يقضى بأن يعيشوا سويا بالفعل . ما الذى يجعل ايرينا تبنى عشا لها ؟ فلقد هاجر من أوديسا عدد كبير من الناس مما يقتضى تسليم « اعشاش » جاهزة لهم . والى جانب ذلك فان حبيبة لا تريد شيئا فى هذه الدنيا سوى دانوتشكا . فانها تحبها بقدر حبها لعينيها . وكم يثير منظرهما الضحك حين تؤدى الجدة فريضة الصلاة . تجلس دانوتشكا على سجادة الصلاة بجانب جدتها وتتظاهر بأنها تصلى هذه الأخرى . ولكن ما أن تسجد حبيبة حتى تعتليها دانوتشكا وكأنها تمتطى جوادا .

ظلت ابتشارا تنكس رأسها من النعاس وهى جالسة على العربة والجواد شاجدى يدق الطريق الحجرى بقوامه فى رتابة ونشاط .

لقد تعود شاجدى على صاحبته الجديدة . فابتشارا لا تشبه صاحبه السابق الذى كان ينقل الماء الى فرقة الجرارات . لقد كان صاحبه الأول لا يعرف الرحمة . فكان من عادته ترك العربة نصف يوم بجوار المنزل الموجود فى طرف القرية ، وما ان يخرج من المنزل وقد انبعثت من فمه رائحة الفودكا والبيرة ، حتى يبدأ فى استعاضة الوقت الذى ضاع منه ، ملهبا ظهر شاجدى بالسوط مجبرا اياه على الانطلاق بأقصى سرعة عبر الأرض المحروثة . وفى هذه الأثناء يترجرج برميل المياه ويحدث ضجيجا ويتناثر الماء على الطريق . غير انه كان فى الواقع يفكه من العربة بعد ذلك ويجعله

يستريح حتى اليوم التالى · اما صاحبته الجديدة فعطوفة وهادئة ، وها هى الآن قد نعست وأمالت رأسها على كتفها وتدلى السوط على الأرض · الا أنه ، فى مقابل هذا ، لم تعد هناك راحة لا بالنهار ولا بالليل حيث لم يكن لديه عمل خلالهما الا الذهاب من المزرعة الى القرية ومن القرية الى المزرعة ·

أخذ النعاس واليقظة يتنازعان ابتشارا ، وهى ممسكة فى يدها بالصحيفة المتضمنة نشرة مكتب الاعلام السوفييتى · وفى رأسها شذرات من الافكار – لا ليست افكارا ، بل صورا للعقيد قائد الفرقة ، ولاخيها وهو يصيد السمك ، وقطعة المشمع ، والصحيفة التى بها النشرة · فقد كان ينبغى عليها ان تنظم فى المزرعة الحيوانية ندوة لقراءة الصحف واحاطة الفتيات علما بتطور الاحداث · وفى ندوة الأمس سألتها احدى الحلابات « ما معنى معارك عنيفة ؟ » وفى الواقع هل هناك معارك غير عنيفة ؟! · وسألت ابتشارا تشوكا ، الا أنه لم يجب بشىء · عنيفة تعنى عنيفة · وها هى نشرة اليوم تحتوى على نفس الكلمة · غير أن المعارك انتقلت الى منطقة باجوتشارى ومن المحتمل أن تسألها العاملات فى المزرعة أثناء الندوة : أين توجد باجوتشارى ؟ وكم تبعد هذه المدينة ؟ وكم كانت تود ابتشارا أن تلقى نظرة على الخريطة · على ما يبدو فان هناك صبيا من بين المهاجرين من باجوتشارى فى المدرسة ·

واصل شاجدى دق الأرض بخطواته الرتيبة · تول – كو – تاك ، تول – كو – تاك ، تول – كو – تاك ·· والنعاس واليقظة يتنازعان ابتشارا ولكن ها هى رياح باردة رطبة ، غير التى كانت سائدة ، تلامس فتحتى أنف الجواد الحساستين ذاتى الخبرة · وبرزت من وراء الجبل غمامة ضخمة منخفضة بيضاء متشحة بالسواد · من

الغريب أنه وجد صاحبته لا تستعجله للوصول بسرعة الى المزرعة الحيوانية · ولذا اسرع السير من نفسه ·

انتزعت الريح الصحيفة من يد ابتشارا المستسلمة للنعاس ، وشعثت شعرها ولفحتها برطوبتها فى وجهها · وجذبت ابتشـــارا اللجام ولكن برقة بحيث لا يشعر الجواد بأى ألم · وكانت ابتشارا بهذا ملاكا بالمقارنة بصاحب الجواد الســـابق والذى كان يجذب اللجام بقوة تتطاير معها أسنان الجواد ·

تكاثفت الغمامة وواصلت اطباقها على الأرض منحدرة مع ميل الجبل وازدادت برودة الجو ، وانبعثت رائحة الماء ، بل وبدأت تقترب من رائحة الجليد · وأصبح لون السماء كلون الشاى الكلميكى وهو يغلى فى القدر حين نصب فيه اللبن فنجد الشاى الأسود يبقى فترة حتى يختلط باللبن الأبيض · ويضاف الى اللونين الأبيض والأسود اللون الارجوانى واللون الأصفر فيبدو القدر وقد ضرب لونه الى لون الدم أو وكان النيران من تحتـــه تبدو للنـــاظر من أعلى · أحست ابتشارا بالخوف وبدأت تشد اللجام بهمة أكبر ، غير أن الجواد كان مسرعا من نفسه على الطريق الصاعد الى الجبل الى حيث الغمامة مباشرة ·

سقطت أولى قطرات المطر وكأنها تنـذر بالخطـر · وأظلمت الدنيا حول جبل بيرماميت وكان شعاب الجبل كلها قد غطيت من أعلى بمعطف ضخم من الفراء وفجأة انهمر البرد من السماء · وتلفتت ابتشارا بحثا عن مأوى خوفا من أن تصيبها حباته بأذى · فوجدت على جانب الطريق شجرة كمثرى برية تبدو وكان الريح مزقتها فاتخذت منها مأوى لها ولعربتها · وتناثرت على ظهر الجواد البلل أوراق الشجرة التى اسقطتها حبات الجليد الحادة · وكانت

هذه الأوراق لا تزال طرية ذلك لأن الأشجار فى الجبال تخضر فى وقت متأخر عن مثيلاتها أسفل الجبل ·

غطى البياض منحدرات الجبل نتيجة البرد · واندفعت تيارات المياه والطين تشق طريقها الى مهبط الشعب لتصب فى نهر تشوبراك الذى ارتج على الفور وبدأ يزداد هديرا ·

وفجأة تذكرت ابتشارا أن حظيرة العجول فى المزرعة الحيوانية تقع فى طريق السيول مباشرة ولقد حذرها تشوكا أكثر من مرة قائلا : « أما أن تنقلوا العجول من هذا المكان ، أو تعلموها السباحة فاذا انهمر المطر بشدة فى أى وقت فسوف يكتسح حظيرة العجول وما بها » ·

ان أفكار الأحدب معوجة هى الأخرى · فمما يثير العجب حقا انه كيف خطر على بال هذا المتخصص فى تربية الحيوانات الغبى أن يقيم على حافتى مجرى مياه السيول المنحدرتين حظيرة العجول ؟ ان كل ما يستطيع عمله هو توزيع كشوف جاهزة لتسجيل الحيوانات النافقة وقد وقع عليها مسبقا ، وما على الانسان بعد ذلك الا أن يكتب التاريخ ويسجل عدد الرؤوس ويسلم الكشف الى ادارة الكولخوز · وتراه يحضر الى المزرعة على ظهر جولده ويبدأ فى السخرية من الفتيات دون أن ينزل من على ظهره قائلا : « أرى أنه سيكون عليكن تجزئتى الى قطع صغيرة لاكفيكن جميعا » هذا الأحدب الشقى لم يكن أحد فيما سبق يرتضى حتى النظر اليه، ولكنه الآن الرجل الأول فى القرية ذلك لأنه هو الوحيد الذى بقى فيها ·

بعد أن استدعى المتخصص فى تربية الحيوانات السابق للجيش رأى رئيس المزرعة الجماعية ذات مرة المدعو بيتو هذا وهو

ممسك بالكتاب فى يديه • فسأله رئيس المزرعة :

ـ هل تدرس بالمراسلة ؟ لماذا تحمل هذا الكتـــاب التعليمى ؟

ـ نعم بالمراسلة ـ أجابه بيتو مازحا ـ انى أدرس فى السنة الثالثة بالمعهد •

سر رئيس المزرعة وشعر بسعادة كبيرة وكأن زوجته وضعت له ابنا وقال لبيتو :

ـ اذن فالنظرية بين يديك • ولكنك تحتاج على ما أعتقد ، الى العمل التطبيقى • أخبرك بأننى فى حاجة الى متخصص فى تربية الحيوانات •

ومنذ هذا الوقت لم يفترق بيتو وهذا الكتاب التعليمى الذى أصبح بفضله متخصصا فى تربية الحيوانات • فى بعض الأحيان ينظر فى الكتاب ويقرأ بصوت عال كلمات غير مفهومة كى يذر الغبـــار فى العيون •

ما العمل الآن ؟ كيف ستبرر ابتشارا عدم نقل حظيرة العجول أمام تشوكا ؟

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أوجعت فيها ابتشارا الجواد شاجدى بسوطها تماما مثل ناقل المياه السكير السابق • ولم يصدق شاجدى أن صاحبته تريد مواصلة السير فى مثل هذا الجو ، فالتفت الى الخلف قبل أن يتحرك من مكانه • وعندئذ لسعته ابتشارا بالسوط مرة أخرى •

كان صوت اصطدام حبات البرد بالعربة ذا وقع شـــديد • وسحبت ابتشارا قطعة اللباد التى كانت تجلس عليها وغطت نفسها بها • أخذ الجواد يتحرك بسرعة ، تحت ضربات حبات البرد ، ويهز

رأسه ويرتعد . ولكنه كلما أراد الالتفات الى الخلف نتيجة تشككه فى تصرفات ابتشارا كان نصيبة لسعة ســـوط اكثر الما من البرد نفسه .

أخذت الجبال تدوى كالطبل وبدأت ترد على هدير الأمطار والبرد بتدفق سيول لا حصر لها وتحركت الصخور الضخمة بين الرعد والزئير .

وفجأة أطل قرص الشمس بلمعانه من أعلى حيث لم يبـق في السماء سوى بعض السحب المتناثرة . وتألقت السماء بسرعه - مثلما اظلمت بسرعة منذ نصف ساعة - بزرقتها البراقة الصافية. ولم يعد البرد يلسع بضرباته ابتشارا والجواد ، الا أن صـوته تحت عجلات العربة وحوافر الجواد ظل كما هو . ويدا وكأن الهواء المحمل بالسيول لم يكن له وجود . ووضحت المنحدرات البعيدة للجبال للرؤية كأنها ترى من خلال عدسة مكبرة حيث كان من الممكن تمييز كل ثناياها . وبدأت قمم الجبال المغطاة بالثلوج تعمى الابصار ببريقها الا أن ظلالا زرقاء أحاطت بحافاتها عاكسة زرقةالسماء فبدت وكأنها تسبح وتذوب فيها .

واصلت العاصفة الرعدية طريقها أسفل الجبل فى اتجاه مجرى نهر تشوبراك بعيدا عن القرية . ولا شك أن الأمطار والبرد تصـول وتجول هناك الآن . ومرت أمام عينى ابتشارا صورة خاطفـــة لحديقة أورقت أشجارها حديثا . ماذا سيحدث لو أصابهـــا هذا الوابل ؟ من المرجح أن نبوءة حبيبة لن تتحقق هذه المرة ولن يكون هناك محصول وفير .

ظهرت عند سفح الجبل حظائر الأبقار المنخفضة الطويلة .

وبجانبها هذا البيت الصغير الذى تسكنه الحلابات · وأسرع شاجدى خطاه وكأنه يحاول اثبات أنه لم يحمل اسم الجـــواد الأسطورة عبثا ·

كانت حبيبــــــة تحب ترديد القــــول بأن المصيبة تتبع طريق الهواجس· وكانت ابتشارا قد رأت من بعيد كيف يسود الهرج والمرج المكان الواقع بطول حافة مجرى السيول حيث كانت توجد منـــذ وقت قريب حظيرة العجول ، كما أن صيحات الفتيات, قد اختلطت لدرجة أن ابتشارا لم تستطع فهم هذه الصيحات ، غير أنه كان من الواضح انهن يطلبن النجدة · كانت الفتيات يحملن العجول المبتلة الى البيت الذى يسكن فيه ·· قفزت ابتشارا من العـــربة وهرعت نحوهن صائحة :

ـ ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟

ولكن الذى حدث كان واضحا للعيان ·

كانت عزيزة تقف وسط المياه الشديدة البرودة شاحبة الوجه مبتلة وقد وصلت المياه الى منتصف جسدها · وأخذت عزيزة تتصيد العجول الضعيفة من بين المياه المتدفقة وتدفع بها الى الحـــلابات الواقفات على حافة المجرى· وفى الحظائر توالى زوم الأبقار احساسا بالنكبة · كما كانت العجول التى ترتعد من البرد ترد عليها متأوهة بالشكوى ·

حين رأت الفتيات ابتشارا ، انطلقت ألسنتهن بكلمات سريعة كدفعات مدفع رشاش ، الا أنهن كن يقاطعن بعضهن البعض · لم يكن هناك وقت لسماع ما يقلن · نزلت ابتشارا الى مجرى المياه لمساعدة عزيزة · ومدت يدها الى صديقتها التى ازرق لونها من

البرد ، الا أن المصائب أخذت تتوالى · فقد وقع من يد عـــزيزة عجل فجرفه التيار · قفزت عزيزة مذعورة الى حافة مجرى السيول وبدأت تجرى الى أسفل فى اتجاه مجرى التيار · ورأت عزيزة كيف كان العجل يطفو على الماء المتدفق بسرعة نحو نهر تشـــوبراك ثم يختفى تحته ·

ـ عزيزة ، انقذى العجل تشيرنوشكا ! ـ صاحت الفتيات فى أثرها · كما جرت خلفها ابتشارا كذلك · وقفزت عزيزة فى الماء من الجرف وأخذت تسبح حتى وصلت الى صخرة ضخمة بارزة وسط المياه فاستندت عليها بظهرها · وكانت الصخرة بمثابة دعامة مأمونة فى مواجهة التيار الا أن المكان هنا كان عميقا فشربت عزيزة بعض الماء غصبا · ولا تدرى ابتشارا ما الذى جعلها تلاحظ حبات البرد البيضاء العالقة فى شعر عزيزة الاسود الكثيف · أحكمت عزيزة تحديد موقع هدفها ثم غطست وخرجت من الماء حاملة فوق رأسها العجل الذى كان بين الحياة والموت ·

ـ سوف تغرقين · ألقى العجل !

صاحت ابتشارا محـــذرة عزيزة ، الا أن الأخيـــرة لم تسمعها ·

تلقت ابتشارا العجل ووضعته على حافة مجرى السيول وعادت لمعاونة عزيزة فى الخروج من الماء ، غير أنها لم تجدها · فقـــد جرفها التيار الى أسفل ولم يظهر على سطح الماء سوى رأسها الأسود فقط ·

وصاحت الفتيات فى ذعر :

ـ عزيزة تغرق !

ـ انها تغرق · يجب انقاذها بسرعة !

كانت ابتشارا تعلم ان مجرى السيول ينعطف بالقـرب من المكان فاسرعت الى هناك قبل أن يصل التيار بعزيزة الى هنـاك · خاضت ابتشارا فى الماء استعدادا لمساعدة عزيزة التى كانت لا تزال تقاوم محاولة التشبث بالأحجار ، الا أن اصابعها التى تجمدت من البرودة لم تطعها · وأدركت عزيزة أنها بدأت تفقد آخر ما تبقى لديها من قوة ، وأظلمت الدنيا فى عينيها · وهنا شعرت بيـدي ابتشارا القـويتين تمسكان بها وتجرانها من المـاء الى الطين المبلول ·

ـ هل لا تزالين حية يا أختى العزيزة ؟ قولى لى هل لا تزالين على قيد الحياة ؟

أخذت ابتشارا تردد هذه الكلمات باكية وهى تقبل عزيزة التى بين الحياة والموت وتسحبها بعيدا عن حافة مجرى السيول تجـاه الحشائش · جاءت الأخريات فى الوقت المناسب ·

وكانت ابتشارا قد تدربت فى جماعة المـمرضات بالمدرسة وعرفت طرق التنفس الاصطناعى · وأفادتها معرفتها فى هـذا الموقف · وساعدتها الفتيات بقدر استطاعتهن فى اعادة الصديقة الى الصحو ، ومسـحن الدماء برقة من السـحجات وعصرن ثيابها ·

غير أن عزيزة لم تعد الى صحوها · ولقد فتحت عينيها ونظرت الى صديقاتها دون أن تميزهن وعادت من جديد الى الظلمة المختلطة بالبرد والجبال والسماء وتيار المياه العكرة والعجـول · واخذت ابتشارا تردد :

ـ عزيزة ، لا تموتى · أفيقى يا عزيزة! ـ كانت ابتشارا راكعة الى جانبها على ركبتيها دون أن تشعر بحبات البرد وهى تخز جلد

ركبتيها متوردة اللون • أخذت ابتشارا ترفع يدى عزيزة فى رتابة وتصل بهما الىخلف رأسها،ثم تضمهما من جديد الىصدرها قائلة :

ـ لا • لا يجب أن •• يا عزيزة ،أ فيقى ، أنظرى الى •• لا ، لا يجب أن ••

وحين فتحت عزيزة عينيها لبرهة وهمهمت بشىء غير مفهوم أدركت الصديقات أنها على قيد الحياة ، فحملتهـــا الى البيت كى ترقد فى الدفء •

كان البيتمليئا بالعجول ،ترقد على الأرض مغطاة بالبطانيات، كما أن بعضها استقر على أسرة الحلابات • وكانت العجول تخور شاكية مطالبة بأمهاتها ولبنها الدافىء • لم يشذ عن هذا الوضع سوى العجل تشيرنوشكا الذى كادت عزيزة تموت بسببه • فقد كان راقدا فى ركن من أركان البيت دون أن تبدو عليه بادرة حياة •

خلعت الفتيات ملابس عزيزة • وأخرجت ابتشارا من صندوق ملابسها بعض الملابس الداخلية الجافة والبستها كيفما اتفق لعزيزة « الغريقة » • ووضعت الفتيـــات عزيزة فى الفـــراش وغطينها بالبطانيات • كما أحضرن قرصا من أقراص معالجة نزلات البرد ، الا أنهن لم يستطعن جعل عزيزة تبتلعها •

أسرعت ابتشارا الى حظيرة العجـــول بعد أن تركت فتاتين بجوار سرير عزيزة • ولاحظت وهى فى طريقها أنها لم تفك جوادها من العربة • كان شاجدى غارقا فى النعاس وهو يدفىء ظهره الذى الهبته حبات البرد تحت الشمس وكان يصل الى الاسماع زئير نهر تشوبراك الجامح وهو يكتسح الآن الصخور التى لم يكن ليقوى أن يزيحها فى الأوقات العادية ، أما الآن فبـــدا النهر يتلاعب بهذه الصخور الضخمة كما يريد ويدفع بها الى أسفل فتصم الآذان من صوت ارتطام الصخور قبل أن يختلط بضجيج المياه ذاتها •

أخرجت الحلابات من وسط المياه آخر عجل فى الوقت الذى

أصبحت فيه حظيرة العجول أشبه بجزيرة غارقة تحت المياه ·
وأصبح من المتعين الآن انقاذ العجول من نزلات البرد · فقدت الفتيات حيويتهن ونشاطهن وهو ما كان يتمتعن به أثناء نقلهن العجول من الماء الى البيت، أما الآن فقد ارتبكن وانطلقن فى نحيب متشنج ·

وتجمهرت الفتيات حول ابتشارا وكأنها الوحيدة القادرة على حل جميع المشاكل ، وبالفعل تمالكت ابتشارا أعصابها وقالت :

ـ ما الذى جعلكن تولولن ؟ احتفظن بدموعكن ليوم أسود ·

ـ أنت نفسك ، تبكين ·

ـ أن دموعى تذرف بسبب الرياح · أيتها الفتيات · · يا اخواتى! لا يوجد لدينا وقت للبكاء · ينبغى انقاذ العجول ، فسوف تصاب بالبرد وتنفق ولا يجب أن تعلق الآمال على بيتو فانه سيأتى غدا ، وربما بعد غد · وهل يمكن أن يجده المرء بجانبه حين يكون فى حاجة اليه ؟ وعلاوة على ذلك ، فأية فائدة ترجى منه ؟ ينبغى أن نقدم حليب النهار كله للعجول ، وسنرضعها كلها حتى تشبع باللبن الطازج ·

ـ وماذا عن الخطة التى تقضى بانتاج اللبن لسد احتياجات جبهة القتال ؟

ـ هذا ما سأتولاه بنفسى · سأذهب بنفسى الى القيادة وأوضح لهم الأمر · وليقيلونى من العمل ، ولكن ينبغى أن تعيش العجول ·

ـ هذا ما سأتولاه بنفسى · سأذهب بنفسى الى القيادة وأوضح لخوار العجول الشاكية · وتخاطفت الفتيات أوعية حلب اللبن وأخذ اللبن المندفع كالخيوط الرفيعة يحدث رنينا فى الدلاء الخالية ·

وازدادت حالة عزيزة سوءا · وكانت تتقلب من الحرارة رغم أن الفتيات وضعن على جبينها كمادات باردة ، وبدا البيت دافئا وخانقا بسبب ارتفاع درجة حرارتها ·

« اذا لم تتحسن حتى الصباح سنرسلها الى المستشفى » ـ هذا

هو ما قررته ابتشارا فى نفسها · ولكن عزيزة لم تتحسن بل ازدادت درجة حرارتها ارتفاعا · وبدأت تهذى وتتنفس بصورة متقطعة مع ازدياد معدل التنفس ، وظهرت على جبينها حبات العرق البارد ·

وهنا ظهر بيتو على جواده · ولقد تعرفت عليه الفتيات وهو على مسافة بعيدة من البيت · وكيف لا يمكن التعرف عليه اذا كان لا يوجد فارس غيره فى وادى نهر تشوبراك كله ؟ وبدا حدبه وكأن هذا التعس يحمل فوق ظهره قرعة كاملة النضج · وفى العادة لم تكن الحلابات يهتممن بمقدم « الرؤساء » · بل وكن يحاولن الابتعاد عن الأحدب لتلافى مزاجه المعوج ، الا أنهن أندفعن الآن للقائه · كان سلوك بيتو المتخصص فى تربيبة الحيوانات مشوبا بلمحات الزهو بالنفس ، فكان يحمل حدبه وكأنه شهادة تحميه خلصته من الاستدعاء للخدمة فى الجيش وتضمن له الآن حياة هادئة وسط هؤلاء الحسناوات فى وادى الحملان البيضاء ·

ابتسم بيتو بخيلاء حين رأى الفتيات قد أسرعن لملاقاته · أخيرا وصل الى ادراكهن أن الحدب لا يشكل عيبا اذا كان «العريس» ممتازا · ها هن يجرين جميعا وما عليك الا أن تختار ·وفى مقدمتهن بالطبع ابتشاراً غير أن لديها فى الواقع عريس هو تشوكا موتايف· ولكن من الذى يدرى هل سيظل فى زيه المدنى فترة طويلة أم لا ؟ أنهم يستدعون الآن آخر ما تبقى من الشباب ويجندونهم فى الجيش وسيصل الدور حتما على تشوكا ·

كانت ابتشارا على رأس الفتيات اللائى كن يجرين للقاء بيتو ·

ــ أقدم لكن تحية قتالية ــ وأدى بيتو التحية العسكرية ثم أضاف ــ سلام على الجميع ·

غير أن مزاح الفتيات لم يكن يسمح بالمزاح ·وقالت ابتشارا :

ــ اقسم بأن ظهورك هنا لم يكن فى محله فى أى وقت من الأوقات مثلما كان الآن · هل معك صندوق الاسعاف الأولية ؟

ـ وما الذى حدث ؟ أعتقد أنكن قد تشاجرتن من أجلى . من الطريف حقا أن أعرف من التى فازت وأصبحت من نصيبها ؟ ـ لم ينزل بيتو من ظهر الجواد كعادته لأنه لم يكن من السهل عليه أن يمتطى السرج مرة ثانية ، اذ لم يكن يستطيع القفز بسهولة على ظهر الجواد بحيث يكون ارتكازه على الركاب خفيفا كما يفعـــل الفرسان المهرة بل كان يتسلق الجواد على طريقة العناكب ممسكا بغرة الجواد .

واستطرد بيتو قائلا :

ـ ابتشارا .. هل أنت التى تحتاجين الى ؟

ـ لا لست أنا ، بل عزيزة .

ـ تقولين عزيزة ؟ ! لا لن نخرج بنتيجة مرضية . اننى ، وان كنت أنادى بصداقة الشعوب ، لا أميل الى اللغات . وانك تعلمين أنه ينبغى تعلم اللغة الابازينية لكى اتفاهم مع حمـــاتى . وهل فكرت فى مصير الأبناء ؟ فسوف يكون حديثهم مع الأم بلغة ، ومع الأب بلغة أخرى ، ثم يكبرون بعد ذلك ويلتحقون بالمدرسة وهناك يتحتم دراسة اللغة الروسية . لا . هذه زيجة لا تنفعنى .

ـ أعتقد أنه سيتحتم عليك أن تتعلم اللغة الروسية كى تتمكن من الاجابة حين تحقق معك السلطات الســـوفييتية . انزل من الجواد ، فان عزيزة فى حالة خطرة .

اضطرب بيتو . فقد كان على وشـــك أن يخرج من حقيبته الميدانية استمارات تسجيل الحيوانات النافقة ، ثم يواصل طريقه، أما الآن فمن الواضح أنه سيضطر الى النزول عن ظهر الجـــواد على مرأى من الجميع .

ـ وماذا بها ؟ هل مرضت ؟

ـ كادت تغرق .

وقصت عليه الفتياتكل ما حدثوهن يقاطعن بعضهن البعض. دخل بيتـــو البيت مكرما ، وكاد ينفجر ضاحكا حين رأى

العجول على الأرض وقد غطيت بالبطانيات أو بقطع اللباد · وخطى بيتو عبر العجول ووصل الى سرير عزيزة · كانت الفتاة فى غيبوبة وبدا لمن يراها أنها لا تتنفس · ولمس بيتو جبينها المبتل وقال :

ـ يجب أن تنقل الى المستشفى على الفور ·

بلى ·· عبثا كانت ابتشارا تنتظر العون من بيتو · فلم يكن فهم بيتو فى أمراض البشر أكثر مما يفهم فى أى علم آخر ·

لم ترد ابتشارا أن تجعل بيتو يغادر المكان دون الاستفادة منه بأى شكل من الأشكال ، فقالت له :

ـ من الأفضل حقن العجول ·

غير أنه لم يكن لدى بيتو ـ بطبيعة الحال ـ لا المحقنة ، ولا الأمبولات اللازمة لذلك · وانتحى جانبا بابتشارا وقدم لها مظروفا مختوما بالشمع الأحمر متظاهرا بأنه يقدم لها أخطر الأسرار وقال بيتو بصراحة :

ـ ليس من حق أحد سواك أن يفتح هذا المظروف·واليك كذلك رزمة من المحاضر الجاهزة عليها توقيعوخاتم ادارةالمزرعة الجماعية لمواجهة أية ظروف حيث تسجلين فيها الرؤوس التى نفقت ·

وتسلق بيتو الجواد بصعوبة وغادر المزرعة · ولم يعد هناك من يمكن الاعتماد عليه ·

الحشائش الطبية

كان المظروف الذى سلمه المتخصص فى تربية الحيوانات لابتشارا فى سرية وجدية يتضمن توجيها جديدا يقضى بالتالى : « ينبغى تنظيم عملية جمع الحشائش الطبية على الفور مع الاستعانة لتحقيق هذا الهدف بتلاميذ المدارس ، وفرق تيمور (*)

(*) فرق تيمور : هى فرق الحركة الوطنية للاطفال لمعاونة أسر الجنود والمشوهين والشيوخ ، تكونت أثناء الحرب الوطنية العظمى فى الاتحاد السوفييتى · ويرجع اسمها الى اسم بطل قصة الاطفال التى كتبها أركادى جايدار بعنوان « تيمور وفرقته » المترجم ·

وبرئاســــــة مدرس علم النبات » · لم تكن ابتشارا تفهم شيئا فى الحشائش الطبية ، الا أنها اطمأنت لأن ايرينا فيدورفنا انهت معهدا طبيا متوسطا ، ولا شك أنها تعرف الحشـــــائش الطبية أفضل من مدرس علم النبات · وأعلنت ابتشارا فى المدرسة جمع فرق تيمور وتوجهت الى ايرينا حيث اتفقتا ان تحضر ايرينا الى القرية وتترك دانوتشكا فى رعاية حبيبة ، ثم تصاحب ايرينا التلاميذ الى الجبال حيث المروج الجبلية ·

اتخذت حبيبة منذ الصباح الباكر مكانا لها عند بوابة البيت· وما أن ظهرت ايرينا ودانوتشكا عند المنعطف ، حتى صاحت حبيبة بأعلى صوتها قائلة وهى تخلط الكلمات الروسية بالكاباردينية :

ـ يا حفيدتى يا حبيبتى · تعالى الى · يا ربى أجعل طيور الجنة تظلل حفيدتى · فليحفظكما الله لتقر عين ولدى ·

وكانت حبيبة تود اضافة شىء ما · الا أن الكلمات الروسية لم تسعفها،فتحولت الى الصيحات والتنهدات ولغة التخاطب مع الأطفال:

ـ تيو ـ تيو يا عصفورتى الصغيرة ، ليو ـ ليو يا عصفورتى السوداء الجناحين يا نور عينى ·

أسرعت أيرينا الخطى ، أما دانوتشكا فكانت تجرى متعجلة لقاء الجدة ، لقد تعودت على صيحات حبيبة رغم أنهـــا لا تفهم ما تقول ، بل وسألت والدتها ذات مرة قائلة : « ماما لماذا تتحدث جدتى بكلمات غير مفهومة ؟ » فأجابتها ايرينا : « لأنها لا تتحدث باللغة الروسية » ·

أخرجت زوجة الابن وحماتها كل ما فى جعبتيهما من مخزون الكلمات منطلقتين فى الحديث حتى تشبعا رغبتهمـــا فيه · كانت حبيبة تعرف من الكلمات الروسية قدر ما تعرفه أيرينا من الكلمات الكاباردينية · وأخذت الاثنتان ترسمان بأيديهما أشكالا وايماءات وبدا لهما أنهما تفهمان بعضهما البعض الى اقصى حد · واحتضنت كل منهما الأخرى ثلاث مرات كما تقتضى العادة الكاباردينية ·

وفى هذه الأثناء كانت دانوتشكا تجرى فى الفناء مطـــاردة الكتاكيت وتوالى سقوطها أثنـــــاء الجرى ، ولكنها كانت تنهض وتحاول من جديد الامساك بالكتاكيت السمينة الصـــفراء فاتحة اللون . وأثارت محاولات دانوتشكا أم الكتاكيت ، فهجمت الدجاجة على دانوتشكا مدافعة عن صغارها ونقرتها بمنقارها لدرجة الألم .

وهرعت الجدة ممسكة بعود رفيع من فروع الشجر لنجـــدة الحفيدة المذعورة . وكان فى انتظار دانوتشكا فى المنزل طبق خاص لضيافتها . فقــد غلت حبيبة مساء اليــوم السابق اللبن ورفعت القشدة بعد ان برد اللبن وكببتها فى ملعقـــة خشبية وتركتها تجف وتصبح طبق القشدة المفضل .

كان البيان يحب القشدة كثيرا . وتمنت الجدة ان يعجب هذا الطعام اللذيذ حفيدتها كذلك . والآن وبعد أن تسلمت حبيبة بقرة ، وهبت وقتها كله للبن تصنع منـــه الزبد والجبن ، كما نوت صنع برميل « كوندابسو » للشتاء وهو عبـــــارة عن لبن رائب يمكن الاحتفاظ به لعدة شهور .

فى الصباح الباكر ، وبينما كانت دانوتشكا لا تزال فى نومها، دوت عند بوابة المنزل أغنية فرق تيمور . وكان يقود فرقة المدرسة فاسيلى زخاروفتش مدير المدرسة . كان فاسيلى زخاروفتش مريضا متقدما فى السن . وها هو يلبى نداء ابتشارا التى كانت تلميذته بالأمس . وكانت كلمات الاغنية تقول :

فى الأرض والسماء والبحر
صوت مدوى قوى النبرات

لم يكن فاسيلى زخاروفتش يعلم متى حفظ التـــــلاميذ هذه الأغنية ومن الذى علمهم اياها · من المرجح انهم قد تعلموها من طلبة مدرسة المشاة · وقد كان الطلبة يغنون هذه الأغنية كلما كانوا فى طريقهم الى التدريب فى المنطقة الواقعة خلف مصنع الطـوب الأحمر · ولكن ليس كل كلمات الأغنيـــــة الروسية كانت معروفة للتلاميذ ، غير انهم كانوا يعرفون أن هذه أغنيـــــة عسكرية ولذا تخيلوا أنفسهم جنودا حقيقيين · ولذلك كانوا يرددون بصوت عال وبكل ما أوتوا من حماس :

اذا نادتك الحرب غدا
اذا نادتك المعركة
كن مستعدا اليوم

وكان جمع الحشائش الطبية بمثابة أول معركة بالنســـــبة لهم · واذا كان لديهم ما يمكن أن يحلموا به الآن ، فلن يكون سوى قائد شجاع مقاتل مثل البيان · ومما عكر عليهم مزاجهم القتالى بعض الشىء أن زوجة ابن حبيبة هى التى ستقودهم فى الجبال ، فى وادى الحملان البيضاء حيث ينفذون مهمتهم « القتالية » · ولكن من يدرى ربما تستطيع اصدار الأوامر بصورة لا تقل مقدرة عن البيان·

وفاسيلى زخاروفتش روسى الجنسية هو الآخر ، ولكنه يعيش هنا منذ مدة طويلة وقبل أن يظهر الى الوجود أى من هؤلاء التلاميذ· ولقد تحدث أكثر من مرة للتلاميذ عن وادى الحملان البيضاء حتى أصبحت صورته فى مخيلتهم متجسدة فى الخضرة اليانعة والزهور الزاهية التى تمرح وسطها حملان بيضاء لا حصر لها ·ويمكن للمرء فى هذا الوادى أن يصطاد أى حمل بسهولة · كما ان الحملان فى هذا الوادى لا تعرف المرض لأن حشائشه طبية · أما الآن فيتحكم على الحملان مقاسمة المقاتلين الجرحى فى الجبهة جزء من هذه

الحشائش · ولكن لا بأس ، فسوف يترك التلاميذ فى الوادى من الحشائش ما يكفى كيلا تمرض الحملان البيضاء ·

ربط كل عضو فى فرقة تيمور فى وسطه كوزا كبيرا متبعـــا نصيحة المدرس العجوز · ولم يتزود أبطالنا بهذه الأوعية بهـدف سد متطلبات المهمة القتالية فان البحث عن الحشـــــائش سيكون بالقرب من مزرعة الالبان ولذا كان الجميـــع على أمل أن تضيفهم ابتشارا باللبن الطازج · وكان من المفضل بالطبع ان يربط كل منهم فى حزامه حقيبة الذخيرة أو ـ والأفضل من ذلك ـ قنبلة يدوية ـ بدلا من هذه الكيزان السخيفة ، ولكن ما العمل ؟ فان هذه هى أول مهمة يكلفون بها ، وربما سيصل الأمر بهم فيما بعد لحمل القنابل اليدوية ·

كان فاسيلى زخاروفتش يود الذهاب بنفسه مع التـــلاميذ ، الا ان الشيخوخة والضعف لم يسمحا له بالذهاب أبعد من بوابة بيت حبيبة · جلس فاسيلى زخاروفتش على الدكة واستند بيديه على عصاه وعلاه الاكتئاب · فكم كان يود أن يذهب الى وادى الحملان البيضاء ولو مرة واحدة أخرى فى حيـــاته حيث يستنشق هواء الجبال ويفرد كتفيه ليملأ به رئتيه · ولكن ظروفه الصحية لا تسمح بذلك ·

خرجت ايرينا فيدوروفنا الى التلاميذ · كما ظهرت حبيبـــة وكأن الأرض انشقت عنها · وهل من الممكن أن يمر أمر بدونهـا ؟ سلم العجوز قيادة ابنائه لايرينا وأوصـــــاهم لآخر مرة باطاعة قائدهم الجديد وأن يكون سلوكهم متفقا وسلوك أعضاء فرق تيمور ولم ينتظر حتى تتحرك الفرقة واتخذ سبيله نحو المدرسة وهو يجر

رجليه المتثاقلتين من الشيخوخة ، حيث كانت تنتظره أعمـــال ومشاغل أخرى ٠

لم تكن المرأة ذات الشعر الفـــاتح اللون٠، والأنف الاشم والعينين الرماديتين الطيبتين تشبه بأى حال من الأحوال القـــائد العسكرى الصارم ، وبالتالى لم تعجب التلاميذ على الفور ٠ الا ان عزاءهم كان فى انها على كل حال من موسكو وربما تكون على معرفة بستالين ذاته ٠ بل وجد من بين التلاميذ من همس الى جاره زاعما بأن جامعـــة الحشـــائش هذه وصلت الى هنا بأمر من فوروشيلوف ٠ وتصور البعض ان هذه هى الحقيقـــة ، ذلك لأن فاسيلى زخاروفتش جاء بالتلاميذ اليها بنفسه ٠

كانت ايرينا قد اشتغلت فى المدرسة فى وقت من الأوقات ، ولذلك كانت تتمتع بالقدرة على معاملة التلاميذ ٠ فقامت بتنظيمهم بمهارة فى صفين وقادتهم وعاد أعضاء فرقة تيمـــور الى ترديد الأغنية العسكرية من جديد ٠

انطلقت كلاب القرية الى الشوارع وقد أقلقت الأغنية راحتها، وأخذت تنبح نباحا عاليا محاولة بث الخوف فى قلوب الصـــبية البواسل ٠ كما تدفق الى الشوارع صغار الصبية ينظرون فى حسد الى أعضاء فرقة تيمور وهم يسيرون فى مشيتهم المنتظمـــة وسط الشارع ٠ واعتقد صغار الصبية ان الفرقة فى طريقها الى جبهـة القتال مباشرة ، ولذا كانوا على اســـتعداد للانضمام الى هؤلاء السعداء ٠

ظلت حبيبة تنظر طويلا فى أثر ايرينا وقد شبكت يديهـــا النحيلتين المنهكتين من العمل ٠ لقد مضى كل شىء الآن على ما يرام،

غير ان شيئا ما يشبه وخز الضمير يتسرب الى نفس المرأة العجوز فى بعض الأحيان · فقد سببت الكثير من الألم فى الآونة الأولى لهذه المرأة الموسكوفية الطيبة البريئة · وعلاوة على ذلك اخافت ابتشارا عروسة أخيها الشابة بالعادات الكاباردينية ومن بينها ، كما قالت ابتشارا ، ان الأم والأخت تستطيعان اخراج زوجة الابن غير المرغوب بها من البيت رغما عن الأخ واحضـــار زوجة أخرى تحظى بحبهما · ولم تكن ابتشارا تستطيع أن تقول لايرينا مثـــل هذه الأشياء لو لم تكن على معرفة بمزاج الأم ·

وذات مرة سمعت عرضا كلاما يدور بين حبيبة وجارتهـــا دانيزات · وكانت الاثنتان تتذكران كيف تزوجتا ·

ـ قولى لى من فضلك ـ القت حبيبة على اللباد حفنة من حبات الفول ، ولكنها نظرت فى وجه جارتها واستطردت قائلة بدلا من النظر الى وضع حبات الفول ، ـ هل شفتا المرأة الروسية أكثر رقة من شفتى الكاباردينية ؟ لست أدرى لم تزوج ابنى من موسكوفية ؟ كيف يمكننا التفاهم والتخاطب معها ؟ واذا حدث ، لا قدر الله ، وأرقدنى المرض وطلبت من زوجة ابنى كوبا من الماء فانها قد تحضر لى المكنسة · انى لا أعرف لغتها ، كما انهـــا لا تعرف لغتى · ما العمل ؟

تلقفت دانيزات كلمات حبيبة بسرعة وقالت :

ـ فلأكن عدوة الله لو تركت زوجة ابن غريبة تخطو عتبـــة بيتى ، بل انى لن ارغب حتى فى رؤية من تتحدث بلغة أخرى · ان ولدى تشوكا لم يكتمل العقل بعد ، رغم انه يبدو رشيدا · ســوف آخذ على عاتقى أمر زواجه وازوجه بمن اريد · وهل كان من الممكن

أن يتصرف البيان على هذا النحو لو كان تيميركان على قيد الحياة؟ لقد أعطيته مزيدا من الحرية ·

نسيت حبيبة تماما أمر حبات الفول عند ذكر اسم تيميركان وقالت لدانيزات :

ـ ان كلماتك كلها تشع بالحقيقة يا عزيزتى دانيزات · فكم من مرة قال لى فيها تيميركان ـ أحسن الله مثواه ـ : اذا أرخينا العنان فى التربية فان ولدنا سوف يتجاوز كل المحظورات كما يتجاوز المرء روث الخيل على الطريق · ولكن ما من شىء يمكن عمله الآن ، فقد سبق السيف العذل · ان دانوتشكا ـ يهبها الله العمر كى تسعد بحياتها ـ مثل الجدول الرنان الصوت بين شاطىء الوالدين · ان ابنك تشوكا ، رغم انه لا يعيش فى بيت الأم ، قد أصبح من بين الرؤساء وبرز على مستوى المنطقة كلها · الا انه يطيعك ·

وبعد هذا الحديث الذى سمعته ابتشارا ، خطر ببالها اخافة ايرينا · وسنحت لها الفرصة لذلك وقصت على الموسكوفية حسنة النية التى تصدق كل شىء ، اسطورة ، لا ليست اسطورة ، بل حكاية اختلقتها بنفسها آنذاك أثناء سماعها لحديث حبيبة ودانيزات · وقالت ابتشارا فى حكايتها :

ـ جاء كاباردينى بزوجة شابة وقال لأمه : « هذه هى زوجة ابنك فامنحيها حقوقها فى المنزل ولتكن ربة بيت تشعل النار فى الموقد » ·

ونظرت الأم الى زوجة الابن فلم تعجبها · وانتظرت الأم حتى غادر الابن البيت فى طلب شىء ما وطلبت من المزرعة التعاونية عربة زاعمة أنها تريد الذهاب الى الطاحونة ولكنها وضعت حقائب

زوجة الابن على العربة بدلا من الذرة ، كما انها اجلستها هى الأخرى على العربة وجاءت بها الى المدينة · واشترت الأم تذكرة للقطار حتى محطة بروخلادنيا وقالت لزوجة الابن : ·

ـ انك بعد ذلك تعرفين الطريق وحدك · عودى الى منزلك · واذا سألوك هناك قولى لهم ان الدخان فى الموقد يسيل الدموع · وبطبيعة الحال فان الوالدين ليسا بالغباء الذى يعوقهما على فهم معنى هذه الجملة ـ واختتمت ابتشارا حكايتها قائلة :

ـ هكذا يتصرفون عندنا ·

وتظاهرت ايرينا بأنها لا تفهم فسألت ابتشارا :

ـ وماذا تعنى جملة : « الدخان يسيل الدموع » ؟

ـ تعنى ان أهل بيت الزوج لم يقبلوا الزوجة وانه ليس أمامها سوى طريق واحد وهو العودة الى بيتها ·

وصمتت ابتشارا برهة وهى سعيدة لأن حكايتها تركت اثرها فى نفس ايرينا ، ثم باغتت ايرينا قائلة :

ـ على العموم من الممكن الا نشترى تذكرة لك ، فانك لست زوجة شرعية لألبيان ·

ـ كيف لا اكون زوجة شرعية ؟

ـ هكذا ·· ان أمام المسجد لم يوثق زواجكما ، كما انه لن يفعل ذلك لانك لست مسلمة ، بل مسيحية ·

قصت ايرينا المشدوهة القصة كلها لزوجها · وكاد ألبيان ان يضرب اخته وهو فى حمية الغضب ، الا انه تمالك اعصابه واقتصر على تهديدها متعمدا أن يكون ذلك فى حضور أمها :

ـ اذا سمعت بمثل هذا مرة أخرى فسوف احلق شعر رأسك حتى آخره لتصبح رأسك كاللفت ·

لم تفهم ايرينا ما الذى جعل ابتشارا تخاف من هذا التهديد المضحك · فلم تكن تعرف بعد انه ما من عار بالنسبة للفتاة اكبر من قص شعرها ، كما ان حلق شارب الرجل لجبنه يشكل اكبر عار للرجال ·

وأجبر البيان اخته على الاعتذار لايرينا ، ورغم ذلك فان الموسكوفية لا تزال حتى يومنا هذا تخاف العادات الكاباردينية كمن يخاف النار ·

ابتعدت فرقة تيمور مسافة كبيرة ولم تعد اغنيتهم تسمع ، الا ان حبيبة ظلت تنظر بطول الشارع الذى كانت زوجة ابنهـــا الموسكوفية ايرينا فيدورفنا ام حفيدتها دانوتشكا قد قادت التلاميذ الكاباردينيين خلاله ·

وهنا انبعث صوت دانوتشكا من المنزل معلنا استيقاظها · وأسرعت حبيبة على صوت الحفيدة · وكانت قد أعدت لها القشدة منذ المساء السابق مرة أخرى ·

واصلت ايرينا قيادة التلاميذ الى الجبال · وحظرت عليهم الخروج عن الصف والجرى هنا وهناك ،وتسلق الصخور والشقاوة وذلك كى يحافظوا على قواهم · ولتحقيق ذلك قالت ايرينا لهم :

ـ أننا لا نقصـــد التنزه · فان العـــديد من الجرحى فى المستشفيات العسكرية ينتظرون العلاج وستساعدهم الحشائش التى سنجمعها على الوقوف على ارجلهم ومقاتلة العدو من جديد ·

أوقفت ايرينـــا التـــلاميذ للراحة وقررت تعريف جامعى الحشائش الصغار ببعض الحشـــائش · ولم تكن لديهـــا نماذج

للحشائش فاستعانت بالصور فى احد الكتب · وتعلم الأطفال من هذه الصور التمييز بين الحشائش ·

اعجب الاطفال كثيرا باسم نبات « حقيبـــــة الراعى » وهو عبارة عن ساق تتدلى منها زهور صغيرة بيضاء على هيئة عنقود ، والزهور الموجودة بأعلى لا تزال مزدهرة ، أما الســـــفلى فذبلت وتكونت منها وريقات صغيرة خضراء بها البذور ·وكانت الوريقات منتفخة فى الوسط ، أما أطرافها فتبدو وكأنها « محـــــاكة » وبذا تشبه فى الواقع حقيبة الراعى ·

وتعجب الأطفال كثيرا حين وصفت ايرينا فيدورفنا نبـــات اصبع العذراء العادى بأنه مفيد · وهذا النوع من الزهور ينمـــو بكثرة حول القرية ولا حاجة الى الذهاب الى الجبال لجمعه · وعلى ساق النبات كثير من الأجراس الصغيرة الوردية اللون يتـــدرج حجمها من أعلى الى أسفل حيث يوجد اصغرها عاليا وأكبرها فى الأسفل · ويبدو انه لو احدثت هذه الاجراس رنينا لكان لكل منها صوت مميز ، ولكنها مجتمعة يمكن ان تصدر لحنا موسيقيا متناسق الايقاع · وأثارت شجيرة « الداتورة » ضحك الاطفال · أفلم يفصل بعضهم الاكياس البيضاء لزهوره كى يفرقع بها على جبينـــه او جبين رفيق منصرف الاهتمام ، فيحدث فرقعة مثل طلقات الرصاص· وقالت ايرينا :

ـ سوف نجمعه فى أماكن رعى الماشية وبالقرب من الحظائر وحول الروث ، فانه يزدهر فى التربة الخصبة المسمدة جيدا ·

استهوى الدرس التلاميذ واستحوذت ايرينا فيدورفنا نهائيا على اعجاب التلاميذ الذين لم يلاحظوا من فرط اندماجهم معهـــا انهم وصلوا الى وادى الحملان البيضاء ·

وهنا وقع حادث هام . فقد ظهرت فى السماء الصافية فوق الجبال المغطاة بالثلوج طائرة صغيرة .وجمد الاطفال فى اماكنهم. وبادر « أهل المعرفة » من بين الاطفال قائلين : «انها طائرة حربية» . ولم يكن يشك أى منهم فى أن الطائرة سوفييتية وانها عائدة الى قاعدتها بعد اداء مهمتها ، او قامت بطلعة تدريبية . كانت الطائرة على ارتفاع شاهق فوق الجبال ولذا لم يكن من الممكن رؤية علاماتها المميزة .

وفجأة ظهر فى السماء الزرقاء سيل من النقط البيضاء وكأن احدهم نثر حفنة من الزهور البيضاء لنبات حقيبة الراعى سابق الذكر . وتركت الطائرة خلفها ذيلا من هذه النقاط البيضاء بدا وكأنه سحابة . وسرعان ما قلت كثافة هذا الذيل وانتشرت النقاط البيضاء واصبحت تشبه الحمام . بدأ حجم النقاط البيضاء يزداد وهى تطير وترفرف . وأدركت ايرينا ان هذه النقاط البيضاء ما هى الا منشورات وسألت نفسها متعجبة :

ـ ما الداعى الى القائها هنا فى المروج الجبلية ؟ فما من أحد هنا سوى رعاة الخيل والاغنام والابقار .

سر الاطفال لما حدث واندفعوا صائحين نحو اماكن سقوط المنشورات وهم يقفزون بغية تلقفها والامساك بها بسرعة . حملت الرياح المنشورات جانبا ، أما المنشورات التى سقطت على الارض فقد طوحت بها الرياح وراحت تتطاير من جديد . وتسابق اعضاء فرقة تيمور خلفها مما جعلهم يخرجون وهم فى غمرة حماسهم عن طاعة ايرينا وانتشروا على منحدرات الجبال دون اهتمامهم بصيحاتها . وخطر على بال بعضهم ان الطيارين يقصدون بذلك تحديد الاماكن التى يجب ان يجمع منها اعضاء فرقة تيمور الحشائش الطبية .

التقطت ايرينا هى الاخرى أحد المنشورات وذهلت من هول المفاجأة حين رأت الصليب المعقوف الفـــاشستى ٠ وألقت نظرة سريعة على محتوى المنشور ٠ وهنا سألها ناشـــخو ذو العينين الرماديتين ، التلميذ بالصف الخامس الذى عرف بشـــقاوته واختلاقاته :

ـ اعتقد ان الطيارين يرسلون لنا الســـلام ٠ هكذا ام لا ، يا ايرينا فيدورفنا ؟

وصاحت ايرينا فى الجميع ويداها ترتعشان :

ـ اجمعوا كل هذه المنشورات بسرعة ٠ أفهمتم ؟ سوف اعيد الى القرية كل من يحتفظ بأى منها ٠ نعم ، لن آخذه معى ٠ انهـــا منشورات فاشية وقد القاها الالمان ٠ اجمعوها واحملوها الى ٠

ـ اذن سنشـــعل نارا ! ـ قال ناشخو مسرورا ـ من الذى لديه ثقاب ؟

لم يرد أى من المدخنين بين التـــلاميذ ان يفضح نفســـه ولذلك أخذوا يفتشون طويلا فى جيوبهم ، ورغم ذلك أخرج أحدهم من تحت قبعته عود ثقاب وقطعة من علبة للثقاب ٠

جمع الاطفال المنشورات على شكل كوم ٠ لم يكن التـــلاميذ يعرفون اللغة الروسية جيـــدا كى يفهمـــوا ماذا تتضمن هذه المنشورات ، غير انهم يعرفون كلمة « فاشستى » ٠ وعزمت أيرينا الا تحكى لهم ان الجنرال روف الالمانى قد اعلن فى المنشـــورات استيلاء القوات الالمانية على مدينة خاركوف وزحف هذه القوات نحو القوقاز ٠ ويعرض الجنرال على أهالى مناطق القوقاز الجبلية ان يفتحوا الابواب امام القوات الالمانية الظافرة ٠

اختفت الطائرة وراء السحب بعد ان انجزت مهمتها ٠

اشعل ناشخو النار فى كوم المنشورات · زادت الريح النار اشتعالا · وهنا عاد صبيان كان قد جريا وراء المنشورات حتى كادا ان يصلا الى قمة الجبل · وتحدث الصبيان وهما يلهثان ويقاطعان بعضهما البعض عن مظلتين تحملان شيئا ما اسود اللون ثقيلا ، وأن المظلتين سقطتا فى ألغابة عند منعطف نهر تشوبراك · هلع قلب ايرينا وراودتها الرغبة فى العودة بالاطفال بمنتهى السرعة الى القرية · غير ان المسافة حتى المزرعة كانت اقرب حيث كانت ترى حظائر الابقار المنخفضة عند سفح الجبل ولن يستغرق الوصـول سيرا اليها الا حوالى ثلاثين دقيقة ، هذا فضلا عن ان بها العشرات من الفتيات ، كما ان بها ابتشارا التى تعتبر اشد مراسا من أى شاب ·

ترك الأطفال بعد هذه الأحداث جريهم ولعبهم ومرحهم فقـد مستهم الحرب بانفاسها مما جعلهم يلتزمون الهـــدوء · واصل التلاميذ سيرهم جماعة فى عجلة وصمت وأخذوا يتهامســـون فيما بينهم بمختلف التخمينات والافتراضات ·

استقبلت ابتشــــارا الفرقة بصيحات الفرح ، على عكس ما كانت تتوقع ايرينا ، وكأن الذين جاءوا ليسوا اعضـــاء فرقة تيمور ، بل قوات حقيقية منقذة · واحتضنت ابتشارا زوجة اخيهـا وهمست فى اذنها كمن يسر بشىء ما لشخص اهل للثقة ·

ـ أود ان اخبرك بأن لدى ضـــيوف ·· رجلان من المظليين ولست أدرى من هما وأخاف سؤالهما ·

وكادت ايرينا تسقط على الارض مغشيا عليها من الخوف ·· اذن كان الصبيان صادقين فيما قالاه ·

واتضح ان ابتشارا رات اعضاء فرقة تيمور وهم فى طريقهم الى هنا ، كما ان المظليين رأياهم كذلك وسالا قلقين عن هذا الجمع وحين اخبروهما بانهم تلاميذ المدرسة فى طريقهم لجمع الحشائش الطبية ، هدأت نفوسهم . ودخل المظليان البيت وآويا الى الفراش على الفور حتى دون ان يطلبا شيئا ما ليأكلا مما يدل على شدة ما كانا يعانيان من اجهاد .

ـ لدى خطة ـ همست ابتشارا لايرينا ـ سأبعث ببعض الرسل الى تشوكا موتايف فى السر . فليأت ويراجع أوراق تحقيق شخصياتهما . اما انت فاتركى هنا بجانبى صبيين .

ـ لا ، يجب ترك كل الاطفال ، ـ قالت ايرينا وهى ترتعش ناصحة ابتشارا ـ فلن يقوما بالهجوم فى حالة وجود الاطفال ، اما اذا بقيت وحدك فانهما سيقتلانك فى لحظة . سنبقى معا جميعا .

ـ لا ، لا داعى لذلك . فحين يأتى تشوكا ، ربما يحدث اشتباك بالاسلحة ، وربما تستخدم القنابل اليدوية ، وربما تصيب الاطفال .

ـ حسنا .. سأترك هنا كاسا وناشخو ، فانهما يتميزان بالذكاء .

وقادت أيرينا بقية الاطفال مبتعدة عن مزرعة الماشية لجمع الحشائش الطبية . وكانت ايرينا تدرك ان الاحداث الرئيسية لم تأت بعد .

ضيوف من غير دعوة

كانت ابتشارا قد كسرت المنبه الخاص بها منذ مدة طويلة ، ومع ذلك تعلمت تحديد الوقت بحيث لم يكن خطأها يزيد عن خمس دقائق . وكان يساعدها فى ذلك الجبال المحيطة بوادى الحملان البيضاء . فقد اصبحت هذه الجبال بالنسبة لابتشارا بمثابة ميناء ساعة عملاقة رائعة . وبلا شك فلم يكن لأحد فى هذه الدنيا مثل هذه الساعة .

كانت القمة الموجودة فى أقصى اليسار والشبيهة باكليل الزواج ، بل بالتاج الملكى ، ترمز لدى ابتشارا الى الرقم خمسة . فحين تطل اشعة الشمس من خلفها كانبعاث وميض الذهب ، تدرك ابتشارا ان الوقت حان لاعداد اوعية الحليب وحلب الابقار . وهذه هى اولى واجبات الصباح . ثم يلى هذه القمة جبل مامات ذو القمتين . وحين تلامس الشمس القمة اليسرى للجبل.يحين موعد نقل الحليب الى مصنع الجبن ، أما اذا تحركت الشمس نحو القمة اليمنى ، يحل وقت جمع الفتيات فى صفين والتدريب معهن وفقا لبرنامج جماعة التدريب العسكرى . ثم يلى ذلك جبل القبلة والذى يعنى منتصف النهار وبالتالى وجبة حليب النهار . ويعرف الراعى هذا الوقت فيسوق الابقار الى المزرعة . واذا مالت الشمس نحو جبل « اسنان الحماة » وتغطى بأشعتها البرتقالية أقصى قممه من ناحية اليمين ، فانها تعلن عن نهاية يوم العمل .

نظرت ابتشارا وهى تبعث رسلها السريين الى ادارة المراعى ـ الى الشمس وبنفس النظرة المعتادة التى ينظر بها الناس الى ساعات معاصمهم . كانت الشمس تزحف ناحية جبل القبلة معلنة منتصف النهار .

بقيت ابتشارا فى المطبخ مع الصبيين عضــوى فرقة تيمور وأخذت تتحدث بصوت عال كيلا يعتقد المجهولان اللذان هبطا من السماء انها وحدها ·

اتسمت تصرفات الصبيين بالطاعة · فقد كانا يفهمان ابتشارا من أول كلمة وينفذان ما تطلبه منهما بسرعة ، كما كانا يستطيعان عمل كل ما يؤمرا به حتى **نخل الدقيق بالمنخل** ·

كان من الممكن ـ من هنا ، من المزرعة ، رؤية اعضــاء فرقة تيمور وقد تناثروا وعلى « رأسهم » ايرينا فيدورفنا بالقرب من منطقة جز الحشائش حيث كانت فتيات المزرعة يكومن الحشائش · وبدا الاطفال على بساط المرج الأخضر على هيئة ازهار ناصــعة اللون يتميز من بينها لون القبعات البيضاء التى يرتديهــا بعض الاطفال ·

لم يصــدر الرجلان اللذان فى الداخل اية بادرة من بوادر الحياة ، غير ان ابتشارا كانت تحس بوجودهمــا طول الوقت · وكانت بين آن وآخر تطل عليهما خلسة من الفتحة التى تكونت فى الحاجز القديم المقام من الطوب اللبن · وكانت الفتيات يسألن عادة من خلال هذه الفتحة الطباخة عزيزة هل انتهى اعداد الطعام ام لا ، مما كان يثير غضب عزيزة ، فقامت اكثر من مرة بســد هذه الفتحة بالطين كيلا تثير الحلابات الجائعات اللائى لا يعرفن الصبر ضجرها · والآن أصبحت هذه الفتحة عظيمة المنفعة ·

رأت ابتشارا الرجلين المستلقيين على سريرين وبالقرب منهما على الارض العجول المريضة تخور · وقالت ابتشارا لنفسها « كم اخشى ان توقظ العجول بخوارها الضيفين قبل الاوان » · وربمــا

كان ارسالها للصبية الى ادارة المراعى عبثا لا داعى له ؟ فقد يكون هذان المظليان من الطيبين الذين يدرسون فى فرقة التدريب للدفاع الجوى وهى الفرقة التى كانت ابتشارا ذاتها تود الالتحاق بها . ولكن ابتشارا لا تخطىء . فقد رأتهما وهما يخفيان مسدسين تحت الوسادة حين رقدا للنوم . وكان هناك عند موضع الرأس من السرير حقيبتان من جلد العجول من الحقائب التى تحمل على الظهر . وقال احد « الضيوف » : « خياتشابز ، أعطنى ماءا للشرب » .

كان القدر قد بدأ فى الغليان فى الوقت الذى كان الصبيان يكسران الحطب الى قطع صغيرة . وخلف الحاجز بدأ العجل تشيرنوشكا فى الخوار محاولا الوقوف . اذن سيوقظهما الآن .

وهنا ظهرت سيارة رئيس ادارة المراعى مقبلة بسرعة نحو المزرعة وهى تثير الغبار الاحمر وتحدث فراملها صريرا عند المنعطفات الشديدة الانحناء . وكانت ابتشارا تعرف مقدم تشوكا من هذه السيارة . فحين عينوه رئيسا لادارة المراعى اعطوه هذه السيارة من جراج اللجنة الحزبية بالاقليم لتكون بمثابة تأكيد على أهمية المهمة الموكلة اليه .

واستيقظ النائمان وقفزا بسرعة فائقة من السرير . واندفع ذلك الشخص الذى قال لابتشارا منذ قليل «خياتشابز» نحو النافذة . كانت سيارة النقل تسير بأقصى سرعة على الطريق الملتو وعليها خمسة ركاب ، ولكن ما وجهتها .. هذا ما كان يصعب التنبؤ به حتى هذه اللحظة .

دفعت ابتشارا الصبيين تحت منضدة المطبخ ، أما هى فملأت

دلوا كاملا من المرق الذى كان يغلى واتخذت مكانا لها عند البـاب وهى على أهبة الاستعداد ٠ وحين ادرك الصبيان الخطر المحدق بدآ فى النحيب بصوت خافت ، غير أن ابتشارا أشـــارت لهمـــا بالصمت فأطاعاها ٠ وأخذ ضجيج السيارة يقترب ٠ وسمع من الجانب الآخر صوت ضرب الباب بكعب بندقية ٠

ـ خياتشابز !

وتوالى سباب مقذع ٠ ولم تشعر ابتشـــارا ان الدلو يلسع اصابعها ودوت دفعة رشاش محدثة صوتا مدويا فى بادىء الامر ثم خفت ، وتناثر الطين من الجدران وتمزق الباب بثقوب صغيرة سوداء كأنها ظهرت من تلقاء نفسها وامتلأ المكان برائحـــة دخان البارود ٠

غير أن الهابطين من السماء لم يكن لديهما وقت لمحاسبة الفتاة وقد اختفت خلف الحاجز ٠ فحين لاحظا أن السيارة انعطفت نحــو المزرعة قفزا من النافذة وجريا تجاه النهر حيث أخفيا على ما يبدو سلاحا وذخيرة ومحطة ارسال لاسلكى ومنشورات ٠

جاء تحرك الرجلين متأخرا ، اذ قطع تشوكا عليهما الطريق بالسيارة بخروجه على الطريق العام ، وراحوا يطلقون النار عليهما من المسدسات وبنادق الصيد ٠ ولم يهتم أحد من بين ركاب السيارة بالرد على اطلاق الرصاص لأن السيارة كانت تتأرجح وتهتز على الأحجار والمطبات بحيث يتعذر حتى على القناص أن يصيبها ٠

وأخيرا أصبح تشوكا بسيارته بين المظليين وبين المكان الذى كانا يسرعان اليه ٠

لم يفلح أحدهما فى الوصول الى المكان المطلوب ٠ فقد عاجلته

طلقة من بندقية قبل أن يصل الى المكان بحوالى عشر خطوات ٠ واتضح أن نيران البندقية أكثر توفيقا من نيران الرشاش ٠ فقد أصابت بندقية الصيد التى تستخدم فى اقتناص الحيوانات الضخمة مثل الخنازير البرية ـ أحد المظليين فى جنبه الأيمن ومزقت جنبه الأيسر كله ٠ وسقط الجريح فى مياه نهر تشوبراك ، فحملته المياه ـ التى كادت تتجمد من شدة البرودة ـ لتضرب بجثته الصخور التى تقف فى طريقها وتلقى به مع تياراتها الساقطة من أعلى لتتلقفه مرة أخرى وتواصل مسيرتها ٠ وقفز اثنان من راكبى السيارة وأسرعا بطول الشاطىء فى محاولة للحاق بالجثة واخراجها ، غير أن محاولتهما لم تفلح ٠

وأخذت الجثة تطفو بين الحين والآخر وسط رغاء تيار النهر السريع متقلبة على جنبيها ، وتعود الى الاختفاء تحت الماء والتيار يواصل جرفها أبعد فأبعد ٠

وتمكن الرجال من القبض على المظلى الثانى حيا ٠

كانت ابتشارا تسمع من مكمنها اطلاق النار ٠

ـ ابتشارا ! ـ ناداها صوت عند الباب مباشرة عرفت فيه صوت تشوكا ٠

وصبت ابتشارا المرق من جديد فى القدر وقفزت خارجة من المطبخ فاصطدمت بخطيبها بالفعل ٠ كان وجه تشوكا ملطخا بالدماء، الا أن الجرح لم يكن ناتجا عن طلقات الرصاص ٠ فقد اصطدم أثناء المطاردة عبر الصخور بالزجاج الأمامى للسيارة فكسره وشج حاجبه ٠ غطت الدماء عينه اليمنى وهى العين التى يحتاج اليها المرء أثناء التصويب على الهدف ٠ ولكن لم يعد هناك ما يستوجب

التصويب ، وتم تحقيق النصر ـ كما كان يردد أعضاء فرقة تيمور ـ « بقليل من الدماء وضربة قوية » ٠

اثبتت ابتشارا أن دراستها فى جماعة المرضات لم تذهب سدى ٠ فقد عالجت الجرح بسرعة وأوقفت تدفق الدماء وربطته بالضمادات كما تتطلب الأصول ٠ وأصبح تشوكا الآن يشبه أبطال السينما بهذه الضمادة البيضاء الناضحة بالدماء الحمراء ٠ ولقد كان فى الواقع يشعر بأنه بطل ، ذلك لأن كل الأحداث تمت أمام عينى ابتشارا ، بل وبمساهمتها ٠

كان يصعب تصديق أن أحد أبناء المنطقة عاد اليها وقد أصبح خادما حقيرا لهتلر يخون بلده وشعبه ٠ وتذكرت ابتشارا الاسطورة التى كانت ترددها حبيبة كثيرا فى أمسيات الشتاء ٠ وتقول الأسطورة بأن الأهالى أخذوا ينزعون جلد الخائن بأظافرهم وهو حى كى يروه وهو يموت ألما ٠ وكم تود ابتشارا لو عومل هذا الخائن بهذه الطريقة ٠

اتسمت تصرفات « خياتشابز » بالوقاحة ٠ فقد كان هادئا يبتسم وكأنه لا يخاف شيئا مما يرجح أنه كان على ثقة من أن الألمان ـ سادته الحقيقيين ـ على وشك الوصول الى هنا اليوم أو غدا ، وفى هذه الحالة سيشنقون هؤلاء الاغرار ٠ لن ينبس ببنت شفة حول زميله الذى ابتلعه نهر تشوبراك مجندلا اياه على الصخور ، وكأنه لم يكن له وجود بالمرة ٠ وكانت ابتشارا أول من اندفع نحو الأسير قائلة فى غضب :

ـ فلينقلب اللبن الذى ارضعتك أمك بمرض لا شفاء منه ٠ لم تفلح مهمتك ؟

كانت ابتشارا تود ضربه ، الا أن أصابعها كانت تؤلمها نتيجة احتراقها وهى ممسكة بالدلو الساخن · ورد عليها الأسير قائلا :

ـ لقد أخطأت الهدف · كان ينبغى قتلك على الفور · فى هذه الحالة ما كنت لتستطيعى الوشاية بنا ·

لم يتمكن « خياتشابز » من اكمال كلامه ، فقد ركله تشوكا بقوة فى بطنه فسقط على الأرض · وأخذ الأسير يتلوى طويلا على الأرض وهو يئن ويصر على أسنانه · وأمسك تشوكا به وأجبره على الجلوس وسأله :

ـ ما اسمك أيها الوغد ؟

ظل الأسير صامتا مدة طويلة حيث لم يكن يستطيع الكلام على ما يبدو ، وأخيرا قال بصعوبة :

ـ اسمى كازوخوف ـ مختار كازوخوف ·

فانتفضت ابتشارا غاضبة :

ـ لا ·· انك كاذب ـ ان طباختنا عزيزة تدعى كازوخوفا وهى الآن مريضة فى المستشفى ـ لم تكن ابتشارا تقبل فكرة أنه من الممكن أن يكون لدى عزيزة اخ خائن ·

وسأل تشوكا الأسير :

ـ هل أنت من قرية بوران ؟

ـ نعم ·

اتضح أن المخرب كازوخوف كان يعلم أن عزيزة كازوخوفا التى تحمل نفس اسمه تعمل طباخة فى هذه المزرعة بالذات · كما أن المزرعة توجد فى الجبال مما يجعل منها قاعدة مريحة للانطلاق

منها لتنفيذ العمليات التخريبية · غير أن الفشل صاحب المظليين منذ البداية · فقد كانوا ثلاثة ، غير أن ثالثهم اصطدم بذيل الطائرة فتناثرت المنشورات من حقيبته ، وسقط على الصخور ولم يبق منه شيء بطبيعة الحال · الا أن حظ الآخرين لم يكن بأفضل من زميلهما ·

كان كازوخوف فى حقيقة الأمر يأمل فى التملص ، فالألمان، كما كان يعتقد ، سوف يطلقون سراحه آجلا أو عاجلا · وربما يمكنه خداع هذا التشوكا الذى يصور نفسه بطلا ، كما أنه من المحتمل أن يساعده شركاؤه فى الأفكار ·

وكم هم كثيرون هؤلاء الشركاء فى الأفكار ، لا يحتاج طفوهم الى السطح الا الشعور باقتراب الالمان من المنطقة ·

ـ انى أعرف كل أقارب عزيزة حيث كنت أجلس معها خلف درج واحد فى المدرسة من الصف الأول ـ واصلت ابتشارا امتعاضا من كلماته ـ انك لا تريد سوى وصم اسمها الشريف بالعار ·

ـ تقولين أن قرابتى توصم أختى الآن بالعار ! سيحين وقت تصبح فيه هى وصمة عار لى · ولكنى لست أسود القلب وسنتصالح فى وقت ما ·

ـ أيها الكلب! ـهكذا بدأ تشوكا فىاستجوابه بقدر استطاعته مؤكدا أن مصير الأسير يتوقف كلية عليه ـ على تشوكا ـ حيث يمكنه أن يطلق عليه الرصاص فى جبينه ، أو يأمر بالقائه من أعلى الصخور كما كان يفعل الأجداد بكل من كان يعمل فى معسكر الأعداء ، أو يحتفظ به حيا ويقدمه الى أجهزة القضاء السوفييتى · كل هذا متوقف على ارادة تشوكا ·

وصاح تشوكا فيه :

ـ لا تحاول الكذب · لقد اطلقت علينا النار وهذا يكفى أن نقتلك كما نقتل الكلب المسعور · قل كل ما عندك · من أين جئت ؟ ومن الذى أرسلك ؟

كان المخرب يتصرف بصورة غريبة ، أو هكذا بدا لابتشارا وتشوكا · فقد ركع أمام الجبال واحنى أمامها رأسه وأخذ يقول كلمات منمقة ، بل ويلقى شعرا ربما من تأليفه أو تأليف غيره · ووصف ابتشارا بالأخت الضالة المسكينة وهنا احتدت ابتشارا قائلة :

ـ يجب أن تغسل فمك قبل أن تتفوه بكلمة «الأخت» · ان أخى يحارب أمثالك · يا للأسف انك لم تلق حتفك برصاصته ·

أسرع الصبيان اللذان جلسا تحت المائدة طوال هذه الأحداث لدعوة ايرينا والأطفال للغداء · وكانت ابتشارا تخمن أن ايرينا تتقصد عدم العودة بفرقة تيمور الى المزرعة ، دون أن تعلم بالضبط ماذا حدث · وما أن دعا الصبيان الجميع حتى انطلقوا مسرعين نحو المزرعة بكل قواهم وكان الرسولان اللذان جاءا من ميدان المعركة واللذان كانا شاهدىعيان لما حدث قد حكيا للأطفال عنحدوث معركة حقيقية سقط فيها قتلى وأسرى ، كما أنهما كى يدهشا جامعى الحشائش عرضا على الأطفال عددا من أظرف الطلقات الفارغة جمعاها فى الطريق ·

لم تكن قصة الأسير قصة بسيطة · فقد استدعى مختار كازوخوف الى الخدمة بالجيش قبل بداية الحرب · وأنهى فى قلعة بوبرويسكيا دورة القناصة وتسلم بندقية بمهداف تلسكوبى وأصبح مختار فى نفس الوقت مراسلا غير معين فى جريدة الفرقة حيث كان

يكتب الشعر والمقالات والمراسلات الاخبارية وأخذ اسمه يلمع على صفحات جريدة الفرقة واسعة الانتشار·ورشح مختار لتولى منصب مسئول الدعاية فى الفوج وكان من الممكن أن يصبح مسئولا للدعاية لولا ولهه بشابة تعمل طبيبة فى المستشفى العسكرى · وأصبح تحت مختلف الحجج يتخلف الى مؤخرة الفرقة كى يلتقى بها · واذا كان لا يتمكن فى بعض الاحيان من الحصول على تصريح ، كان يأخذ بندقية القناصة وطعاما ويتوجه الى الخطوط الأمامية بحجة « اصطياد » الألمان · ومن هنا كان يتسلل الى المؤخرة حيث كان يتمكن من الذهاب الى كتيبة الخدمات الطبية والعودة من هناك فى نفس اليوم ·

وكان المثل المفضل لدى مختار هو « لا يفسد التكرار الصلاة » الا أن التكرار فضحه ذات مرة حيث عرف خبر القناص · وكاد كازوخوف أن يمثل أمام محكمة عسكرية للغياب أثناء تأدية الخدمة فى ظروف الحرب · الا أن الأمر انتهى بالتوبيخ ·

ولكن سرعان ما « ضاع » بسبب علبة من السيجار الألمانى ·

كانت الخطوط الأمامية الألمانية تمر بقمة الجبل ، أما قواتنا فاتخذت مواقعها بأسفل · وتمكن الألمان عن طريق احدى المكالمات التليفونية التى تصنتوا عليها أن يعرفوا أن جنودنا لا يدخنون لليوم الثانى لعدم وجود تبغ لديهم · فقد كان جندى الاتصال يقول فى السماعة :

ـ أحوالنا لا بأس بها ، هدوء ، كل شىء على ما يرام · ولكن حلوقنا جفت حيث لا يوجد ما ندخنه · أعطنى نفسا واحدا عبر السماعة !

وفي اليوم التالى خرج أحد الألمان واعتلى متراس أحد الخنادق المعادية وأخذ يرى جنودنا علبة كبيرة من السيجار وهو يقـــول مستثيرا جنـودنا :

ـ أيها الروس . كفى قتالا ٠٠ تعالوا دخنوا هذا سيجار ماركة « هافانا » ٠

ـ أقتل هذا الوغد ! ـ أصـــــدر قائد الفصيلة أمره الى القنـــاص ٠

ـ لن يعوقنى شيء عن قتله فى أى وقت من الأوقات ٠ وانك تعلم أننى قد اقتنصت سبعين منهم ، ولكن الرجال يتشوقون للتدخين، فاسمح لى بأخذ العلبة منه ، فربما يعطيها اياى بالفعل ٠ واذا حدث شيء يمكنكم اطلاق النار على وعليه بدفعة واحدة من رشاش ٠

بدأ التردد على قائد الفصيلة الملازم اول حديث السن والذى كان يريد التدخين كذلك ٠ وأيد المقاتلون القناص قائلين :

ـ هذا صحيح ٠ لقد قتلنا منهم الكثير وسوف نقتل أكثر ، ولكن علبة السيجار شيء لا نجده مبعثرا فى كل مكان ٠

ـ حقا أيها الرفيق الملازم أول ٠ اسمح له ، أما تصيب أو تخيب !

وسمح له الملازم أول ٠ وخرج كازوخوف من الخندق واتجه نحو الألمان الذين كانوا يتابعون الأحداث باهتمام ٠ ووضع الجندى الذى يحمل علبة السيجار مدفعه الرشاش على الأرض وتوجه لملاقاة كازوخوف ٠ والتقى الاثنان فى المنطقة المحايدة ٠ واتضح أن الالمانى يعرف بعض الكلمات الروسية ٠ وأشعل كل منهما سيجارا ٠ وكانت هذه هى أول مرة يضع فيها كازوخوف سيجارا حقيقيا فى فمه ٠ غير انه لم يكمل تدخينه ٠ وفجأة خطف العلبة من الألمانى وأسرع نحو خنادق قواتنا ٠ وهنا اندفع الألمانى المذعور كذلك الى خندقه٠

وانتهى الأمر بالضحك دون اطلاق رصاص ، ودون ضحايا · ووزع السيجار على الفور على الجنود ثم ألقيت العلبة الفارغة خلف متراس الخندق ·

وبالليل تم القبض على كازوخـــوف وقيد الى قسم « الموت للجواسيس » حيث احتجز عدة أيام · وبعـــد ذلك أطلقوا سراحه محـــذرين :

ـ اذا حدث شيءمن هذا القبيل سوف نجازيك لحادث السيجار كذلك : حذار أن تفعل شيئا بعد ذلك ·

وبعد عدة أيام كان كازوخوف فى كمين مع زميل له · وابتعد كازوخوف عن الكمين خلف الأشجار وبلل طاقيته العسكرية وأطلق النار خلالها على رجله · كان كازوخوف يأمل فى أن يحمله زميله الى مواقع قواتنا ، غير أن معركة نشبت فى هذه الأثناء وقتـــل زميله · وبقى كازوخوف وحيدا فى ميدان القتال ينزف دما · ولم تسعفه الضمادات التى يحملها معه ·

وشعر بأن قواه بدأت تخور ، وانه سرعان ما سيفقد الوعى ، فبدأ يزحف الى الخلف حتى وصل الى نقطة الاسعاف الالمانية وهو فى وعيه · وأبدى الأطباء الألمان اهتماما كبيرا به · وأصـــبح كازوخوف اللسان (*)الذى خطط العدو فى هذا القطاع من أجـــله عملية الاستطلاع القتالية ·

(*) « اللســـــان » تعبير محلى حربى يعنى الاسير الذى يمكن أن يحصل منه على المعلومات الهامة · (المترجم) ·

سارت الأمور بعد ذلك بصورة أبسط : تدريب لمدة ثلاثة أشهر في احدى المدارس الخاصة ثم التكليف بأولى المهام وهى الهبوط بالمظلة في الجبال واعداد السكان المحليين لاستقبال الالمان ، وبذل كل الجهود كيلا يكون رجال الجبال فرق الفدائيين · وحين يقترب الألمان من جبال القوقاز يجب الايحاء للسكان بأن القوات الألمانية تحمل معها التحرر للشعوب المستعبدة الصغيرة ·

لم يكن كازوخوف يشك فى النصر السريع للألمان · فقد كان يعلم بالهجوم الكبير الذى تقوم به القوات الألمانية على منطقة نهر الدون ، ولذا أخذ يعيد باقتضاب المرة تلو الأخرى نفس القصة : انه وقع فى أيدى الألمان وهو جريح فأخذوه فى الأسر وأنه لم يستطع أن يرفض حين عرضوا عليه الهبوط بالمظلة فى الجبال لأنه كان يتحرق شوقا اليها · واستدار من جديد ناحية القمم المغطاة بالثلوج وأحنى رأسه كما لو كان يعبر عن حب البنوة للأرض الحبيبة ·

ـ ان من يحب وطنه يدافع عنه · أما الخائن ·· ـ أجملت ابتشارا بهذه الكلمات نتيجة الاستجواب قبل تشوكا ·

غير أن تشوكا كان يدرك باحساسه أن « خيـاتشابز » لا يستطيع العودة خالى الوفاض ، فيا ترى بم عاد ؟ هذا أمر لايزال غير معروف · وهل هو وحده ؟ أم تم انزال عدة مجموعات فى وقت واحد ؟ وكيف يجرى الاتصـال فيما بينهم ، وبينهم وبين أسـيادهم ؟

لم يستطع تشوكا ابتزاز الكلمات من الأسير مهما حاوره فقد كان تشوكا محققا تنقصه الخبرة · كما أن كازوخوف رفض حتى التحدث عن المكان الذى أخفى فيه مهماته ·

في هذه الأثناء عاد أفراد فرقة تيمور الى المزرعة بضجيجهم وقد ارتسمت السعادة على وجوههم . وكان كل منهم يحمل ملء ذراعيه من الحشائش التى صنفتها ايرينا فيدورفنا بصفة مبدئية . غير أنه حدث أمام المزرعة مباشرة ما أضاع كل ما بذلته ايرينـا فيدورفنا من جهد فى تصنيف الحشائش الطبية .

لم يجمع الصبيان اللذان بقيا مع ابتشارا عودا واحدا من الحشائش ولذا قررا تعويض ما فقداه والاسهام بنصيب فى القضية المشتركة . وأخذ الصبيان فى الحركة بسرعة ذهابا وايابا . وفجأة اندفع الاثنان خارجين من هوة يحمل كل منهما مسدسا :

ـ أورا ! لقد وجدنا سلاحا !

ألقى جامعو الحشائش ما جمعوه واندفعوا ناحية الصبيين. وبعد برهة أصبحت الفرقة كلها مسلحة من قمة الرأس الى أخمص القدم . ونسى الأطفال كل شىء عن الحشائش . وأسرع أفراد فرقة تيمور فى صراخ وزعيق نحو المزرعة وهم يلوحـون بالمسدسات والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية .

غير أن تشوكا صاح فيهم . فوضع كل منهم ما لديه من سلاح عند قدمى تشوكا الذى سألهم بنبرات صارمة :

ـ أين وجدتم السلاح ؟

ـ هناك بالقرب من الشاطىء . وهناك كذلك صندوق كامل من الرصاص .

ـ وهناك قنابل .

ـ وكذلك صندوق أسود كبير .

ـ وكتب مربوطة فى حزم .

ـ وأسلاك لا نعرف كنهها .

وسرعان ما تم تجميع الغنيمة كلها . وكان الصندوق الاسود جهازا لاسلكيا ، اما حزم الكتب ، فكانت منشورات .

لم يعد تشوكا لاستجواب المخرب بعـــد ذلك . فقد أدرك تشوكا أنه فى مواجهة عميل كبير . وما دام الألمان قد سلحوه على هذا النحو ، فانه يرتبط بلا شك بمخربين آخرين .

وفى مثل هذه الحالة فان الكشف عن خيوط هذه الشبكة يخرج عن طاقة وقدرة تشوكا حيث يحتاج الأمر هنـــا الى متخصصين محترفين فى مكافحة الجاسوسية .

ووضع تشوكا الأسير والغنيمة فى السيارة وســـلح رجاله بالمدافع الألمانية الرشاشة بدلا من بنادق الصيد وأسرع بســـيارته الى أسفل الجبل قاصدا مدينة نالتشيك . هناك يتخذ باخـــوف الاجراءات المناسبة .

كان تشوكا يبتسم ابتسامة سعيدة طوال الطريق . لم يضموه الى الفرقة القوقازية ، ولكن ها هو يحصل على سلاح . وسيرى الجميع الآن قيمة تشوكا موتايف .

الفصـــل الثانى

باخوف وكولوف وسوسماكوف

ـ لاشين ·· أين أنت يا لاشين ؟! أين أنت يا مديرة المزرعة ؟

كان بيكان ينادى ابتشارا دون أن ينزل من ظهر فرسه الأصيل الرائع الجمال ·

كان الفرس شاولوخ دائب الحـــركة يتراقص تحت بيكان والبخار يندفع بقوة من فمه الوردى اللون المشدود باللجام ·· لم يعد بيكان ينادى ابتشارا باسمها · فبعد أن ذاع فى الجمهورية كلها خبر سحق مجموعة الجواسيس أصبح الجميع ينادون ابتشارا باسم بطلة الأسطورة الكاباردينية التى انتصرت على العملاق التتـارى · فقد ارتدت لاشين ملابس الرجال وخرجت الى الحلبة المعدة للنزال· وطوحت لاشين العملاق فى الهواء ووضعت اصبعها الابهام بحيث يسقط عليه ببطنه · وبذا هوى العدو على الحشائش مبقور البطن· وهكذا خلصت لاشين بشجاعتها قريتها الحبيبة من عار الاتاوة التى كان يدفعها الكاباردينيون كل عام لخان شبه جزيرة القرم بارسال فتياتهم وفتيانهم ليكونوا عبيدا ·

لقد انقذت ابتشارا هى الأخرى أهل وادى تشوبراك من الهلاك فقد كان الجــواسيس يريدون ، كمـــا تقـــول الاشـــاعات ، اضافة مواد سامة الى مياه النهر عند منابعه لقتل الجميع : الناس والماشية لتبقى بعد ذلك منطقة جميلة خالية من السكان بمناظرها التى خلقت بها أول مرة تجلب كل من يريد الاستيطان ·

كان بيكان يعتقد أن ابتشارا ستخرج من البيت الذى تسكنه الحلابات ، الا أنها جاءت من حظيرة العجول :

ـ أنى هنا أيها الرئيس · مرحبا بك · لقد نسينا الجميع · أربعون فتاة هنا وما من رجل واحد · ولقد وعدتنى بأن ترسل من يحل محلى ، أقسم بالله أن قواى قد أنهكت تماما ·

بدأ مهر بيكان يدور فى مكانه :

ـ وهذا ما يمكنك أن تقولينه اليوم ، هيا شدى جوادك شاجدى الى العربة حيث سنذهب الى هناك· ـ وأشار بيكان بسوطه الى أعلى فى اتجاه ادارة المراعى نحو منحدرات الجبال الخضراء ·

ـ تقول أين؟

ـ وهل من الممكن أن نسأل « أين » ؟ عجبا انك لا تزالين تحملين اسم لاشين · أتعرفين كيف كانت العادات فى القديم ؟ كانوا يجيئون بالليل يطرقون النافذة قائلين : هلم اسرج جوادك · ويهرول الانسان على الفور الى الفناء ويسرج جواده ويقفز على ظهر الجواد ثم يسرع الى حيث الجميع · فاذا كان هدفهم التسابق كان معهم · واذا كان هدفهم خطف عروس ، كان معهم أيضا · ومعاذ الله أن يسأل « الى أين نحن ذاهبون ؟ » اذا سأل يعتبرونه جبانا ، وبالتالى لن يطرق الفرسان نافذته بعد ذلك · أما انت فكان أول سؤال لك هو الى أين ؟! على كل حال لا تستائى فانى أمزح · كيف حال عجولك ؟ هل ذاب الجليد من عليهم ؟ انى أعلم انهم بدأوا يتحركون مثل الذباب الذى ادفأته الشمس · شاطرة ، انك شاطرة انى أعرف كل شىء · واذا كنت لا أحضر الى هنا الا نادرا ، فلأننى واثق منك · هل كان بيتو هنا منذ فترة ؟

ـ لقد أحضر رزمة من استمارات شطب الحيوانات النافقة ·

ـ للأسف ، ليس هناك ما يمكن عمله · ليس لدينا متخصص

فى تربية الحيوانات · هلم شدى حصانك شاجدى فى العربة ·

– ومن ذا الذى يحتاج الينا على هذا النحو أيها الرئيس ؟

– الرئاسة · أنهم يدعون الجميع الى ادارة المراعى ·

وتعجبت ابتشارا من ان الأب ينفذ تعليمـــات الابن · فان التقاليد الكاباردينية تقضى بأن الأكبر هو الذى يدعو لا الاصغر · وعلى كل حال فان بيكان ليس والد تشوكا ، بل زوج امه ·

كان شاجدى فى لجامه دائما مشـــدودا الى العربة تحت السقيفة · ونزعت ابتشارا مخلة الطعام من وجهه ، وخرجت من تحت السقيفة · وحين شعر المهر بوجود جواد آخر ، بدا عليـــه الاضطراب واخذ يضرب نفسه بذيله الحريرى النظيف ويدق الأرض بأرجله النحيفة فى عصبية ·

تحرك الاثنان على الطريق الجبلى · ولم يكن الجواد يرغب بالسير بجوار العربة بضجيجها ، وأخذ يبذل كل جهد لعض هذا الفرس الهزيل ، مما جعل بيكان ينهر جواده الجميل · غير انه كان ينهره وكأنه يلاطفه · ان بيكان السروجى يحب الجياد الأصيلة · وقالت ابتشارا لبيكان :

– ألم يكن فى استطاعة تشوكا الحضور الى هنا بنفسه ؟ ان لديه سيارة ·

– وما صلة تشوكا بهذا الأمر ؟ هل تعتقدين اننى كنت اسمح لهذا الامخط أن يســـتدعى والده ؟! اما انت فالوضع يختلف ، فلا تزالين حتى هذه اللحظة تحت رئاسته ، بل وفى مجالين أولهما بصفته رئيسا لادارة المراعى وثانيهما بصفته قائدا كومسموليا ·

بدا لابتشارا ان بيكان ضغط على عبارة « لا تزالين حتى هذه اللحظة » ونظر اليها نظرة غريبة ، بل وكاد يغمز لها بعينيه ، ولكنها

عزفت عن الاستفسار منه عما اذا كانت كلماته تخفى وراءها معنى آخر أم لا ٠

ـ ان تشوكا نفسه يجمع بين وظيفتين ، فهو يرسل الى توجيهين مرة واحدة ، احدهما بصفته سكرتيرا للجنة الناحية والآخر بصفته رئيسا لادارة المراعى ٠ وان اختلفت الورقتان ، الا ان التوقيع واحد ٠

ـ قولى لى باى من التوجيهات قبضت على الجاسوسين ؟ بصفتك أمينة جماعة الكومسمول أم مديرة للمزرعة الحيوانية ؟

وضحكت ابتشارا قائلة :

ـ لا هذا ولا ذاك ٠ ان لدى منصب ثالث فاننى مشرفة على جماعة التدريب العسكرى حيث أعلم الفتيات التدريب العسكرى ٠ اليس هذا مثيرا للضحك ؟

ـ آه ! انى أعلم أن لديك من القدرات ما يجعلك تبزين قائدين عسكريين ٠ أتدرين كيف جزعت والدتك حين علمت بما حدث ؟ جاءتنى وهى تسب ٠ فقلت لها لست الذى عينها فى المزرعة الحيوانية فردت على قائلة : « الأمر سيان اليس تشوكا ابنك ؟ الا يمكنك ان تأمره ؟ اطلب منه فورا ان يترك ابنتى ابتشارا تعود الى البيت ٠ عشنا وشفنا كيف تحارب الفتيات رجال المظلات ٠ هل انتهى الرجال ؟ اذا حدث وفقد الرجل عينا أو ساقا فان شكله لن يفسد ، بل سيكون ذلك زينة له ، اما الفتاة التى فقدت عينها أو رجلها فلن ينظر اليها شاب » ٠ ان كل أم تعانى من القلق على ابنائها أكثر مما يعانى الابناء عليها ٠ وليس عبثا القول السائر ان حب الابناء للأمهات مثل الجسر المقام على النهر ، أما حب الأم طويل بطول النهر ٠ ولكنك بطلة بحق مثل لاشين ٠ والمزرعة التعاونية كلها ممتنة لما قمت به ٠ أتدرين أى ذئب محنك واسع الخبرة أوقعتيه فى الفخ ؟ كان من الممكن أن يقضى على كل جيادنا ٠

ــ من جهـــة انه نئب ، فهو نئب فعلا ، ولكنه من ابنـــاء المنطقة ٠

ــ نعم من أبناء المنطقة ٠ وانى أعرف كل اخوته ، كما كنت أعرف والده الذلك ٠ انهم أربعة أخوة ولقد اصطدمت أصغرهم ٠ كانت اسرتهم قوية فرضت سلطاتها على كل شعاب الجبال لدرجة ان العمدة نفسه كان يأتى الى كازوخوف لتقديم فروض الولاء ٠ وكان الأبناء يشتغلون بالصيد أكثر من أى شىء آخر ٠ ولقد جاء أبوهم ليطلب منى أن اصنع سروجا لابنائه ٠ وقام بوضع الوشم الذى يستخدمه فى تعليم جياده وماشيته على باب بيتى معربا عن شكره للسروج المتقنـــة التى صنعتها له ٠ وكان هذا الوشم يعتبر آنذاك بمثابة وثيقة حماية بحيث لم يكن ليجسر احد على الاساءة لى ٠ وكان لديهم عدد لا حصر له من الاغنام ، فكل ما كان يعلنـه الرعاة المأجورون عنه لهم لا بأس به ٠

ها هى قصتهم ٠ وبعد ذلك هرب ثلاثة أبنـاء الى الاتراك ٠ وبعد ان كانوا يستخدمون ارعاة ، أصبحوا رعاة لدى البك التركى ٠ أما الذى امسكت به ٠٠

ــ لقد اسميته « خياتشابز » ٠

ــ ولكن أى خياتشابز هو ؟! ان كلمة خياتشابز تعنى فتاة ٠ انه يستحق اسم ابن آوى ٠

لم يبق أثر لاسرة كازوخوف ٠ وها هو مختـــار يعود الى الظهور ، كما ترين ٠ فقد قرر الانتقام لاسرته جميعها ٠

ــ تقصد هذا الذى قبضت عليه ؟

ــ نعم ٠ لقد قرر ان يحذو حذو نايب ٠

ــ ومن نايب هذا ؟

ــ كان خائنا باع نفسه لخان شبه جزيرة القرم ابان سيطرة

الاتراك على المنطقة · فقد كان خان شبه جزيرة القرم حليفـــا للسلطان التركى · واذا بنايب هذا يتطوع بارشاد القوات التركية للوصول الى جبالنا عبر طرق سرية · وكان أبناء الجبـــال كلهم يدافعون عن قراهم ، ولم يكن هناك خائن واحد سوى نايب الذى تواطأ مع الاتراك ، وقد أخذ جوالين من العصى الصغيرة وحملها على ظهر حصان وأخذ يغرس العصى عند المنعطفات محددا بذلك الطريق التى اتبعته فيما بعد القوات المعادية · وبعد ثلاث ليـــال بدأت المذبحة · لم يرحم العدو أحدا حتى الاطفال والنســـاء · واضرمت القوات التركية النار فى البيوت · وهزم الـــكاباردينيون وأصبحوا يدفعون للأتراك والتتار اتاوة كل عام فيرســـلون اليهم فتيانهم وفتياتهم ومختلف الخيرات · و « خياتشابز » هذا مثـــل نايب · فقد كان يريد ان يحدد الطريق للألمان هو الآخر ولكن لا عن طريق العصى ، بل باللاسلكى · هذا هو الصيد الذى أوقعتيـــه فى الفخ · انتظرى بعض الوقت وسترين ان الأغانى تتغنى باسمك ·

اخرج بيكان كيس التبغ ، وارســـل اللجـــام والسوط وركز كل اهتمامه على لف سيجارة · ووضع بعضا من التبغ الذى زرعه وأعده بنفســـه فى قطعة من ورق الصحف ومرر طرفها بشفتين مبللتين ثم لصقها ، وأخفى فى جيبه كيس التبغ وأخذ يبحث طويلا عن الزناد وحجر الصوان · استمر يقدح الزناد بالحجر طويلا والشرر يتوهج ثم ينطفىء من الريح · كما ان الفرس شاولوخ كان يعوقه هو الآخر حيث انتهز فرصة تراخى اللجام فبدأ تارة يندفع الى الأمام ، وتارة يعض الجواد شاجدى المسالم · ولم يصد العجوز بيكان المهر عن محاولاته هذه لانشغاله بالسيجارة ، الا ان ابتشارا ضربته بالسوط على وجهه ·

ـ لا تضربى الحلو ·

ـ انه سينهش جلد حصانى كله ·

كان بيكان يحب الفرس ويعطف عليه · كما كان على استعداد أن يحصى كل يوم شعره كله شعرة شعرة ·

ولم تكن ابتشارا تعرف ما هو هذا الفرس ومن أين جاء · اذ لم يعد مثله فى المزرعة منذ مدة طويلة حيث قدمت المزرعة كل ما يصلح للركوب حين شكلت الفرقة القوقازية ·

كما لم تكن ابتشارا تعلم أن بيكان قد عين مسـئولا عن المحافظة على سـلامة الجياد الكاباردينية وانه منح صلاحيات عريضة · لم تكن ابتشارا تعلم ، أما بيكان فلم يتعجل التبـاهى بمنصبه · فلكل وقت اذان ·

وأخيرا قدحبيكان النار وأشعلالفتيل وحقق بذلك مراده·ولوح العجوز بالفتيل كى يزيد اشتعاله بسرعة ، ثم أشعل سيجارته ، وبصق على طرف اصبعه وأطفأ النار ووضع كل مستلزمات الاشعال فى جيبـه ·

اقتربت ابتشارا وبيكان من مبنى ادارة المراعى فوجدا جمعا كبيرا من الجياد المسرجة والعربات والسـيارات والحمير المحملة بالأثقال · كانت الجياد تقف منكسة الرأس ، أما الثيران فأخـذت تجتر الطعام فى كسل · وجلس الأهالى بالقرب من خيم الادارة منخرطين فى الحديث · كان الحديث فى كل مكان يدور حـول الحرب · ولكن بما أن الرعاة ومربى الخيول لم يكونوا على معرفة كبيرة بأحداث الجبهة فان حديثهم كان يتركز بصفة أساسية عـلى الظواهر الجانبية للحرب وأصدائها ، وعلى سبيل المثال ، على الذئاب التى أخذت اعدادها فى الازدياد فى الجبـال · وعلى الابقار والجياد المهجرة من اقليم رستوف ومنطقة ستافروبل باعداد كبيرة فى الوقت الذى توجد فى المنطقة اعداد كبيرة منها ·

قطع السروجي بيكان حكايته عن ميرزاخان الذى لم تسمع عنه ابتشـــارا وبدأ من مسافة بعيدة يتمعن وجوه المجتمعين حول ادارة المراعى بحثا عمن يعرفهم وعمن لم يقـــدم له حتى الآن الافراس الكاباردينية الأصيلة ٠ فلقد قام بيكان فى الأيام الأخيرة بالبحث فى كل المزارع التعاونية المحيطة ومزارع تربية الخيول كى يجمع كـل الأفراس الاناث فى مجموعة واحدة ، كما عكف على اســــتكمال القطعان مستخدما فى ذلك الحقوق الممنوحة له ٠

كان أصعب الأمور هو الحصول على فرس نادر مثل شاولوخ الذى كان مظهره مثارا للعديد من الأساطير ٠ وفى الحقيقة فان هذا الجواد يتساوى مع الجواد اندرميركان العملاق الذى تتحـــدث عنه الملاحم الكاباردينية ٠

وكانت هناك الكثير من التفسيرات المتعلقة بأصل الجـــواد الكاباردينى ٠ فبعض الناس يؤكد أن الجواد الكاباردينى يرجـــع بأصله الى الحصان العربى ذائع الصيت ٠ وربما هذا كلام صحيح ٠ غير أن معرفتنا بالحصان العربى الأصيل بدأت منذ حوالى القرن السابع ، أما الجياد الكاباردينية فكانت مادة خصبة للعـديد من السابع ، أما الجياد الكابادرينية فكانت مادة خصبة للعديد من الأغانى والحكايات والأساطير والتى ترجع الى عصور سحيقة فى التاريخ ٠ وعلى هذا النحو فلا تزال صحة هذا القول أو ذاك أمر غير مؤكد حتى الآن ٠ وعلى كل حال فان الجواد الرائع الجمـال الذى يجمع بين دقة الخطوط والرشاقة فى الحركة يوجد بيننا ويسمى كاباردينيا ٠

والفرس شاولوخ ـ هذا الجواد النادر من فصيلة الجيـاد الكاباردينية ـ يهتـز راقصا الآن تحت بيكان ٠ ويحتفظ به بيكان فى

قطيع خاص ، كما أنه ما من أحد غيره يملك الحق فى تسريج هذا الفرس · وفى بعض الأحيان تجد بيكان يرقد ساعات كاملة علـى معطفه الفرو يمتع ناظريه بهذا الجواد الكميت ابن الثلاث سنوات لا يصدق عينيه أن تحت يده مثل هذا الفرس ·

ظهرت سيارة ركوب خفيفة من ناحية التلال السفحية للجبل· وهب العجائز الذين تعودوا على احترام الرئيس ، واقفين وهم يئنون مستندين على عصيهم · ان الرئيس بالنسبة لهم هو كل شيء لدرجة أنه لو غرست خازوقا فى الأرض وقلت لهم ان هذا رئيسا لكم فانهم سوف يطيعون الخازوق · هذا ما تقضى به التقاليد والعادات ، وفى ظل هذه الروح ربى أكثر من جيل ·

كان من الواضح أن الطريق لم تكن لتصلح للسيارات التى تحمل ماركة « م » فقد كان البخار مندفعا من السيارة وكأن سماورا يغلى وضع تحت الرادياتير · وتجمد الجمع فى مكانه انتظارا لممثلى السلطات · فقد كان الرعاة يرون الرؤساء نادرا ولذلك وقف الجميع باعتزاز دون ما حركة ·

ولم يخرج عن هذا النظام سوى الفرس شاولوخ وحده الذى رأى سيارة لأول مرة فىحياته فأفلتالقيد وركض وهو ينخر والشرر يتطاير من عينيه · وأسرع بعض الشبان خلفـــه ، وقفز بعضهم على جيادهم ليلحقوا به يلوحون بالاوهاق ·

توقفت السيارة أمام مدخل البيت الأخضر اللون الصـــغير مباشرة · وخرج منها شاب رمادى العينين فى حوالى الثلاثين من العمر تبدو الرجولة على وجهه · كان الشاب يرتدى الزى العسكرى دون شارة على ياقة السترة ·

ولم يكن من الصعب على الشخص الذى لا يعرفه ان يفهم ان هذا هو ذو القرنى كولوف وذلك من قامته المشدودة وطريقة تصرفه ومشيته التى تتفق وأهميـــة مركزه ، والأهم من ذلك ـ من واقع معاملة الناس له وخاصة تشوكا موتايف رئيس ادارة المراعى ٠ لقد كان ذو القرنى كولوف هو الشخص الذى كان الجميع ينتظرونه منذ الصباح الباكر ٠

اقترب كولوف من كل عجوز وأخذ يشد على يده بقوة ، وحين جاء دور بيكان أمسك يده طويلا قائلا :

ـ كيف الحال ؟ هل تقف جيدا على قدميك ؟

وكان بيكان يتميز بسرعة البديهية دائما فأجابه بحماس :

ـ لست أقف على قدمى فحسب ، بل وازداد قوة بجلوسى على السرج ٠ لقد التقيت معك فى الجبـــال العالية ، وليعلو شـــأن أعمالنا ٠

ـ آمل ذلك ٠

ـ وليعاوننا الله فى اعلاء شأنها ٠

وخرج من السيارة على أثر كولوف رجل عســكرى يرتدى ملابس عسكرية جديدة وعلى ياقة السترة شارتان الى جانب الشعار المعروف للجميع والموجود على كم السترة ٠ كان ذلك باخوف رجل لجنة الطوارىء (*) المعروف بالجمهورية ٠

كما جاء معهما ثالث ـ رجل قصير القامة كبير الرأس يرتدى هو الآخر الزى العسكرى ٠ غير أن ما يميز هذا الثالث قامته التى

(*) المخابرات ٠ المترجم

بدت وكأنها تعرضت لتقصير شامل حتى أطراف سترته تدلت حتى ركبتى بنطلون الخيالة ، أما أقصر ما فيه رجلاه المعوجتان · وحين نزع القبعة من على رأسه لم تظهر تحتها شعرة واحدة فلمع رأســه كما تلمع نجوم طريق التبان فى سواد الليل بالسماء · ولم يكن فى الجمهورية كلها فلاح تعاونى لا يعرف طالب سوسماكوف ـ كبير المزارعين كما كانوا يسمونه ·

كادت ابتشارا تنفجر ضاحكة حين رأت باخوف حيث تذكرت أول لقاء لها به عندما ـ كم بدا ذلك غريبا ! ـ ردت عليه بذلك الشكل · ذات مرة دخل باخوف أحد فصول المدرسة أثناء امتحان التاريخ وجلس بجوار المدرس ، كان أحد التلاميذ الروس المهجــــرين من نيكولايف هو الذى كان يجيب على الأسئلة ، اجابته كانت تتسم بالطلاقة وفجأة قاطعه باخوف سائلا :

ـ متى كانت حركة البط ؟

ارتبك التلميذ وصمت · وأصبح من الواضح أنه دخل فى صراع مع ذهنه للتذكر دون فائدة · ونظر الى الفصل ثم الى المدرس· غير أن المدرس ارتبك هو الآخر على ما يبدو · وأحس التلميذ بالخجل معتقدا أن المدرس قد خجل من تعثر تلميذه · وهنا قال باخوف بلهجة تنم عن الأمر أكثر منها عن الحديث العادى ·

ـ اجلس انك لا تعرف شيئا ·

وهنا وقفت ابتشارا وقالت فى حزم وتحد :

ـ أيها الرفيق القوميسير · لقد اربكت التلميذ كلية · لايوجد على الاطلاق ما يسمى بحركة البط ·

ـ وكيف ذلك ؟

قال باخوف مبتسما ـ وبدا من ابتسامته أنه يريد أن يؤكد بها

مزيمته ـ لقد كانت هناك حركة الأوزة (*) ، فهل لم تكن هناك حركة للبط ؟

وعلى هذا النحو لم تفهم ابتشارا آنذاك هل أراد باخوف أن يمزح مع التلميذ أم انه نسى كيف تسمى تلك الحركة المشؤومة · فهل من الصعب الخلط بين الأوزة والبطة ؟

والآن لاحظ باخوف وهو يخرج من السيارة ابتشارا وتذكرها· واقترب منها وهو يبتسم ثم مد يده لتحيتها وشعرت ابتشارا أن يد رجل لجنة الطوارىء ينقصها اصبعان ·

ـ أنت التى أمسكت المخربين ؟ ـ ثم استطرد باخوف دون أن ينتظر الاجابة منها ـ أقسم بأننى اعتقدت فعلا أنك قمت بهذا · أتذكرين يوم الامتحانات · لقد ارتبك الجميع وكنت الوحيدة التى ردت على ·أنت فتاة جسورة·سوف تقدمين للحصول على مكافأة· سمعت أنهم يسمونك الآن لاشين ؟

وتوجه باخوف الى الجمع بعد أن أنهى حديثه مع ابتشارا ، وأخذ يقترب من كل فرد تقريبا واتضح أنه يعرف كلا منهم ·

ـ كيف حال السمك ؟ ـ سأل أحدهم من بين الشباب ، وهذا السؤال كان يبدو لمن يعرفون قصة السمك هذه ليس غير لبق فحسب ، بل وقح أيضا ·

ولم يجب باخوف بشىء · كان الكثير يعلمون أن باخوف اعتاد على صيد السمك بالقنابل اليدوية وذات مرة عوقب عقابا شديدا لعادته هذه · فقد انفجرت قنبلة فى يده · ولحسن الحظ بقى

(*) بالاصل غوس القريبة من كلمة غوس التى تعنى أوزة بالروسية· وغوس الاولى هى الاسم الاخير لبيان عرس الزعيم الشعبى فى أوربا القرون الوسطى · وما حدث هنا اختلاط بالالفاظ سببه تشابه الكلمتين · المترجم

على قيد الحياه ولم يفقد سوى اصبعين كما أخرج جراح مستشفى الجمهورية من جسمه أربعين شظية صغيرة • وحين رأته زوجته وهو ملفوف بالضمادات من رأسه حتى قدميه ، بدأت في النحيب غير أن باخوف لم يفقد في هذا الموقف كذلك حبه للتنكيت الذى عرف به وقال وقد تغضن وجهه من شدة الألم :

ـ لا تبكى زوجتى • ان ما تبكين من أجله لم يصب بسوء •

قابل المجتمعون باخوف وسوسماكوف كما يقابلون القدماء ، أما ذو القرنى كولوف فلم يكن يعرفه أحد تقريبا • فقد تم تعيينه فى أعلى منصب فى الجمهورية منذ وقت قريب حيث اختيـــر من بين سكرتيرى لجنة الحزب بالناحية • وحتى هذا الوقت لم يتمكن من زيارة كل النواحى وكل المزارع التعاونية ، ولا يزال حتى الآن لا يخرج بمفرده فى زياراته حيث يصطحب معه من يمكن سؤالهم واستشارتهم والتحقق فى الأمور عن طريقهم أثناء الزيارات •

ويصاحبه الآن كبير المزارعين سوسماكوف وهو عجوز محنك يقول الأهالى عنه : انه قوى كالحصان وسيموت مثله واقفا عـلى رجليه • وبالطبع كان مع كولوف باخوف الذى لا يتحرك كولوف بدونه ، أو بالأحرى الذى لا يبتعد عن كولوف خطوة واحدة •

ويجمع بين الاثنين المصاحبين لكولوف ـ أى سوسماكوف وباخوف ـ لا مناصبهما ، فانهما مختلفان تماما ، ولا طباعهما ، بل نمط الحياة • فكلاهما يستثقل العمل المكتبى ويحب الرحابة •

فطالب سوسماكوف فلاح يرتبط ارتباطا وثيقا بالأرض • ولا يمر عليه يوم واحد دون أن يزور حقلا أو مزرعة حيوانية • كمـا أخذ سوسماكوف للعمل فى منصب على مســـتوى الجمهورية من

مزرعة تعاونية كان يرأسها منذ أن تكونت · وكان طالب فى المزرعة لا يرى الا على ظهر جواده · فقد كان يستقبل الفلاحين التعاونيين للنظر فى شئونهم الخاصة فى مكتب الرئيس فى الساعة الخامسة صباحا بحيث يكون على جواده من الساعة السادسة ·

وانتقل سوسماكوف بعد أن أصبح « كبيرا لمزارعى الجمهورية » من الجواد الى ركوب السيارة ، ولكنه ظل كما كان فيما سبق يجوب النواحى والمزارع التعاونية بها · واذا حدث ولامه أحدهم قائلا : « من الصعب ايجادك فى مكان واحد » يرد عليه باقتضاب قائلا : « القمح يزرع فى الحقول لا فى المكاتب » ·

أما باخوف فقد كان يشعر وهو فى المكتب بأنه كالجواد غير المروض الذى وضع فى اسطبل ضيق غير مريح · وكان ينتهز كل فرصة وكل حجة كيلا يعفن فى الهدوء والظل ، بل كان ينطلق الى الجبال حيث زادت عمليات القاء الألمان للجواسيس والعملاء والمخربين ·

ولقد صاحب الرجلان كولوف عبر أراضى الجمهورية عن طيب خاطر · جاء سوسماكوف الى المراعى فى الجبال العالية ليرى كولوف بعينيه الأوضاع · ان اللحم والخبز لا يقلان شأنا عن القذائف والرصاص الذين لا يمكن القتال بدونهما · ولذلك فان سوسماكوف مشغول كلية بالزراعة · وليدرك كولوف أن هناك رجالا آخرين غيره يمكنهم الاشتغال بتشكيل فرق الدفاع الذاتى وتدريب النشطين من أعضاء الحزب عسكريا ·

وكان ذو القرنى كولوف يعرف طالب منذ مدة طويلة · كان يعرف فيه رجلا يحل على الفور أى موضوع ويعرف دائما ما ينبغى

عمله · غير أن ثقته بنفسه أخذت فى الآونة الأخيرة تثير فى نفس كولوف ان لم يكن الضجر ، فاحساس بالمعارضة · ولذلك بدأ كولوف يحاول عدم الالتجاء الى سوسماكوف الا فى الحالات القصوى · وكان فى بعض الأحيان يفكر فى نفسه « نحن لنا عقول كذلك » وهو يرفض فى قرارة نفسه وفكره اقتراحا ما يقدمه سوسماكوف· وفى مقابل ذلك كان كولوف ينصت الى كل كلمة يقولها باخـــوف والذى لم يقدم فى أى وقت من الأوقات تقريبا دلائل على ما يعرضه من مشورات وأفكار · فقد كان يقول ببساطة : « لا تنصح الأجهزة العليا بذلك » أو « لدينا معلومات » ـ وكان هذا كافيا · وفى كل مرة كان يأتى فيها باخوف الى ذو القرنى كولوف ، تراهما يجلســـان وحدهما فيما يسمى بحجرة الراحة الموجودة خلف مكتب كولوف · ولسبب ما كان كلاهما يعتقد أنه يستحيل التحدث فى حجرة المكتب عن الأمور السرية ·

كان كل ذلك سببا فى جعل كولوف يدرك بصورة أكبر مدى أهمية ومسئولية شخصيته · فهو ليس مزاحا أنه كان منذ عام واحد ينتقل من قرية الى أخرى سيرا على الأقدام فى صندل بالى ، أما الآن فيجوب الجمهورية فى سيارة سوداء فضلا عن حرسه الخاص ·

ووالد كولوف مزارع بطيخ لم تبلغ به الشيخوخة مداها بعد الا أنه بلغ مقدارا كبيرا من الحكمة · وحين عين كولوف فى منصبه الجديد نصحه والده قائلا :

ـ أتعرف من هو أعقل الناس يا بنى ؟ انه من يتشاور مـع ذوى العقل ·

لم ينس كولوف نصيحة والده ، فكان يستمع دائما الى ما يقوله

أهل الخبرة ، بل وكل انسان أكبر منه · غير أن الظروف الجـديدة أصبحت تستوجب أن يكون للانسان عقل راجح يفكر به ، اذ أن الحرب تطرح كل لحظة العديد من القضايا التى تحتاج الى قرار عاجل ·

ومن بين هذه المشاكل التى ارتبطت بظروف الحرب انخفاض معدل انتاج معدنى الموليبدنيوم والتنجستين ذلك لقلة عدد العاملين فى المناجم والمتخصصين فى عمليات التفجير · وأين يمكن ايجادهم الآن ؟ فليس من المعقول ارسال النساء للعمل فى المناجم المكشوفة· واذا كانوا يرددون فى كل مكان قولهم : « نزل الى المنجم » ، فانه يتحتم عليهم أن يقولوا فى منطقتنا : « صعد الى المنجم » ، ذلك لأن المناجم المكشوفة توجد عاليا فى الجبال · ومن الطبيعى أن لا يحتمل الانسان ضعيف القلب العمل طويلا فى مثل هذا الارتفاع · أما الأقوياء والأصحاء فقد خرجوا جميعا للقتال · ومن ناحية أخرى فهل هناك من ينكر أهمية الموليبدنيوم والتنجستين بالنسبة للصناعات الحـربية ·

وتبرز مشكلة أخرى هى مشكلة تحويل المصانع الموجودة فى مدينة نالتشيك للانتاج الحربى · فينبغى أن ينتج مصنع التوربينات المائية الهاونات بدلا من المضخات اللازمة للعاملين فى حقـــول البترول · ولكن أين المعدات والمتخصصون والخبرة والمعادن اللازمة لهذا الانتاج ؟

لا جدال أن المراعى الجبلية العـــالية هذه لديها مشاكلها الخاصة · فلم يكن اصطحاب سوسماكوف له الى المراعى لمجرد التنزه · ها هى المشاكل ، تشاور اذن مع ذوى العقل · وأية فائدة ترجى من هذا التشاور ؟ فانك وحدك الذى ينبغى أن نتخذ القرارات، كما أنك مسئول وحدك عن كل شىء ·

اجتياز التيار العاصف

افتتح تشوكا موتايف الاجتماع · وكان هناك احســـــاس بأنه يشعر بالوجل أمام كولوف رغم أن مربى الحيوانات رأوا فيـه رجل ادارة على قدر كبير من الكفاءة مما جعلهم يحترمون تشـوكا رئيس ادارة المراعى الشاب الذى اتسم بالتبصر والنشاط · وربما يرجع وجل تشوكا الى وجود ابتشارا كذلك · لم يعر بيكان اهتماما للخطيب الذى يعتبر فى نفس الوقت ابنا له بالتبنى · واخذ يتابع كيف كانت مجموعة من الفرسان تطارد الفرس شاولوخ على منحدر الجبل بعد أن انفصل من مربط الخيـــل ولا يستطيع أحد منهـــم اصطياده بالوهق ·

أخذ ذو القرنى كولوف ـ الذى شغل الكرسى الوحيد خلف المكتب ـ يفكر فى خطة الكلمة التى سيلقيها · ولاحظ كولوف ببعض من الأسى أن تكوين مربى الحيوانات قد تغير حيث لم يعد منهـــم سوى العجائز والصبية والفتيات · ولقد أصبح ذلك أكثر وضوحا بعد استكمال الفرقة القوقازية التى ضمت كل من لم تبدأ لجنـــة التجنيد فى استدعائه بعد · وسيطر القلق والعصبية على كولوف لأنه كان يعتقد أن التوفيق لا يحالفه فى خطبه العامة أمام الجماهير · وتذكر كولوف كيف كان ذات مرة ـ وهو لا يزال يعمل سكرتيرا فى اللجنة الحزبية بالناحية ـ يلقى خطابا أمام الحـــزبيين فى الناحية · لم تكن قد بدأت الحرب بعد فى الاتحاد السوفييتى · غير أن خطرها كان مخيما على البلاد · وحاول كولوف من على المنصة أن يبدد الاشاعات المزعجة هذه فقال فى خطبته بصوت عال وعن ايمان كامل :

ـ لا تصدقوا هذه الاشاعات الاستفزازية · ان المانيا لن تهاجم بلدنا · فان البروليتاريا الالمانية لن تسمح بذلك ·

استمع الناس الى كولوف وصدقوه · وفى اليوم التالى بدأت الحرب ·

وها هم الآن مربو الحيوانات جالسون أمامه ، فما الذى يمكن قوله لهم ؟ انهم ينتظرون منه أخبارا جديدة طيبة ، فانهم يريدون معرفة أين توجد الآن الفرقة القوقازية وهل بدأت فى القتال أم ليس بعد ، وماذا يجرى على الجبهات وكيف ستكون نهاية هجوم الألمان على منطقة خاركوف · غير أن الأخبار الواردة أخبار حزينة · والأنكى من ذلك أنها مشوشة ، كما تلاحق الأخبار بعضها البعض وتصبح قديمة بسرعة · هل يتحدث صراحة عن كل هذا لهؤلاء الناس الجالسين على الأرض فى نصف حلقة مرتدين القبعات الفرو القوقازية والقبعات الجوخ ذات الحواف العريضة ؟ ربما يزعزع مثل هذا الحديث ثقتهم أو يثير الذعر فى نفوسهم ·

لقد جاء كولوف وباخوف وسوسماكوف الى هنا بهدف بث الحماس فى الناس ورفع روحهم المعنوية وتبديد الاشاعات التى تنشرها المنشورات الألمانية ، وتدعيم الايمان بقوة البلاد التى لا تقوض ورفع الشعور بالمسئولية ازاء ما يكلف به كل فرد من أعمال · وكان على مربى الحيوانات أن يتحملوا على عاتقهم العناية بالماشية المهجرة كذلك والتى امتلأت بها المراعى الجبلية حيث يصل كل يوم المزيد من القطعان الجديدة وبالتالى يبدأ النقاش بل وفى بعض الأحيان التشاجر من أجل مكان فى المراعى أو بالقرب من المياه أو الينابيع · هذا ما كان يشغل بال ذو القرنى كولوف وهو يستمع

ـ وفى بعض الأحيان يسرح بخياله ـ الى كلمة الافتتاح التى يلقيها تشوكا موتايف · وكانت الكلمة قصيرة ·

توقف تشوكا فى كلمته على القضايا العملية والادارية التى يصطدم بها يوميا · وأعرب تشوكا عن أمله فى أن كولوف لن يجيب على أسئلته فحسب ، بل وسيساعده كذلك وعندئذ تزول كل الصعاب الرئيسية ·

هز بيكان رأسه مؤيدا ومشجعا ابنه · وكان مظهر بيكان يدل على أنه يقول : هلم يا بنى لا تخجلنا ، انك تتحدث أمام كولوف نفسه ·

ـ ها هو الملح على سبيل المثال ـ قال تشـــوكا ملتفتا الى كولوف وكأنه يتحدث اليه وحده ـ هل الملح مشكلة كبيرة ؟ لـم تذق الأبقار الملح منذ شهرين · واذا لم تأكل البقرة الملح فانها لن تشرب فانها لن تنتج لبنا · وكم من اللحم سنفقده بدون الملح ؟ لا نستطيع تمليح اللحم وبالتالى فان اللحم يبدأ فى الفساد ريثما ننقله بعد ذبحه اضطراريا الى القرية على العربة ·وفى هذه الحالة لن نستفيد نحن منه ، كما لن يستفيد منه الجيش · ولقد كان لدينـا احتياطى صغير من الملح واستنفذناه كله · والسبب فى ذلك هـو الماشية المهجرة · فرغم أنها ماشية لا نملكها ، الا أنه ينبغى مقاسمتها كل شيء لدينا ·

وهنا لم يتحمل بيكان وقاطع تشوكا قائلا :

ـ لم يتأت علينا مقاسمة الملح وحده · فقد حفرت الماشية بحوافرها كل المراعى · وتزاحمت الابقار لدرجة تشابك قرونها حيث لا يوجد ما يكفى من الماء أو الحشائش · ان النظر الى الماشية يثير الشفقة · هذا الى جانب أولئك الناس الذين جاؤوا بالماشية ، ليس

لديهم نقود ولا ملابس ولا خبز · لقد أخذنا نتقاسم ونتقاسم حتى لم يبق شيء ·

ـ انتظر بعض الشيء يا والدى ، فانك تفتح باب المناقشة ، وأنا لم انته من كلمتى بعد ·

ـ كيف انتظر ؟ ـ ازداد بيكان استياء ـ لقد جمعوا العجاف والسمان فى قطيع واحد حيث ينطح القوى الضعيف ثم يقول لى انتظر ·

ـ لم يحن الوقت لفتح باب المناقشة بعد· ـقال له كولوف ذلك وهو يبتسم · وهنا صاحت ابتشارا قائلة :

ـ انا نطبخ الجبن دون ملح · وهل سيبقى الجبن غير المملح طويلا ؟

وبدأ تشوكا يواصل كلمته بصوت أعلى كى يغطى على همهمة الأصوات ، فقال :

ـ واليكم كذلك خصى الأغنام ـ ونظر تشوكا بطرف عينيه ناحية الخيمة التى تجلس تحتها الفتيات وحيث كانت تنبعث أصوات الصفير من محطة اللاسلكى الميدانية الموجودة هناك ـ اذا فوتنا موعد خصى الأغنام فأى صوف نحصل منها ، هذا الى جانب أن انتاج اللحم يتأثر بذلك هو الآخر · كما أن عدد المتخصصين فى تربية الحيوانات لدينا لا يزيد عن واحد فقط هو بيتو جيرجوف الذى لا يفارق الكتاب المدرسى ظله · ان ما يقدمه من خدمات لا يساوى أكثر من كوبيك (*) فقط · واذا كلفنا الصبية بعملية الخصى هذه نفقد المئات من الرؤوس وتصبح العملية أشبه بالقتل الجماعى ·

ـ يمكنك تعبئة الفتيات ـ قال باخوف مازحا بروح التنكيت

(*) أصغر وحدة من النقود السوفييتية حيث يتكون الروبل من مائة كوبيك · (المترجم) ·

التى لا تفارقه . وضحك الجميع أما تشوكا فاعتراه الخجل . وهنا قال بيكان متحمسا :

ـ يجب اجبارك على أن تقوم بهذه العملية . أرى أننا نعهد للفتيات بكل شيء . ان عملية خصى الأغنام ليست من الأعمال التى يمكن للفتيات القيام بها .

ـ ينبغى اعداد دورة تدريبية وتعليم الفتيان ـ قال كولوف ونظر الى طالب سوسماكوف وكأنه يريد أن يفهمه بأنه يتحدث اليه بالمرتبة الأولى ـ لماذا لا ترسل القوميسيرية الشعبية الى هنا متخصصين من ذوى الخبرة فى تربية الحيوانات ؟ فليقوموا بتعليم الفتيات والفتية.

ـ هـذا أمر ممكن . لم يطلب منا شيئا من هـذا القبيل .

ـ كما أن العمل لا يسير على ما يرام فى جز صوف الأغنام ـ استطرد تشوكا ـ ينقصنا المتخصصون فى جز الأغنام . ولقد عبأنا فرق تيمور للقيام بهذا العمل ، ولكن هل يمكن أن تسمى هـذا جزا ؟ فالصبية لا يستطيعون التحكم فى المقصات ، كما أنه ليس لديهم القوة اللازمة . وفى بعض الأحيان لا يقوون على تقييد الخروف جيدا . وحين يبدأون الجز ترى الخروف يفلت من بين أيديهم ويجبر « معذبيه » على الابتعاد عنه متناثرين ثم يهرب . ويبدأ الصبية فى مطاردته جماعة والمقصات بأيديهم . ان الأغنام بها العديد من الجروح ، كما أن الصوف يجـز مخلوطا بالدماء وباللحم. وتنقصنا كذلك المقصات اللازمة للجز. وتعين علينا أن نأخذ من الفتيات المقصات العادية . ولكن هل من الممكن جز الأغنام بها ؟ والأمر أكثر سوءا بالنسبة لجز الحشائش واعداد وتخزين العلف السيلاوى فأعشاب المروج قليلة ، ورغم ذلك لا يوجد من يجزها . وسيمر شهر وتبقى الماشية دون أعلاف . ويتفاقم الأمر بوجوب تخزين الحشائش للماشية المهجرة وقطعان الجياد القادمة من اقليم رستوف .

لم تكن هناك نهاية للأسئلة · وأخذ طالب سوسماكوف يسجل كل شىء فى مذكرته وكأنه يسمع باحتياجات مربى الحيوانات اليوم فقط· انه يقوم بالتسجيل لعادة تأصلت فيه ، غير أنه كان يفكر فى موضوع آخر · ما قيمة الحديث عن خصى الأغنام أو الملح فى الوقت الذى ينبغى التفكير فى حل للمشكلة الرئيسية ألا وهى هل نترك الماشية فى الجبال أو نسوقها ناحية بحر قزوين بحيث لا يستولى عليها العدو· كان طالب سوسماكوف قد تحدث فى هذا الموضوع أكثر من مرة الا أنهم كانوا يقاطعونه كل مرة قائلين : « اذا أبديت الذعر ، فهذا يعنى أنك أذعنت لاستفزازات العدو » · ولكن لم يكن يغفل أنه لو حدثت النكبة فانه أول من يسأل ·

أخذ ذو القرنى كولوف الكلمة · ونظر كولوف فى بادىء الأمر الى حذائه ذى الرقبة المنظف بعناية وكأن عناصر خطبته قد كتبت على رقبة الحذاء المصنوعة من الجلد اللماع ، ثم حول نظره الى الأفق ناحيـــة الجبـــال الصامتة المغطاة بالثلوج والملتحفة بالسحب الثقيلة الداكنة اللون ، ثم نظـــر الى الفتية الذين عادوا بالفرس شاولوخ فى صورة مهيبة ·

ـ ان اجتماعنا هو اجتماع غير عادى ـ بدأ كولوف كلمتـــه محاولا التحدث باللهجة المتقطعة التى تميـــزت بها الخطب فترة الحرب ـ ان اجتماعنا اجتماع عملى · وهذا يعنى أن القرار يتخذ على الفور دونما ابطاء · ينبغى أن نعمل وكأننا فى جبهة القتال ، كما يجب علينا أن نساند الجبهة بكل قوتنا، وخاصة الآن حيث تشهد جبهات الحرب الوطنية العظمى معارك دموية · وينبغى ألا تكون لدينا كلمة « لا يوجد » · لا يوجد ملح اذن ، احضروا لنا · ولا يوجد جزازين فأوجدوا لنا ، وينقصنا من يجز الحشائش فعبئوا لنا ، ولا يوجد متخصصين فى تربية الحيوانات فعلموا الشباب ونظموا دورة تدريبية · هل تساءلتم ما هو المتبع فى الجيش الآن ؟ كانت مدة

اعداد القائد فى المدرسة تستغرق فيما سبق ثلاث سنوات ، أما الآن فلا تزيد عن ستة أشهر ، ثم توضع الشارة على ياقته ويقولون له هيا قد فصيلتك فى المعـــركة · انكم تشتكون من الصـبية فتقولون تنقصـــهم الخبـــرة ويقطعـون الأغنام بدلا من جـــز صوفها ، ويجمعـــون تـــوت الأرض بـدلا من جـــز الحشـــائش · أى صبية تقصـــدون ؟ ان الحـــرب زادت من عمـــر كل فــرد فينا خمس سنوات وهذا يعنى أنهم لم يعودوا صبية بل فتية · وينبغى أن نطالب الفتية بالعمل وفقا لقوانين ظروف الحرب · وأنت مثلا يا تشوكا موتايف · لمن تشتكى ؟ ألست سكرتير لجنـــة الكومسمول بالمنظمة ؟ انك السكرتير ويمكنك تعبئة كل الكومسمول ، كل الشباب ولديك منهم الآلاف · وألست كذلك رئيس ادارة المراعى ؟ نعم انك رئيسها · وهل يتبعك مربو الحيوانات ؟ نعم يتبعونك · اذن عليك أن تكلف كلا منهم بمهمة وليحاول أى منهم عدم تنفيذها · فاننا لن نغفر لأى شخص يتهاون فى تنفيذ المهمة المكلف بها · واذا غفرنا نحن ، فالحرب لن تغفر له· لقد كلفنا بيكان ديدانوف بالعمـــل على المحافظة على سلالة الجياد الكاباردينية الأصيلة · وانه المسئول عن هذا لا أمام اللجنة الحزبية بالاقليم فحسب ، بل أمام الأجيال القادمة كذلك · انظروا الى ابتشارا ، هذه الفتاة الرقيقة ·· ها هى تقف عند خيمة محطة اللاسلكى ··

التفت الكثيرون ناحية الفتيات · أما ابتشارا فخفضت عينيها واحمرت وجنتاها من الخجل ·

ـ من الذى كلفها بالقبض على المخربين ؟ كان من الممكن أن يقول الجميع : « ان الفتاة ستجبن وتخاف » ولكنها لم تجبن ولم تخف · نعم لم تخف المجـرمين الخونة المدججين بالسلاح ·

وهنا أضاف باخوف قائلا :

ـ ولكنها تسلحت بجردل من المرق هى الأخرى ·

وضحك المجتمعون مستحسنين قول باخـــوف • واســتطرد كولوف فى خطبته قائلا :

ـ انظروا مثلا ، كان المرق حتى الآن يعتبر من المأكولات ، بل ومن المأكولات الطيبة ، وها هو يتحول فى يديها الى سلاح • واذا كان من الممكن نزع سلاح المخربين بواسطة المرق المغلى ، فلم لا يمكن جز صوف الأغنام بمقصات الخياطة العادية ؟ واذا كان السروجى المسن قد أخذ على عاتقه مسئولية رئاسة المزرعة التعاونية • ومسئولية المحافظة على سلالة الجيـاد الكاباردينية ، فلم لا يمكن تعليم الفتية خصى الأغنام وجز الحشائش ، واعداد وتخزين الأعلاف السيلامية ؟ انى أدرك أنه لا يوجد ملح وبطبيعة الحـــال لا يمكن الحصول عليه من الصخر • لقد أحضر اتحاد الجمعيات الاستهلاكية « جبلا كاملا » من الملح وسوف يبدأ فى الوصـــول الى هنا غدا ، ثم موضوع جز صوف الأغنام • ينبغى القيام بالمبادرة : عليكم تعبئة العجائز • ان جز صوف الأغنام ، وكذلك جز الحشائش من الأعمال التى يقوم بها العجائز منذ الأزل ، فما بالكم بحاجتنا اليهم فى هذا المجال الآن • ويمكنكم تبديل العجائز بالنساء فى جمع المحصول • ينبغى توزيع القوى على أساس من العقل وفقا لمبدأ: كل وفقا لقدرته• وسيقوم سوسماكوف بتوزيع المراعى كى لا تتشابك قرون الأبقـار من الازدحام • وليعرف كل منكم أى مرعى خصص له • أما ما بقى بعد ذلك فهو متروك لحيلتكم وحسن تدبيركم وذكائكم •

وانتقل كولوف بعد ذلك الى الحديث عن الموقف فى جبهـــة القتـال •

وهنا تحرك الفتية الذين كانوا يطاردون الفرس الأصيل بعد أن استراحوا ـ تحركوا الى الأمام ليكونوا على مقربة أكثر من

المنصة ، وتقلقل العجـــائز فى جلستهم ليكونوا فى وضع أكثر راحة . كان مربو الحيوانات يعرفون القليل عن الموقف فى جبهة القتال . فقد كانت الاشاعات تصل اليهم متضاربة فضلا عن فوات أوانها .

ـ لقد احتدمت معارك دامية ـ قال كولوف خافضا صـوته . وأخذ من جديد ينظر بين الفينة والفينة الى حذائه المصنوع من جلد كروم وكأنه يبحث عن كلمات أكثر دقة للتعبير فى الوقت الـذى كان من الصعب ايجاد مثل هذه الكلمات لعدم وجود معلومات دقيقة الى جانب تغير الأحداث كل ساعة وبسرعة متناهية ـ لقد جابهت شعوب بلدنا تيار التاريخ العاصف . وعلينا أن نجتاز هذا التيـار ونواصل طريقنا المرسوم لتحقيق أهدافنا ، فأما أن يحملنا التيـار معه ، وعندئذ سيختار التاريخ مجرى آخر له ـ هو مجرى هلاك الشعوب ـ ولقد جرف هذا التيار العاصف بلدانا كاملة : فرنسا، وبولندا ، ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا . ولا شك أن بلدنا سيجتاز هذا التيار ويعبره ويمد يد العـــون لكل من جرفه تيار الهلاك . والشعوب السوفييتية يملأها العزم على النضـــال حتى النهاية . واليكم الأمثلة : لقد أرسل التنظيم الكومســـــولى بالاقليم ألفى وخمسمائة من أفضل شبابه للانضمام الى الفرقة القوقازية . وعلاوة على ذلك فقد جمعت منطقة نهر تشوبراك وحدها مائة وتسعة وثمانين معطف فرو ، ومائتى معطف نصفى من الفرو ، وخمسمائة حـذاء برقبة من اللباد ، وقامت الفتيات من أعضاء الكومسمول بصـنع ألف زوج من الشرابات من الصوف بأشغال الابرة .

ـ وماذا عن العجائز ؟ ـ قال بيكان موجها .

ـ لم يتأخر العجائز عن الركب . فقد صنعوا بأيديهم السروج ومهمات الجياد ، وجمعوا الآلاف من فراء الأغنام لصنع المعاطف . ان ما نشهده الآن هو اختبار لا مثيل له للارادة والشجاعة والولاء

للوطن ولعرى الأخوة . لقد اندفعنا بشجاعة فى هذا التيار ونحن على ثقة أننا سنجتازه الى شاطىء النصر . وقد يكون ذلك مصحوبا بخسائر وتضحيات ، الا أن يدنا ستلمس الشاطىء .

وتحدث كولوف عن المعارك التى دارت رحاها شمالى نهر الدون والتى تشـــترك فيها كما تذكر النشرات ، الآلاف من الدبابات من الجانبين ، وتشكيلات ضخمة من الطيران تسد بأعدادها السماء ، وأعداد لا حصر لها من القوات ، حيث يدور القتال من أجل كل شبر من الأرض ليل نهار لدرجة أنه حتى الموتى يحاولون استرجاع مكان لمقابرهم .

ـ لقد قرر هتلر حـــرق شـــارب ستالين (*) . غير أنه لن يقوى على ذلك . فكم من أمثال هتلر حرق ستالين شواربهم . ان يوسف ستالين ـ وهنا رفع كولوف صوته عاليا ـ سيمسك هـــذا العريف المخبول من ناحيته بيد ، وبسيف محمى فى يده الأخرى وعندئذ ستنتشر فى العالم أجمع رائحة الشعر المحروق ، كما سينبعث دخان يثير على الفور عطاس كل تابعى هذا المخبول .

أخذ الصبية فى الضحك . لقـــد تخيلوا بسرعة فى أذهانهم صورة ستالين وهو يحرق شارب هتلر ، كما تذكروا رائحة الصوف المحروق التى تنبعث أثناء وصم الجياد والأبقار التابعة للمزرعة التعاونية فى الربيع بعلاماتها . وقطع ضحك الصبية أفكار كولوف. وهنا استغل بيكان ارتباك الخطيب وقال :

ـ تقول : نجتاز التيار . والأمر يختلف حين يجتازه الانســـان دون حمل أو بحمل . فاذا كان دون حمل فيمكنه السباحة مع تيار النهر وتحمله الأمواج من نفسها وتصل به الى شاطىء الأمان ولا

(*) حلق الشارب عند الكارباديننيين يعنى وصم الرجل بالعار حتى المـــات .

يحتاج هنا الا الى تحريك رجليه ويديه • ولكن كيف يكون الحال اذا كان على كتفيه حمل من الالتزامات ؟ هل يلقى بالحمل فى النهر ويسبح وحده ؟ أم عليه أن ينقذ حمله كذلك ؟

ـ عن أى حمل تتحدث ؟ ـ صاح باخوف مذكرا العجوز بوجوده •

ـ عن أى حمل ؟ أقصد هذا الحمل الذى ألقى به الشعب على أكتافنا • ومن غير الممكن انزاله ، فالشعب هو الذى وضعه على أكتافنا • وبالتالى هو الوحيد القادر على انزاله : ان الشعب الصغير أرضه صغيرة والشعب الكبير أرضه كبيرة ولكن الشجاعة لا حد لها فى الأرض • ولقد سمعت من الاذاعة أن العجائز الكاباردينيين من منطقة تيريك أعلنوا قائلين : نحن على استعداد تسريج جياد الحرب ، والتطوع للقتال • لا تنظروا الى سننا ، فلا يزال لدينا الكثير من الصحة والقوة وسوف نقتل الأوغاد الفاشست دون أن نبخل بدم أو حياة • كلمات رائعة• ولقد وقع عليها بيكان ديدانوف العجوز : ولكن اذا خرجنا كلنا للحرب فمن آذن سيطعم الجيش ؟ ومن الذى سيحافظ على ثروة الشعب ؟ ها أنظروا ـ وأشار بيكان الى منحدرات الجبال وقد غطتها أعداد لا حصر لها من قطعان الابقار والاغنام والجياد ـ أترون أى حمل أقصد ؟ ملايين الرؤوس • كيف يكون تصرفنا مع هذا الحمل ؟ هل نفقده ، أم نندفع به سويا فى لجة الماء ونستقر فى القاع ؟ ليس التيار بمشكلة بالنسبة لمن هو دون حمل وما عليه الا أن يخلع حذاءه ويسبح أما فى هذه الحالة فانه مكبل بأثقال فى يديه ورجليه •

ـ وماذا يضيرك هذا ؟ ان الجياد الكاباردينية تجيد السباحة، وقد عبر أسلافنا على ظهورها نهر الفولجا ـ حاول طالب سوسماكوف بهذه الكلمات التحرش بالعجوز كى يسترسل فى كلامه مزيدا ، ذلك لأنه كان يتحدث عما كان يشغل بال طالب سوسماكوف نفسه ، الا أن باخوف قاطع سوسماكوف قائلا :

ـ لا تشمر ثيابك قبل أن تصل الى الماء · هل سمعت بهـذا المثل الشعبى ؟ لا يزال العدو فى المناطق الواقعة خلف نهر الدون، فى الوقت الذى تخلع فيه حذاءك استعدادا للنزول فى الماء · ان هذا يسمى ذعرا ·

ـ يسمى ذعرا من وجهة نظرك أنت · ولكن أتريد أن تسـمع مثلا شعبيا آخر ؟ يقول المثل : « الابن الحذر لا يكلف أمه البكاء » · ان القدرة على رؤية المستقبل أمر له أهميته · واذا كان بيت جارك يحترق فان النار يمكن أن تنتقل الى دارك ·

ـ ولكن أين ترى هذا الحريق ؟ ـ رد عليه باخوف متشبثا بموقفه · ولكن بيكان قال :

ـ ان لم يكن هناك حريق فما السبب فى تهجير الماشية من اقليم رستوف ، بل ومن منطقة ستافروبل ؟ واذا كانوا هناك يهتمون بانقاذ خيراتهم ، فلماذا لا نهتم نحن كذلك بها ؟

ـ هذا صحيح يا بيكان ـ لم يتمالك طالب نفسه ـ لقد عبرت عما يجيش فى صدرى ·

بدأ كولوف يغضب ، فقاطع سوسماكوف بصرامة :

ـ لقد سمعنا هذه الكلمات من قبل · على ما يبدو أن قرارا جماعيا قد اتخذ فى هذا الشأن وقد اشتركت فى اتخاذه · وأكرر أن القرار كان جماعيا · وواجبك كعضو فى لجنة الدفاع تنفيذه ، أم أنك لا تعرف ما هو الانضباط الحزبى والانضباط داخل الدولة ؟ اذا كنت لا تعرف فيمكننا أن نعلمك ، واذا كنت لا تريد أن تتعلم سنجبرك على ذلك · هذا ما يقولونه فى الجيش ، ونحن الآن جميعا فى الجيش نعيش ونعمل وفقا لميثاق الجيش · انى أعلم أنك بدأت بالفعل فى التخلص من الحمل حيث اصدرت أمرا بتوزيع الأبقار عـلى الفلاحين التعاونيين بوصل أمانة ، وربما بدون وصل ؟؟ أنفهم من ذلك أنك تريد السباحة عبر التيار دون حمل ؟

ـ كما ولدته أمه ·· ـ علق باخوف وقد انتعش بعد احساسه بالتأييد ·

شحذت ابتشارا انتباهها · فقد أدركت الآن فقط مصدر الأمر الذى كان بيكان ينفذه حين وزع الأبقار على من لا يملك أبقارا · وعلى فكرة كانت الكشوف غير مصدق عليها حتى من المجلس القروى ورغم ذلك تم توزيع بضع عشرات من الأبقار ·

ـ ولكن الرصاصة ستسبقك ولن تبتعد كثيرا ـ أضاف باخوف بسرور وفى هذه الأثناء جمع كولوف أفكاره وبدأ يواصل كلمته :

ـ لقد قال الرفيق ديدانوف كلمات سديدة : « ان الشعب هو الذى وضع هذا الحمل على أكتافنا وبالتالى هو الوحيد القادر على انزاله » · ولكن أكتافنا تشمل أكتافك أنت كذلك يا رفيق سوسماكوف ·

ـ هيا نحكم عقولنا ـ وقف سوسماكوف وبدأ يتحدث رغم أن أحدا لم يعطه الكلمة · وشد سترته مجمعا كل ثناياها تحت الحزام من الخلف فتجمعت على ظهره على شكل ذيل الديك المشدود واستطرد قائلا ـ ها نحن نصيح قائلين : حمل ·· حمل ·· كلمة جميلة · ان هذا الحمل فى الواقع هو مليون رأس · ولقد اختلطت جميع الرؤوس : المهجرة والرؤوس المملوكة لنا ، وأصبحت الماشية كلها الآن ماشيتنا · وبمثل هذا الحمل لن يصعب علينا اجتياز التيار فحسب ، بل ستنشق الأرض وتبتلعنا · ولهذا أتساءل : أين نسوقها فى حالة مباغتة الألمان لنا ؟ أتساءل ؟ فلنفرض أن أمرا سيصدر بتهجير الماشية والأغنام والجياد · ولكن كيف يمكن تهجيرها والى أين وما هى الطرق التى يتم بها ذلك ـ هذا هو ما يجب علينا أن نقرره · ويجب أن نقرر ذلك مسبقا ، والآن وقبل أن يأخذنا الرعد بغتة · أما نحن فنلف وندور · وأتساءل ما هى الطرق التى سنهجر الماشية خلالها وما هو النظام الذى سوف يتبع ؟

ـ هذا ما سيحدد فى حينه ـ صاح باخوف من مكانه ٠
ـ واذا لم يحددوا ؟
ـ أقول سيحددوه ٠
ـ ربما يحددوه ، ولكن فى آخر لحظة ٠ حسنا لو كانت ماشيتنا وأغنامنا فى المزارع حيث لن يكون عليك سوى أن تفتح الباب وتسوقها ٠ ولكن ينبغى علينا أن ننزلها أولا من الجبال وهذا يتطلب أكثر من أسبوع ٠
ـ لقد قيل لك ـ بدأ كولوف يفقد صبره ـ اننا لا نملك الحق فى تهجير الماشية والأغنام دون تعليمات من أعلى ، حين يكون ذلك من الضرورى ، ستقول موسكو كلمتها ٠
ـ واذا حدث ونسيت موسكو هذا الموضوع ؟ ألا تعتمد علينا؟ ان لدى موسكو الكثير من المشاغل ومن الممكن أن تنسى وهى فى دوامتها ٠
ـ ان ستالين لا ينسى شيئا ! ـ صاح باخوف ٠
وكانت هذه هى الكلمات التى لا يمكن لأحد الاعتراض عليها٠
ـ لسنا بالشىء التافه الذى يمكن نسيانه أيها الرفيق سوسماكوف ـ بدأ كولوف يتحدث ببطء وبفواصل بين الكلمات ، بل ومحاولا تقليد ستالين فى الكلام ـ أن ستالين لا ينسى حتى الأمور البسيطة مثل برقية شكر لمدرس قروى لما قدمه من تبرعات لتشكيل رتل من الدبابات ٠
ـ ان شعاب تشوبراك ليست على القمر ـ استطرد كولوف وقد أخذ يهدأ ـ لسنا قلعة منعزلة تحيط بها صخور منيعة من كل مكان٠ لقد تجمعت فى أراضينا ثروات نقلت من الأراضى المحتلة ، ناهيك عن الماشية ٠ ان اللحم والصوف والجلد الخام والزبد والجياد أشياء ذات قيمة كبيرة وضرورية للجبهة مثل الدبابات والمدافع والطائرات٠ ويوجد لدينا من الجياد ما يكفى لتشكيل ثلاثة أو أربعة جيوش خيالة مثل جيش بوديونى ٠ أما العدد الدقيق للماشية فهذا غير معروف

حتى لطالب سوسماكوف،لأنه أسرع بتوزيع نصف الأبقار بوصولات أمانة ، واذا حاولنا الآن انزال الماشية من الجبال فستسود حالة من الذعر لا مثيل لها حيث سيترك الأهالى كل شيء ويهربون الى حيث تحملهم أقدامهم · هل فكرت فى هذا ؟

وبدا أن كولوف أقنع الجميع ، الا أن العجوز بيكان دائب الضجيج قال سائلا :

ـ واذا فرضت الظروف علينا أن نسوق الماشية تحت قصف القنابل ؟

ـ ولكن لماذا تعتقد أن هذا سيكون تحت قصف القنابل ؟ ـ أخيرا هب باخوف واقفا ، وأصلح من ملابسه الجديدة · وطرح الى الخلف الحقيبة الأنيقة والتى توجد بها الخارطة المغطاة بالسلوفان

ـ ان العدو لا يزال بعيدا عن هنا · والوقت مبكر كى نتحدث عن قصف القنابل · نحن خارج نطاق مدى طيران العدو ·

ـ ولكن الطائرات تحلق فى المنطقة ـ قالت ابتشارا بسرعة ·

ـ طائرات منفردة · طائرات استطلاع · أما القاذفات فلا يمكنها الوصول الى هنا ·

وتلقت ابتشارا النظرة الصارمة لباخوف وصمتت · الا أن سوسماكوف أيد بيكان قائلا :

ـ حين نصبح داخل نطاق مدى طائرات العدو القاذفة ، سيكون الوقت متأخرا للتفكير فى تهجير الماشية والأغنام والجياد·

ولم يتوان بيكان والتقط على الفور فكرة سوسماكوف وقال :

ـ لقد استغرقت الماشية والأغنام والجياد أسبوعين للوصول الى هنا · وكانت الجياد تسير أولا ثم الماشية التى لا تعمل،ثم اناث الماشية تليها الرؤوس الصغيرة السن · كانت تسير وفقا لخطة وجدول ، تماما مثل القطارات بحيث لا تعوق احداها الأخرى · ان الطرق فى الشعاب لا يمكن تغيير معالمها ، كما لا يمكن أن نحيد عنها · وحين تأتى اللحظة المقررة ونتلقى التعليمات بانزال الماشية

والأغنام والجياد من الجبال كيف نتصرف ؟ هل ننزلها جميعا مرة واحدة ؟ الجياد والأبقار والثيران والعجول والأغنام والحملان ـ سوف تطأ وتدوس وتفعص بعضها البعض بحيث يصبح من المتعذر تطهير الطرق من الجثث على مدى ثلاثة أسابيع • وهل يعلم ستالين هذا ؟ وهل يجب أن يقول لنا متى ينبغى أن نهجر الماشية ؟

ـ لا يمكنه بطبيعة الحال أن يلم بمثل هذه التفاهات ـ قال تشوكا هذا محاولا ايضاح أنه يقف الى جانب زوج والدته •

كان تردد كولوف يثير بيكان مما جعله يزداد غضبا وهو يقول :

ـ ان الطائرات تلقى المنشورات الآن • ماذا لو بدأت تلقى القنابل ؟ كيف سيكون الحال لو ألقت قنبلة على قطيع من الجياد ؟ انه من الصعب الآن اصطياد الخيل بالاوهاق ، فما بالكم لو حدث ذلك ، ستجدون الجياد فى الهوة السحيقة ولن يكون من الممكن جمع عظامها لاستخدامها كمادة خام • ومن المعروف أن العادة تقضى بوضع جدى فى مقدمة قطيع الأغنام أثناء السير • ان الجدى أكثر شجاعة وسرعة فى الادراك ولذا فانه يقود الاغنام • وهكذا الحال بالنسبة للشعب • انه يريد أن يكون أمامه قائد شجاع سريع الادراك •

فهم الجميع مغزى كلمات بيكان بما فى ذلك كولوف بالطبع، الا أنه كان على ايمان راسخ من أن الأمر بتهجير الماشية والجياد والأغنام والمعدات الصناعية وكذلك كل الثروات المنقولة ، سيصدر فى الوقت المناسب ، وأن موسكو ليست غافلة عن المراعى الموجودة فى الجبال حيث تجمعت أعداد كبيرة من الماشية والجياد والاغنام بنفس قدر اهتمامها بالمؤسسات التى تنتج الموليبدنيوم والتنجستين

اللازمين للصناعات الحربية ٠ أما اذا بدأت محاولة تجميع الماشية بالقرب من المزارع الحيوانية فسيصاب الأهالى بالذعر ويتوقفون عن تخزين العلف وجز صوف الأغنام وتلزم كل حلابة بيتها وتتوقف عملية تسليم المنتجات الحيوانية ٠ وهناك ما هو أسوأ من هذا ـ سيبدأ الطامعون فى الاثراء على حساب الخيرات العامة بالطرق غير المشروعة حيث يسرقون الماشية وكل ممتلكات الدولة ٠ ومن الذى سيسأل عن كل هذا ؟

ما العمل ؟ هل نبادر باتخاذ قرار أم ننتظر التعليمات ؟ هل ينبغى تأييد سوسماكوف أو الموافقة على رأى باخوف ؟

لم يستطع كولوف بأى حال من الأحوال اتخاذ قرار ٠ فحين كان سوسماكوف يتحدث كان كولوف متفق معه فى قرارة نفسه كما كان على استعداد لأن يصدر أمرا باسم لجنة الدفاع بتهجير الماشية والأغنام والجياد ٠ لقد تم بالفعل وضع الخطة والتصديق عليها ، الا أنه من غير الممكن تنفيذها دون تعليمـــات من أعلى ٠ ولكن حين تحدث باخوف اتفق كولوف معه فى الرأى كذلك ٠ فقد كان الاهالى فى الواقع يعيشون وقد سيطرت عليهم درجة كبيرة من التوتر والقلق بحيث أصبح من الممكن أن ينفجروا من اتفه دفعة ، أو خطوة غيـر مدروسة ، بل وربما من صوت حفيف ٠

لم يكن الأهالى يتخيلون بعد كل الاخطار المحدقة بهم ٠ فقد كانوا لا يزالون يعيشون بأوهام ما قبل الحرب معتقدين بأن الألمـان لن يستطيعوا الوصول حتى القوقاز ٠ لا سيما أن الفرقة القوقازية تقف فى طريقهم ٠

كان من الواضح ـ من ناحية ـ أنه ينبغى انقـــاذ الثروة الشعبية ، أو الحمل ، كما يقول بيكان ، واجتياز التيار العاصف بها ٠

ولكن ـ من ناحية أخرى ـ ما أن تبدأ عملية التهجير سيتوقف نشاط الأهالى وتنخفض الروح المعنوية لكل فئات السكان ٠

ومن الممكن تبرير فرار السكان فيما بعد اذا احتل الالمان شمال القوقاز ٠ ولكن اذا لم يحتلوه ؟ واذا تمكنت قواتنا من وقف تقدمهم عند أى من الخطوط الدفاعية التى أقيمت فى الآونة الأخيرة؟ ما الذى يمكن عمله ؟

ربما من الأفضل عدم سوق الماشية الى الأراضى المستوية ، بل الصعود بها الى أعلى حيث سلسلة جبال القوقاز ؟ واذا حدث وجاء الألمان الى هنا فان فرق الفدائيين سوف تمارس نشاطها هناك فى الجبال العالية وسيتمكنون من حماية الماشية من العدو ٠

هل يمكن أن يصمد رأس انسان أمام عذاب هذه الأفكار ٠ وماذا سيحدث لو لم نتمكن من تهجير الماشية والجياد والأغنام؟ ان تبرير هذا ليس بالأمر الصعب سنقول لم نتلق التعليمات ٠ أما اذا أخذنا برأى طالب سوسماكوف فان هذا يعنى التنبؤ المسبق بهزيمة قواتنا وحتمية الاحتلال الألمانى ٠ لا يمكن قبول أى شىء الا هذا ٠

ـ أيها الرفاق ٠ نحن الآن نتحدث عن أمر ليس هو الذى اجتمعنا من أجله ـ واصل كولوف كلمته وهو يشعر بأن صوته قد تغير لدرجة أنه لم يعد يتبينه ، كما تيقن بأنه يتحدث فى هذه اللحظة عن شىء آخر غير الذى يفكر فيه ٠ غير أنه لم يعد من الممكن التوقف ولذا واصل حديثه بصوت واهن ـ ينبغى علينا أن نركز اهتمام الأهالى على تنفيذ المهام الاقتصادية وهى المهام التى تقضى بزيادة انتاج اللحوم والصوف واللبن والزبد ، من أجل جبهة القتال ٠ ان قواتنا ستوقف زحف الألمان عند نهر الدون ، واذا تمكنت القوات

الالمانية من الاستيلاء على الشواطىء الجنوبية للنهر فانهم سيصطدمون بخطوط دفاعية قوية التحصينات فى منطقة ـ كان يريد أن يقول لهم منطقة « ارمافير » ، الا أنه عزف عن ذلك لادراكه أن هذا من الأسرار العسكرية • فأضاف ـ جنوبى نهر الدون • يجب علينا أن ندفع بكل قوانا لانشاء قاعدة متينة للعلف وتخزين كمية من العلف الجاف والسيلامى تغطى احتياجات فصل الشتاء لا لماشيتنا فحسب ، بل وللماشية المهجرة كذلك • ولدينا معلومات تفيد أن المسئولين فى بعض المزارع الجماعية يحاولون بيع أكبر كميات من الماشية للهيئات العسكرية بغية خفض عدد الرؤوس • كما أن هناك بعض حالات من المضاربات • هذا أمر فظيع • اننا سوف نغطى احتياجات الجيش من المواد الغذائية بصورة مركزية• لقد اتصلنا بالفعل بادارة المشتريات والتجارة بالجيش الأحمر حيث تدور مفاوضات بشأن بيع عدة آلاف من الأغنام للجيش • وسرعان ما ستتلقون الأوامر فى مزارعكم الجماعية والحكومية •

أخذ سوسماكوف يهز رأسه الكبير ، وهنا اعتقد كولوف « وأخيرا اتفق طالب معى فى الرأى » الا أن الواقع كان غير ذلك• فقد كان سوسماكوف على استعداد أن يصيح بأعلى صوته فى قنوط « ألقوا هذه الثرثرة جانبا ! وسوقوا الماشية من الجبال قبل أن يفوت الأوان » فقد كان طالب سوسماكوف يدرك أنه سيكون الضحية فى نهاية المطاف بصفته مسئولا عن الزراعة فى الجمهورية •

واسترسل كولوف باسهاب فى الحديث وأخذ يلقى باللائمة على المتخصصين فى تربية الحيوانات الذين يكتبون مسبقا كشوف شطب الماشية النافقة واقترح عقاب الحلابات اللائى تهربن الى بيوتهن واصفا ذلك بأنه « فرار من موقع القتال » وهدد بمحاكمة كل

من يختلس بونات التموين ويضارب بها ويستولى على الماشية المملوكة للدولة · واقترح كولوف التحقيق على الفور فى موضوع المسئول عن توزيع أبقار المزارع الجماعية على الأهالى بحجة « القضاء على عدم ملكية الأبقار » · وازداد صوته قوة وهو يقول :

ـ يجب ارسال الفلاحين التعاونيين الذين يعملون بالحراسة لجز الحشائش · لقد آن الأوان لوضع حد لروح التراخى حين تتخفى اللامسئولية تحت حجة « لا تزال الحشائش خضراء » فى الوقت الذى تعطن فيه الحشائش المجزوزة من مياه الأمطار ·

وهنا انقطعت كلمة كولوف فجأة · فقد خرج رجل الاتصال من الخيمة التى تصدر منها طوال الوقت محطة اللاسلكى صريرها المتقطع ، وقدم الى باخوف ـ الواقف خلف العجائز ـ قصاصة من الورق مكتوبة بالقلم الرصاص · أمسك باخوف بالقصاصة ومر بعينيه على سطورها المتعرجة ثم تجهم وجهه وألقى نظرة صارمة على الشاب وكأنه يتساءل : ربما هذه الكلمات من تأليفك ؟ وكانت كلمة «عاجل» مكتوبة بخط كبير فى الزاوية العليا من الرسالة اللاسلكية فضلا عن الخطين اللذين تحت الكلمة · ومر باخوف بعينيه مرة وأخرى على سطور البرقية التى تقول : « وصل نبأ غاية فى الأهمية ينبغى العودة فورا الى نالتشيك لاتخاذ القرارات » ·

وكانت البرقية تحمل توقيع سكرتير اللجنة الحزبية بالأقاليم·

اقترب باخوف من كولوف وناوله الورقة وظل بجواره وكأن أحدا ما سيخطف البرقية من يد كولوف ولذا فهو يرى أن واجبه يقضى بحراستها ·

واصل كولوف خطبته دون أن ينظر فى الورقة المقدمة اليه·

ومن المحتمل أنه اعتقد أنها ورقة تحمل سؤالا ما من الجالسين
ولم يحتمل باخوف وهمس فى اذن الخطيب :
ـ برقية عاجلة ٠

قطع كولوف خطبته وهو فى منتصف احدى الكلمات ٠ وبدا وجهه ـ الذى كانت تعلوه حمرة الحماس ـ فى الشحوب ٠ وكان سوسماكوف يتابع بنظره كل حركة من حركات كولوف ٠ فقد كان على ثقة من أن هذه الورقة ليست سوى تعليمات تهجير الماشية ٠

نعم ٠٠ لم يكن الحظ يحالف كولوف فى خطبه العامة كالمعتاد ٠٠ وأدرك الجميع أن شيئا هاما وحاسما قد حدث ، ولكن ما هو؟ هذا ما لم يكن يعلمه أحد ٠ ولم يتجاسر أحد على السؤال ٠ كما أن اللذين تلقيا البرقية أنفسهما لم يكونا يعرفان هذا الأمر كذلك ٠ ولو كان كولوف وباخوف يعرفان ان مضمون البرقية التى تلقتها لجنة الاقليم الحزبية لم يخرج عن الافادة ببدء اشراك الفرقة القوقازية فى القتال ، لكانا قد أخبرا الشعب بذلك بكل ارتياح ٠ الا أن كولوف اضطر الآن الى قطع خطبته ونقل ادارة دفة الاجتماع الى سوسماكوف ٠ قفز كولوف وباخوف الى السيارة وأسرعا بها الى أسفل حيث ظلت السيارة تتلوى طويلا على طريق الجبل الحلزونية ٠

معارك الفتيات

انطلق تشوكا كى يدخل السرور فى قلب ابتشارا ولذا كان يقطع الطريق وكأنه يطير بأجنحة ٠ لم يكن لديه الكثير من اللحظات السعيدة ٠ غير أن سعادته الوحيدة كانت ابتشارا ٠ ولعل أكبر حسرة يشعر بها هى عدم ضمه الى الفرقة القوقازية ٠ لقد استدعوه الى مكتب اللجنة الاقليمية حيث أخبروه بتعيينه في ادارة

المراعى بدلا من أن يجد نفسه فى القسم السياسى بالفرقة القوقازية. ولقد قال له كولوف آنذاك بصورة قاطعة :

ــ اننا نرسلك الى حيث الاحتياج اليك أكثر من أى مكان آخر .

ولم يبق من أحلام تشوكا فى الانضمام الى الفرقة القوقازية الا المهماز الفضى الذى كان قد طلب صنعه .

لم يكن تشوكا يستطيع التفكير فى أن ابتشارا كانت سببا الى حد ما فى تعيينه فى ادارة المراعى .

كان ذلك على النحو التالى . لقد ارسل تشوكا موتايف الى كل التنظيمات الكومسمولية الأساسية فى المزارع الجماعية والمدارس والمزارع الحيوانية ومصنع الطوب الأحمر والى كل مكان توجد به فصائل الدفاع الذاتى وجماعات التدريب العسكرى ــ رسالة تقضى بوجوب البدء فورا فى تدريب المقاتلين من الشباب على طرق القتال بالتلاحم ، وذلك تنفيذا للأوامر الصادرة من أعلى .

وتلقت ابتشارا أول صورة منسوخة من أمر تشوكا ، الا أنها رغم وضوح النسخة لم تفهم شيئا منها بالمرة . ماذا يعنى القتال بالتلاحم ؟ وكيف يمكن تدريب الآخرين اذا كانت هى نفسها لا تعرف؟ وأسرعت ابتشارا للتشاور مع صديقاتها . غير أن الحلابات لم يسمعن عن القتال بالتلاحم . وأخذت عزيزة القوية المائلة الى السمنة تؤكد أنه من المرجح أن هذا الأمر لا يخص الفتيات مما أثار غضب ابتشارا : كيف لا يخص الفتيات اذا كان تشوكا أرسله بنفسه ؟

وكان من الممكن أن يعينهن فى هذا الموضوع بيتو المتخصص فى تربية الحيوانات ، الا أنه لسوء الحظ لم يظهر . فقد ترك قبل ذلك رزمة كبيرة من استمارات الحيوانات النافقة وعلى هذا كان مطمئنا من ناحية هذا القطاع . ولكن الأمر كان يقضى « بالبدء فورا » .

وأخيرا خمنت عزيزة قائلة :

ـ من المرجح أن التلاحم يعنى القتال بالأيدى أى ضرب الآخرين بقبضة اليد على هذا النحو .. ـ وأرادت أن تضرب حلابة تقف بجانبها من باب المزاح الا أن الحلابة تفادت الضربة . المزاح مزاح، ولكن أيدى الحلابات قوية كالحديد .

ـ هذا ما يجب تجربته على المتخصص فى تربية الحيوانات.

ـ انه لن يتحمل حتى نصف ضربة .

وساد جو من المرح بين الفتيات ، غير أن ابتشارا قالت لعزيزة بلهجة حازمة :

ـ لقد كنت أول من أدركت معنى القتال بالتلاحم ولذا ستتولين الاشراف على التدريب عليه .

لم تكن عزيزة الطباخة تتوقع أن ينقلب المزاح ويعود بعواقبه عليها . ولكن ما العمل ؟ حسنا لو كان من الممكن ايجاد أحد المحبين للشجار من بين أهالى القرية ليكون بمثابة معلم . ولكن أين يمكن ايجاد مثله الآن ؟

واظبت عزيزة كل صباح على اخراج الفتيات للتدريب . وقد حرمت الفتيات بعد الدرس الأول مباشرة من « تسريح » شعورهن الكثيفة المنفوشة ، وتمزقت بلوزة هذه ، وطارت أزرار تلك ، وتناثرت دبابيس الشعر وأمشاط الزينة .

لم يظهر بيتو جيرجوف . وحاولت الفتيات ايجاد كتب فى هذا المجال الا أنهن لم يجدن ، وعندئذ تذكرت ابتشارا أن ليرمنتوف (*) فى قصيدته « أنشودة التاجر كالاشنيكوف » يقدم وصفا لمعركة بالأيدى . وأصبح هذا الكتاب بمثابة الكتاب التعليمى .

كانت عزيزة تصف الفتيات فى صفين بحيث تقف كل فتاة فى

(*) الشاعر الروسى الاشهر (١٨١٤ ـ ١٨٤١) . المترجم .

مواجهة الأخرى ، وقد شمرن أكمامهن • وتبدأ التدريبات بالتسخين، أما الأوامر التى تصدرها عزيزة للفتيات ، فكانت من تأليفها على غــرار :

ـ ابدئى التسخين! ـ وهذا يعنى التلويح بالأيدى والضرب فى الهواء بهدف تحقيق أكبر قدر من الاستثارة والغضب بحيث يصبح من الممكن أن تضرب الفتاة فتاة أخرى دون تفكير فى العواقب •

ـ اجعلى الشرر يتطاير من عينيك ! ـ وكانت عزيزة تصدر هذا الأمر بعد التسخين • وكان الهدف من هذا التمرين هو التأثير السيكولوجى على العدو • وفى هذا المجال كانت عزيزة تعلمهن قائلة :

ـ أنظرى الى العدو مع فتح العينين الى أقصى حد وادخلى الرعب فى قلبه واقتلى فيه الرغبة فى المقاومة •

ـ الصف الأيمن •• اضرب ! ـ هذا يعنى أن يقوم الصف الأيمن بانزال ضربة بالصف الأيسر دون الرد عليها •

ـ الصف الأيسر •• اضرب ! ـ وهنا يتلقى الصف الأيمن الرد من الصف الأيسر •

كانت الحلابات بادىء الأمر يتظاهرن بأنهن يقمن بالضرب، الا أنهن اندمجن فى اللعبة بالتدريج فكانت تسمع الضحكات تصدر من خلال الألم والتوجع وتعلو الولولة فى المكان ، ولا يتوقف التدريب عند حد اللكمات بل يتعداها الى التشبث بالشعر كما هى العــادة لدى الفتيات ، ثم يتحول الى شجار حقيقى تنسى فيه الفتيات أن هذا ما هو الا تدريب وأن اللكمات يجب أن تكون تعليمية •

واندمجت عزيزة هى الأخرى فى هذا الدور بصفتها المشرفة وأعجبتها هذه التدريبات التى كانت شيقة بدرجــة أكثــر من حلب الأبقار وعلاج العجول أو اعداد الطبيخ • والأهم من ذلك أن فرصة سعيدة سنحت لها لترى الحــلابات قدراتهــا الحقيقيــة فى هــذا المجــال •

كان الأهالى أثناء مرورهم بوادى الحملان البيضاء كل صباح لا يستطيعون فهم ما يدور فى مزرعة الشـــباب · ربما اخترعت ابتشارا لعبة جديدة لتسلية الفتيات ؟ فقد كانت الصورة اليومية على النحو التالى : ما أن يتسلم المسئول عن نقل اللبن حليب الصباح حتى تضع الفتيات أوعية الحليب جانبا ويقفن فى صفين ثم يمتلىء الوادى بولولة وصيحات الفتيات بل وبكائهن فى بعض الاحيان ·

وضعت عزيزة برنامج القتال بالتــــلاحم وقدمته لابتشارا للتصديق عليه · وكان البرنامج يشتمل على كل الأوامر · واصبحت الآن تدوى فى المزرعة الأوامر : « ابدئى التسخين ! » ، « اجعلى الشرر يتطاير من عينيك » ، « الصف الأيمن اضرب ! » ·

وكانت قصيدة ليرمنتوف ـ التى أصبحت بمثابة كتاب تعليمى بالنسبة للمتحمسات الشابات ـ تتضمن أبيات عزاء حفظتها الفتيات عن ظهر قلب وتقول الأبيات :

من يضرب الآخـــر يكافئه القيصر
ومن يضرب من الآخر يغفر له الله

وصلت الى القرية أخبار هذه التدريبات الغريبة التى تمارسها الحلابات فى المزرعة الحيوانية · ولم يستطع بيكان أن يجد الوقت للذهاب الى هناك والتحقق من هذه الأخبار ، غير أن باخوف توجه الى هناك على الفور ·

أوقف باخوف السيارة على مسافة كبيرة بعيدا عن المزرعة كى لا يفزع الحلابات واتجه نحو المزرعة سيرا على الأقدام على أمـــل أن يظهر أمام الفتيات بغتة ·

وفى هذه المرة كانت ابتشارا تدير التدريبات بنفسها ·

خرجت الفتيات الى المرج الموجود بين أشجار الغابة واصطففن فى صفين وكأنهن يستعددن لرقصة « أودج » الكاباردينية · وبعد

التسخين انتقلت الى « محلك سر » قبل أن يدخلن المعمعة • وكان بعضهن يخرج من الصف بعد تلقى اللكمات لاصلاح تسريحة الشعر أو التقاط بروش سقط وسط الحشائش •

وأخذت ابتشارا تلفت نظرهن وتحذرهن من خطورة الضربات وتحظر الضرب على الوجه والرقبة كيلا تحدث أضرار بجمـــال الفتيـــات •

تابع باخوف الفتيات ولم يصدق عينيه : من هذا الغبى الذى خطر على باله تعليم الفتيات القتال بالأيدى ؟ ان لدى المرأة سلاح فعال هو لسانها • ويمكن لهذا السلاح أن يردى أى رجل قتيلا ، ورغم أن أحداً لم يعلمها استيعاب هذا السلاح مثلما لم تعلم البطة أو الأوزة السباحة ، أو الغراب الطيران • ففى بعض الأحيان تجد امرأة ذات لسان يمكنها به أن تجعل دولة تعلن الحرب على دولة أخـــرى •

أخذت حمية الفتيات تزداد بالتدريج وبدأت بعد ذلك معركة حقيقية • وواجهت الفتيات بعضهن البعض وقد رفعن قبضات أيديهن اليمنى انتظارا لصدور الأمر : « الصف الأيمن اضرب ! » الا أن ابتشارا لم تتمكن من اصدار هذا الأمر • فقد رأت باخوف الذى كان يمسك نفسه بصعوبة من الضحك • وتظاهر باخوف بأن ما من شىء هنا يثير العجب • وخطت ابتشارا لملاقاة باخوف بالخطـــوة العسكرية النشطة وقدمت اليه تقريرها كما يحدث وفقا للنظـــم العسكرية على وجه التقريب قائلة :

ـ فصيلة • انتباه ! أيها الرفيق القائد • نحن نجـــرى تدريبات عسكرية •

ـ حسنا استمروا ! ـ قال باخوف باذلا كل جهده كيلا ينفجر فى الضحك ويغضب الفتيات • غير أنه لم يستطع ذلك • فما أن رأى تنفيذ أمر « الصف الأيمن اضرب ! » ثم « الصف الأيسر اضرب » حتى

انطلق فى الضحك وخلع الكاب فكشف عن الصلع الذى زحف على رأسه قبل الأوان ٠

وكادت ابتشارا أن تنفجر بالنشيج ٠

توقفت الفتيات وهن فى حيرة من أمرهن ٠ فقد سررن لقدوم رجل عسكرى حقيقى يعرف،بالطبع، ما هو القتال بالتلاحم وبالتالى سيجعل التدريبات تجرى كما ينبغى أن تكون أو يلغى بالمرة هـذه التدريبات المخجلة ٠ وكانت الآونة الأخيرة قد شهدت همهمة سرت بين الفتيات ٠ وعبثا كانت ابتشارا تؤكد لصديقاتها أن القدرة على الضرب باللكمات سينفعهن لا ضد الفاشست فحسب ، بل فى ارجاع الزوج المتطرف الى رشده ٠

وأيدت عزيزة ابتشارا قائلة :

ـ ربما تتعرض احداكن للخطف فجأة بغرض الزواج ٠ فى هذه الحالة من الممكن ضرب العريس فى أسنانه وريثما يتمكن من جمعها ، تكونى قد استطعت الهرب ٠ ان قبضة اليد فى مثل هـذه الأحوال هى أفضل دليل على العدل ، بل هى سبيل الدفاع الوحيد ٠٠ أو ربما يهاجمك أحد الألمان ٠٠

واحتدمت المناقشات ولذا كانت جميع الفتيات الآن فى انتظار ما سيقوله باخوف ٠ وتوجه باخوف الى ابتشارا سائلا :

ـ ما الذى تتدربين عليه الآن ؟

ـ انزال الضربة باليد اليمنى ـ أجابت ابتشارا بلا تردد ٠

ـ وماذا عن اليـد اليسرى ؟

ـ وباليسرى كذلك ٠

لم يضـــحك أحد ٠ وأخذت الفتيات اللاتى احمرت وجناتهن ينفضن الغبار عنملابسهن ويصلحن من شأنها ومن مناديل رؤوسهن

ويجدلن ضفائرهن المشعثة ، وهن ينظرن تارة الى باخوف ، وتارة الى ابتشارا التى كانت تقلب كتاب ليرمنتوف بين يديها ٠

ـ تقولين الضرب باليد اليمنى والضرب باليد اليسرى ٠ أمر رائع ! ـ انتعش باخوف ـ كنت أمتع ناظرى من بعيد ٠ يا لقـــوة ضرباتكن ! هوب ٠٠ والزوج المسكين يطلب الرحمة ٠ أليس كذلك ؟

ـ هذا أفضل من التشبث بشعر الزوج واقتـــلاعه ـ أرادت ابتشارا أن تمس مشاعر باخوف مشيرة الى صلعته ٠

ـ أقسم بأن هذا صحيح ولحسن الحظ أن زوجتى لا يمكن أن تقوم بهذه العملية الآن ولكن قولى لى بجد : ما الذى كنتن تفعلنه الآن ؟

ـ كنا نتدرب على القتال بالتلاحم ٠

ـ لا انى أسألك بجـد ٠

ـ وأنا أقول لك بجـد ٠

ومن الذى علمكن ذلك ؟

ـ نحن بأنفسنا ٠

ـ أهذا بديل عن التمرينات الرياضية ؟

ـ لا ٠٠ هذه تدريبات عسكرية ٠

ـ وهل هناك تعليمات ؟

ـ رسالة من اللجنة الكومسمولية بالناحية ـ وقلبت ابتشارا صفحات كتاب ليرمنتوف وأخرجت منه الرسالة الموقعة من تشوكا موتايف ٠ ومر باخوف بعينيه على الأمر الذى لا يمكن أن يعترض عليه أحد من حيث الجوهر ٠ فقد كان الأمر يقضى : « بتدريب الشباب على طرق القتال بالتلاحم » ٠

وسجل باخوف شيئا ما فى مذكرته وأعاد الرسالة لابتشارا ، ثم ضحك وأوضح للفتيات أنهن لم يفهمن الأمر فهما صـــحيحا ٠ وحدثهن عما يقصد به من طرق القتال عن قرب وخاصة القتـــال

بالتلاحم ، وأراهن كيف ينبغى أن يتم ذلك وساعدهن فى اختيار مكان لخط الاقتحام ، وأوضح لهن بالتفصيل مم ينبغى أن يتكون هذا الخط والمهمات الضرورية وأماكن توزيعها ، ثم وعدهن بارسال مدرب عسكرى الى المزرعة الحيوانية ، ونصحهن بأن يوقفن مؤقتا التدريب على اتقان الضرب باليد اليمنى واليد اليسرى ٠ وانتهى الأمر على هذا النحـــو ٠

غير أن باخوف لم يتمكن من الصمود فى مواجهة الاغــــراء بالتحدث عن هذه الحكاية المضحكة أثناء جلسة لجنــــة الدفاع ٠ ولاقت حكايته نجاحا منقطع النظير ٠ فقد أخذ أعضاء اللجنـــــة منقبضو النفس للاخبار السيئة الواردة من جبهة القتال ــ يضحكون حتى اغرورقت عيونهم بالدموع، يضحكون كما لم يضحكوا على هذا النحو منذ بداية الحرب على الاطلاق ٠ وانقلب هذا الضحك بنتائجه على تشوكا موتايف الذى أصدر أمرا سليما دون أن يوضح سبل تنفيذه ٠ وكان أن نقلوا تشوكا موتايف الى ادارة المراعى ٠

وكان تشـــوكا اليـــوم مرح المزاج رغم نشرة مكتب الأعلام السوفييتى السيئة التى سمعها بالاذاعة ٠ فقد كان كل لقاء مـــع ابتشارا حدثا كبيرا بالنسبة لتشوكا غير أنه لم يسىء اســـتخدام بهجته ٠ كان من الممكن أن يتردد على المزرعة كل يوم ولكنه كان يعتقد أن العيد يفقد معناه اذا تكرر كل يوم ٠ ويختلف الأمر حين يتوجه المرء للقاء حبيبته بهدف اللقاء ، وحين يتوجه اليها حــاملا خبرا سعيدا ٠

ــ لقد تحقق ما رأيته فى المنام وسترين أخاك ــ هذا ما سيقوله تشوكا الآن ٠

وكانت ابتشارا قد رأت فى المنام منذ وقت قريب أن المزرعة الحيوانية قد تحولت الى مستشفى عسكرى وجاؤوا بألبيان جريحا

اليها · وكان البيان فى ضمادات دامية ويطلب لبنا طازجا · ولسوء حظه كان اللبن قد أرسل الى المصنع ·

وأخذت ابتشارا تجرى من حلابة الى أخرى وهى ممسكة بالكوز الفارغ ولكنها لم تجد قطرة لبن واحدة فى أى مكان · وهنا ظهر كولوف وكأن الأرض انشقت عنه وقال بلهجة آمر صارم :

ـ اذهبى الى المنزل · لقد أخذتم من المزرعة أفضل بقرة ومع ذلك لا تجدين لبنا ؟

ونهضت ابتشارا من نومها وهى تبكى ·

ـ لقد تحقق ما رأيته فى المنام وسترين أخاك ـ هذا ما سيقوله تشوكا الآن ·

لم يكن تشوكا يشك فى ان ابتشارا ستسعد بالخبر · فقد طلبت أكثر من مرة قبل ذلك أن يرسلوها الى جبهة القتال · وكانوا يثنوها عن عزمها قائلين : ولمن تتركين أمك المسكينة ؟ وكان تشوكا يتذرع بحبيبة وحدها رغم أنه هو نفسه لم يكن يريد أن يفترق عن فتاته · أما اذا كان الأمر لن يتعدى توصيل طرود الهدايا للمقاتلين والعودة ، فما من داع يثير الخوف · وستطير ابتشارا فرحا بهذا النبأ الذى كان بمثابة هدية لها من تشوكا · فعندما طلبوا من موتايف تحديد أفضل عضوة كومسمولية لتكون ضمن وفد الجمهورية الذى سيصطحب الهدايا المرسلة الى مقاتلى الفرقة القوقازية ، ذكر لهم دون تردد اسم ابتشارا كازانوكوفا · ولم يعترض أحد على هذا الترشيح · فقد سمع بها الجميع قبل ذلك · وأصبح الأمر الآن مرهونا بموافقة حبيبة ·

أخذ تشوكا يتحرك فى لهفة فى مقعده ويطلب من السائق طول الوقت زيادة السرعة ·

الاستعداد للسفر وأحاديث

جاء يوم الرحيل · ومنذ الصباح أصبح فناء بيت حبيبة أشبه بالسوق · فقد كان لكل أسرة فرد من أفرادها فى الفرقة القوقازية : اما الابن ، أو العريس ، أو الأخ · وكان كل يحمل معه اما طردا صغيرا أو رسالة كى يعطيها لابتشارا · ولم ترفض ابتشارا قبول الرسائل والطرود · ورتبت الرسائل فى حقيبة المدرسة ووضعت الطرود فى أجولة كبيرة · وعلاوة على ذلك سجلت فى كراسة مايجب أن توصله شفاها الى هذا المقاتل أو ذاك · وكان كل فرد يرجو ابتشارا أن تسلم الطرد الى المرسل اليه شخصيا فأخذت تعد وتؤكد وتقسم بأن هذا ما ستفعله · فقد كانت تتخيل أن الوضع هناك سيكون شبيها بالعرض العسكرى فى نالتشيك وأن الأفواج سوف تمر أمامها الواحدة تلو الأخرى وهى على المنصة ثم تقوم باستدعاء المقاتلين فردا فردا من واقع الكشف الذى لديها وتسلمه الرسالة والطرد وتحدثه كذلك عن أهله وأقربائه ·

لم يترك الأهالى فناء بيت حبيبة بعد تسليمهم الصناديق الصغيرة والرباطات والرسائل لابتشارا ، افترشوا الأرض تحت ظلال الأشجار وبدأت أحاديث بطيئة · وكانت الأخبار المتداولة بينهم غير دقيقة ، والاشاعات يستحيل تصديقها ، والتخمينات تثير العجب، أما التنبؤات فجاءت سخيفة · وكانت الأحاديث كلها تدور حول الحرب · وكلما ازداد حديثهم عنها ، ازداد القلق فى القلوب ·

ـ هل حقيقة ما يقولون ـ سألت حبيبة الرجال ـ ان الألمان يريدون تسميم مياه تشوبراك وقتل كل من يشرب منه ؟

صمتت النساء اللاتى تحت شجرة الكمثرى · وهل من الممكن أن يقدم الألمان على مثل عملية القتل الجماعى هذه ؟ الا أن ثمة

اشاعات وصلت الى الأسماع حول السيارات التى يخنق الألمان فيها الناس بغاز العادم حيث يملأون بهم بدن السيارة حتى آخره ويطلقون الغاز وما أن تصل السيارة الى المقلب المعد لذلك ، حتى يتحول كل من فيها الى جثث ٠

أما فيما يتعلق بتسميم مياه نهر تشوبراك فانقسمت الآراء ٠ كان البعض يرى أن تسميم النهر ليس عملية صعبة ٠ فمن الممكن أن تلقى طائرة بصناديق السم فى أى مكان عند منابع النهـــر فى الجبال ثم تجرى المياه المسممة الى أسفل بعد ذلك ٠ ودخل البعض الآخرّ فى جدال مؤكدين أنه ما من سم يكفى نهر تشوبراك ، كما أنه نهر عاصف ومن غير الممكن تسميم مياهه ٠

وانهالت ابتشارا بالعتاب على حبيبة قائلة :

ــ من أين لك بهذه المزاعم القائلة بأن الألمان سيصلون الى نهر تشوبراك ؟ انهم لن يصلوا الينا حتى لو ركبوا الريح ٠ أنسيت فرقتنا ؟ أنسيت البيان ؟ أقسم لك أنه حين يضرب بمدافعه الهاون يتطاير الألمان كما تتطاير الأوانى الفخارية المكسورة ٠

ضحك ساعى البريد سنترال وبرقت عينه الوحيدة والتى كما يقولون يرى بها أفضل مما يرى أى شخص بعينيه الاثنتين ٠ وفى هذا القول جانب من الحقيقة والا أين يجد النقود كى يحتسى الخمر٠ ولقد أحضر قبل فترة اعانة مالية لاثنتين من الأمهات استشهد ابناهما فىجبهة القتال٠وحصلتاحداهما على سبعة عشر روبلا ،أما الثانية فلم يزد نصيبها عن سبعة فقط رغم أن الشابين استدعيا للخـــدمة فى يوم واحد والحقا فى وحدة عسكرية واحدة ٠

وأبت رغبة القدر الشريرة الا أن يستشهدا فى معركة واحدة٠ واتضح فى لجنة التجنيد أن ساعى بريد القرية سنترال اختلس المبلغ من المسكينة ٠ غير أن الجميع كانوا يعترفون له فقط بميـــزة وحيدة : لم يكن هناك من هو أفضل منه كساقى فى مآدب الاحتفالات٠

وكان سنترال يقف خلال هذه المآدب على رجل واحـــدة احتراما للضيوف الجالسين ٠

والآن برقت عينه الوحيدة وقال ساخرا من ابتشارا :
ـ مسكينة أوكرانيا وبيلوروسيا ٠ من الواضح أنه لم يكن بين أهلهما ألبيان بمدافعه الهاون ٠
ـ وهل تم تسميم مياه أنهارهما ؟ ـ سأل أحد الجـــالسين فى الظلال ٠
ونالت كلمات سنترال من كرامة ابتشارا فاشتعلت غضـــبا وردت قائلة :
ـ ربما لا يستطيع ألبيان ايقاف كل الألمان ولكن ســـتالين لن يعطى القوقاز لهم ٠

شعرت ابتشارا بأسى بالغ تكاد تبكى معه ٠ فقد لاحظت أن كلماتها لم تهدىء من قلق النساء ، ولم توقف ساعى البريد ذا العين الواحدة عند حده وهو الذى كان يوزع على البيوت لا الصحف والرسائل فحسب ، بل ومختلف الاشاعات كذلك ٠ وكان سنترال قد أربك حتى حبيبة ، وأخافها وجعلها تخزن كميات كبيرة من ميـــاه نهر تشوبراك فى بيتها قبل أن يسمم الألمان مياه النهر ٠

ازداد بريق عين سنترال الوحيدة من الكلمات الغاضبة التى قالتها هذه الفتاة فرد عليها محتدا :
ـ أتعتقـــدين أن هتلر اســـتولى على أوكرانيا وبيلوروسيا ومولدافيا بتصريح من ستالين ؟ تعتقدين أنه قال : أرجو المعـــذرة يا يوسف فيساريونفتش ، سوف استقطع منك ، بعد اذنك ، نصف بلدك فانك تعيش فى سعة من أمرك ٠ أهذا هو ما تعتقدينه ؟

وهنا صدته ابتشارا من زاوية أخرى :

ـ انك متشبع بالروح الانهزامية ، كما انك تبذر بذور الذعر فى النفوس وتدعو الى الهزيمة ٠

كانت ابتشارا قد سمعت هذه العبارة من باخوف أثناء الاجتماع ٠ وتعجبت ابتشارا الآن حين وجدت أن كلمات باخوف هذه قد أفحمت سنترال فأمسك عن الكلام ، بل واختفى فى الظلال٠

ليس « سنترال » فى الواقع اسم ساعى البريد ، بل كنيةاطلقت عليه لأنه حين يطلب القرى المجاورة بالتليفون تراه يصيح : «سنترال! سنترال ! أعطنى الناحية ! سنترال ! »

وعندما اختفى سنترال فى الظلال بعد كلمات ابتشارا صاح بيتو جيرجوف فى أثره :

ـ انك تتحدث هنا كما تتحدث بالتليفون ٠

وضحك الجميع ٠ وأثناء هذا الضحك دخل فناء بيت حبيبة كل من بيكان وميسوست على جوادين ٠ وهب الناس وقوفا وهدأ الضحك ٠

سبق ميسوست بيكان وتحدث قائلا :

ـ ألا تخجلون من الضحك فى الوقت الذى يرى الناس فيه دخانا أسود بدلا من ضوء الشمس ؟ لقد ابتلت الأرض بدماء الشهداء أما وجوهكم فقد ابتلت بدموع الضحك ٠

وحاول بيتو المزاح فقال :

ـ لا تنس أنه حتى الجحش يضحك مرة واحدة فى حياته ٠

ـ يجب أن يضحك الناس ـ ألقى بيكان نظرة مشجعة على الجميع ودعاهم للجلوس ـ أمر سىء الا يفكر المرء فى الضحك ٠ ولو كان من الممكن لوضعنا فى هذه الصناديق والرباطات كمية كبيرة من الضحك وأرسلناها الى جبهة القتال كى يضحك أبناؤنا وهم فى الحرب ٠ فمن المرجح أن الظروف لا تسمح لهم بالضحك ٠

ـ وهذا ما كنت أقصده ـ دمدم ميسوست ٠

ـ اذن ستذهبين الى أخيك يا أبتشارا ـ لاشين ؟ لقد حالفك الحظ . لقد قال لى ابنى أن ترشيحك لاقى قبولا عن طيب خاطر . وكيف لا ؟ ! لقد اصطدت المخربين كما تصاد الجياد بالوهق . ويستحيل أن نجد فتاة أخرى مثلك . وها أنا بعيد عنك ، ولكنى أفتخر بك وحين يسألوننى أجيب : ابتشارا ـ لاشين ابنة قريتنا وجارتى وفى منزلة ابنتى . وعليك أن ترى جيدا فى الجبهة كيف حال السروج التى صنعتها ؟ هل هى متينة ؟ واسالى الفرسان ربما تفككت سروج بعضهم . واذا كان ذلك قد حدث فليكتبوا لنا وسنرسل لهم على الفور غيرها . ألن تنسى هذا ؟

فقالت حبيبة ناصحة :

ـ كان يمكنك ارسال هذه السروج مع الطرود .

ـ لقد توجهت الى المدينة واقترحت عليهم هذا ولكنهم رفضوا . فالطرود وحدها تملأ أربع عربات سكك حديدية . وهناك فى الجبهة أربعة أفواج لكل فوج عربة . وقالوا لى ان السروج من المهمات العسكرية وانهم لا يرسلون الآن سوى طرود الهدايا حيث يتسلم كل مقاتل طردا .

ـ وهل تكفى الطرود الجميع ؟

ـ تكفى طبعا . فانهم يعلمون عدد المقاتلين فى الفرقة ولن يظلموا أحدا . كما أنه اذا كان هناك جرحى ، فسيرسلون لهم الهدايا على المستشفيات العسكرية .

صنفت ابتشارا الرسائل وحزمتها فى حزم . وأخذ كوم صناديق الطرود والرباطات يزداد ارتفاعا بجانبها ورجاها بيكان قائلا :

ـ اذا رأيت قائد الفرقة فانظرى الى سرجه . هل هو سليم أم لا ؟ فقد كانوا فيما مضى يحكمون على مهارة الصانع بمثل هذه السروج . انه سرج كاباردينى أصيل . ولقد صنعت لابنى سرجا من

هذه ليكون هدية ليوم زواجه • ومن غير المعروف الآن متى سيتزوج
ـ ونظر العجوز بطرف عينيه الى ابتشارا التى كانت تكتب فى الدفتر وقد نكست رأسها ـ وحتى لو تزوج فما حاجته الى السرج ؟! انه ينتقل بالسيارة أكثر مما ينتقل بالجواد • واذا احتاج الى سرج فسوف أصنع له سرجا جديدا وليجعله الله سرج السعادة •

وقال بيكان لابتشارا :

ـ لا تنسى أن تنقلى تحية بيكان العجوز للقائد ، فان العقيد، وهو الفارس المحنك قد أدرك قيمة السرج على الفور لدرجة أنه لم يرغب فى أخذه قائلا أن مثل هذا السرج يجب أن يوضع فى متحف •

وكرر السروجى العجوز رجاءه لابتشارا :

ـ انقلى اليه تحيتى •

وهنا قال بيتو مازحا :

ـ ان ابتشارا تفهم فى الملاكمة أكثر من السروج •

ـ كان الأجدر بك أن تحضر وتعلمنا ! ـ كادت ابتشارا أن تهجم على المتخصص فى تربية الحيوانات ـ يا لك من وقح ! أتسخر منا ؟

ـ كفى شجارا ، ليس هذا وقت الشجار ـ نظرت حبيبة نظرة صارمة الى بيتو وهو بادى الفرح ـ ها هم الألمان يقتربون •

ـ خطر على بال ابن آوى أن يبتلع الدب • ولكنه أخطأ الاختيار • فالدب أكبر من حلقه ، كما أن أنيابه حادة كذلك •

ـ ان أنياب الدب ومخالبه لا مثيل لها ، ولكن ها هو ابن آوى يبتلعه قطعة قطعة • وها هو نصف روسيا فى جوفه ـ قاطع ميسوست بيكان • ميسوست يواظب منذ وقت قريب على سماع الاذاعة وهو جالس على سجادة الصلاة بدلا من صلاة الصبح • واعتقد الجيران أن ميسوست قد عاد الى ايمانه حين أنزل سجادة الصلاة القديمة

من المخزن الموجود تحت جمالون بيته، أما هو فيدرك لم فعل ذلك ٠ـ ان روسيا كبيرة ، ولكنها ثقيلة الحركة ٠ ان ابن آوى وحش مفترس سريع الحركة تراه ينشب أنيابه بسرعة فى الزور أو فى الفخذ ، وتجد بعد ذلك الضحية تسقط نتيجة استنزاف دمها ٠ وهكذا ابتلع فرنسا وهكذا سيبتلعنا نحن كذلك ٠

ـ لا لن يبتلعنا ـ اعترض بيكان غاضبا ـ فلنفرض أن ابن آوى سينشب أنيابه فى الفخذ كما تقول ، فان جرح الفخذ سيلتئم ريثما يصل الى الزور ، أو على النقيض من ذلك : يلتئم الزور ريثما يصل من الزور الى الذيل ٠ لا يوجد من يعرف أفضل منى ما هى روسيا بأطرافها المترامية ٠

ـ قد يكون هذا كلاما سليما ٠ ولكننا رغم ذلك بين حجرى الرحى ـ لم يتوقف ميسوست عن المجادلة ـ نحن شعوب صغيرة وسنضيع اذا تناوبت الوحوش الامساك بنا بأفواهها ٠ وأين حينئذ نجد الحماية ؟

لم يكن من السهل غلبة ميسوست فى الجدال ٠ فقد كان فى بعض الأحيان يربك الخطباء بالمدينة ٠ كما كان فى بعض الاحيان ينجح بالحيلة فى أن يقنع الناس أنه يكاد يكون من أنصار بيتال كاليكوف ٠

وحين يسأل الناس من يترأس الاجتماع : هل من سؤال ؟ تجد ميسوست جاهزا على الفور ، يرفع اصبعه ـ والذى يشبه كوز الذرة الأصفر أكثر منه أصبع يد انسان ـ الى أعلى ثم يقول :

ـ لدى سؤال ٠ لقد قلت كذا وكذا ٠ وأعتقد أن هذه الكلمات قالها بيتال ٠ أهذا صحيح ؟

ـ نعم ٠٠ نعم كنت استشهد بكلمات بيتال كاليكوف ـ ويبدأ الخطيب يمر بعينيه على الورقة التى يقرأ منها ثم يقول ـ نعم هذه هى الصفحة التى أخذت منها هذه الكلمات ٠

ويلتفت ميسوست الى الأهالى قائلا :

ـ أليس عجيبا يا أبناء قريتى أن كلمات بيتال والكلمات التى قلتها منذ القريب بالقرب من المسجد ، مطابقة لبعضها البعض مثل هذين الاصبعين ٠

ويضم ميسوست كوز ذرة أصفر الى كوز الذرة الأول ٠

وها هو الجمع يرى الآن كيف يبز ميسوست السروجى فى الجــــدال ٠

ـ ماذا نكون نحن الكاباردينيون فى معطف روسيا الفــــرو الكبير ؟ نحن لا نزيد عن كوننا زرا مشبكا فيه ٠ وحين يفقد الانسان الزر فى عراك فالأمر تافه ٠ ولا يلاحظ فقده الا بعد العراك ٠

ـ ان مثل هذه الازرار كثيرة فى معطف روســــيا ٠ ولسنا وحدنا ٠

ـ هذا صحيح ٠ صحيح، لسنا وحدنا ـ انطلق صوت سنترال، ولم يكن واضحا بعد أى جانب سيأخذ وفى أى كفة سيضع ثقله ـ بطبيعة الحال لا يوجد معطف فرو بمشبك واحد ٠ ولكن قل لى يا بيكان : ربما يرغب هتلر فى اعادة صباغة هذا المعطف واعادة تفصيله على طريقته الخاصة ؟ ربما ينزع كل المشابك ويضع بدلا منها ازرار نحاسية ٠

ـ أو « سوستة » ، ـ أضاف بيتو ٠

ـ فليغفر لى الحكماء ٠ ـ قالت حبيبة وألقت نظرة عــلى ابنتها وكأنها تريد بها منع محاولة ابتشارا وقف الأم عن الكلام ـ لا أريد ، طبعا ، التدخل فى حديث الرجال ٠ ولكن النســـاء لسن بأقل من الرجال ٠ واذا كنا لا ندرك الحقيقة بالعقل ، فاننا ندركها بالحس ٠

ـ قولى ما عندك ، قولى ، ـ شجعها بيكان ٠

ـ ربما يريد هتلر اعادة تفصيل المعطف الفرو الروسى ٠ ولديه

بالطبع الطراز ، كما لديه الخياطين كذلك • ولكن يتحتم عليه أولا أن يمتلك هذا المعطف • ينبغى أولا انتزاعه من أكتاف ستالين • لقد كان هناك الكثيرون من قطاع الطرق من بين أبنائنا ومن بين الغرباء• ولكن من الذى استطاع انتزاع هذا المعطف ؟ لم يستطع أى منهم • ان أكتاف ستالين صلبة • كما أنه يمسك فى يده لا بالغليون فحسب• بل وبسلاح كذلك • وليست هناك مهانة فى أن نكون مثل المشبك فى هذا المعطف • والأجدر بهتلر ألا يتشبه بالمرأة الثرية الغبية التى ما أن تلقت وعدا باحضار فراء دب لها ، حتى أخذت تفصله فى مخيلتها : هذه القطعة ستكون للاكمام ، وتلك ستكون للياقة • ان ستالين لن يتراجع أمام هتلر • انه لن يعطيه المعطف فحسب •• بل لن يفقد زرا واحدا أو مشبكا واحدا •

وقاطع ميسوست حبيبة :

ـ السارق يسمى سارق لأنه يسرق الملابس دون أن يسأل صاحبها السماح بذلك • أى أنه يأخذ رغم أنف صاحب الشىء ، يباغته فى الظلام وينتهى الأمر •

ولكن ابتشارا ، رغم ذلك نظرت الى أمها نظرة اعجاب •

وهنا سمع صرير بوابة البيت • واستدارت كل الرؤوس نحوها • كان هذا امام المسجد وهو عجوز شاحب الوجه • جاء الامام وهو يحمل ربطة صغيرة • وكانت هذه الربطة الطرد الذى يريد ارساله لا لابنه أو حفيده (فلم يكن لدى الامام أولاد) بل لتلميذه الوحيد الذى كان يعلمه القرآن •

أعطى امام المسجد الربطة لابتشارا وانحنى باحترام ثم ابتعد ناحية ظل الأشجار •

وتجدد الحديث الذى كان قد انقطع بمجىء امام المسجد •

وقام ميسوست بجولة أخرى قائلا :

ـ هل يمكن أن تصل الفرقة القوقازية على جيادها بعيدا في الوقت الذى تجابهها فيه دبابات هادرة ؟ كم نخشى أن ينبعث الدخان من ذيول الجياد وهى تفر هاربة ٠

ـ لا يا ميسوست ، لا تتحدث بهذا الشكل عن الجياد ـ تعنت بيكان كذلك ـ اذا صادفت الدبابة وهى فى طريقها غابة ، فينبغى شق طريق لها بين الأشجار ، واذا وصلت الى النهر ، فهى فى حاجة الى جسر ٠ فما بالك بالجبال ؟ انها تحتاج بلا شك الى طريق ٠ ان كل هذا لا يشكل عائقا أمام الجواد ٠ ستمر الفرقة القوقازية فى كل مكان وسيدمر رجال الخيالة بمدافعهم الدبابات التى تتحدث عنها ٠

ـ وماذا عن الطائرات؟ ـ لم يستسلم ميسوست٠ ـ ألم تر كيف يحصل الطائر المفترس على فريسته من بين ثنايا الصخور ؟ معاذ الله أن تهجم الطائرات على رجال الخيالة بغتة ، فتتطاير الحوافر كما الغربان السوداء حين تفزعها وهى حول الجيفة ٠

لم يكن هناك ما يمنع ميسوست عن الكلام فأولاده كلهم مرضى وضعاف منذ الولادة ويلازمون البيت ٠ غير أن النساء تجهمن من كلماته ٠ وهنا قال امام المسجد :

ـ الله أعلم بما سيحدث ٠

ولم تتحمل ابتشارا فانفجرت قائلة :

ـ هل تعتقد أنه لا توجد لدينا دبابات ؟ هل تعتقد أنه لا توجد لدينا طائرات ؟ لدينا دبابات وطائرات ٠ ولن يصل الألمان الينا ٠ ستجد دباباتهم خنادق مضادة لها وهى فى طريقها ٠ لقد حفرنا نحن هذه الخنادق ٠ انى أعلم ذلك ٠ ولسنا وحدنا الذين حفرنا الخنادق ٠ لقد حفرها كذلك أهل رستوف وأهل ستافروبل ٠

ـ لا تكشفى الاسرار العسكرية ـ قاطعها سنترال ـ ربما يوجد بيننا العديد من عملاء الألمان · أترون ماذا يعنى الوثوق بمثل هؤلاء الفتيات وافضاء الاسرار العسكرية اليهن ؟

وتلعثمت ابتشارا ورمت الجالسين بنظرة · ان سكان القرية من أبنائها · هل من الممكن أن يكون بينهم جاسوس ألمانى ؟
ـ ليست هذه بأسرار · من الممكن رؤية كل قناة رى من الجو
ـ لوح بيكان بيده ـ فهل يمكن اخفاء خندق مضاد للدبابات عن الطائرة ؟ ان الألمان يتمعنون فيها كما يريدون ، ثم يرسمون الخرائط بعد ذلك للالتفاف حولها · وان لم يكن كذلك فكيف وصلوا الى رستوف ؟
ـ ان الألمان لا يستكشفون الخنادق وحدها ـ خبط ميسوست الشجرة باصبعه وكأنه يدعو الجمع للاهتمام ـ انهم يتسللون فى نفوسنا كذلك · لقد أجبروا أكثر من دولة على الخضوع · وحاولت هذه الدول اظهار شجاعتها كذلك كما نفعل نحن · والآن تحولوا نحو روسيا ·· والشعوب الصغيرة دائما وأبدا عرضة للسيطرة عليها ··

ولكن حبيبة قاطعته قائلة :
ـ حين نسمعك نكون بمثابة كيس التبغ الذى ينتقل من يد مدخن الى يد مدخن آخر · وماذا يضير أن الشعوب صغيرة · من الممكن أن تدفع عشرة فئران متكاتفة حجرا واحدا فتسد الفتحة التى يدخل منها القط ·

وأحدثت البوابة صريرا من جديد · وفى هذه المرة دخلت خديجة العجوز · ورجع سنترال الى الخلف على الفور واختبأ خلف الناس · فقد أعطاها منذ وقت قريب المعاش ناقصا ستة روبلات أى

ما يوازى ثمن نصف لتر من الفودكا بالضبط ، يا ترى هل جاءت العجوز الى هنا بقصد الشكوى ؟

من الملاحظ أن خديجة أصبحت بعد استلامها بقرة ، أكثر نشاطا ، كما ازداد وجهها نضرة ٠ وتقوم خديجة بنفسها برعى بقرتها ، بل ويقولون انها تنام معها فى الحظيرة ٠

أسرعت ابتشارا لملاقاة خديجة ، وأمسكت العجوز من يدها ، وأخذت العجوز تغمرها بالدعوات وكلمات الشكر الرقيقة ٠

كان من العبث سؤال خديجة عن شىء ٠ ولم يكن من الممكن سوى سماعها فقط ٠ فكلما سألتها عن شىء تجدها تقول ما تريد قوله ٠ كما يستحيل كذلك مقاطعتها أو ايقافها حيث تتناثر الكلمات من شفتى العجوز الرقيقتين كما تتناثر الذرة من عدة ثقوب فى جوال مرة واحدة ٠

ـ لقد علمت يا بنيتى ٠٠ لقد علمت أنك ذاهبة الى الحرب ٠ هل رأينا قبل ذلك فتيات تحارب ؟! وليس كل رجل يمكنه الاقدام على هذا ٠ ان بعض الرجال يخاف حتى سرقة جواد ٠ أما الحرب فتسرق الأرواح ٠ ولقد سرقت منى روح حفيدى ٠ لقد استشهد حفيدى ٠ فليزحف الهلاك على أرض الألمان ! ولتشتعل كل النيران التى كان يشعلها آباؤهم وأجدادهم وتصبح حرائق تلتهم كل شىء ٠ لم نتعدى على أرضهم ولم تلمس أيدينا أبواب بيوتهم ٠ وها هم يريدون حرق بيوتنا لماذا ، الله وحده يعلم يا بنيتى ٠ ألا تأخذين هدية صغيرة ؟ لقد أعطتنى المزرعة الجماعية بقرة وأدعو الله أن يطيل عمر المزرعة٠ وما حاجتى الى مثل هذه الكمية الكبيرة من اللبن ؟ ولذا صنعت جبنا ٠٠ ثلاث رؤوس من الجبن ٠ وكان الناتج ليس جبنا ، بل زبدة خالصة ٠ أرجو أن تعطيه أحدا ما ٠ واذا كان حفيدي بين

الأحياء لأرسلت له القطعة الأولى · أرجوك أن تجدى شابا يشبه حفيدى موسى · فليأكل الجبن الذى صنعته بيدى · وقولى له ان خديجة هى التى أرسلت الجبن له ·

وضعت ابتشارا الربطة التى بها رؤوس الجبن الثلاث على كوم الهدايا · وصاح بيكان فى أذن العجوز :

ـ كيف حال البقرة · هل هى بعافية ؟

وأومأت خديجة برأسها وردت قائلة :

ـ ليست كباقى البقر ، بل هى كالجاموسة تدر قشطة بدلا من اللبن ·

ـ اشكرى ابتشارا لأنها هى التى اختارتها لك · ولكن حذار فان وصل الأمانة فى خزينة المزرعة الجماعية ·

وكان « وصل الأمانة » و « الخزينة » بمثابة ألغاز بالنسبة للعجوز التى واصلت ترديدها لما تقوله :

ـ انها كالجاموسة ، وليست بقرة · لا تخلو الدنيا من الناس الطيبين ·· لم ينسوا العجوز ، لم ينسونى كما يفعل المحتالون ·

سمع صوت سيارة عند البوابة · فقد وصل تشوكا موتايف لأخذ ابتشارا واضطرب الجمع واندفعت حبيبة نحو ابتشارا · لقد أدركت الآن فقط مدى الخطر الذى ترسل ابنتها اليه · وأسرعت ابتشارا لارتداء ملابسها وبدأ الرجال فى ترتيب الرباطات واللفافات توطئة لوضعها فى السيارة · وفتحت البوابة عن آخرها محدثة صريرا قويا ودخل تشوكا بالسيارة الفناء · وهرع الأطفال من كل مكان ، ودبت الحركة بين النساء · وفى لحظة واحدة كان عند البوابة جمع كبير من المودعين ·

امتلأت السيارة بالطرود · ولقد كتبت أسماء المقاتلين بقلم كوبيا على الأجولة الصغيرة والرباطات واللفائف وصناديق الطرود

فبدت الحروف أشبه بالخدوش · وبجانب الأسماء كتبت أرقام وحدة البريد · لم تسع الحقيبة كل الرسائل ·· حقيبة ابتشارا المصنوعة من المشمع التى كانت منذ عهد قريب ملآى بالكتب المدرسية · وبهذه المناسبة كانت ابتشارا تحتفظ فيها فى الآونة الأخيرة بكل المستندات المالية الخاصة بالألبان فى المزرعة الحيوانية ·

ركبت ابتشارا السيارة وأخذت النساء يتصايحن مقاطعات بعضهن البعض :

ـ حين ترى ولدى لا تنسى ··

ـ قولى لأخى أن أخته ··

ـ أطلبى من ولدى أن يكتب رسائل أكثر ·

ـ حين ترين من يشبه موسى فاعطيه الجبن ·

وتحركت السيارة · ولم تسمع ابتشارا من بين الضجيج والغوغاء سوى كلمات أمها وهى تقول :

ـ قولى لابنى أننى راضية عنه · وليرضى عنه الله كما أرضى عنه · أدعو الله ألا يخبو نور السعادة فى عينى · ولتكن الطريق التى سيعود بها الى ابنته دانوتشكا أقصر من الطريق التى سلكها الى القتال ·

التفتت ابتشارا الى الخلف فوجدت الجمع لم يفترق · وكانت أمها ـ كما هى عادتها ـ تقف وقد شبكت يديها على بطنها والدموع تنحدر على خديها ·

كان بيكان يجلس بجانب ابتشارا فى السيارة · والتفت هو الآخر الى الخلف ناظرا الى الناس الذين تعلقت أبصارهم بالسيارة ·

وكان على ثلاثتهم ـ أى تشوكا وبيكان وابتشارا ـ حضور جلسة لجنة الدفاع أولا · فقد كان الوفد سيسافر الى جبهة القتال بقطار المساء ·

كولوف يتخـذ القرار

توقفت السيارة بالقرب من المنزل الذى تذكره ابتشارا منـذ احتفال عرض الوداع العسكرى للفرقة القوقازية · فمن شرفة هذا المنزل التى تطل على الميدان الرئيسى فى مدينة نالتشيك ألقى ألبيان آنذاك كلمة أكد فيها للجميع أن المقاتلين سيصمدون فى القتال مـع العدو وحتى الموت · وكان هذا المنزل ـ القائم على الناصية ـ يتكون من ثلاثة طوابق بحيث يعتبر ناطحة سحاب بالنسبة لمدينة نالتشيك، كما كان يبدو وكأنه يأوى تحت جناحه ذلك البيت الصغير المجـاور له والذى يعتبر عشة من عشش ما قبل الطوفان بجدرانه المائلة المقامة من الطوب اللبن ، هذا الى جانب أن قيمته كلها لا تساوى نافذة واحدة ، بل حجرا واحدا من أحجار هذا المنزل الضخم الموجودة به كل المؤسسات الحكومية فى الجمهورية ·

اتضح أن هذا البيت الصغير مملوك لأخت ميسوست وهى عجوز عنيدة لم ترغب فى أن يزال هذا البيت الذى يرتبط كل شىء فيه بذكرياتها من أجل تجميل الشارع · وأصبحت العشة الوحيدة هنا وكأنها تتحدى المبنى الحكومى العصرى وكل من فيه ·

قاد تشوكا ابتشارا مارا برجل الميليشيا الواقف بجانب مكتب عليه جهاز تليفون لامع البريق · « لا يسمح للجواسيس بالدخول » هذا ما اعتقدته ابتشارا · وكانت ابتشارا تتبع تشوكا بصعوبة ولا تكاد تلحق به وهو يسير فى الدهاليز الطويلة المفروشة بمشايات من السجاد طويلة مثلها · ولم تدر ابتشارا هل تتعجب من هـذه المشايات الطويلة أو من ان تشوكا لا يضل طريقه فى هذه الدهاليز التى لا نهاية لها ، بل يسير فى ثقة تامة ويقودها بخطوات أقـرب الى الجرى منها الى السير · كيف تمكنوا من نسج هذه السجادة

الطويلة ، ولماذا يسيرون عليها بأقدامهم ؟ أما تشوكا فيسرع فى ثقة وكأنه كان يسير على مثل هذه السجاجيد طوال حياته

وأخيرا توقف الثلاثة أمام باب مغطى بالمشمع الأسود · وكان ينبغى أخذ النفس قليلا بعد هذا الجرى السريع على السجاجيد · وأخيرا دفع تشوكا الباب وأفسح الطريق كى تمر ابتشارا أولا ثم زوج أمه · ووجد الثلاثة أنفسهم فى غرفة كبيرة ، لا فى غرفة مكتب كما كانت ابتشارا تتوقع · وكانت هناك ، خلف مكتب ضخم فتاة رقيقة · وبجانبها ناحية اليسار منضدة صغيرة تغطيها أجهـزة التليفونات ·

ـ تفضلوا · ـ أومأت الفتاة ناحية باب أكبر من باب غرفتها مغطى كذلك بالمشمع الأسود · وشعرت ابتشارا بالخجـل ولكن تشوكا تقدم فى شجاعة ، وابتلع الباب الأسود ثلاثتهم الواحد تلو الآخر مثل حبوب الدواء ·

ورأت ابتشارا الآن مائدة لم تشهد مثلها من قبل · كانت المائدة خضراء فسيحة مثل مروج وادى الحملان البيضاء لدرجة أنه كان من الممكن أن ترعى على هذه المائدة عدة عجول بحرية تامة · وعلى جانبى الجوخ الأخضر يجلس أناس لهم أهميتهم · وشـعرت ابتشارا بالخوف من أن يقف هؤلاء الناس الآن ويتأتى عليها أن تحيى كلا منهم بيدها · ولكن شيئا من هذا القبيل لم يحدث · فلم يلحظ أحد أن أناسا جدد قد دخلوا الغرفة · وكان كولوف هو الوحيـد الذى ألقى نظرة خاطفة على الداخلين وهو جالس فى نهاية غرفة المكتب عند الطرف البعيد المقابل للمائدة ·

أمسك بيكان ابتشارا من يدها وأجلسها على مقعد خال · واستقر تشوكا على بعد · وسيطر على ابتشارا أولا وقبل كل شيء

شعور غريب أن شيئا ما لم يتغير منذ الاجتماع الذى عقد فى ادارة المراعى · فها هى نفس المناقشات مستمرة ، حول نفس الموضوعات· كان الجميع منفعلين ، ولكنهم منهكون يتصببون عرقا وكأنهم خرجوا لتوهم من حمام بخار · كانوا يتحدثون باقتضاب وبصوت عال كما لو كانوا يجيبون على الدروس فى المدرسة · وفكرت ابتشارا فى نفسها قائلة : « كل شىء هنا يسير وفقا لأصول الجبهة » · وحبست أنفاسها وأخـــذت تتصيد كل كلمـــة · وفهمت ابتشارا أن طالب سوسماكوف لا يزال ـ كما كان فى اجتماع ادارة المراعى ـ يدافع عن رأيه · وكان دخان خفيف ينبعث من صلعته المحاطة من ثلاث جهات بشعيرات مجعدة قصيرة ســـوداء اللون · وأخذ من فرط الانفعال يدس طوال الوقت ابهامه بين الحزام ووسطه ويجذب ثنايا السترة العسكرية الى الخلف مكونا بذلك ذيل الديك كما كان فى اجتماع ادارة المراعى · وشعر بيكان هو الآخر كما لو أنه كان جالسا فى هذا الاجتماع منذ البداية · لم يتمكن كولوف آنذاك فى إجتماع ادارة المراعى من الجلوس حتى النهاية ، وها هو نفس الحديث يستكمل الآن ·

ـ أكرر مرة أخرى ـ قال سوسماكوف وهو ممسك بحـــزام السلاح الأبيض بيد ، ويلوح بالأخرى مع وقع الكلمات ـ كشيوعى وكمسئول عن الزراعة ·· ينبغى على ، بل انى مضطر الى أن أكرر أننا لا نستطيع ابقاء قطعان الجياد فى المزارع الحيوانية ، وخاصة الجياد الكاباردينية الأصيلة · وها هو الرفيق ديدانوف يجلس هنا ولندعوه ليؤكد ذلك · فلتبق الماشية وليكن ما يكون · أما الجيـــاد فينبغى انزالها من الجبال كيلا يباغتنا أى طارىء · ان جبهة القتال فى حاجة الى الجواد مثل حاجتها الى الدبابة والسيارة · ان الجواد وسيلة مواصلات · ويشمل المشروع المقدم منا على كل شىء : الى أين تتجه القطعان ، وتنظيم القطعان والطرق التى سوف تتحرك

خلالها ومجالات المسئولية ومن المسئول عن كل مجال · ولقد وضعنا خطة غاية فى التفصيل حتى أتفه الأمور : أماكن الراحة للاناث ، وأماكن السقاية · واذا لم تقبل هذه الخطة فانى أرفع عن نفسى كل مسئولية ·

لم يسرع كولوف بابداء الرأى · فقد كان يستمع الى الآراء كى يختار من بينها أكثرها سلامة · غير أن باخوف لم يحتمل · فقد كان يعتقد أنه ذو اطلاع على كل الأمور ويحاول تصحيح كل فرد مستفيدا من أنه ما من أحد يتجاسر بقول كلمة واحدة عن عمله·

ـ ترفع المسئولية عن نفسك ! أليس الوقت مبكرا ؟ نحن لم نصل بعد الى المياه الضحلة ·

ـ لا ، وصلنا أيها الرفيق باخوف ـ هب بيكان ديدانوف واقفا دون أن ينتظر أن تعطى له الكلمة ومسح شواربه الكثيفة · وكانت هذه الحركة تعنى أنه مصمم ولن يتنازل عن رأيه مهما كان الشخص الذى أمامه ـ لقد وصلنا ولا يوجد أمامنا طريق نسلكه · وأود أن أسألك أيها الرفيق باخوف : لماذا يحتاج الفارس لصدرة الجواد ؟ انكم لا تعرفون أما أنا فأعرف · ان الصدرة ليست بغرض الزينة رغم أنها تطعم بالفضة· ان الفارس فى حاجة اليها كيلا ينزلق السرج الى ذيل الجواد · نعم · ولا تضحكوا من ذلك ·

وبرقت عينا باخوف بالشر وقال :

ـ هل جننت أيها السروجى ؟ أتعتقد أنك جالس هنا بين أبناء مهنتك ؟

ـ لا ، لم أجن · ـ بدأ بيكان يتحدث بصوت أعلى وبتصميم أقوى · وعبثا أراد تشوكا أن يوقف بنظرته العجوز كيلا يجر على نفسه المتاعب · ـ أعتقد أنه عندما كانوا يعدون فى الولائم رأس

الخروف لم تتمكن أبدا من الحصول على الاذن والا كنت قد تعلمت كيف تستمع الى الاكبر سنا منك . وبدون الصدرة ينزلق السرج حتما على الذيل أثناء صعود الجبل وبذا يسقط الفارس من الجواد. كما يهوى كذلك تحت حوافر الجواد فى حالة نزول الجبل . ونحن الآن - أقصد الشعب - على جبل شديد الانحدار . وعلينا التغلب عليه وهنا تختبر ارادة الشعب وحكمته . ولقد حان اليوم الذى نختبر فيه من الذى يجلس فى ثبات فى السروج ومن الذى ينقصه هذا الثبات . ليس لدينا الحق فى السقوط من الجواد . نحن - اذا أردتم معرفة ذلك - بمثابة صدرة السرج الذى يجلس عليه الشعب ..

كان كولوف يستمع الى بيكان الحكيم متظاهرا أنه يسمع باهتمام ، ولكنه قاطعه قائلا :

- عزيزى السروجى . أرجو المعذرة . لا أستطيع الا أن أقاطعك ، فوقتنا ضيق . يطيب لى أن أسمع رأيك الجديد ، غير أن الحديث يدور اليوم لا عن السرج وحده ، فان مصير الجواد نفسه على كف عفريت .

ولم يتمالك باخوف كذلك أعصابه وهاجم بيكان :

- لم ألحظ أنك أكلت كثيرا من اذن الخراف والا لكنت قد تعلمت كيف تستمع الى القادة الذين يفكرون بمستويات غير التى تفكر بها . ان تصوراتهم أوسع بكثير من تصوراتك .

- اذا كنت وحدك تعرف الحقيقة فلماذا نجلس نحن هنا ونعصر فكرنا ؟ - عاد سوسماكوف الى الامتعاض مرة أخرى - فلنفرض أن الألمان لا يزالوا خلف نهر الدون ولا يشكل هذا تهديدا لنا ، ولكن المرء لا يحتاج أن يكون من واضعى الاستراتيجية العسكرية كى يدرك ما الذى سيحدث لو أصبح الألمان على الضفة الجنوبية لنهر الدون.

فى هذه الحالة سيكونون هنا قبل أن نتمكن من انزال الجياد الى الأرض السهلة · انها حرب العتاد الميكانيكى ·

– انظـــروا هذه هى الانهزاميـــــة فى أصـــدق صورها !

– هب باخوف واقفـــا – أمامكم أحد أسباب فشلنا فى جبهـــة القتال · فحين يسمعه المرء يشعر بأن الجيش الأحمر قد سحق وان الألمان مسرعون فى طريقهم الينا وكأنهم يسيرون على طرق معبدة ، فلينج كل من هو قادر على النجاة : أليس كذلك ؟

وفجأة تخيلت ابتشارا كل فظاعة موقفها حين تعود بعد أسبوع ولن تجد لا المزرعة الحيوانية ولا أمها حيث يكون قد تم تهجيـــر الجميع وتفرقوا كل فى مكان · أين ستبحث عن أمها ·· وسط أى جماعة وفى أى طريق ؟

وشعرت ببرودة تسرى فى جسدها من هذه الصورة ، بل وارتعد بدنها ونظرت الى تشوكا وكأنه هو وحده الذى يستطيع الآن انقاذها وانقاذ الوضع كله · أما تشوكا نفسه فقد كان يشعر بالندم لاشراكه ابتشارا فى هذه الرحلة · وأخذ الآن يبحث بنفس معذبة عن أية حجة كيلا تذهب ابتشارا الى جبهة القتال · غير أنه لم يعد من الممكن عمل شىء الآن ·

ورغم أن تشوكا لم يكن يحب باخوف ويرى فيه السبب الأول فى فشله الا أنه يود الآن أن تكون الحقيقة الى جانبه ·

ازدادت ابتشارا تعجبا كلما استمعت الى هؤلاء أكثر · فقد رأت فيما سبق كيف يصعد هؤلاء الناس على المنصة فى مهـــابة وسط عاصفة من التصـــــفيق ثم يجلسون خلف منصة رئاســـــة الاجتماعات وفقا لدرجاتهم ، ومناصبهم ولا يتبادلون فيما بينهم

سوى ابتسامات متحفظة · ولم تكن لتتصور أن مثل هذه المناقشات الحامية يمكن أن تثار بينهم · وكانت تعتقد أن لجنة الدفاع تضم أناسا حكماء هادئين يعرفون كل شيء لسنوات عديدة قادمة ، يتصل بهم ستالين بنفسه بالتليفون ويتشاور معهم ويوجههم بارشاداته وان لم يكن الوضع على هذا النحو فلم يوجد تحت يدى كولوف هذا العدد الكبير من أجهزة التليفون ·

وأطلق سوسماكوف لنفسه العنان :

ـ لا « فلينج كل من هو قادر على النجاة » · بل ينبغى انقاذ ثروة الشعب · ثمة فرق كبير بين هذا وذاك·سوف نفكر فى أنفسنا آخر شيء · أما أنت فلا تفكر طوال الوقت الا فى نفسك وفى سبل راحتك وبحيث لا تلقى عليك ـ معاذ الله ـ ظلال الشك ، ولا تتهم بالذعر ، وبحيث تبقى لا غبار عليك · ولكن ما أن تحدث مصيبة حتى ستكون أنت أول من يتهمنا بكل الاتهامات السوداء ·

ـ أرجوكم ··

لم يكن من الممكن مواصلة الاجتماع على هذا النحو ، فوقف كولوف واستطرد قائلا :

ـ لدى اقتراح ، ـ اكتسب صوت كولوف الثقة وصمت أعضاء لجنة الدفاع · وجلس سوسماكوف وباخوف ـ لدى اقتراح باقرار خطة تهجير الجياد التى اقترحها الرفيق سوسماكوف · غير أن اقرارها يرتبط بشرط واحد · ليس لأحد الحق : لا سوسماكوف ولا أحد غيره وحتى رئيس لجنة الدفاع الذى هو أنا ـ البدء فى تنفيذ الخطة دون تصريح خاص من اللجنة · فحين تصدر الاشارة يمكن البدء فى التهجير · أما الآن فينبغى توصيل الخطة الى كل مدير مزرعة جياد وكل راعى جياد · وسيتم الاحتفاظ بالخطة فى الخزينة حتى تصدر الأوامر ·

التوى وجه سوسماكوف فى كآبة من هذا الحل الوسط ولكنه أدلى بصوته مع الآخرين . هذا أفضل من لا شىء .

وهنـــا نهض بيكان . وربما اطمأن الآخرون بعد أن أدلوا بأصواتهم واتخذوا القرار ، ولكن بيكان كان ينظر الى كل شىء نظـرة جدية حيث تعدت نظرته كون القرار مكتوبا على الورق الى كيفيـة تنفيذه عمليا .

ـ حسنا . فلنفرض أنكم ستصدرون الأمر فى اللحظة الاخيرة، فكيف ننقله الى كل القطعان وكل مزارع الجياد ؟ لا يجب أن ننسى أنها فى الجبال حيث لا يوجد لا تليفون ولا جهاز لاسلكى . وفى بعض الأحيان يمرض الراعى هنا وحتى يحضر الطبيب فانه يكون قد شفى أو صعدت روحه الى بارئها .

ـ لكنى أعتقد أن هناك جهازا لاسلكيا فى ادارة المراعى ـ رد عليه كولوف ونظر الى تشوكا .

ـ يوجد جهاز لاسلكى يعمل جيدا .

ـ اذن ماذا فى الأمر ؟

ـ ان أبى يقصد مزارع الجياد والقطعان المنتشرة فى الشعاب البعيدة . ولا يوجد لدينا اتصال بالكثير منها . فان بعض القطعان ترعى عند سلسلة جبال القوقاز مباشرة ومن الصعب ايجادها على الفور واقترح الآتى : لدينا فى ادارة المراعى فرقة لمكافحة المخربين وينبغى استخدام مقاتلى الفرقة كرسل الى القطعان .

ـ وهل يكفى عددهم جميع القطعان ومزارع الجياد ؟

ـ لا يكفى الجميع .

ـ ينبغى اشعال نيران الاشارة ـ اندفع فجأة سوسماكوف ـ كان أسلافنا يشعلون نيران الاشارة حين ينذرون الآخرين باقتراب العدو . أعتقد أنه من الممكن اعداد الحطب الجـــاف فى الأماكن اللازمة واخطار الجميع بأنه اذا رأوا النيران على قمم الجبال ، فهذا يعنى صدور الأمر بتهجير الجياد .

ـ أمر عجيب ‥ حرب العتاد الميكانيكى ونيران الاشارة التى يمكن اشعالها بواسطة الزناد ! ـ قال باخوف بتهكم ثم انفجر فى الضحك ـ يتحتم على مراقبة سوسماكوف على الفور خشـــية أن يشعل النيران اليوم ليلا ·

ـ حسنا · ها قد ضحكنا بعض الشىء وكفى ـ وتوجه كولوف الى تشوكا موتايف قائلا : ـ سوف تتلقى أنت الأمر منى · أما كيف ستنقله الى المزارع والقطعان فهــــذا شأنك · ويمكنك الاختراع والابتكار واستخدام كل أنواع الاتصال حتى لو قضى الأمر استخدام نيران الاشارة · ولكن حذار من أن يقول أحد الرعاة بعد ذلك أن أحدا لم ينذره فى الوقت المناسب · سيكلفك ذلك رأسك ·

ـ مفهوم ·

أشفق بيكان على ابنه · فقد قال «مفهوم» لحداثة سنه وتردده، ولكن كيف سينقل الاشارة ؟ فان بعض الرعاة يرعون قطعانهم عند منابع نهر تشوبراك مباشرة ، والبعض الآخر يرعون يوما هنا وآخر هناك فأين يمكن البحث عنهم ؟ ولكن لو فكر المرء بتعقل ‥ وفجـأة قرر بيكان عدم الاهتمام بشىء · ففى نهاية المطاف من الذى يمكنه أن يجزم هل سيصل الألمان الى هنا أم لا ؟ ومتى يحدث ذلك ؟ وكيف ستجرى الأمور ؟ وهل سيتمكن كولوف نفسه من اصدار الأمر أم لا؟ وهل سيكون هناك من يحاسب تشوكا موتايف أم لا ؟ ان هناك أمرا أحدا هاما بين كل هذا الضجيج هو انقاذ سلالة الجياد الكاباردينية الأصيلة · ولقد كلف بيكان بهذا الأمر ولن يشتغل به سواه · وما من مناقشات أو مجادلات ستساعده على تنفيذ المهمة الموكلة اليه · ولكن كيف ينفذها ؟ هذا ما يجب أن يفكر فيه بنفسه ·

ـ لننتقل الى الموضوع التالى : موضوع فرق الدفاع المدنى ـ وألقى كولوف نظرة على الجالسين خلف المائدة واستطرد :

ـ من الذى سيتحدث فى هذا الموضوع ؟

ـ يتـــأتى على أن اتحدث ٠٠ لقـــــد قمت بمراجعة ٠٠
ـ وقف شاب مشدود القـــامة وأخذ يتحدث بصـــوت جهورى عذب النبرات ٠

ـ خاتالى تشورف ـ قدم كولوف المتحدث للجالسين وبدأ يقلب صفحات التقرير المكتوب حول الموضوع الجارى مناقشته حيث لم يتمكن على ما يبدو من التعرف عليه قبل الاجتماع ٠ ولا أحد يدرى كيف اختلط كل شىء فى رأس كولوف٠فها هو الموضوع الحادى عشر الذى تجرى مناقشته اليوم ٠ ولكل موضوع من هذه الموضوعات ملف خاص منتفخ ، فمتى يمكن قراءتها كلها ؟

كانت ابتشارا تعلم أن واحدا يسمى خاتالى تشورف سيسافر على رأس الوفد ٠ ونظرت الآن الى تشوكا وكأنها تتساءل : أهذا هو المقصود ؟ وهز تشوكا رأسه علامة الايجاب ٠ أخذت ابتشارا تتابع كل كلمة يقولها المتحدث ٠ وكان تشورف يتحدث حديثا عمليا فى هدوء وبمعرفة تامة بجوانب الموضوع ٠ ولم يؤكد تشورف على ضرورة انتقاد البعض لما أبدوه من لامبالاة وخمول ، أو مدح البعض الآخر ٠ وبالأحرى كان يقدم الحقائق وحدها دون ابداء رأيه فيها ٠ كان يقرأ تقريره فجاء حديثه سلسا قويما ٠ كانت ابتشارا تسـمع بانتباه وصدقت فى بادىء الأمر كل الأرقام والحقائق ٠ ولـكن ها هو المتحدث يصل الى فرق الدفاع المدنى وأخذ يؤكد أنها عبارة عن وحدات قتالية متكاملة تم تدريبها وفقا لبرنامج دقيق وتحت اشراف مدربين عسكريين من ذوى الخبرة ٠ وتذكرت ابتشارا فرقتها ٠ وكلما استمرت ابتشارا فى سماع كلمات تشورف ، ازدادت شكا فى أنه يعرف الأوضاع الحقيقية للأمور ٠

وفجأة قاطعه باخوف متسائلا وكأنه قرأ أفكار ابتشارا :
ـ وهل البرنامج يشمل الملاكمة كذلك ؟

رفع كولوف عينيه عن التقرير بعد أن قلب صفحاته حتى آخرها وقال سائلا :

ـ أيها الرفاق هل اطلع الجميع على التقرير ؟

وسرت همهمة غير مفهومة يمكن أن يتقبلها المرء ـ لو أراد ذلك ـ كرد بالايجاب ·

ـ لقد سنحت لنا فرصة سعيدة أيها الرفاق ـ انتعش كولوف ـ فبيننا الآن مديرة مزرعة الشباب ابتشارا ـ بطلتنا · انها هى التى ساعدت فى القبض على المخربين ·

ـ ساعدت فى القبض وقد تسلحت بالمرق الساخن ـ أضاف باخوف ·

والتفت الجميع الى ابتشارا · وسألها كولوف برقة :

ـ ما رأيك يا ابتشارا ؟ ربما تحدثيننا كيف تسير الأمور لديكم فى فرقة الدفاع المدنى ؟ ما هى التدريبات التى يتمرن عليها أعضاء الفرقة ؟ وهل صحيح أن الفتيات كن يتدربن على الملاكمة ؟

وقفت ابتشارا وقد أحمر وجهها ونضحت يداها بالعرق وانتشر الضباب أمام عينيها · وبدأ سوسماكوف فى تهدئة الفتاة :

ـ لا تنفعلى · فنحن نعلم أنك لم تستعدى لذلك ، كما أننا دعوناك الا لهذا الغرض · انك ستذهبين اليوم الى جبهة القتال · ونحن نعلم ذلك · والآن أحك لنا كيف يجرى التدريب فى الفرقة ·

ـ نلعب لعبة النطة ! ـ قالت ابتشارا بسرعة · وأخذ الجميع ينظرون لبعضهم البعض غير فاهمين ما تقول ·

ـ هل تلعبون النطة أثناء التدريبات ؟ ـ قال كولوف هازا كتفيه ·

ـ انى لا أقصد لعبة النطة التى يلعبها الشباب فى بعض الأحيان · بل أقصد اللعبة التى عانينا منها فيما يتعلق بالسلاح ·

لقد أحضروا لنا ذات مرة أربع بنادق · وسعدنا بذلك وبدأنا فى دراستها · وتضم فرقتنا اثنين وثلاثين فردا قسمناهم الى أربع مجموعات فحصلت كل مجموعة على بندقية · وما أن انتهينا من التدريب ثلاث مرات على البنادق حتى جاء رجل عسكرى وأخذ البنادق قائلا بأنه يستحيل ائتماننا على السلاح · وبالتالى غضبت الفتيات وتوجهت الى لجنة الكومسمول بالناحية · وساعدنى الرفيق موتايف فى الحصول على بندقيتين · وجمعت الفتيات وبدأنا التدريب من جديد · غير أن روح أعضاء الفرقة المعنوية لم تعد كما كانت · اذا كانوا يرددون أنه يستحيل ائتماننا على السلاح فلماذا اذن نضيع الوقت ؟ من الأفضل الاشتغال بعملنا الأصلى ·

ـ وهذا ما حدث كذلك فى مجمعنا الصناعى ـ أيد ابتشارا فجأة رجل بدين يجلس أمامها ـ لقد أنشأنا فى كل قسم بالمجمع فرقة عسكرية · وتوجهنا الى القوميسيرية الحربية فى طلب السلاح فلم يقدموا لنا شيئا · وتحتم علينا أن نطلب من قسم الدراسات العسكرية فى معهد المعلمين · وشكرا لهم فقد أعطونا بنادق وقنابل يدوية · والآن تسير الأمور على ما يرام ·

وتدخل سوسماكوف فى الحديث قائلا :

ـ لقد اقتنت ابتشارا مدفع هاون خشبى ، أصحيح أم لا ؟

ـ بل لدينا مدفعا هاون تركهما أخى لى · وينتقل المدفعان الآن من فرقة الى أخرى · وهما ذكرى من الفرقة القوقازية · أين الآن مدافعنا لست أدرى ·

توالى الآخرون بعد ابتشارا فى التحدث أمام أعضاء اللجنة · وتغيرت الصورة تماما عما جاء فى تقرير تشورف · لقد تم انشاء فرق الدفاع المدنى فى كل مكان · وتؤكد الكشوف أن أعدادها كثيرة ،

غير أن أكثرها لا يوجد الا على الورق فقط · والى جانب ذلك فان « التغيير » الدائم فى تشكيل الفرق « واليقظة العالية » من جانب باخوف انعكسا كذلك على الاعداد القتالى والسياسى لفرق الدفاع المدنى · هذا ما تحدث عنه كل من تكلم · وتحدث بعدهم باخوف · تحدث طويلا · وتذكر كيف ساعدت ابتشـــــارا فى القبض على المخربين منمقا ومزخرفا القصة بحيث يمكن أن تتهافت على نشرها أية صحيفة أو مجلة ، وركز باخوف اهتماما كبيرا على زيادة اليقظة· وكان كل خمس كلمات يدخل ويضيف فى الصيغ اللغوية المطلوبة كلمته السحرية : الأجهزة · غير أنه لم يكن مستعدا على الاطلاق · أن يعترف بأنه ارتكب اخطاءا · وهاجم من جديد فرق الدفاع المدنى وركز على أن هناك عناصر خطرة على المجتمع ، وجبناء وأناسا لا يصلحون ، وأناسا مذعورين يتسللون فى هذه الفرق · وانتقـل فجأة الى المنشورات المعادية التى تعد بأضاليلها الفاشية شـعوب الجبال « بالتحرير من السيطرة اليهودية البلشفية » ، كما تعـد « بالأرض وحرية العقيدة » واستطرد باخوف قائلا :

ـ فى مثل هذا الموقف لا يمكننا أن نعطى السلاح لمن يتطلع الى مرابض التيوس الجبلية ، واختار لنفسه ، بحسن ذوق ، مكمنا فى شعاب الجبال مثلما يعشعش الصرصار فى حائط من الخص المغطى بالطين · وتكشف أجهزة الأمن القنـــاع عن مثل هــذه الصراصير · انهم علاوة على ذلك هاربون من الخدمة فى الجيش الأحمر وينتظرون بفارغ الصبر قدوم الألمان ، وعندئذ سيخرجون من شقوقهم ليصفوا الحسابات معنـــا · يجب على فرق الدفاع المدنى حماية المؤسسات والثروات الشعبية منهم أولا ·

وعلق تشورف قائلا :

ـ ولهذا نحتاج الى السلاح ·

ـ يجب الحصول على السلاح بالطرق الذاتية

ـ كيف ؟

وريثما كان باخوف يتحدث، ولد لدى كولوف قرار. ربما لم يكن متوقعا بل وغير مرغوب فيه بالنسبة للخطيب المتحمس : يجب وضع مسئولية اعداد فرق الدفاع المدنى على عاتق أجهزة الشئون الداخلية مثل كتائب الابادة . ان هذه الأجهزة هى القادرة على تشكيل فرق قادرة على القتال وادخال الشيوعيين والكومسموليين بها . وهذه الفرق هى التى ستصبح ـ اذا اقتضت الأمور ـ فرقا للفدائيين تعمل فى مؤخرة العدو وتتولى حماية الماشية المملوكة للدولة فى حالة عدم التمكن من تهجيرها . وعلى أسوأ الفروض تسوق الماشية الى الجبال المنيعة دون أن ينالها العدو . واذا كانت توجد فى غابات بيلوروسيا مناطق يعمل فيها الآن الفدائيون فليس من المستحيل تحديد شعاب للفدائيين فى الجبال يصعب أن تصل اليها دبابات العدو أو طيرانه. ومن بين هذه الشعاب ـ شعب تشوبراك على سبيل المثال وهو الشعب الذى يؤدى اليه ممر ضيق عرضه عشرة أمتار .

ـ يجب اعداد غارات وهمية بصفة أكثر ، ـ واصل باخوف فى هذه الأثناء حديثه ـ وملاحظة الكيفية التى يتصرف بها كل فرد . ينبغى معرفة الناس ومعرفة ما فى نفوسهم . ويتحتم فى بعض الأحيان خلق موقف خاص بهدف فهم الانسان فهما دقيقا .

وكان كولوف هو الذى يدرك وحده أن باخوف يقول كل هذا بغية تبرير خدعته الأخيرة .

فقد اتصل تليفونيا ذات ليلة بجميع العاملين فى الحزب وأجهزة السلطة السوفييتية معلنا عن غارة واصدر الأمر بالحضور الى غرفة عمليات فرقة الفدائيين بكامل الاستعداد القتالى واحتياطى من الغذاء يكفى ثلاثة أيام . وبعد نصف ساعة كانت غرفة مكتب باخوف تغص بالموجودين . ولقد صدق الجميع أمر الغارة بسهولة ذلك لأنهم كانوا على علم بأحداث الجبهة . وكانت الدموع لم تجف

بعد على وجوه الكثيرين بعد وداعهم لذويهم · ولم يخطر على بال أى منهم تعليل سبب أخذ احتياطى الغذاء الذى يكفى ثلاثة أيام منهم عند المدخل · وبينما كان فدائيو المستقبل يتساءلون فيما بينهم عما حدث ، أخذ باخوف يتحدث بالتليفون مع شخص ما متظاهرا بأنه لم يلحظ الجمع · ولكنه كان فى الواقع يراقب كلا منهم ويسجل فى مفكرته ملاحظاته · وبعد ذلك أوقف الفرقة التى كانت تتكون كلها من العاملين المسئولين فى طابور ، ثم علم على أسمائهم وقام بتوبيخ المتأخرين ، وفجأة فتح باب غرفة أخرى على مصراعيه · وهنـاك وضعت على شكل مأدبة كل المأكولات التى أخذها معهم المستيقظون وسط الليل وهم فى عجلة من أمرهم · ولم يدركوا فى بادىء الأمر لماذا وضع باخوف كل المأكولات ؟ ربما كى يخجل من حمل معـــه العصيدة والجبن الأبيض بدلا من اللحم والزبد · غير أن زجاجات العرق البيتى بددت الشكوك على الفور · وبدأت حفلة ليلية · لم يغضب أحد من باخوف ، بل على النقيض من ذلك سعد الجميــع واندفعوا الى أجهزة التليفونات يطمئنون ذويهم الذين ودعوهم منذ نصف ساعة · وقبيل الصباح تفرق الجميع فى سلام الى بيوتهم بعد أن شربوا وأكلوا ·

والآن لا شك أن باخوف يريد بحديثه عن الغارات أن يبرر خدعته بصورة غير مباشرة وبتاريخ لاحق على الحادث أمام كولوف، رغم أنه لاقى توبيخا فى حينه وأكد بالقسم أن مثل هذا لن يتكرر بعد ذلك · وهذا ما أنقذ باخوف من مناقشة فعلته فى لجنة الدفاع ·

وتحدث بعد باخوف رجال آخرون ، الا أنهم أخذوا يكررون ما قيل ولذا قطع كولوف فجأة المناقشات متبعا أسلوب جبهـــة القتال ·

وصوت الجميع مؤيدين اقتراح كولوف بتكليف الرفيق باخوف

بالاشراف على فرق الدفاع المدنى . أما سوسماكوف فقد صوت بالموافقة فى سعادة خاصة واضحة . الا أن باخوف أخذ يقاوم الاقتراح وهو يؤكد أهمية عمله الرئيسى ، وجاهد فى القاء مسئولية فرق الدفاع المدنى على أى من الجالسين ، غير أنه اضطر الى الاستسلام للأمر الواقع بعد الاقتراع . ولكن كولوف كان يؤيد باخوف فى شىء واحد فقط . فقد قال وهو يتوجه الى الجميع :

ـ ولكن لا تنتظروا منا سلاحا أيها الرفاق . لا نستطيع تقديم سلاح لكم . ولم نتمكن من تسليح الفرقة القوقازية سوى بما لايزيد عن أربعين ـ خمسين فى المائة من احتياجاتها . نحن لم نخف السلاح ، ولم نبخل به عن مقاتلينا البواسل . ولكن ليس لدينا سلاح ، أيها الرفاق . لقد قدمنا كل ما يمكن تقديمه . ولقد قلت قبل ذلك أنه فى مثل هذا الموقف الطارىء ينبغى أن نحذف كلمة « لا يوجد » . لا يوجد ـ تعنى أوجد واقتن واقتنص . وأين يمكن ايجاد السلاح ؟ ممن تقتنص ؟ هناك فى شعاب الجبال وكهوفها ولدى الفارين من الخدمة فى الجيش والمخربين الذين يختبئون هناك . أنهم حتى وقتنا هذا لا يصطادون سوى الطيور البرية والحيوانات المحرم صيدها . غير أن هذا هو نشاطهم الى حين . وحين يأتى الوقت الذى ينتظرونه ، سوف لن يطلقوا النار على التيوس الجبلية والماعز الجبلى ، بل على الشيوعيين والكومسموليين . اذن هلموا انزعوا سلاحهم الآن قبلما تدفعوا حياتكم ثمنا لاهمالكم . موضوع الوفد المسافر الى جبهة القتال هو آخر الموضوعات .

ـ كل شىء لدينا معد .. والوفد بكامله موجود ـ أحاطه تشورف علما .

ـ اذن فلنأخذ راحة وارجو من أعضاء الوفد وأعضاء لجنة الدفاع البقاء .

قام المشتركون فى الاجتماع من مقاعدهم محدثين ضجيجا .

وفتحت النوافذ على مصراعيها فهب الى الغرفة هواء بارد · واقترب خاتالى تشورف من ابتشارا قائلا :

ـ اذن أنت ابتشارا ؟ فلنتعرف · لقد سمعت عنك · شاطرة، شـــاطرة ·

خلت قاعة الاجتماع الصغيرة بسرعة ، فقد كان المجتمعون فى عجلة للخروج بأسرع ما يمكن من هذا المكان خانق الهواء · ولم يبق فى الغرفة سوى عشرة أشخاص هم أكثر العاملين مسئولية· ودعاهم كولوف للجلوس خلف نفس المائدة الطويلة · وأصبحت الأماكن خلف المائدة الآن تكفى الجميع ·

ـ سنتحدث قليلا مع أعضاء الوفد ، ـ كان واضحا أن كولوف قد تعب من الجلوس ولذا كان واقفا وحده عنـــد مكتبه ـ ما هى الوصية التى نريد منهم أن ينقلوها لمقاتلينا أبناؤنا من لحمنا ودمنا؟ ليست الهدايا وحدها التى ينبغى أن يوصلوها لأبنائنا ، بل يجب أن ينقلوا اليهم الكلمة الدافئة التى تقوى فى قلوب المقـــاتلين الثقة بالنصر وتثير فى نفوسهم الكره العادل للعدو · قولوا للمقاتلين أنه تم جمع آلاف الأطنان من الغلة واللحوم والصوف لصالح صندوق احتياجات الجبهة · ونقوم الآن بجمع التبرعات لانتاج الدبابات · وأبلغنا بناة المنشآت الدفاعية أنهم قد انتهوا من عملية اقامة المنشآت قبل الموعد المحدد · وقامت الفتيات بتكوين فرق جرارات حيث حللن محل الرجال الذين خرجوا للقتال · كما تم تشكيل فرق الدفاع المدنى واذا تطلبت الظروف فيمكن من الغد اعلان حالة الطوارىء والزام أعضائها بالتواجد بصفة دائمة فى مجمع واحد ·

وعلاوة على ذلك فان هدايا أربع عربات سكك حديدية لمقاتلى الفرقة تعد تعبيرا عن حبنا لابناء أرضنا الحبيبة · لكل فوج عـربة ويحتوى كل صندوق على سجق وأوز محمر وحلوى · كما قـــدم

مربو الدواجن من مدينة كاتليارى حتى الدواجن والبيض المسلوق ؛ وسيجد المقاتلون بين الهدايا الخمر والفودكا والأطعمة الشعبية مثل لحم الضأن المجفف بالشمس والملبن والحلوى المصنوعة من السكر ودقيق القمح • لقد حاول الجميع التعبير عن حبهم • وحتى الصبية الذين جمعوا الأعشاب الطبية ، فقد وضعوا فى الصناديق هداياهم التى تنفع الجرحى •

ظل طالب سوسماكوف صامتا يفكر فى كولوف الذى كان بمثابة طائر الغرنوق وهو يقود السرب من خلفه ، أو بمثابة الرجل الذى يمسك بلجام جياد تجر حملا ثقيلا • فكم يحتاج المرء من الارادة والعقل والحزم والقدرة على التنبؤ كى يوجه هذا الحمل على الطريق الصحيحة الوحيدة • وقارن طالب سوسماكوف دون ارادته بين كولوف وبين بيتال كالميكوف الجبار الذى كان يسبقه فى هذا المنصب •

استغرق سوسماكوف فى التفكير فى هذا لدرجة أنه لم يسمع ما قيل فى الدقائق الأخيرة من الاجتماع •

وقف الجميع وبدأ ضجيج المقاعد • وتم الوداع ، ثم قاد خاتالى تشورف الوفد الذى يرأسه عبر الدهاليز الطويلة التى كانت تسير منذ مدة قريبة بها ابتشارا خلف تشوكا موتايف ولا تكاد تلحق به •

الفصـــل الثـالث

وصول الهدايا الى جبهة القتال

كان القطار مسرعا يشق الظلام ..

راودت ابتشارا رغبة قوية فى النوم فحاولت النوم ولـكن عبثا ، وأخذت تتعذب وتتماوج أمام عينيها الأرقتين صـــناديق الهدايا . لقد ساعدها تشوكا فى ترتيبها ، كما ساهمت ايرينا كذلك فى المساعدة . هذا بجـــانب شخص لا يخطر على بال ألا وهو دانوتشكا . وكانت دانوتشكا تتصايح فرحا ثم صعدت فوق كـوم الصناديق والرباطات وكأن هذه الهدايا تخصها وحدها ، وليست لفرقة كاملة .

ولكن أين هدايا ايرينا المرسلة الى زوجها ؟ بدأ القلق يدب الى نفس ابتشارا وقد فقدت آخر أمل فى النوم . على ما يبدو أن هداياها وضعت بجانب هدايا الأم.وهناك كذلك حقيبة ابتشارا وبها حاجياتها . لا داعى للخوف فسوف تجد الهدايا . وكانت دانوتشكا قد رسمت محيط يدها ورجلها على ورقة بالقلم الرصاص لترســل الرسم الى والدها . وجاءت صورة اليد أكبر من يدها بجـــانب اعوجاج الأصابع ، ولكن فلير بابا ما رسمته .

ارتبك تشوكا تماما أثناء الوداع . ورغم أنه فى الواقع انتحى بابتشارا جانبا مما جعلها تفكر فى أنه ســـيقبلها ، الا أن تشوكا المسكين بدأ يهمهم بشىء ما ، ثم أخذ يكرر لها بعد ذلك طول الوقت: « حذار أنك ذاهبة الى جبهة القتال .. جبهة قتال . خذى حذرك »، كأن ابتشارا لا تعلم الى أين هى ذاهبة . وعلى فكرة ، لو كان قبلها،

لما راهما أحد حيث كان يسود ظلام دامس نتيجة التعتيم ٠ وبعد ذلك أركبها العربة وكاد أن ينفجر باكيا ٠٠ ها ٠٠ ويسمى رجل ٠

تأخرت أوزيزة ٠ ولو كانت تأخرت أكثر من ذلك بقليل ، لكانوا قد سافروا بدونها ٠ ولكنها وصلت فى آخر لحظة ٠ أين هى ذاهبة وما الذى يدعوها لذلك وهى حامل فى شهرها الأخير ؟ ولقد عارض خاتالى تشورف ـ رئيس الوفد ـ بشدة فى أخذها خشية ألا يجد أمامه مفرا من أن يصبح قابلة ٠ وقد يحدث ويقوم بهذه المهمة مضطرا فان ابتشارا لا تفهم شيئا فى هذا الموضوع بالمرة ٠

هذا والقطار يزداد سرعة فوق سرعة ويدمدم فى الظلام ٠٠ طيـ ٠٠ ب ، طيـ ٠٠ ب ، طيـ ٠٠ ب ٠٠ كانت رائحة الحريق تنبعث وغبار الفحم الدقيق ينغز فتحتى الأنف ويحجب الوجه بطبقة دهنية ٠ وكان باب عربة البضاعة التى كانت ابتشارا تحاول النوم فيها مواربا ، غير أن كل شىء فى الخارج كان يسبح فى الظلام ، تماما كما كان كل شىء حول ابتشارا ٠ ولم يكن هناك شىء سوى صليل العجلات المستمر ٠ ولا أحد يدرى ما الذى جعل ابتشارا وهى تسمع صوت صليل العجلات هذا لا تفكر فيما ينتظرها والمناطق البعيدة التى يسرع اليها القطار ، بل استغرقت فى التفكير فيما خلفته وراءها وفى بيتها ٠ من الطريف حقا معرفة كيف ستعيش هناك امرأتان ـ الحماة وزوجة الابن ـ ٠ هل ايرينا هى التى سوف تزور حبيبة ، أم حبيبة هى التى سوف تزور ايرينا حين ينتابها السأم والحنين ؟ من الأفضل أن تعيشا معا حتى تعود ابتشارا ٠ وكيف الحال الآن فى وادى الحملان البيضاء ؟ وكم تخشى ابتشارا أن تتسبب عزيزة التى أحلتها ابتشارا محلها ـ فى تدهور العمل ٠ فانها لينة الخلق غير حازمة ٠

كانت ابتشارا تفكر فى بيتها ، ولكن اصطكاك العجلات يذكر بالسفر · وحين تنصت السمع اليه تبدو العجلات وكأنها تصدر مختلف الكلمات · وها هو القطار يسير بأقصى سرعة وتشعر بالعجلات وهى تردد بوضوح : « اب ـ تشا ـ را ·· اب ـ تشا ـ را » وتهتز العربة فى ايقاع اصطكاك العجلات ، ثم يدخل القطار جسرا فتغير العجلات صوتها ويختلط صليلها بضجيج يشبه رفرفة أجنحة ، ثم يعود من جديد الاصطكاك الرنان بما يشبه الكلمات ليقول: «با ـ بى ـ ديم ! با ـ بى ـ ديم!» (*) أو باسم أخى ابتشارا العزيز عليها : « الـ ـ بى ـ ان ·· الـ ـ بى ـ ان ·· » وبطبيعة الحال فان صوت اصطكاك العجلات يمكن أن يشبه نطق كلمات مختلفة وذلك باختلاف الشخص ، ولكن العجلات كانت بالنسبة لابتشارا وكأنها تقرأ أفكارها تصدر جميعها صليلا يردد: «نا ـ فاى ـ نو·· نا ـ فاى ـ نو ·· نا ـ فاى ـ نو » (**) ·

وتذكرت ابتشارا وصولات الأمانة التى تحفظها لديها ·

لقد نسيت أن تعطيها لبيكان · واذا ضاع فجأة الصندوق الذى يحتوى هذه الوصولات وكل الوثائق الخاصة بالكومسمول ؟ وبه أيضا كشوف شطب الحيوانات النافقة ·

كانت تمرق أمام العينين من خلال باب العربة الموارب المصابيح المظللة فى المحطات الصغيرة · من المرجح أنه سرعان ما ستكون محطة بروخلادنيا ·· كان من الممكن أن تعرف ابتشارا هذه المحطة بحاسة الشم ذلك لأنها سافرت اليها عدة مرات لبناء المنشآت الدفاعية · وكان المتطوعون يعيشون فى أكشاك خشبية ويغتسلون

(*) روسية بمعنى : سننتصر · المترجم

(**) روسية بمعنى : الى الحرب · المترجم

فى الصــــباح بمـــاء تصــل درجــة حـــرارته الى درجــة التجمـــد . أما افطــارهم فــكان الخبـــز والمـــاء . وفى الغـــذاء كـــانوا يقـــدون لهـــم حســـاء كيفمـــا كـــان فضلا عن أنه يقدم باردا ، ورغم ذلك عاش الجميـــع يعملون من الصباح حتى المساء . لماذا يجادل باخوف فى كل مرة يثار فيهـا الحديث عن اقتراب خطوط الجبهة ؟ ان بناء خط دفاعى يعنى أن خطوط جبهة القتال يمكن أن تصل هنا والا لماذا اضاعة هذا القـدر الهائل من الجهد ؟

حاولت القاطرة البخارية الصغيرة أن تطلق الصفير الا أنهـا لم تقو الا على اصـــدار همسة عاليـــة . لقد كانت قاطرة واهنــة ـ هذا ما اعتقدت ابتشارا . وكانت ابتشارا قد سمعت لأول مرة كلمة « واهنة » من أحد الصبية المهجرين من اقليم روستوف . كما عرفتمنه كذلك ما هو سمكالشبوط وأينيوجد.وكان هذا من الأهمية بمكان بالنسبة لها . فقد ذكر لها ألبيان فى رسالته : « اكلت شوربة من سمك الشبوط » . فأين يا ترى يكون هذا السمك ؟ وشرح لها الصبى المهجر أن الشبوط يوجد حيث تلتقى مياه الأنهار بميـاه البحار . اذن فألبيان عند المجارى السفلى لنهر الدون . وشاطرت ابتشارا تشوكا أفكارها عند المجارى السفلى لنهر الدون . وشاطرت

كان من المستحسن أن يكون تشوكا على رأس الوفد . وفى الحقيقة لا يمكن وصف خاتالى تشورف بالسوء . فانه شاب طيب بعيد النظر . ومن الواضح أنه يحب الأكل . فبعـــد ان تعرف بأبتشارا سألها مباشرة :

ـ ما الذى أخذته معك من المأكولات ؟

ارتبكت ابتشارا لأنها لم تكن تعلم ماذا وضعت لها حبيبة فى الحقيبة وما هى كميته . ولكن الحقيبة كانت ثقيلة .

ـ اذا كنت مسافرة ليوم ، فخذى ما يكفيك أســـبوعا من المأكولات ـ هذا ما قاله لها خاتالى وكأنه يوصيها . وما أن تحرك

القطار حتى انبعثت فى الظلام رائحة الثوم وبدأت تصدر قرقشة عظام الفراخ • فقد شرع خاتالى فى الأكل • ودعا خاتالى الآخرين لمشاركته غير أنه لم تكن لدى أى منهم شهية للأكل بعد كل الانفعالات التى عانوها •

وها هو تشورف يغط فى نومه الآن ، وأخذ النوم يداعب جفون ابتشارا • وفجأة دوى انفجار بجانب العربة فاهتزت واضيئت بنور يبهر الأبصار وانسدت الآذان وكأن قطنا وضع فيها • ولولت أوزيزة خائفة • ثم دوى انفجاران آخران وتوالت بعد ذلك الانفجارات • وسقطت طرود الهدايا مبعثرة محدثة دويا قويا • وتقوس خاتالى محاولا أخفاء رأسه وكان أول ما فعله أن صاح « هدوء ! » • الا أن صوته ـ كما أحست به ابتشارا ـ كان يرتعد •

توقف القطار وقفزت ابتشارا من العربة الدافئة دون أن تعى ما تعمل • كانت الطائرات تحوم وتزوم على ارتفاع منخفض وأخذت الانفجارات تدوى من حولها يصاحبها وميض أحمر اللون • وعلى بعد كان هناك شىء ما يشتعل بنيران ناصعة مستوية ألسنتها •وغمر الضوء المكان • وتراءت أشباح أناس عند المنحدر فى ضوء لمعان ألسنة اللهب • ومر بسرعة رهيبة وبقعقعة هادرة الآذان القطار الحربى المقابل وهو يحمل دبابات ومدافع وسيارات وصناديق كبيرة • وسقطت ابتشارا على الأرض وجمدت فى مكانها •

ولفح القطار الحربى السريع ابتشارا بسياط الريح المختلطة بالغبار ورائحة الحريق • ورفعت ابتشارا رأسها فسمعت صوت خاتالى القانط يناديها :

ـ ابتشارا ؟ ! أين أنت ؟ عودى على الفور • أين أنت ؟

وعلى بعد كان المقاتلون يخرجون عن القضبان عربة مسطحة اشتعلت فيها النار ويرشون المياه على النار من الخراطيم ويلقون عليها الرمال •

عادت ابتشارا جريا الى العربة • وانقض عليها خاتالى •

وكان من الممكن أن يوبخها لولا صوت انين أوزيزة المنبعث من بين الرباطات والصناديق · وازداد خوف خاتالي · فقد اعتقد ان أوزيزة على وشك الوضع ·

ـ ابتشارا اسأليها ماذا بها · لا يليق بى أن أسألها ·. وبصفة عامة لا تبتعدى عن هنا فانى لا أفهم شيئا فى هذه الأمور ·

ولكن أوزيزة هدأت بنفسها قائد الوفد قائلة :

ـ لا شيء ، يا خاتالى · لقد مر كل شيء · كان ذلك من خوفى · لم تعد الطائرة تحدث ازيزا ؟

تحرك القطار وهدأت النفس · وأدركت ابتشارا من الصفير ان القاطرة « الواهنة » قد تغيرت · وفى الواقع انطلق القطار وأخذ يزيد سرعته ·

بدأ منظر السماء يتغير بالتدريج من خلال فتحة باب العربة الموارب · فأخذ ظلام الليل ينحسر ويقل حتى أصبح شفافا · وفقدت النجوم بريقها وارتفعت رطوبة الهواء الا أن الاشجار استمرت فى نعاسها وكأنها جياد فى الاسطبل · وشعرت ابتشارا ببرودة هواء ما قبل الفجر فأخذت تلف نفسها وتتغطى بالبطانيات · وسرى الدفء فى جسدها وراحت فى سبات على صوت صليل العجلات الذى لا نهاية له ·

أيقظتها الكلمة المعروفة لها والتى تعودت عليها فى مساكن الفتيات أثناء عملية بناء المنشآت الدفاعية ·

ـ استيقاظ ! ـ كان خاتالى واقفا فى الباب وظهره للعربة ، كيلا يضايق النساء وهن يرتدين ملابسهن ·

كان خاتالى كعادته يمضغ شيئا ما · « حين تنوى الذهاب

لزيارة أحد ما لا تنس أن تأكل ـ كان يقول لنفسه دائما ـ لأنه من غير المعروف هل سيضيفوك أم لا · واذا حدث وضيفوك فان تأكل مرتين أفضل من لا شيء » ·

ـ وصلنا ؟ هل وصلنا ؟ ـ اقشعر بدن ابتشارا من البرد ـ لماذا نقف هنا ؟

ـ نعم · لقد وصلنا · لكنني لا أرى أحدا · من المفروض أن يكون هناك استقبال مهيب لوفد الهدايا ·

أطلت ابتشارا من العربة فلم تر شيئا بالمرة ، لا محطة ولا بلدة · لم تر سوى براري خالية تماما وأكوام الصناديق المغطاة بأغصان الأشجار الموجودة بعيدا عن قضبان السكك الحديدية · وبين الصناديق يظهر المقاتلون · أنهم حرس المخازن · أين اذن الفرقة ؟ ربما مشتركة في القتال ؟ وكانت أوزيزة اكثر الجميع قلقا حيث كانت تتوقع ان ترى على الفور زوجها قوميسير الفوج ·

ـ ها نحن في الجيش العامل ، ـ أعلن خاتالي بصورة مهيبة ·

لم تصدق ابتشارا ، مثل هذا الهدوء ويقول «الجيش العامل» فقد كانت الطريق أكثر ازعاجا من هنا · بدا لها أن جبهة القتال ستستقبلها بأصوات طلقات المدفعية وصرير جنازير الدبابات ، وعواء « مدافع الكاتيوشا » كما يبدو في الأفلام السينمائية · ولكن الذي وجدته هنا هو صباح صيفي وسماء صافية · وعلى مسافة بعيدة بيوت صغيرة منخفضة مبنية من الطين تبدو كأنها دجاجات حطت في التراب · وتظهر الاشجار القليلة وكأنها تقوم بحراسة هدوء وسكينة هذه البيوت · وحملت ريح خفيفة رائحة شيح وتغريد قنابر · وكان من الصعب تصديق انه بالقرب من هنا خلف نهر الدون العريض وافر المياه ثمة ارض قلبها الحديد والنار حيث تدور معركة لم يشهد التاريخ مثلها وحيث يتقرر مصير شعوب ·

أخذ تشورف يتمشى بالقرب من العـــربات التى فصلت من القطار ولم يعتزم الذهاب بعيدا ·

ظهر من خلف أكوام الصناديق بعض العسكريين وهم يسيرون بسرعة · من الواضح أنهم هم الذين كانوا يجب ان يســـتقبلوا الوفد · وكان يتقدم الجميع قوميسير يرتدى زيا جديدا على أكمامه نجوم حمراء · لقد تعلمت ابتشارا التمييز ـ كما كانت تقول ـ بين العسكريين الحقيقيين والمسئولين من التوجيه المعنوى ·

ـ مرحبا بكم فى ساحة الحرب ـ قال القوميسير للوفد كله من بعيد ، وحين اقترب من خاتالى شد على يده محييا وتعـــانق الاثنان ثم شد كل منهما على يد الآخر من جديد ·

ـ كيف كان الطريق ؟ ألم يرسل الألمان تحيتهم لكم بالليل ؟

ـ نعم ، لقد ارسل تحيته · وبسبب هذه التحية كادت اوزيزة أن ·· ـ وتنبه خاتالى فى الوقت المناسب ولم يكمل ما أراد قوله ـ أقصد كادت ان تقفز من القطار على أثر ابتشارا · كيف الحال هنا ، يا سلطان ؟

ـ أهلا وسهلا ·· أهلا وسهلا ، ـ توجه سلطان خولا مبايف الى الامرأتين وكأنه لم يسمع سؤال خاتالى ، ـ انى سعيد برؤيتكما بصحة وعافية · وفى الواقع لا استطيع أن اعدكما بالأمن المطلق ولكن الخطر الرئيسى قد مضى · ونرجو التكرم أن تغفرا لنا ، اذ لم نكن على المستوى المطلوب من كرم الضيافة ·

ـ سنخصم ذلك من حساب الحرب ، ـ اجزمت ابتشـــارا بجرأة · وكانت هذه العبـــارة هى التى كثيرا ما كان اخوها يكررها ·

ـ هكذا بالضبط · ويمكنكما البدء فى الخصم من الآن · لقد حدث خطأ اليوم ·· فلم نستقبلكم ·

عرفت ابتشارا على الفور سلطان خولا مبايف · فان مساعيه هى التى ادت بها الى المنصة لتلقى كلمتها اثناء وداع الفرقة · ومن المحتمل ان سلطان يذكرها هو الآخر والا لما كان قد ابتسم لها حين كان لا يزال بعيدا · وكان يسير خلف خولا مبايف رجل يصعب ادراك هل هو عسكرى ام مدنى · فلم يكن يحمل شـــارات مميزة وسترته ذات الصف الواحد من الأزرار محاكة بطريقة خاصة · وقدم الرجل نفسه :

ـ يعقوب بيشتويف ، محام ·

وأضاف خولا مبايف محددا بمزاح :

ـ محام عسكرى · انه ضمن احتياطى القيادة العـــامة ، وينتظر بفارغ الصبر الرتبة العسكرية ·

ـ هل كنت تعمل وكيل نيابة الناحية ؟ انى اذكرك فقد كنت ترتدى نظارة كبيرة ·

ـ هذا صحيح · والآن كما ترين لا توجد ··

ـ ان النظارة علامة مميزة يمكن ان يتنكرها أى انسان ، اما هو فلا ، ـ وضحك سلطان واستطرد قائلا ، ـ انه سيء الحظ · فقد ارسلنا الوثائق لمنحه رتبة عسكرية ، الا انه تم ارسال شخص آخر ليحل محله بدلا من الرتبة ·

ـ اذن لا مكان ، ولا رتبة ، ولا نظارة ·

ـ لا بأس يا يعقوب ، اذا وجدت الرأس توجد القبعة ـ أخذ سلطان يصبر بيشتويف ·

ـ وكيف حالكم انتم ؟ ـ سأل سلطان خاتالى ·

ـ ها قد وصلنا مع طلوع الفجــــر ، ـ ارتعش خاتالى من البرد ـ ولم يستقبلنا احد ·

لم تكن الشمس قد اشرقت بعد ، غير ان هالة ساطعة كانت تسبح فى أفق السماء مبشرة بيوم خانق شديد القيظ ٠

ـ ومن الذى يمكنه الحضور لاستقبالكم ؟ فها هى الفرقة ليومها الثالث تواصل السير ٠ ولقد اتخذت الوحدات الفرعيـــة الامامية مواقعها بالفعل ٠ ولم نذهب مع المقاتلين لننتظركم ٠ ألم يقولوا لكم ذلك فى دائرة العمليات الحربية ؟

ـ لقد قالوا انكم سرعان ما ستشتركون فى القتـــال ولكنهم لم يحددوا اليوم ٠

جلست اوزيزة على الأرض ٠ لم تحتمل الوقوف حيث خذلتها رجلاها ٠ لم يخدعها احساسها ٠ فلم يكن عبثا هذا المنـــام الذى رأته أثناء نومها ليلا ٠ فقد رأت ان زوجها دوتى يســـتقبلها وهو ممسك فى يده بفخذ ضأن كبير نىء بدلا من باقة الزهور ويقول لها : « انى أعلم أنكم قد شعرتم بالجوع فى الطريق ٠ هاكم ، كلوا ٠ انها تكفى الوفد كله » ٠

« رؤية اللحم لا تبشر بالخير » ٠ هذا ما اسرعت ابتشـــارا بالتنبؤ به لها مقلدة حبيبة التى تقوم بتفسير كل الأحـــلام فى القرية ٠

استدعى سلطان تشورف جانبا ، أما يعقوب بيشتويف فقد بقى مع الامرأتين ٠ وسأل اوزيزة :

ـ هل يعلم زوجك انك ستأتين ؟

ـ يعلم ٠٠ من المفروض أنه يعلم ٠

ـ لا بأس ٠٠ أهم شىء لا داعى للقنوط ، فلنأمل خيرا ، من المحتمل ان يتضح الموقف نهارا ٠

هذا عجب عجاب ! » ـ استاءت ابتشارا ٠ فقد كانت هى

الأخرى تحلم باللقاء مع اخيها وتوصيل كل كلمات امها ورسالتى ايرينا ودانوتشكا وفجأة يقول « يتضح الموقف » فانهم كانوا يعرفون ان الوفد قادم حاملا الهدايا للمقاتلين كما انهم يعـــرفون من هم اعضاء الوفد • فان كولوف اتصل تليفونيــــا خصيصا بغرفة عمليات الناحية • كيف هذا : « يتضح الموقف » ؟

لم يســـتغرق تشاور خاتالى وقوميسير الكتيبـــة ويعقوب طويلا • ولم يفلت شيء من نظرة ابتشارا الثاقبة • فقد انتقل جزع وقلق قوميسير الكتيبة والمختفيان تحت ستار من البشاشة الى وجه خاتالى الأسمر المستطيل بعض الشيء • ونظر تشورف نظرة حزينة الى الحقيبة التى كانت قد وضعت عليها بالفعل ـ بغرض الافطار ـ قطع فرخة محمرة ، وبيض وبصل مشوى من صـــنع يدى اوزيزة الماهرة • واتضح انه ما من وقت حتى للافطار • الا ان تشورف لم يتمالك نفسه وأخذ فخذ فرخة • وأخذ يتفحصه من جميع الجهات وكأنه يقرأ شيئا ما منها ، ثم قال :

ـ الأمر وما فيه ، أيتها السيدتان العزيزتان اعضاء الوفد ما يلى : لقد تعجبت ابتشارا منذ ساعة من هذا الهدوء الشامل • ولكنه هدوء وهمى • والواقع ان معارك ضارية تدور الآن • أقول معارك عنيفة • والفرقة التى جئنا اليها تواصل السير وستدخل المعركة ان لم يكن اليوم فغدا • ومن المفهوم الآن لماذا لم يستقبلنا اصدقاؤنا • اقصد قوميسير الفوج دوتى والبيان صديقى وأخـــو ابتشارا الحبيب • فماذا يقترح رئيس القسم السياسى ؟ انه يقترح أن أذهب معه الى قيادة الفرقة حيث ينتظرنا قائدها •

ـ سوف اذهب معكم ، ـ قاطعته ابتشارا •

ـ ماذا عن اوزيزة ؟

ـ لا عليك • سوف امكث هنا لاستريح من الطريق وعندئذ تتوقف رأسى عن الدوار ، ـ وأرادت اوزيزة بذلك ان تثبت انهـــا لا تقيد ابتشارا بشىء •

وأيد القوميسير ابتشارا ، ثم استطرد قائلا :

– لن نتغيب طويلا · لن يستغرق ذلك سوى ساعة أو ساعة ونصف · وسيبقى بيشتويف هنا حيث يعد الرجال لتفريغ العربات· أما نحن فسنقدم تقريرا سريعا عن وصولكم ونتلقى التعليمات ، ونعود على الفور وربما نلتقى بزوجك وعندئذ نحضره معنا ·

واتضح أن سيارة ماركة « آم » مموهة بألوان مختلفة تقف خلف الأكوام · حملتهم عبر مطبات السكة الزراعية مثيرة خلفها سحبا من الغبار الأحمر · وحين كان السائق يفرمل عند كل مطب ، كان الغبار يتكاثف على السيارة من الخلف فيغطيها مما يجعل التنفس مستحيلا داخلها · كانت رغبة قوية تتنازع ابتشارا فى أن تعرف اين الفوج الذى يخدم فيه أخوها ومتى ستراه ، ولكنها لم تتجاسر على السؤال ·

– كيف لم يخبرونا ان الفرقة ستدخل المعركة ؟ – لم يكن خاتالى يعلم من الذى يستحق اللوم الآن ·

– لقد اوصلوا الخبر · غير اننا تلقينا أمر القتال فى نفس الوقت الذى تلقينا فيه البرقية التى تخبرنا بسفركم · ويمكن القول أننا تحركنا فى وقت واحد معكم غير أن تحرككم كان بالقطار · أما نحن فقد تحركنا على ظهور الجياد · ولقد قطعتم خلال هذا الوقت ستمائة كيلو متر ، أما نحن فقطعنا مائة وخمسين ·

– لقد قصفونا بالقنابل ، أما انتم فلم تتعرضوا لذلك بعد ؟

– كيف هذا ؟ ! عمليات القصف هذه يومية · ومن الأفضل الا تبقوا هنا طويلا ·· فالموقف خطير ·· وكل شىء محتمل ·

– لا ·· لن نرحل من هنا قبل أن نوزع الهدايا · ما رأيك يا ابتشارا ، هل أقول الصواب ؟ – توجه خاتالى الى ابتشارا الجالسة بجوار السائق · وعبثا كانت ابتشارا تحاول تدقيق النظر خلال الغبار فى قرى القوزاق المتناثرة بامتداد الطريق · واستدارت ابتشارا لتقول :

ـ الله شهيد على ما أقول ٠ ان اهل القرية سيتشاجرون معى اذا لم أسلم الرسائل والطرود لابنـــاء القرية شخصيا ٠ ويجب البحث عنهم ٠

ـ ان ما أخشاه ان يتحتم عليك البقاء هنا الى ما لا نهاية ٠

ـ ولماذا ؟

ـ لأن الرجال فى أفواج مختلفة ٠ وغدا ستبدأ المعركة ٠

كان قائد الفرقة ينتظر الضيوف بفـــارغ الصبر ٠ وكانت سيارته تقف عند عتبة البيت فى ظل أشجار الحور ، والسائق ينام خلف عجلة القيادة ٠ من الواضح أن نصيبه من الاجهاد كبير هو الآخر ٠ كانت القيادة ـ تكثر دوما من حركة الأفراد حولها ـ خالية ٠ كما تم نزع اللوحة المبين عليها رقم وحدة البريد ٠ وما ان رأى الياور السيارة المقتربة حتى أسرع لتبليغ العقيـــد ٠ وخرج العقيد الى العتبة وهو يحدث رنينا بالمهماز الفضى وقد علق على صدره نظارة معظمة وعلى جنبه سيفا ، وحقيبة ميدان ومسدسا ٠

ولم يستقبلهم العقيد هو الآخر بكلمات الترحيب ٠ فقد هز رأسه فقط وقال :

ـ خسارة ان مجيئكم ليس فى الوقت المناسب ٠٠ نعم ليس فى الوقت المناسب أيها الاعزاء ٠ آه لو جئتم قبل ثلاثة أيام ٠ ولكن ما العمل ؟ انها الحرب ٠٠ أهلا وسهلا ٠ اهنئكم بسلامة الوصول٠ انظروا من الذى جاء ؟ نفس الفتاة التى القت كلمة أثناء الوداع٠ اسمحى لى أن أتذكر اسمك ٠٠ انه ابتشارا ٠

فقال تشورف مؤكدا :

ـ هكذا بالضبط أيها الرفيق العقيد ٠٠ ابتشارا كازانوكوفا ٠ وأذكرك كذلك انها اصطادت مخربين ٠

ـ هذا مستحيل ٠

ـ هكذا حدث بالضبط ٠

ـ أمر عجيب ٠٠ ان كتيبة خيالة ظلت تطارد اثنين من رجال المظلات هنا يومين كاملين والقت القبض عليهما بصعوبة ٠ ابتشارا ، أيها الضيوف الاعزاء تفضلوا بالدخـــول الى مكتبى ٠ فلنتحدث بعض الشيء ٠ كم نأسف لأن مجيئكم ليس فى وقت منـــاسب ٠٠ ليس فى الوقت المناسب ٠

ـ لقد جئنا فى الموعد المحدد كما اتفقنا أيها الرفيق العقيد ـ لم يقبل تشورف العتاب ٠

دخل الجميع غرفة كانت فيما مضى فصلا مدرسيا فى مدرسة ابتدائية ٠ كانت الادراج مرتبة فى ركن من الغرفة وعلى سـبورة الفصل خارطة جغرافية مما يستخدم فى المدارس ٠ وكانت وثائق القيادة مخبأة فى صناديق حديدية ٠ وفرد العقيد خارطة مهلهلة على المكتب الصغير الذى كان المدرس يجلس خلفه فى وقت ما ، واتجهت أنظار الجميع الى الخارطة ٠

ـ هذا صحيح ٠ لقد جئتم فى الموعد المحدد ٠ ولكنكم تفهمون ان الانسان يفكر والله يدبر ٠ انها الحرب ٠ اجلسوا الى المقاعد وسوف احدثكم عن المـــوقف وسيتضح لكم كل شيء ـ وبدأ قائد الفرقة الحديث دون ان ينتظر حتى يجلس الضيوف وكأنه تلميـذ استعد للاجابة على درس الجغرافيا :

ـ ها هى مدينة رستوف ٠ يغطيها من ناحية الغرب ومن ناحية الشمال الغربى خطا دفاع ٠ ها هو الخط الأول وها هو الخط الثانى ـ وكان طرف المؤشر الذى أخرجه من ساق الحذاء اللامع يمر بسرعة على الخارطة ـ وكان الناس ، الناس العارفون طبعا ، يعتقدون ان الألمان سيزحفون الى رستوف وبالتالى ستنكسر شوكتهم وتتحطم قواتهم مـــا يجعلهم يتراجعون الى الخلف ٠ غير ان الألمان الأوغاد كانوا أكثر خبثا حيث غيروا عادتهم فى الهجوم

على مكان واحد بحذلقتهم الألمانية المعروفة · ولم يتقـــدم الألمان بالطريق القديم الذى تلقوا فيه درسا قاسيا فى الشتاء ، بل التفوا حوله وبهذا فان اتجاههم ليس رستوف بل ميليروفو هنا عند منعطف نهر الدون · وهدفهم هو ارسال رتل ناحية ستالينجراد وآخر ناحية الجنوب · ويريد الألمان الاســـتيلاء على معبر فى منطقـــة بلدة تسيمليانسكايا · ولكن لماذا يحتاجون الى المعبر ؟ كى يخرجوا الى الشاطىء الجنوبى لنهر الدون وتطوير الهدف والتحرك تجـــاه القوقاز · ان هتلر فى أشد الحاجة الى البترول ، فان كل عتاده الحربى عبارة عن حديد ميت دون وقود · وليس عبثا أنه القى بكل ما يستطيع وكل ما لديه فى اتجاه الجنوب · فليست لديه القوة التى تسمح له بالهجوم على كل الجبهات · ان نفسه مقطوع · فلقد تلقى صفعة قوية فى الشتاء عند مشارف موسكو ولا يريد المخاطرة بعد ذلك · ولذلك بدأ مغامرة جديدة يستهدف بها تفتيت تحـــالف الجمهوريات الحرة ومحاولة اختبار متانة عرى الاخوة التى تربط شعوب القوقاز · ان الخطر جسيم فها هو يلتف حول رســـتوف التى نعتبرها الباب المؤدى الى القوقاز · وقد تسلمنا منطقة للدفاع على الشاطىء الجنوبى لنهر الدون · وها هى وحداتنا فى الطريق ليومها الثالث على التوالى · وتدخل فرقتنا ضمن تشـــكيل فيلق للخيالة ، الذى دخل بدوره ضمن تشكيل الجيش الحادى والخمسين الذى مزقته المعارك التى دارت فى شـــبه جزيرة كيرتشينسكى · ومهمتنا هى منع العدو من العبور الى الشاطىء الجنوبى لنهـــر الدون أى قطع طريق العدو الى القوقاز ·

نظرت ابتشارا الى العقيد ولاحظت الانهاك الشديد والجزع والقلق يطل من وراء هذا النشاط الظاهرى الذى يبديه رجل الخيالة العجوز · وتذكرت ابتشارا ما وعد به قائد الفرقة « تحقيق النصر بأقل قدر من الخسائر » · وكيف يمكن تنفيذ ما وعد به فى الوقت

الذى تدخل فيه الفرقة القتال دون التسليح الكافى ، وينبغى على الخيالة مواجهة الدبابات ؟

وأنهى قائد الفرقة حديثه بكلمات لم تكن متوقعة :
ـ اسمحوا لى ، فان لدينا من يحمل اسم كازانوكوف هلم ساعدنى يا رئيس القسم السياسى بالفرقة فى تذكره ·
ـ الملازم كازانوكوف من رجال مدفعية الهاون ·
ـ هذا صحيح · هل هو أخوك ؟

واحمرت وجنتا ابتشارا وأجابت :
ـ نعم أخى ·
ـ اذن انه لا يقل همة عن اخته · لقد ارسلته فى طلب العتاد من مخازن المدفعية وعاد بمجموعتين من العتاد بدلا من واحدة · من المؤسف أن الأخت لن تلتقى بأخيها ·

عضت ابتشارا شفتها كيلا تبكى · وحاول القوميسير التخفيف من الاستنتاج القاطع الذى خرج به قائد الفرقة :
ـ ومن يدرى ؟ ان الحرب مليئة بالمفاجآت · انهم لا يريدون الرحيل عائدين قبل توزيع الهدايا التى تملأ أربع عربات سكك حديدية فضلا عن كوم من الرسائل ·

وبدت الصرامة على وجه العقيد وقال :
ـ أعتقد أنه سيتحتم رغم ذلك ان يعودوا ادراجهم لست أرى أية امكانية لذلك · من الذى يسمح بايقاف الوحدات المتجهة الى المعركة من أجل توزيع الهدايا ؟ ان عقوبة هذا هى المحاكمة العسكرية · لا ·· لا ·· هذا مستحيل · أمر محزن حقا ولكن يتحتم علينا ان نوزع بأنفسنا الهدايا حين يسمح الموقف القتالى ·

لن يسمع المقاتلون طبعا كلماتكم الدافئة أو يعيشـــوا لحظـــات احتفالية ، ولكنهم سيتسلمون الهدايا حتما ٠

انحدرت الدموع على وجنتى ابتشـــارا المتوردتين ٠ من الواضح أنه لن يتسنى لها توصيل كلمات الأم : « ان امك راضية عنك ، فليرض عنك الله كذلك » ٠ وماذا عن رســـائل أهل القرية وكلماتهم ؟ لا ، ابتشارا لا يمكن أن تعود دون أن تفعل شيئا ٠ وهل من المعقول ألا يقدم لها أحد سيارة تستطيع بها اللحاق بأخيها ؟

وهنا قال سلطان خولامبـــايف وكأنه ادرك ما فى نفس ابتشارا :

ـ أيها الرفيق العقيد ٠ اسمح لى بالمتصرف على هذا النحو : سآخذ كل ما هو ضرورى فى ســـيارتى ماركة « ام » واذهب ٠ أما سيارة النقل التابعة للقسم السياسى فســـأضعها تحت تصرف الوفد يوما واحدا ٠ وسألحق بالوفد يعقوب بيشتـــويف ، فليس لديه ما يعمله ٠ وليحملوا السيارة بالهدايا وليلحقوا بالأفواج ٠ واعتقد انهم سيتمكنون من نقل الهدايا على مرتين أو ثلاث مرات اذا كانوا سيعودون بسرعة ٠ وسوف يوزعون الهدايا فى ساعات توقف الأفواج للراحة ٠ أما ما لا يتمكنون من توزيعه فسنضعه فى المخزن ٠ وبعد ذلك نوزعه بأنفسنا ٠

ـ وماذا عن مهماتك ؟

ـ لن أستطيع على كل حال نقل مهمات القسم السياسى مرة واحدة ٠ فانى سأحتاج الى نقلتين أخريين ٠ وسيتحتم العودة من مناطق تمركزنا الجديدة الى هنا لأخذ مهماتى ٠ واذا لم أستطع نقله فسيأتى الآخرون

ضاقت عينا قائد الفرقة وانطبقت شفتاه ودست يده بصورة

تلقائية المؤشر فى ساق الحذاء · كان واضحا ان اقتراح قوميسير الكتيبة لا يعجبه · فلم يأخذ سلطان بعين الاعتبار ان الالمان يمكن أن يصلوا الى الشاطىء الجنوبى لنهر الدون فى أى يوم وعندئذ ستتعقد الأمور · ومن الأفضل بالطبع ان يســـتولى الالمان على الهدايا بدلا من مهمات القسم السياسى · ومن ناحية أخرى من يدرى ؟ ربما سيسير كل شىء على ما يرام ويلتقى الوفد بالمقاتلين ويوزع الهدايا · وهذا من شأنه ـ بطبيعة الحال ـ رفع الروح القتالية وشد عزم الرجال قبل القتال · ونظر العقيد الى ابتشارا ثم حول نظره الى خاتالى وقال :

ـ أتعرفون ما هو القرار السليم للقائد ؟ انه القرار الذى يتخذه على الفور وينفذ على الفور كذلك · هذا ما يعلمنا الميثاق · هيا الى العمل · لن أعوقك ·

ودع قائد الفرقة الجميع وأسرع على الفور بسيارته ماركة « آم » فى اتجاه الشمال الشرقى فى أثر القوات ·

واتخذ سلطان خولامبايف قرارا سريعا للغاية · فلم تكن سيارة النقل التابعة له قد عادت بعد من منطقـــة تمركز القوات الجديدة · واتفقوا على النحو التالى : يعود تشورف وابتشارا الى المحطة حيث القطار ليرتاحا الى حين · وسيقوم يعقوب بيشتويف اما بارسال سيارة القسم السياسى لتجىء بهما ، واما يبحث لهما عن سيارة أخرى · ويلحق سلطان خولامبايف بالقوات ويقدر الموقف ثم يعود · وفى الغد يلتقون من جديد مهما كانت الظروف ·

ابتشارا تواصل مسيرتها

حدث هرج ومرج غير مفهوم · وكانت ابتشارا تعتقد ان صورة العسكريين والانضباط العسكرى والدقة العسكرية غير هذه التي لمستها · فحين يصدر الأمر يستوجب التفنيذ · ولقد صدر الأمر ـ نفذ على الفور · ولكن ما هو يتضح أن القوميسير أصدر أمرا لا يستطيع أحد تنفيذه · فلم تكن السيارة فى مكانها · وأخذ يعقوب بيشتويف الذى كلف بالتنفيذ ، يجرى هنا وهناك ويصيح مهددا ولكن ما من فائدة وراء هذا الجرى ·

ويرجع كل هذا الى أن سلطان خولامبايف أصدر الأمر متسرعا ودون دراسة · ولعل عذره فى ذلك أنه عامل حزبى أكثر منه رجل حرب · فقد كان حتى وقت قريب يشغل منصب السكرتير الأول للجنة الحزب فى الناحية · وكان الجميع يعلمون ان السكرتير لا يتحمل رؤية دموع المرأة · ولكى تستعطفه المرأة التى تطلب شيئا ، كانت تذرف دمعة أو ترفع المنديل نحو عينيها متظاهرة بالبكاء · وهنا يلوح بيده ويقول بسرعة : « حسنا ، حسنا سيكون ما تطلبين ولكن استحلفك الله ألا تبكى » · وهذا ما حدث اليوم أيضا · فحين رأى سلطان الدموع فى عينى ابتشارا تنازل عن سيارة القسم السياسى لنقل الهدايا ·

تنازل عن السيارة ورحل ، غير أن السيارة لم تكن موجودة · ولم تكن هناك سوى سيارة صحيفة الفرقة والتى تبلغ حمولتها طنا ونصف طن ، ولكن كيف يمكن تفريغ ماكينة الطباعة المركبة فيها بجانب كل ما يلزم عملية الطباعة ·

عاد عضوا الوفد الى المحطة الصغيرة حيث كانت أوزيزة فى انتظارهما · واقترح خاتالى قائلا :

ـ فلنتناول الافطار أولا ·

وبدأت أوزيزة تعمل بسعادة فوضعت على غطاء الحقيبة ـ كما تضع على المـــائدة ـ المأكولات ، بل ووضعت كذلك زجاجة فودكا · والأكثر من ذلك اخرجت الأكواب البلاســـتك التى كان زوجها يأخذها معه عادة وهو ذاهب لصيد السمك · ولقد أخذت أوزيزة هذه الأكواب معها عن قصد كى تذكر زوجها بالدفء المنزلى ورائحة وقت السلم ·

ـ هل التقيتما بقائد الفرقة ؟ وماذا قال ؟ ـ رتبت أوزيزة الأكواب وانتظرت الرد ·

ـ أمرنا بالعودة أدراجنا ·

ـ أهكذا قال ؟ ـ سقط الكوب البلاستك من يد أوزيزة ·

لم تكن أوزيزة تستطيع العودة دون أن ترى زوجها · فكم ظلا ينتظران سنوات طويلة أن يرزقا بطفل حتى من الله عليهمـــا وها هى أوزيزة قد حملت أخيرا · وكانت تود أن يراها زوجها وهى حامل : هيا انتظر خليفة لك · وهذا من شأنه أن يحفظه فى القتال· وحتى اذا حدث ما لا تحمد عقباه ، فانه سيكون على يقين من أن ذريته لن تنتهى وأن ابنه سيشب ويكبر ·

صب خاتالى الفودكا ولكنه لم يشعر بالرغبة فى الشرب · ما العمل ؟ هل يجب البقاء هنـــا أم العودة ؟ حين عرض سلطان اقتراحه على قائد الفرقة لم يصف القـــائد الاقتراح بأنه اقتراح معقول ، بل على النقيض من ذلك ، كان يبدو أنه غير موافق عليه

فى قرارة نفسه والقى تبعة كل شىء على ضمير سلطان ولكنه بصفته قائدا للفرقة يعرف الوضع الحقيقى للموقف فى الجبهة أفضل من أى انسان آخر · واذا كانت قواتنا لم تتمكن من ايقاف الالمان فى الخطوط المدعمة بالتحصينات مسبقا ، فهل سيحول العائق المائى أو الخيالة المسلحة تسليحا رديئا دون تقدمهم ؟ لا ، من الأفضل ان يعود تشورف بالوفد وهذا أمر ممكن اليوم ، اما غدا ·· وماذا سيكون غدا ؟

ـ ابتشارا ، كم كيلو مترا حتى نهر الدون ؟

ـ حوالى خمسة عشر أو عشرين كيلو مترا ·

ـ تقطعها الدبابات فى ساعة واحدة ·

وخارت عزيمة أوزيزة بالمرة وفقدت الرغبة فى الأكل والشرب رغم جفاف حلقها من الجوع والعطش · والتفتت لا اراديا الى المحطة الصغيرة فوجدت أن قاطرة المناورة الصغيرة البخارية والتى كانت تنقل العربات من شريط الى آخر ـ قد اختفت وساد هدوء قابض ·

ـ انى أقترح ، ـ فكر خاتالى بعض الشىء ، واحتسى كوب الفودكا ، فتغضن وجهه · كانت ابتشارا وأوزيزة فى انتظار ما سيقوله ، ـ ان هذا ليس اقتراحا ، بل أمرا · يجب العودة · ان حولنا مخازن وذخيرة وموادا غذائية مخصصة للجبهة · واما نحن قد أوصلنا الهدايا حتى مخازن الفرقة وأبلغنا القيادة بذلك · ان ضميرنا مرتاح الآن · لقد نفذنا المهمة التى كلفتنا بها قيادة الجمهورية · واذا لم نتمكن من رؤية الاقارب والأهل هنا ، فهذا ليس ذنبنا ·

ـ أنخصم هذا من حساب الحرب ؟ ـ سألته ابتشارا وهى تكاد تبكى ·

ـ نعم ، فلنخصمه من حساب الحرب ·

« ومن ناحية أخرى ـ استطرد خاتالى فى تفكيره وتردده ـ لقد ترك سلطان خولامبايف كل مهماته هنا وينوى العودة لأخذها. من المحتمل ألا يحدث شيء مزعج حتى بعد اسبوع ؟ ولكن اذا اقترب الألمان فان الخط الحديدى سيتوقف عن العمل . وما العمل عندئذ بالنسبة لاوزيزة ؟ من الذى يمكنه مساعدتها ؟ وأية سيارة يمكن أن تأخذها ثم تتكفل بها فيما بعد ؟ »

وتذكرت ابتشارا تشوكا الذى قال لها وهو يودعها ان الحرب ليست حفلا راقصا وانه يجب عليها ألا تتأخر وتعود بسرعة . لقد كان تشوكا على حق كعادته دائما .

ـ ما العمل اذا كانت الظروف تقضى بالعودة ، فلنعد .

كانت ابتشارا أول من استجاب لأمر قائد الوفد .

ـ أما أنا فلا أعتراض لدى . اننى مثل المنديل على الرأس. اذا كانت هناك رياح يهتز ، واذا لم تكن ظل ثابتا . لقد كنت انتظر ريح الفرحة وأدعو الله ألا نصادف حزنا شديدا وكربا أليما . وعلى كل حال فاننا نعود لا الى مكان مجهول ، بل الى بيوتنا ـ واحتست أوزيزة كوب الفودكا بغية أن تزيل التقلص الذى كان فى حلقها ، الا أنها غصت وبدأت فى السعال .

وهنا انقطعت أفكار أعضـــاء الوفد ـ ذى الحظ السيء ـ الحزينة بصورة لم تكن لتخطر على بال . فقد جاءت السيارة لنقل الهدايا . وهى سيارة حمولتهـا ثلاثة أطنـــان جاءت من فوج باكسانسكى التابع للفرقة القوقازية وقد تمكن رجال القسم السياسى من اصطيادها فى مكان ما بالبرارى . وحين توقفت السيارة وفتح السائق بابها لم تبدأ ابتشارا فى الصياح ، بل أخذت تزعق من فرط الدهشة والفرحة ولو كان البيان هو الجالس فى كابينـــة السيارة لما سرت ابتشارا لرؤيته أكثر من هذا .

واندهش السائق هو الآخر ، وقفز كالبرق من السيارة وفى نفس اللحظة اندفعت ابتشارا نحوه لتتعلق فى رقبته ، وهو ما لم تكن لتفعله فى القرية بطبيعة الحال ٠

ـ أصلانوكو ! من أين جئت ؟

ـ « يا كأس نبيذ أحمر اللون ، يا ابتشارا ، يا نارية اللون ! »

ـ تذكر شاعر المدرسة زجله على الفور ، ـ يا له من لقاء ! كنت أرفض القدوم الى هنا وتبادلت الشتائم مع رجال القسم السياسى مما جعلهم يصيحون فى ٠٠ آه ، لو كنت أعلم انك هنا !

ـ ها قد التقيا ابنـــا موطن واحد ، ـ كان خاتالى مسرورا بوصول السيارة فى آخر المطاف ٠

وهل كانت ابتشارا تستطيع أن توضــــح لرئيس الوفد أن اصلانوكو ليس ابن قريتها فقط ، بل كان يحبها ويكتب لها الشعر ٠ وكم تكون سعادة كوراتسا التى لا تكل لو رأت ابنهـــا سـليما معــافى !

بدأت عملية شحن الســيارة بالهدايا ، غير أن ابتشـــارا واصلانوكو لم يشتركا فيها فلم يكن لديهما وقت لهذا ٠ ليس هــذا مزاحا فان صديقى الدراسة قد التقيا ٠ وأين ؟ فى جبهة القتال ٠ وانهالت الأسئلة ٠ وكانت ابتشارا أول من سأل ٠ وكان سؤالها عن أخيها :

ـ هل رأيته حقيقة ؟ ومتى كان ذلك ؟ أو أنك تقول ذلك عن عمد كى تهدئنى ٠

ـ اليك الدليل ، ـ وعرض اصلانوكو رجله حيث ظهر ذلك الحذاء ذو الرقبة الطويلة اللماع العتيق ذو الكعب العالى ٠ وكان من المفروض أن يرتدى هذا الحذاء أحد الراقصين فى فرق الغناء والرقص ٠ ذلك لأنه لم يكن يتناسب مع سترة سائق سيارات الجيش المتسخة ومع طاقيته العسكرية ٠ وعرفت ابتشارا على الفور حذاء

والدها الذى دسته حبيبة بالقوة لألبيان على أمل أنه سيحمى ابنها كما حمى أباه من قبل ٠

ـ هل تبادلتما الأحذية ؟

ـ كان من الممكن أن يحدث ذلك لو كان هناك ما يمكن مبادلته٠ لقد أعطانى ألبيان اياه دون مقابل بل وقال لى علاوة على ذلك ، شكرا ٠ وأقسم لك أننى لم أكن أرغب فى أخذه ٠ فما حاجتى الى مثل هذا الحذاء « الموديلى » اذا كنت لا أبارح السيارة ٠ فلا يضيرنى شيء أن أدوس على دواسة البنزين بالحـــذاء الخفيف المصنوع من الجلد غير المدبوغ ٠ أما هذا الحذاء فيصلح للفرقعة بكعبيه أمام الرئاسة ، غير أن ذلك لا يتسنى لى ٠ انظرى الى كعبيه٠ انها تصلح لحفلات الرقص ٠ لقد شاهدنى البيان مرتديا الحذاء الخفيف المصنوع من الجلد غير المدبوغ فاستدعانى جانبا وقال : « لماذا توصم فرقة الخيالة بالعار ٠ هيا سأعطيك حذاءا » ٠ وأخذنى معه وأخرج من المخلاة الحذاء وقسته فجاء مناسبا ٠ وهكذا أخذت فى ارتدائه كذكرى من ابن موطنى ٠

ـ عسكرى وترتدى حذاءا لامعا ٠ الا ينهونك ؟

ـ ربما يمنحوننى رتبة ضابط حين يرون الحذاء ٠ ـ وضحك اصلانوكو فقرقع بالحذاء كما يفعل الجنود الشجعان حين يقدمون التقارير الى قوادهم أو يقومون بتنفيذ المهام ٠ واستطرد :

ـ اية فرقة ! لا يوجد هناك الآن سوى الفتيات ٠ لا يوجـد شبان فى القرية بالمرة اذا لم نأخذ فى الاعتبار بيتو جيـــرجوف الاحدب ٠ لقد استدعى الجميع للخدمة فى الجيش ٠ ولا يزال الصبية صغارا بالنسبة للفرقة ٠

أخذت أوزيزة تنظر بين الفينة والفينة فى حسد الى ابتشارا واصلانوكو السعيدين ٠

ـ لقد ذهبت أنا وأخوك الى مخازن المدفعية ، وتســلمنا

العتاد · كانوا يريدون اعطاءنا مدافع هاون دون قذائفها · ولكن أتعرفى أى ضجة أحدثها ألبيان ؟! فرغم أنه ملازم الا أنه بدأ يصيح فى نقيب قائلا : « ان مدفع الهاون دون قذيفة ما هو الا مدخنة سماوار . فكيف ندخل المعركة ونحن ممسكين بمدخنة سماوار ؟ » وأعطونا القذائف ·

– مجموعتين ؟

– وكيف عرفت ؟

– لقد قال لنا قائد الفرقة ·

– اتريدين لقاء أخيك ؟

– هل هذا سؤال ؟ كيف لا ؟

وحدثته ابتشارا عن المهام التى كلفها بها الاهالى · وأسرعت الى عربة السكك الحديدية وأحضرت الربطة والرسالة الخاصتين باصلانوكو · فقد جاءت كوراتسا بنفسها الى ابتشارا مما جعلها تشعر بأن تلبية أى طلب لكوراتسا يدخل فى نفسها سعادة كبيرة · فقد كانت الكلمة تقدم عادة فى اجتماعات القرية الى الرجال ، غير أن رئيس الاجتماع كان يمزح فى بعض الاحيان قائلا : الكلمة الآن لأول امرأة بين الرجال وأول رجل بين النساء · ويدرك الجميع أن الحديث يدور عن الأرملة كوراتسا · وتخرج الأرملة وتتظاهر بأنها تمسح « شواربها » مثلما يفعل الرجال ثم تبدأ فى الحديث وينصت لها كل من فى الاجتماع ·

كان والد اصلانوكو عنيدا محبا للصمت · ولقد مات بصورة حمقى وبسبب عناده كذلك · وكانوا قد جاءوا الى مصنع الطوب الأحمر بمحرك جديد يدار باليد · وكان ينبغى ادارته باليد بقوة ولفترة طويلة حتى يبدأ بالدوران · وكلف والد أصلانوكو باتقان العمل على المحرك · فأخذ يديره دقيقة وأخرى ، وعشرين ، وأربعين، حتى وقع ميتا · وأكد الأطباء أن الموت نتيجة السكتة القلبية ·

وجاء اصلانوكو شبيها بأمه كوراتسا المرحة طليقة اللسان. ولم يكن لسان ابتشارا بأقل طلاقة من لسان كوراتسا . فقد أفضت بالفعل لاصلانوكو بكل ما فى نفسها : انها تدير مزرعة ألبان من الشباب واختيرت عضـــوا فى مكتب لجنــــة الكومســـمول بالناحية ، وانها تشرف على جماعة التدريب العسكرى فى المزرعة. ولم تخف عنه كذلك كيف أخفقت فى القتال بالتلاحم. وأخذ اصلانوكو يضحك وهو يسمعها .

ـ غير أن مدافع البيان الهاون الخشبية تحظى بطلب هائل حيث تتبادلها القرى للتدريب عليها .

واسترسل أصلانوكو فى الضحك بقوة أكثر .

وبينما كانا يتحدثان ويضحكان ارتفع فى سيارة النقل كوم الطرود . وحاول خاتالى نقل أفضل الهدايا فى هذه النقلة الأولى. فقد كان يعرف مكان كل شىء ولذا كان يختار صندوق الهدية ويكتب اسم من يريد أن يقدمه له . كما اختارت ابتشارا كذلك هدية من بين كوم الهدايا لاصلانوكو علاوة على ما ارسلته له أمه . انبعثت من الصندوقين ـ الصندوق الذى ارسلته الأم وصندوق الهدايا العامة ـ رائحة ضأن مقدد وفرخة محمرة وجبن . كما كان من الواضح أن الصندوق يحتوى خمرا . وأراد الشاب أن يفتح أحد الصندوقين على الفور الا أنه أرجأ هذه اللحظة السعيدة حتى يبدأ كل رجال الفوج فى اخراج محتويات صناديقهم والتباهى فيما بينهم. ستكون لحظة مهيبة مرحة . وهناك قالت ابتشارا ونبرات الحزن بادية فى كلماتها :

ـ وهكذا سيسعد المقاتلون . أما نحن فسوف نعود أدراجنا ولن نرى هذه اللحظات السعيدة. وعلى الأقل يجب أن تقول للمقاتلين كم كنا نود توزيع الهدايا والرسائل بأنفسنا ، وكم كنا نود الالتقاء بهـم .

ـ اذن لا ترحلى .

ـ وكيف ؟

ـ ستذهبين معى لنقل الهدايا الى أفواجنا · أن كل أبناء قرية ماشوك هناك · وسيتخاطفون الهدايا فى لحظة مثل الدجاج حين نلقىله بحفنة من الغلة، تختفى على الفور ولا يبقى منها حبة واحدة· وانى أعد بتوصيلك الى هنا قبل تغيير نوبة الحراسة الليلية ·

ـ وهل هذا ممكن ؟

ـ السيارة ممتازة ومحركها جديد وما علىالسائق الا أنيدوس على البنزين فتطير بدلا من أن تسير ·

تجهم خاتالى وهو يستمع الى حديث ابتشارا واصلانوكو وقال لابتشارا :

ـ أنسيت انى مسئول عنك لا أمام امك وحـــدها ، بل أمام القيادة التى ارسلتنا الى هنا · ليس لك الحق فى التصرف فى نفسك · انك تريدين رؤية أخيك وهل اوزيزة لا تريد هى الأخرى رؤية زوجها قوميسير الفوج ؟ هل أنت أفضل منها ؟

وهنا رجاه اصلانوكو قائلا :

ـ انى أعدك أن أعود بها قبل حلول المساء · فانكم لن تعودوا اليوم ! ان توزيع الهدايا يستغرق دقائق فقط · أما الطريق فانى أعرفه حيث توجهت الى هناك مرتين ·

وشعرت أوزيزة بوخز الضمير من جديد : لا يريد لابتشارا أن تذهب بسببى · فقالت لخاتالى :

ـ فلتذهب · ولتر هى زوجى القوميسير وسيعلم أننى هنـــا وعندئذ سيتحين الفرصة ويأتى الى هنا ولو لدقيقة واحدة ·

فغضب خاتالى وقال :

ـ آه ، لو كنت أعلم أى نوع من النساء أنتما لما أخذتكما معى، أو كنت قد رفضت الذهاب بالمرة · كنت أعتقد أن لديكما قليل من العقل · أنكما مثل العجل الأعمى الذى يحشر رأسه فى الجمر

معتقدا أنه كوز ذرة · نحن الآن فى حرب ولقد بدأت وحدات فرقتنا معاركها بالفعل ·

استسلم اصلانوكو للأمر الواقع وصمت عن الرجاء مرة أخرى · ورفض احتساء الخمر مع الأكل · ولم يلح عليه أحد · واعتقد خاتالى أنه قد أحبط هذا العصيان البسيط · وأصبحت السيارة معدة للرحيل وقد ربط المقاتلون حمولتها بالحبال كيلا يسقط أحد الصناديق فى الطريق ·

وفجأة أعلنت ابتشارا بحزم :

ـ سوف أذهب رغم ذلك ·

ـ انى أرفع عن نفسى كل مسئولية واوزيزة شاهدة على ذلك· وعليك أن تأخذى بعين الاعتبار اننى سأبلغ أمك بكل شيء · كما سأبلغ بعض الناس الأخرين كذلك · وأقصد التنظيم الذى أرسلك·

ـ انى سيدة نفسى · ولا تنس أن هناك فتيات بالفوج · واذا حدث شيء فلن أجلس عالة على أحد · انى لست صغيرة · ألديكم فتيات يا أصلانوكو ؟

وظهرت الحيرة على وجه اصلانوكو · انه عسكرى عادى ، أما تشورف فبمثابة قائد ولا يجب الدخول معه فى مهاترات · ومن ناحية أخرى ما الذى يمنعه من القول أن الفوج يضم بالفعل فتيات يشتغلن بالاتصالات والتمريض وان كان عددهن قليلا · غير أنه اختار طريقا ثالثة حين قال :

ـ طالما لا ينبغى الذهاب ، فيجب الطاعة · أتدرون كيف تسير الأمور لدينا ؟ حين يصدر القائد الأمر ننفذ بلا جدال · وحين قلت أن ابتشارا ستكون هنا قبل حلول المساء فان هذه كلمة صادرة من مقاتل كذلك · ولكنه أمر آخر أن يثق الفرد فى هذه الكلمة أو لا يثق·

ـ ما معنى الثقة هنا ؟ ان هذا محض ثرثرة ·

ـ ثرثرة ! أتسمحوا لى بالرحيل ؟

بدأ خاتالى يتردد . فقد وعد خولامبايف بالعودة من منطقة تمركز القوات الجديدة غدا وطلب الانتظار هنا . اذن سيتحتم البقاء هنا يوما آخر على كل حال ، وربما يومين . أليس من الأفضل السماح لابتشارا بالذهاب ما دام السائق يقسم بأنه سيعود بها الى هنا قبل حلول المساء ؟ بل لن يضير شيئا لو عادا قبيل حلول الصباح .

ـ اسمع أيها الرفيق العريف . انك رجل عسكرى ويستحيل عليك اطلاق الكلمات أدراج الرياح . أتقسم لى بأنك ستعيد ابتشارا الى هنا قبيل المساء أو حتى فى الليل ؟

ـ أقسم بذلك لو ..

ـ لا ، لا أعرف « لو » . ينبغى أن تكون هنا فى هذا المكان قبل الصباح . مفهوم ؟

ـ مفهوم .

لم تبق ابتشارا لسماع حديث الرجلين حتى آخره اذ اندفعت كالسهم نحو كابينة سيارة النقل .

وبدأ جبل الصناديق يهتز على سيارة النقل التى غرقت معه وسط بحر من الغبار .

أغنية اصلانوكو

لم يستطع اصلانوكو أن يفيق الى رشده من شدة الفرحة . فمنذ أن رأى ابتشارا لم يسكت لحظة واحدة : فقد أخذ يتحدث ويحدث مطعما الحديث بالنكات والأغانى وكأنه يخشى اذ صمت تختفى ابتشارا على الفور . اذا حدث ورآها فى منامه فانه يظل

يغنى طوال اليوم من الفرحة ، ولكن ها هى الآن بلحمها ودمها وجمالها جالسة بجانبه فى كابينة السيارة ، والأكثر من ذلك أنه لا يحتاج أن يمد يده اليها ، بل يكفيه أن يحرك كوعه فيلمسها عن غير قصد · كانت ابتشارا تجلس فرحة منفعلة مثله تماما تسبح بناظريها عبر البرارى مترامية الأطراف ·

كان أصلانوكو يخاف لمس ابتشارا وكأن بها تيارا كهربائيا ، كان يلمس طرف فستانها فحسب حين يسقط يده بجانب مقعده · وكان هذا كافيا له · وظل أصلانوكو يتغنى بصوت عال بكلماته القائلة :

يا كأس نبيذ
أحمر اللون ،
يا ابتشاراً
يا نارية اللون

غير أنه كان يردد فى نفسه مكملا الأغنية :

اذا التقيت باصلانوكو
لن تفلتى من أحضانه

ـ هل كنت تحلمين بأن تجدى نفسك فى سيارة اصلانوكو ؟

ضحكت ابتشارا · فقد كانت سعيدة · فلم يكن هناك ـ وهى فى حالتها هذه ـ ما يمكن أن يزعجها ، بل ولم تكن هناك جبهة قتال على الاطلاق ، أما هذا اليوم القائظ من أيام تموز فلم يكن ينبىء سوى بسعادة كبيرة غير منتظرة ·

كانت السماء أمام السيارة صافية وكأن السيول قد غسلتها تماما الا أن الأفق البعيد كان يعكس فى أماكن منه شيئا غريبا أصفر

اللون يشبه آثار انسياب المياه ، أما محطة السكك الحديدية ، ولم تكن ابتشـــارا تعلم أنها محطــة ، فقـــد كانت مغطاة بدخـــان أسود منخفض ٠

ـ وهل كانت لدى فرصة لأحلم بهذا ؟! لو انتظرنا خمس دقائق أخرى لكان خاتالى قد عاد بنا الى القرية ٠ فقد أخافوه الى حد الرعب حين قالوا بأن الألمان يصولون ويجولون خلف نهـر الدون ٠ أهذا حقيقة ؟

لم يكن اصلانوكو يريد الحديث عن الألمان ٠ فليذهبوا الى الجحيم ٠ من الأفضل الحديث عن الأم والمدرسة وأيامها والقرية ٠ فمتى تحين له مثل هذه الفرصة ؟ بل وبدأ من فرط سعادته السير بسرعة أبطأ كى يطيل من عمر هذه اللحظات ٠ فقد عاد يحب ابتشارا من جديد كما فى سنوات الصبا ٠

بدأ الموقف يتغير بالتدريج ، وتكاثر مرور سيارات النقل الثقيلة على الطريق ٠ وكانت بعض السيارات تسبق سيارة اصـــلانوكو وابتشارا ، الا أنهما كانا يلحقان بها وقد امتلأت السماء بالغبار الخانق ٠ وأرادت ابتشارا اغلاق الزجاج الجانبى ، غير أنها لم تجد زجاجا ، بل وجدت قطعة من خشب الابلكاش ترتج دون أن ترتفع الى أعلى ٠

ـ لا أحد يعلم أين الألمان الآن ٠ انهم فى كل مكان ٠ بل وفى السماء أيضا ٠ يقذفون القنابل بحيث لا يدرى المرء أين يختبىء ٠ فليذهبوا الى الجحيم ٠ ولتــأكلهم الكلاب ٠ قولى ٠ متى رأيت والدتى ؟

ـ لقد أحضرت طرد الهدية بنفسها ٠ انها تعيش فى المساكن

التابعة للمصنع وصحتها طيبة · وسوف أخبرها بأن كل شيء لديك على ما يرام وستسعد هي بذلك · سائق سيارة ! هذا أفضل من الجلوس في الخنادق أو اطلاق النار من مدفع الهاون ·

– في الخنادق أكثر خطورة · هذا صحيح ! لقد كنت أدرك ما أفعله · أتتذكرين كيف حاولوا اثنائي عن عزمي قائلين : لا تلتحق بدورة تدريب السائقين · ولا تترك المدرسة · لكني لم اطع كلامهم · فقد كنت اذهب الى المدرسة وأهرع بعدها جريا الى دورة تدريب السائقين ، تماما مثل الصبية الذين كانوا يحملون في حقائبهم القرآن وكتب المدرسة في وقت واحد ، حيث يذهبون الى المدرسة العامة في الصباح ، والى المدرسة الدينية في المساء · وهكذا جمعت بين العملين · واني لأذكر الذي حدث حين جاءوا بك الى الصف الأول بالمدرسة ··

– آه ·· لا أزال أشعر بالخجل حتى الآن ·

– ولماذا ؟ هل تعتقدين أن تصرفك لم يكن سليما ؟ اذا كنت قد وعدت فيجب تنفيذ الوعد ·

وتذكرت ابتشارا هذا الحادث المضحك · فقد جاءت المعلمة الشابة الى حبيبة كي تسجل ابتشارا في الصف الأول بالمدرسة · وكانت تحمل في يدها حقيبة حمراء بسلسلة مذهبة · ولم تكن ابتشارا تريد الذهاب الى المدرسة · وحارت المرأتان في اقناعها بالذهاب · وفجأة لاحظت المعلمة أن الفتاة لا تحيد بناظريها عن الحقيبة الحمراء فقالت المعلمة لها :

– حسنا يا فتاتي · اذا جئت الى المدرسة ، سأهديك هذه الحقيبة ·

أجلسوا ابتشارا خلف الدرج الأول · وبدأت المعلمة شرح

الدرس . وفجأة نهضت ابتشارا واقتربت من المكتب وأخذت الحقيبة واتجهت فى هدوء ناحية الباب .

ـ أين أنت ذاهبة يا فتاة ؟ لم ينته الدرس بعد .

ـ لقد جئت لآخذ الحقيبة لا لأتعلم .

وبعد هذه الواقعــــة ظل المعلمون يرددون طويلا للتلميذات المقصرات واللائى لا يحفظن الدروس : « هل جئت لأخذ الحقيبة أو للتعلم » .

ـ أما أنا ـ اذا تحرينا الحقيقة ـ فنادم على تركى المدرسة .

ـ لماذا ؟

من يدرى ربما ما كنت سائقا لسيارة مثلما أنا الآن ، بل كنت قد أصبحت قائدا لسرية خيالة . انى أنظر الى قادتنا فأجد أنهــم فى نفس عمرى . بل هناك من هو أصغر منى . ان أخاك فى مثل عمرى وها هو قائد يقود فصيلة .

ـ آه كم أود رؤيته بسرعة !

ـ لا تقلقى سوف ترينه . وكيف حال تشوكا ؟ وكيف يكتب اسمه موتايف أو ديدانوف ؟

ـ وهل نصل الى ما وصل اليه تشوكا ؟! انه من ذوى المناصب الكبرى . فانه رئيس ادارة المراعى وقائد فرقة الفتيات والفتية .

ـ هذا هو الذى حالفه الحظ . يبدو أن مهاراته تفوق الوصف . هل هو ـ على ما أعتقد ـ سكرتير لجنة الكومسمول بالناحية ؟ .

ـ نعم انه سكرتيرها .

ـ سبحان الوهاب ! منصبان . يا له من شخص هام لا يمــكن أن يحل انسان محله . ان الحظ يحالفه من أمامه ومن خلفه .

ـ وماذا تعنى بذلك ؟

ابتسم اصلانوكو ونظر الى ابتشارا . غير أن السيارة وقعت

فى أحد المطبات فقفزت بالاثنين · واصطدمت رأس ابتشارا بسقف الكابينة فأمسكت المكان الذى أصيب فيه بيديها ·

ـ آه يا طريق الجبهة ـ قال اصلانوكو من بين أسنانه وهو يركز بنبرة غاضبة على كلمة « الجبهة » وكأنها كلمة سباب غير لائقة ·

أصلحت ابتشارا من شعرها وسألته :

ـ فيم يحالف الحظ موتايف كذلك ؟

ـ ألا تعرفين ؟ انك خطيبته · ولكن لا بأس ستنتهى الحرب وعندئذ ··

ـ وماذا سيكون عندئذ ؟

ـ سنعيد النظر ·

ـ فيم سنعيد النظر ؟

ـ سنعيد النظر فى العرسان · فبعضهم ستنخفض أسهمهم وبعضهم سترتفع اسهمهم وسيفوز رجال الجبهة ·

ـ وهل أنت من رجال الجبهة ؟ ما هذا الهدوء المخيم هنا ؟ أقسم بالكومسمول بأننى لا أرى هنا ما يبعث على الخوف · لقد قال خاتالى : نحن وسط الجيش العامل ، ولكننا نسير الآن كأننا فى مزرعتنا الجماعية متوجهين لنزع الاعشاب الضارة من زراعات الذرة · أنظر الى الحقول · أعتقد أن محصول القمح سيكون وفيرا بدرجة منقطعة النظير ·

بدأ الماء يغلى فى الرادياتير واندفع البخار من تحت السدادة وأخذ رذاذه يتناثر على الزجاج الأمامى من السيارة فاختلط بالغبار مما جعل الرؤية غير ممكنة · أوقف أصلانوكو السيارة وفك سدادة الرادياتير فكاد الماء المغلى المندفع كالنافورة أن يحرقه · وأخذ اصلانوكو يمسح طويلا زجاج السيارة الأمامى بخرقة مبللة واهتم بصفة خاصة بالجزء الذى تجلس خلفه آبتشارا ·

وهنا وصل الاسماع صوت قبرة تطير فى السماء ٠

وتعجبت ابتشارا وتذكرت الحكاية الكاباردينية التى تتحدث عن القبرة ٠ تطير القبرة مرفرفة من بين الحشائش وترتفع فى السماء أعلى فأعلى تغنى فى الوقت نفسه للحشائش التى طارت من بينها : « انى أطير فى السماء عاليا فى طلب الثيران التى وعد بها الله ٠ سأسوق هذه الثيران الى الأرض وأحرث الحقول والمروج كى تصبح وثيرة وتخضر الحشائش عليها طول العام » ٠

وهكذا أخذت القبرة تطير الى أعلى ٠ وفجأة تهوى على الأرض كما يهوى الحجر ٠ ما الذى حدث ؟ يتضح أنها نسيت المقود ٠ من غير الممكن سوق الثيران بدون مقود ٠ ويستريح الطائر فى الحشائش ثم يعاود الطيران من جديد ويردد نفس الأغنية من جديد ٠ ويتكرر ما حدث كل مرة ٠

وفكرت ابتشارا فى نفسها قائلة : « ألا ينبغى على العودة الى حشائشى كما هو الحال لدى القبرة ؟ ٠ فان تشوكا وماما لن يريا ثيرانى » ٠

ـ كل شىء على ما يرام ! ـ زود اصلانوكو الرادياتير بالماء وأغلقه بالسدادة وعاد من جديد الى عجلة القيادة وهو يغنى :

« يا كأس نبيذ أحمر اللون » ٠

وفى هذه المرة أكملت ابتشارا بنفسها وقد بدلت الكلمات مازحة : « اذا التقيت بأصلانوكو فلن تعودى الى المنزل » ٠

وبعد ذلك انتقلت على الفور الى الأمور الجدية التى تقلق بالها بخطورتها المحدقة ٠

ـ أنظر كيف يخلو المكان من الناس ٠ هذه قرية ورغم ذلك لا يوجد بها « صريخ ابن يومين » كأن الجميع هلكوا ٠ الشبابيك مغلقة ولا توجد حتى الدواجن ٠

لم يرد عليها اصلانوكو بشيء · ومرت السيارة بمحطة سكك حديدية مهجورة ·· وبعدها أخذت الطريق بالاتساع · وأصبحت السيارات الآن بلا نهاية ، تسير مسرعة وهى تحمل السلاح على المقطورات فتنثنى ياياتها تحت وطأة الأثقـــال · وكان الجنـــود يسيرون فى ارتال على حافتى الطريق وأخذ رجال الجيش الأحمر يصيحون :

ـ يا بريد هات طردا ! ـ معتقدين أنها سيارة بريد ·

كان مقاتلو الجيش الأحمر يسيرون وهم يحملون أطقم ذخيرتهم وأسلحتهم وقد اتسخت ستراتهم من الغبار وعلى ظهورهم بدت بقع ملح العرق وكأنها برد لم يذب · كانوا يحملون المدافع الرشاشة ومدافع الهاون وقد فكت أجـــزاؤها · وبرزت الى أعلى من بين أسلحتهم البنادق المضادة للدبابات · وكانت صناديق شرائط ذخيرة المدافع الرشاشة تشد ايديهم الى أسفل بثقلها ، كما حزمت جنبات الجنود الأقنعة الواقية من الغازات والقنابل اليدوية ·

وشعرت ابتشارا بالشفقة عليهم · ولو كان الأمر بيدها لوزعت عليهم كل طرود الهدايا ليأكلوا ولينعموا بالحيوية وبالتلذذ بالطعام·

تجهم الأفق أمام السيارة فقالت ابتشارا :
ـ ربما تمطر السماء أو تبدأ عاصفة رعدية ·
وتحرك اصلانوكو فى مقعده بقلق. ورد عليها :
ـ لا ليس مطرا · انهم الالمان ·

لم تفهم ابتشارا ونظرت الى السائق الذى يخرج رأسه بكثرة من الكابينة وينظر الى السماء · وبطبيعة الحال فان الســائقين العقلاء يركبون الركاب فى بدن السيارة لا فى الكابينة كى يراقبوا الطائرات المعادية · ولكن هل كان اصلانوكو يستطيع ارسال ابتشارا

لتجلس على هذا الكوم من الهدايا اذا كان لمسه اياها يلهبه كما تفعل شرارة الاشعال فى المحرك تماما ٠

– وماذا لو أنهم الألمان ؟

– يقصفون بالقنابل ٠ من المحتمل أنهم اشعلوا النار فى مستودع البترول ٠ لم تعد الطريق أمامنا طريقا ، بل ستار من الدخان ٠

وفجأة اصطدمت ابتشارا بجبهتها بالزجاج الأمامى للسيارة ولم تسمع أصوات الانفجارات التى توالى انفجارها من حولها الا بعد أن أفاقت من هذه الصدمة ٠ وكادت ابتشارا تلقى بنفسها ناحية أصلانوكو الا أنه كان قد أسرع وقفز من كابينة السيارة ٠ واختلط كل شىء بالغبار والدخان ٠ وأخذ اصلانوكو وهو ممسك بباب كابينة السيارة ينصت الى الازيز ثم قال لابتشارا :

– طائرة استطلاع « أطار » (*) وسرعان ما ستجىء الطائرات القتالية ٠

وفى الواقع رأت ابتشارا ، حين انقشع الغبار ، طائرة وحيدة تشبه هيكل الباب ٠ واستطرد اصلانوكو قائلا :

– يجب الاسراع ٠ فانها توجه الطائرات الأخرى للهدف ٠

– ما السبب فى كل هذا الغبار من حولنا ؟

– انها الخيالة تسير فى جبهة عريضة ٠ فان العتاد وقوافل العربات هما فقط اللذان يتحركان على الطريق ، أما رجال الخيالة فيتحركون عبر الحقول والحدائق فى طريق مستقيم ودون حماية من الطائرات ٠ غير أن كل شىء يرى جيدا من الجو ٠ ولقد ألقت طائرة الاستطلاع التى اكتشفت الهدف قنبلة الآن ولا شك أنها تستدعى الآن أسراب الطائرات ٠ عليك أن تتوقعى قصفا جويا ٠

(*) كلمة تعارف عليها الجنود لتسمية احدى أنواع الطائرات الالمانية ٠ المترجم ٠

أخذ اصلانوكو يطل من الكابينة بصورة متزايدة رغم أن كل شيء من حوله ـ السماء والأرض ـ كان غارقا فى ستارة من الغبار رمادى اللون • كان من السهل أن يصطدم بعربة أو بمدفع تجره الجياد • وزال المرح عن اصلانوكو تماما • فقد كان عليه أن يفى بوعده ويوصل ابتشارا الى محطة السكك الحديدية قبل حلول الليل •

تحول النشاط الذى كانت الطريق تشهده الى فوضى يسودها القلق • وأخذ الفرسان يضربون بالسياط خيولهم المبتلة بالرغاء عرقا • وبين الفينة والفينة كان النظر يقع على عربات مقلوبة • وكان رجال الخيالة يسيرون عبر حقول القمح مبتعدين عن الطريق الرئيسية • وأخيرا أدركت ابتشارا أنها وسط الجيش العامل • وفى الواقع كانت القوات فى تشكيلاتها القتالية • وماذا يهم لو أنه لا توجد معركة بعد ، مثل المعارك التى تعودت ابتشارا على رؤيتها فى السينما ؟ غير أنها شاهدت سيارات الاسعاف بل سيارات نقل عادية تحمل الجرحى وهى قادمة من الناحية المقابلة • اذن فهناك معركة تدور بالقرب من هنا • وكانت قطعان كبيرة من الماشية وارتال عربات تحمل أمتعة منزلية تقطع الطريق فى بعض الاحيان • وعلى العربات كان يجلس أطفال ، وبجانبها تسير نساء متعبات وقد أمسكن بالعربات بأيديهن • ولم تكن الثيران بأقل تعبا من الناس حيث كان لعابها يسيل فى خيوط بيضاء على الطريق الترابية وهى تجر العربات •

سادت فى كل مكان رائحة الحرب •

فى هذه الأثناء خرجت السيارة الى الطريق العامة • وسأل اصلانوكو بعض الفرسان حول ما اذا كانوا من أفراد فوج باكسانسكى أم لا • واتضح أن رجال فوج باكسانسكى يتحركون على الناحية اليمنى من هنا • وتحتم على أصلانوكو أن يستدير

بسيارته الى طريق أخرى ـ طريق زراعية أو ربما يمكن وصفها بأنها طريق ميدان · يا حبذا لو قصد الفوج الآن للراحة · فى هذه الحالة يمكن لاصلانوكو اللحاق بفوجه ·

لقـــد آن الأوان للتفكير فى الراحـــة فالشمس الآن وسط السـماء ·

لم يخطىء اصلانوكو · فقد جاءت طائرة الاستطلاع « اطار » بالطائرات القتالية · وكانت ابتشارا أول من لاحظ هذا حيث كانت تطل من كابينة السيارة بين لحظة وأخرى · فقد كان الجو خانقا حيث لم تستطع التعود على رائحة غاز العادم المتسربة الى الكابينة ولذا حاولت بصورة متزايدة تعريض وجهها للريح المقابلة المندفعة بمرونة · وكان كل فكرها قد تركز علىٰ لقائها المرتقب مع أخيها · وكانت تحتفظ بطرد الهدية الذى أعطتها اياه ايرينا على رجليها كى تقدمه له على الفور · أما رسالة دانوتشكا فقد كانت لديها فى الحقيبة ·

آه لو يتم اللقاء بأقصى سرعة ممكنة ·

غير أن شيئا ما حدث فى الطريق · فقد استدارت السيارات والعربات بسرعة لتخرج من الطريق ، وتفرق الناس جريا فى مختلف الجهات ، وأسرع الفرسان بجيادهم بين عيدان القمح الطويلة ·

ـ ما الذى حدث ؟

ـ طائرة الاستطلاع الملعونة · ـ أطل اصلانوكو برأســه من السيارة وشاهد كيف تستدير القاذفات الالمانية بهدف الهجوم · فرمل السيارة بقوة فاهتزت صناديق الهدايا الى الأمام ولكنهـا لم تتأثر ·

ضمت ابتشارا حقيبتها الى صدرها وكأنها تخشى أن يختطفها أحد ما منها · ونظر اصلانوكو فى كل اتجاه فلم يجـــد مكانا يمكن الاختباء فيه · ان السيارة بما فيها من صناديق تعتبر هدفا

رائعا . فاستدار بسرعة خارجا من الطريق وما أن تمكن من الوصول الى مزارع القمح حتى بدأت الانفجارات الأولى دويها . وأمسك ابتشارا من يدها وجريا معا فى عمق الحقل . وانبعثت رائحة البارود والغبار والحشائش المحترقة .

سقطت ابتشارا واصلانوكو على الأرض . وكان أكثر ما يثير دهشة ابتشارا أن تغريد القبرة كان يسمع كما كان من قبل فى فترة ما بين الانفجارات .

كانت ابتشارا تود النهوض قليلا لترى هل السيارة سليمة أم لا . فرفعت رأسها ، غير أن أصلانوكو ضغط عليها بشدة كى تسندها على الأرض . وتوالت الانفجارات من جديد . وبدأت الشظايا تنخر فى السنابل وكتل التراب تتطاير على ابتشارا وتختلط بشعرها . وهمست ابتشارا بما كانت تردده أمها :

ـ لا اله الا الله !

فقال لها اصلانوكو مازحا :

ـ وتقولين أنك عضوة بالكومسمول .

لم تتجاسر ابتشارا على رفع رأسها ، كما أنها لم تستطع الانبطاح دون عمل فى الوقت الذى يكادون يقضون فيه على طرود الهدايا التى تم جمعها من البيوت والمؤسسات والمزارع الجماعية والهيئات . وهذا أمر لا يمكن السماح بحدوثه . وما الذى يمكن أن يقوله أبناء قريتها الذين كلفوها توصيل هذه الشحنة الثمينة الى المقاتلين . فانتهزت ابتشارا فترة انقطاع الانفجارات وقفزت من مرقدها واندفعت نحو السيارة .

لحق بها اصلانوكو على الفور وأمسكها من كتفيها وأسقطها على الأرض بقوة وهو يصيح فيها غاضبا :

ـ هل سئمت الحياة ؟

وزأرت طائرة تطير على ارتفاع منخفض فوقهما مباشرة• ورأت ابتشارا لأول مرة كيف كان ينفصل عن الطائرة شىء ما أشبه بالقنانى السوداء • انها القنابل !

ودوت على الفور الانفجارات • وأدركت أن اصلانوكو كان على حق ؛ يجب الانبطاح وانتظار نهاية القصف •

*

ارتفعت سحب الدخان فوق حقل القمح •

وانتقل نشاط الطائرات ليصبح بالقرب من عزبة • من الواضح انها اكتشفت هدفا أكثر أهمية • وغطت الطريق ستارة معتمة من الغبار غرق فيها كل ما كان هنا • وهذا وحده هو الذى أنقذ السيارة بطرودها •

هدأ كل شىء واتجهت ابتشارا واصلانوكو نحو السيارة وقد أحاط بهما ضباب ودخان يخز الأعين لم يبد منه قرص الشمس الا بصعوبة بالغة • كانت ابتشارا ترتعش وتريد قول شىء ما ، الا أن شفتيها لم تنفرجا ولسانها لم يقو على الحركة • وفجأة بدأت تضحك • ونظر اليها اصلانوكو وهو مذعور •

ـ أهذا ما تسمونه قصفا جويا ؟ ـ وازداد ضحك ابتشارا هيستيرية • ـ « بم ، بم ، بم » فرقعة كثيرة دون فائدة •

ـ انتظرى وسترى الفائدة ـ أخذ اصلانوكو ينفض الغبار •

ـ ها انظرى ؟

تبدد الغبـــار ورأت ابتشارا على الطريق سيارة تحترق • وأخذ المقاتلون وهم فى حالة يائسة يحاولون اطفاء الحـريق فألقى أحدهم معطف المطر على النار وجمع آخر عيدان القمح الاخضر وبدأ يضرب بها ألسنة اللهب ، وبدأ ثالث فى القاء التراب اليابس على النار •

وصل الى الأسماع صوت صهيل الجياد المذعورة من ناحية

العزبة . وغطى البيوت دخان أزرق ونشب الحريق فى أسطح بيوت القوزاق المصنوعة من القش . وأسفت ابتشارا لأنها تلفظت بكلمة « بلا فائدة » ، وان كانت هذه الكلمة تعبيرا عن فرحتها بسلامة السيارة وطرودها من القصف .

لم يستطع المقاتلون اخماد النار فى السيارة بمختلف السبل، وانتقلت ألسنتها الى خزان الوقود وسرعان ما دوى انفجار وغاصت السيارة فى شعلة حمراء مثيرة الدخان .

وكان هناك جواد يرقد غارقا فى دمائه يرفس بقوائمه الفراغ . ورأت ابتشارا كيف صوب أحد المقاتلين بندقيته نحو جبين الجواد . وهنا أغمضت عينيها بقوة قائلة : هلم نبتعد من هنا بسرعة .

ظهرت عزبة أمامهما على اليمين من الطريق . ألا يوجد هناك الفوج الذى يبحث عنه اصلانوكو وابتشارا ؟ وطلب جنديان من اصلانوكو أن يوصلهما بالسيارة . واتضح أنهما من فوج باكسانسكى كذلك . وسمح لهما اصلانوكو بالصعود فوق جبل الصناديق وطالبهما بمراقبة الجو .

اتضح أن خاتالى كان على حق . فمن غير الممكن معرفة ما اذا كان الماء ساخنا أو باردا الا بلمسه . فقد كان الصباح رائعا وهادئا لا تسمع فيه سوى تغريد القبرات ولا ترى فيه سوى سنابل القمح . أما الآن فقنابل ونيران ودخان ودماء ورعب . هل لا يزال خاتالى هناك ؟ يا ترى هل أصابتهم القنابل هم ومحطة السكك الحديدية الصغيرة؟ ان أوزيزة لن تتحمل القصف الجوى وستبدأ الوضع على الفور .

بدأ المقاتلان يدقان بقبضات ايديهما على سطح الكابينة . وأطل اصلانوكو وصاح متسائلا :

ـ ماذا هناك ؟

وبدلا من الاجابة قفز المقاتلان من السيارة واندفعا فى اتجاهين مختلفين . واقترب أزيز طائرات . وكانت هذه موجة جديدة من القاذفات .

أسرع اصلانوكو بالسيارة وانعطف بها نحو زراعات عباد الشمس العالية . وأمسك اصلانوكو بيد ابتشارا وابتعد بسرعة عن السيارة . لم يجدا فى طريقهما مكانا يمكن الاختباء به . فلم يكن هناك حتى مصرف رى واحد أو حفرة يتخذا منها ملجأ لهما . وأصبحت السيارة من بعيد تشبه بيت الحارس وسط الحقل . ربما يراها الطيارون على هذا النحو كذلك فلا يضيعون القنابل سدى بقصف هذا البيت الذى لا فائدة منه ؟ ورغم ذلك يجب الابتعاد عن السيارة بسرعة والابتعاد أكثر بقدر الامكان .

كانت القاذفات تطير على ارتفاع منخفض . فلم يكن هناك ما يتهددها لا من الأرض أو الجو . ومن العزبة توالت طلقات مدفع وحيد مضاد للطائرات مستهدفا هياكلها . الا أن قذائفه كانت تنفجر متأخرة اما عاليا جدا فى السماء واما على ارتفاع منخفض جدا . وأخذت الطائرات تقوم بلفات سريعة فوق الحقل وتختار أهدافها . وكانت دفعات الرشاشات تنهمر كالشرر تارة من هذه الطائرة ، وتارة من الأخرى ، وتارة من الطائرات جميعا . وبالقرب تتوالى انفجارات القنابل .

وكان اصلانوكو قد اكتسب خبرة فى المناورة أثناء القصف الجوى . وهذه المهارات لم تذكر فى أى من المواثيق العسكرية انما تعتمد على الاحساس وخفة الحركة وحدهما . فحين تجد

أن الطائرة تهاجمك وترى فتحة القنابل وهى تنفتح وتنهال منها القنابل واحدة تلو أخرى . مهما بدا ذلك بطيئا ، يجب على الفور حساب ارتفاع وسرعة الطائرة وزاوية سقوط القنابل وعلى هذا ينبغى اما الانبطاح على الأرض واما الجرى الى الامام واما الاندفاع جانبا فى بعض الأحيان اذا كانت القنابل تفترش الأرض الواحدة تلو الأخرى . وكان اصلانوكو يسمى هذا « رقصة القنابل » .

لم تكن ابتشارا بطبيعة الحال ، تعرف هذه المهارات بعد . فقد كان كل ما تعرفه هو الانبطاح دون حركة على الأرض فى أى من حالات القصف الجوى . وأخذ اصلانوكو يتابع باهتمام اتجاه سقوط القنابل ويحدد بدقة القنبلة التى تهدد حياتهما ثم يمسك بابتشارا من يدها ويجذبها من مكانها ويجرى بها منتحيا جانبا بعيدا عن القنبلة .

ولم تكن القاذفات فى عجلة من أمرها لانهاء القصف الجوى. وشاهدت ابتشارا كيف بدأت احدى الطائرات الانقضاض على سيارتهما المحملة بطرود الهدايا الا أنها لم تلق قنابلها عليها وكأنها غيرت رأيها فى آخر لحظة . « ربما نفدت قنابلها أو اعتقد، حقيقة ، أن السيارة ما هى الا بيت صغير مهجور » ـ هذا ما ورد على فكر ابتشارا وتمنت أن يكون ذلك . ولم تكن لتستطيع أن تعرف أن الطيار الالمانى قرر توفير القنابل بعدم قصفه السيارة واستخدامها فى اصطياد هدف حى . وارتفعت الطائرة الى أعلى وجمدت هناك بعض الوقت ثم جنحت هابطة من جديد .

ـ فلنهرب ! ـ صاح اصلانوكو صيحة تصم الآذان وهب من مكانه . أما ابتشارا فتسمرت فى مكانها وكأنها زرعت فى الارض وشعرت بثقل غير مفهوم فى يديها ورجليها ولم تقو على القفز من

مكانها بل على الحركة بصفة عامة · وبعد لحظة دوى انفجار هائل مالت له الأرض فبدت وكأنها تقف على جنبها · وأحست ابتشارا بأنها تهوى من جبل مرتفع شديد الانحدار نحو هاوية من نار · امتلأ فمها بالتراب · وفى هذه اللحظة اعتزمت ابتشارا قائلة فى نفسها : « فليقتلونى ويمزقونى أربا ولكنى لن أتحرك من هـــذا المكان · لن أجرى تحت القنابل · سوف أرقد هنا طويلا والى الأبد · ولكن أين الآن اصلانوكو ؟ سيعود الآن من جـديد يمسكنى من يدى ويجرنى وراءه » ·

لم يظهر اصلانوكو · وبدا وكأن ابتشارا أفاقت من نومها ، فرفعت رأسها قليلا ثم نهضت نصف واقفة ثم جلست بعد ذلك · ساد المكان الهدوء · ولم يكن هناك أثر للطائرات · وكانت الارض من حولها مليئة بالحفر وينبعث منها الدخان ·

وبدأت القوات تتحرك من جديد على الطريق · وكانت السيارة لا تزال فى مكانها بين مزارع عباد الشمس · وأرادت ابتشارا الوقوف ، ولكن رجليها خذلتاها فسقطت على الأرض من جديد · وبدأت تنادى على اصلانوكو ·

ـ اصلانوكو ! أين أنت ؟ اصلانوكو ، رد على ·

وبدأت ابتشارا تزحف على أربع نحو السيارة وفجأة رأت أمامها على الأرض مباشرة الفردة اليمنى من الحذاء اللماع ذى الرقبة · وكانت تبرز منها قطعة لحــم حمراء ملطخة بالدماء وتتدلى منها على عصب أبيض ·· الركبة · لم يكن هناك أحد بالقرب ·

ـ أصلانوكو ! ـ سقطت ابتشارا على الأرض · ولم يكن هناك من يمكن أن تناديه ·

وبدأت ابتشارا ترتحف وتبكى منتحبة ، أما القبرة فارتفعت

من جديد فى السماء فوق حقول عباد الشمس . وبدأت تغنى اغنيتها المعروفة حول عودتها الى الأرض بالثيران الكبيرة ·

خرج من حقل عباد الشمس المقاتلان اللذان كانا يستقلان السيارة وجريا قبيل القصف الجوى · وأخذ الجميع يبحثون معا هل بقى شىء من اصلانوكو غير رجله وفردة الحذاء فلم يجدوا شيئا ·

وبدت ابتشارا كمن فقد عقله · لفت الرجل المبتورة بالحذاء ثم ربطتها فى ربطة · ولم تكن تدرى ما الذى يجب أن تفعله الآن: هل تبحث عن الفوج أم تعود الى خاتالى أم تجلس على الأرض وتبقى هنا دون حراك ·

اتضح أن أحد المقاتلين كان سائقا لاحدى السيارات التى تعرضت للقصف قبل ذلك · وريثما انشغل بالمحرك تمكن المقاتل الآخر الذى كان يرتدى كاب فرسان من الاستفسار من أحد الخيالة المارين ومعرفة أن فى العزبة تكمن مؤخرة أحد الأفواج ·

النقيب لوكوتوش

نصح المقاتلان ابتشارا بالتوجه الى العزبة · وما الذى تبقى أمامها سوى التوجه حيث يوصلانها · لم يترك الصمم ابتشارا واستمر الطنين الذى يشبه رنين الاجراس ، يتردد فى رأسها ، وبدأت تشعر بالغثيان · استقرت ابتشارا فى المقعد الأمامى بالكابينة ولكنها أصبحت تمسك على رجليها الآن حملا رهيبا ـ رجل اصلانوكو الملفوفة فى منديلها ـ بدلا من هدية الأم الثمينة لأخيها البيان · وكان كوم الصناديق يهتز ببطء فوق الكابينة · ووقف المقاتل الآخر على رفرف السيارة وأخذ يسأل كل من يصادفه: « أين الرئاسة ؟ » وهكذا وصلت السيارة بهم الى العزبة · وأخيرا

أشاروا لهم على رجل عسكرى يمسك بعصا · وكان الرجل نائب قائد الفرقة للشئون الادارية ·

توقفت السيارة · وكان نائب قائد الفرقة للشئون الادارية يوبخ أحد المقاتلين بعنف لدرجة أنه لم يبد اهتماما بالسيارة التى توقفت أمامه أو بالفتاة التى تقترب منه فى زيها المدنى والتى كانت تعتبر أمرا غريبا فى مثل هذا الموقف ·

واتضح أن نائب قائد الفرقة للشئون الادارية كان يوبخ المقاتل لأن السيارة المحملة بالأغذية والتى كان مسئولا عنها ، قد احترقت أثناء القصف الجوى وأصبح الفوج دون طعام ·

كان نائب قائد الفرقة للشئون الادارية متسـخا بالغبار فضلا عن الشعر الأسود الكثيف الذى غطى ذقنه · ورغم ذلك بدا لابتشارا أن هذا الوجه المتعب الشرير ليس غريبا عنها · وتقدمت ابتشارا خطوة أخرى كى تقع فى دائرة بصر الرئيس الشرير وفجأة رأت كيف تغير هذا الوجه غير المحلوق وأشرق بالفرحة · ونسى الرئيس أمر توبيخ المقاتل وأسرع نحو ابتشارا صائحا :

ـ ابتشارا ! هذا مستحيل ! هل هبطت من السماء ؟

وبدلا من اخباره بكل ما حدث استندت على كتف الرجـل العسكرى وانفجرت باكية ·

كان الرجل العسكرى هو النقيب لوكوتوش · وكيف لم تتمكن ابتشارا من معرفته على الفور ؟ فانه يعرج برجله اليسرى كمـا كان من قبل ، ولا يفارقه عصاه ·

ـ ما الذى حدث ؟ هدئى من روعك · ما هـذه السـيارة ؟ سيارة من هذه ؟ أين السائق ؟

وأشار المقاتل الذى يرتدى كاب الفرسان الى الحذاء الملفوف بالمنديل والذى لم تتركه ابتشارا من بين يديها ·

وأخذ النقيب الحذاء ونظر الى العظمة البيضاء البارزة من ساق الحذاء وأعطاه للمقاتلين قائلا :

ـ ادفنوه · ما اسم السائق ؟

لم يكن المقاتلان يعرفان اسمه ·

ـ اسمه اصـــلانوكو ـ قالت ابتشارا بصـــعوبة من بين دموعها ـ اصلانوكو فوروكوف من قريتنا ·

ذهب المقاتلان بالحـــذاء والرجل بعد أن اعادا لابتشارا منديلها مخضبا بالدماء · وأخذت ابتشارا تنظر الى آثار الدماء وشعرت بأنها مذنبة فى هلاك اصـــلانوكو فلو كانت قد نهضت وأسرعت جارية معه حين قال « فلنهرب » ، لكان من المحتمل أن يظل سليما · انها هى التى أعاقته وأفسدت عليه ايقاع « رقصـــته مع القنابل » وبالطبع ، لو كانت قد نهضت لكان من الممكن أن تطيح بها القنبلة هى الأخرى ·

ـ أرجوك أن تساعدنى على أن أجد أخى ـ وكانت ابتشارا تريد أن تضيف عبارة « أيها الرفيق النقيب لوكوتوش » ، ولكنها لم تكن تدرى هل ستخرج هذه العبارة بالطريقة العسكرية السليمة أم لا · كان النقيب يعرج بصورة أقوى عما كان عليه آنذاك فى المحطة حين التقيا لأول مرة ·

ـ فلنجلس · من الواضح أنك تعبت من كل شىء · ـ وسار لوكوتوش بثقل نحو مبنى منخفض علقت عليه لافتة تشير الى أنه مدرسة ابتدائية · ولم يبق فى مكانه سوى المقاتل الذى كان يوبخه لوكوتوش قبل ذلك حيث كان ينتظر الأوامر · واستطرد لوكوتوش قائلا ـ لست وحدك التى أوذيت · فقد نلنا نصيبنا نحن كذلك · فقد احترقت السيارة بحمولتها من الأغذية ـ واستدار لوكوتوش وأصبح شريرا من جديد ـ انه المذنب فى كل هذا · حين شاهده الألمان أسرع الى الأحراش وترك السيارة على الطريق وكأنه يقول

لهم احرقوها ولا تهتموا ! هذا فى الوقت الذى ينتظره الفوج ، فان المقاتلين جياع لليوم الثانى على التوالى ٠

ـ لقد جئت بطرود الهدايا ٠ ها هى ـ وأومأت ابتشارا برأسها نحو كوم الصناديق ٠

ـ ان بها أطعمة ٠٠

ـ تقولين هدايا بها أغذية ؟! ـ لمعت عينا النقيب ـ هدايا بها أغذية ! ـ كرر لوكوتوش وكأنه لا يكاد يصدق أذنيه ـ هذا من من السماء ٠ هذه معجزة ٠ ولم لم تقولى ذلك على الفور ؟ ـ ورفع لوكوتوش صوته من جديد ولكنه كان يحمل نبرة احتفائية هذه المرة ـ أتسمع أيها المساعد ٠٠ أتسمع ؟ لقد جاءت ابتشارا لنا بالهـــدايا ٠ اركب السيارة وأنقلها على الفـور ووزعها عـلى الجميع ٠

دب النشاط فى المساعد ٠ واحتفظوا بجزء من الهـــدايا للمقاتلين الذين فى العزبة ٠ وفتح لوكوتوش أحد الصناديق كعينة فوجد سجقا مدخنا وضأنا مقددا وخبزا مجففا ـ غاية ما يتمناه أى انسان ٠ وفى صندوق آخر وجد معلبات وفواكه مجففة ونبيذا٠ وأدركوا على الفور أن الهدايا نوعين ٠ ولكن يعرف المرء ما بداخل الصندوق يجب عليه أن يهزه ويستمع الى ما يرتج بداخله ٠ وتهلل وجه لوكوتوش وقال مازحا :

ـ رج الصندوق قبل الاستخدام !

ولكن ما العمل مع أبتشارا ؟ هل يرسلها مع الهدايا لتلحق بالفوج ؟ ولكن كيف ستعود الى محطة السكك الحديدية ؟ وشرح لها لوكوتوش وجهة السيارة ٠ وبطبيعة الحال لم يكن ليقف فى طريقها لو كان يعلم أن الفوج توقف للراحة الآن ٠ ولكن الفوج سيواصل تقدمه حتى بالليل ذلك لأن الطيران لا يمثل خطورة ليلا٠ ومتى ستلحق السيارة بالوحدات الفرعية الأمامية ؟ وأين ؟ وهل

سيستطيعون ايجاد البيان على الفور وهـــو يسير ضمن الرتل العـــام ؟

أوضح لوكوتوش لها الموقف ثم قال :

ـ عليك أن تقررى بنفسك · أعتقد أنه من العقل البقاء هنا · لا يمكننى ارسالك الآن الى محطة السكك الحديدية · ويقول المثل الروسي : الصباح رباح · وسنجد وسيلة لارسالك ·

كانت ابتشارا تريد رؤية أخيها مهما كلفها ذلك · ولقـــد أدركت بعد القصف الجوي الذى شهدته اليوم أنه ربما يكون هذا آخر لقاء بينهما · ولكن اذا لم تعد الى محطة السكك الحـديدية فان الوفد سيرحل · وماذا تفعل عندئذ ؟

ـ ان رأسي عاجز عن التفكير ·

ـ اذن فلأقرر بنفسى ·

كانت السيارة بحمولتها من صناديق الهدايا مستعدة للتحرك· المحرك دائر وفى الكابينة كان المساعد جالسا بجوار السائق فى انتظار الأمر · ورفع لوكوتوش عصاه وأمره قائلا :

ـ ارحل !

بدأت الصناديق تهتز وتتحرك على السيارة · « كم أخشى أن تتناثر » جزعت ابتشـــارا وهى ترى كيف يجنـــح كوم الهدايا من جانب الى آخر · والآن فقط تذكرت « رسالة » دانوتشكا التى بقيت لديها فى الحقيبة ·

ـ لقد نسيت الرسالة !

ونظر لوكوتوش الى الظرف وقال لها :

ـ لا بأس · هذا ما سأتكفل به · سوف أرسلها غدا مع أى من المقاتلين · ان الاصعب هو ارسالك أنت · وسيتحتم ايجـــاد سيارة متجهة الى هناك · أما الآن فينبغى تناول العشاء ولا سيما أنك قد جئت بنفسك بالطعام لكن الضيف الآن هو الذى يستضيف

رب البيت . وعلى كل حال سنحاول تقديم شيء ما من عندنا كذلك. هلم بنا !

ساعدت الظروف لوكوتوش أن يسمح لنفسه براحة قصيرة. فقد كانت عربات النقل التى تجرها الدواب تسير فى أثر الفوج مباشرة مما كان يضطر السيارات الى الوقوف كيلا تسير فى ذيل الرتل بسرعة عشرة كيلو مترات . فقرر لوكوتوش الاستراحة فى العزبة والتحرك ساعة ما قبل الفجـــــر والتى تعتبر أنسب وقت للتحرك . وخلال ساعة أو ساعة ونصف يلحق بالفوج .

ـ أيها الرفيق النقيب .. هل ترى ؟! ـ وأشار المقاتل الذى كان يعد العشاء ، بل بالاحرى يرتب المواد الغذائية التى جـاءت بها ابتشارا الى هالة حريق بعيدة ، فقد كان نصف السماء غارقا فى نيران ودخان فوق الشاطىء الأيمن المرتفع لنهر الدون ـ قرية تسيمليانسكيا تحترق . أرض الدون تحترق .

جلس الجميع للعشاء . وشربوا كأسا نخب ابتشارا . أما ابتشارا نفسها فلم تستطع لا الشرب ولا الاكل . فقد كان فكرها فى هذه اللحظة مع وحدات الفوج الفرعية وهى تسير عبر الحقول والوهاد لملاقاة مصيرها . هل يفكر البيـــان هـــذه اللحظـــة فى أخته ؟

أدرك لوكوتوش مزاج ضيفته فقال لها :

ـ لقد قلت لك أنهم سيخبرون أخاك بقدومك . واذا سنحت له الفرصة فسيحضر بنفسه الى هنا .

ـ ولكن كيف سيجدنى ؟

ـ ان طريقنا واحد . وسوف نراه نحن .

أخـــذت المأكولات تختفى على الفـــور لتحل محلهـــا مأكولات أخرى على اللوح الخشبى الذى أعد ليكون مائدة . فقد كان الرجال يبتلعون اللحم والفراخ والبيض المسلوق وكأنهم عانوا من الجوع

طوال حياتهم . وخلال نصف ساعة كانت ثلاثة صناديق قد خلت من محتوياتها تماما . وفتحت زجاجة النبيذ الرابعة . وكان السائق يشرب النبيذ هو الآخر : فما من سبب يجعله يخاف رجال المرور لأن قواعد المرور هنا هى قواعد خاصة تتفق وظروف الجبهة .

كان الجميع يأكلون فى صمت فى بادىء الأمر حيث لم يكن لديهم وقت للكلام وأفواههم مشغولة بالعمل . ولكنهم أخذوا بعد ذلك يسألون ابتشارا عن الأحوال فى المؤخرة وفى القرية وفى الجمهورية .

وكانت ابتشارا تجيبهم بقدر المستطاع . وهل كانت تعرف الكثير ؟ وحدثتهم عن المزرعة الحيوانية وفيضان السيول وأعضاء فرقة تيمور الذين يجمعون الاعشاب الطبية ، وعن رجلى المظلات اللذين اعتقلهما تشوكا موتايف . ولقد خجلت من ذكر اشتراكها فى هذه العملية .

– وها قد تذكرت . ان السروجى بيكان طلب معرفة حال سروجه . وهل هناك حاجة الى سروج أخرى ؟

– وماذا تهم السروج ؟ ان الحصان يصاب ويبقى السرج . واذا استشهد الفارس فتبقى ذكراه خالدة . أبلغيه شكرنا على السروج . ومن الافضل أن يربى الخيول وليحفظ السلالة الكاباردينية الأصيلة .

– نعم انه مسئول عن حفظها . ولقد جاء ذلك بقرار من سلطات الجمهورية . ولقد جمع كل الجياد الاصيلة فى قطيع خاص . أما هو فيمتطى الفرس شاولوخ الأصيل والأكثر من ذلك ينام فى الاسطبل .

– وكيف حال حبيبة ؟

– تنتظر عودتى . وتصلى من أجل نجاة البيان .

كانت ابتشارا تتحدث فى الوقت الذى كانت ترى فيه الرجل المبتورة بالحذاء أمام عينيها بوضوح يتزايد كل لحظة • وكم تخشى أن تفقد عقلها • كيف بدأ هذا الصباح مشرقا وكيف انتهى يومه بهذه الظلمة • كان كل شىء حولها مظلما ومهجورا تسوده الفوضى وما من شىء يستند عليه • فأصبحت ابتشارا ترى فى لوكوتوش السند الوحيد لها وكأنها كانت تعرفه منذ مدة طويلة جدا • ومن حسن الحظ أنه كاباردينى • وشعرت ابتشارا باحساس دافىء نحو هذا الشخص وأرادت التحدث معه بلغتها القومية الكاباردينية، فقالت له بها :

ـ أقسم بالله أنه لا يوجد فى القرية كلها من لا يرسل لك السلام •

وظل لوكوتوش صامتا • فقد كان محرجا أن يعترف لها بأنه لا يعرف لغتها • وانقطع الحديث ونظرت ابتشارا الى لوكوتوش وسألته وقد لاحظت ارتباكه :

ـ الا تتحدث بالكاباردينية ؟

ـ انى أفهم كل كلمة ولكنى لا أستطيع الحديث •

لم تضحك ابتشارا ولكنها لم تستطع فهم كيف أن هذا الكاباردينى لا يستطيع التحدث بلغة أمه • وتذكرت كل معارفها فلم تجد حالة شبيهة بهذه •

ـ ربما لا تريد التحدث بها ؟

ـ انى أعرف كلمة واحدة فقط هى تلياكوتليش •

وأدرك لوكوتوش أن الأوان قد حان ليتحدث عن نفسه • لقد آن الأوان كى يفسر سبب عدم تحدثه بالكاباردينية رغم أنه رشح ليكون ضمن تشكيل الفرقة القوقازية بعد خروجه من المستشفى العسكرى لأنه كاباردينى بالذات • انه من رجال الدبابات وليس من الخيالة • فلم يشفع له حتى هذا • وكان من الممكن أن يكون قائدا لكتيبة فى أى فوج للدبابات ، أما الآن

17—3127

فيتحتم عليه شغل منصب نائب قائد الفوج للشئون الادارية · لم يكن يحب الخدمة فى الشئون الادارية ، ذلك لأنه محارب راسخ العقيدة ·

لقد آن الأوان بالطبع أن يحكى حكايته الا أن بها القليل مما يسر السامع · فكان يتأتى عليه أن ينتزع كل سنة من سنوات حياته من بين النيران كما ينتزع البصلة المشوية من بين الجمر ·

اقترب السائقون ورؤساء المخازن ورجال الشئون الادارية ليستمعوا الى النقيب · فقد كان من الظريف معرفة سبب تحدث الكاباردينى باللغة الروسية وحدها ·

كان والد لوكوتوش من رجال الحزب النشطين فى السنوات الأولى من السلطة السوفييتية · ولعله لم يكن يوجد فى كاباردينيا كلها شخص واحد لا يعرف داوورف · لقد أرسل الى موسكو ليكون ممثلا دائما لاقليم كاباردينيا · وكان كل أفراد الشعب يعرفونه أنذاك لأنه فعل الكثير فى تلك السنوات العصيبة لشعبه ، بل ويمكن القول بأنه أنقذ الشعب · لقد استطاع فى عام القحط ـ عام ١٩٢١ ـ أن يحصل على معونة غذائية فلم يهلك الناس من الجوع كما فى المناطق الأخرى ·

وأثارت هذه الشهرة حافظة البعض من ذوى السلطة فى مدينة نالتشيك عاصمة الاقليم مما جعل داوورف يذهب ضحية لذوى النفوس الحاقدة ·

وبقيت فى موسكو دادونا زوجة داوورف · ولها صبيان ·

كانت دادونا كثيرة المرض · وكان من الصعب أن تنفق على الأسرة من مرتبها الضئيل · وأخذ الجيران فى اقناعها بتسليم الصبيين الى ملجأ الأطفال · وحين سمع لوكوتوش بذلك ـ وكان اسمه غير ذلك آنذاك ـ هرب من المنزل واستقل أول قطار يصادفه·

والتقط الصبى فى مدينة بوبرويسك وأرسل بالرغم من ذلك الى ملجأ الأطفال · لم يقل الصبى لهم اسمه وحين كان يسأل : من أنت ؟ كان يجيب : « تلياكوتليش » دون أن يفهم بالضبط ماذا تعنى الكلمة · الا أنه كان يتذكر كلمات أمه : « ان أباكما كان تلياكوتليش جديرا · ولتكونا انتما كذلك تلياكوتليشيين جديرين » · لم يكن الصبى يعرف أن كلمة تلياكوتليش تعنى باللغة الكاباردينية : فلاح حر · ولكن طالما يسمون والده بهذا الاسم ، فلم لا يسمى نفسه به أيضا · وأخذ يجيب فى عناد على السؤال عن اسمه قائلا :

ـ تلياكوتليش ·

عزف المسئولون فى ملجأ الأطفال عن استخلاص اسمه منه وما دام تلياكوتليش ، فليكن لوكوتوش · وسجلوا الصبى باسم من الأسماء الروسية هو لوكوتوش · فقد كان من الصعب على المربين والأصدقاء الجدد لفظ كلمة « تلياكوتليش » الكاباردينية · كان اسمه فى السجلات هو لوكوتوش لوكوتوشيف ، ولكنهم كانوا ينادونه باسمه فقط · وتعود الصبى على ذلك ولا غرابة فى ذلك حيث كان لكل من فى ملجأ الأطفال كنية يعرف بها ·

بعد ملجأ الأطفال دخل لوكوتوش المدرسة العسكرية باسمه الجديد · غير أن الحاجة ظهرت فى اسم الأب · وقرر اتخاذ اسم كليمنتيفتش وذلك على اسم القوميسير الشعبى الشهير (*) غير ان اسم الآب لم يرسخ فى الاذهان فبقى اسمه لوكوتوش كما كان من قبل ·

ـ الم تر والدتك منذ ذلك الوقت ؟ ـ سألته ابتشارا وقد خطرت على بالها فكرة أن الحرب يمكن أن تفرق بينها وبين أمها · ماذا تفعل اذن؟ لن يرسلوها بالطبع الى ملجأ الأطفال، ولكنه سيتحم

(*) القوميسير الشعبى ـ يقصد به الوزير كليمنت فاراشيلوف ·

عليها مصاحبة الفرقة القوقازية الى حيث هى ذاهبة • وستبقى حبيبة فى هذه الحالة فى الأراضى المحتلة • وتحسست ابتشـارا بصورة لا ارادية بطاقة عضوية الكومسمول فى حقيبتها • انهـا معها واطمأنت ان الاسم لن يخلق مشكلة فى حالة حدوث شىء ما• ورد لوكوتوش على سؤالها قائلا :

ـ لقد رأيت والدتى مرة واحدة • لقد بحثت عنها بصـعوبة حتى وجدتها • وتخيلوا أنها عرفتنى على الفور رغم أن الذى جاءها كان ملازما يرتدى زيا جديدا بدلا من ذاك الصبى الذى تعرفه • لقد تعرفت على كما قالت من الجبين والشفتين لأننى أشبه والدى شبها كبيرا • ولست أدرى هل تمكنت من مغادرة لينينجراد أم بقيت هناك فى المدينة المحاصرة •

كان الليل الصيفى القصير فى طريقه الى الانتهاء • وكان المقاتلون يرقدون من حول لوكوتوش على المعاطف الفرو المفروشة، واخذ بعضهم ينصت الى الحديث متابعين كل كلمة منه والبعض الآخر غط فى نوم عميق • وذكرهم أزيز الطائرات الالمانية الذى وصل الى الاسماع من بعيد أن الوقت قد حان للرحيل • وأصدر لوكوتوش أمره :

ـ اركبوا السيارات !

وقرر النقيب الركوب مع ابتشارا فى آخر سيارة وأخطـر سائقى السيارات الأمامية بايقاف أية سيارة مقابلة كى تعود بها ابتشارا الى محطة السكك الحديدية ، ثم قال لابتشارا مازحا :

ـ سنخطو خطوة الى الأمام كى نعود خطوتين الى الخلف• انى أنصـحك بالصـعود الى صـندوق السـيارة والنـوم • وحين نجد سيارة سأوقظك • أتعرفين •• هناك قانونان غيـر مكتوبين فى الحرب الأول هو : لا تبق للغد ما يمكن أكله اليوم ،

والثانى عليك بالنوم كلما كان ذلك ممكنا ولو وقوفا على الأرجل.
ـ لقد نفذنا القانون الأول حيث أكلنا ما يكفى أسبوعا كاملا مقدما . أما فيما يتعلق بالنوم فانى أشك فى امكان ذلك .
ـ حاولى النوم . سوف نسير ببطء وبدون اشعال المصابيح. ان ساعة نوم واحدة أثناء الحرب تساوى ليلة كاملة بالبيت .
ـ لن أستطيع النوم . فانى قلقة من أن يرحل الوفد بدونى وما عساى أن أفعل فى هذه الحالة ؟
ـ لقد قلت لك : الصباح رباح . سوف تلتقى بوفدك هذا .
وخرجت السيارات ببطء الى الطريق .

الصباح رباح

قلبت الحرب كل الأوضاع . فقد كان من الممكن بالأمس أو منذ ساعة مضت التنبؤ بما سيكون عليه الغد . ولكن ما أن جاء الصباح حتى تغير كل شىء . وتغير شكل الطرق . فقد ظهرت عليها فى بادىء الأمر مجموعات من الجرحى تسير متثاقلة على حافة الطريق . وبعد ذلك بدأت تتوالى عربات الجر ملأى بالمصابين بجروح خطيرة ، كانوا طرحى على العربات ومن حولهم الممرضون والممرضات . وتوالت السيارات تسبق عربات الجر وهى محملة حتى آخرها برجال الخدمات الطبية والأجهزة الجراحية حيث كان المستشفى العسكرى ينسحب الى المؤخرة .

وقبل أن ينتهى السيل المتدفق من الجرحى تزايدت على الطريق أعداد المنسحبين . وكان بينهم عسكريون ومدنيون لاجئون .

توقف لوكوتوش للاستفسار عن الموقف واتضح أن المنسحبين هم رجال الجيش التاسع الذى هزمه الألمان على الضفة الشمالية

لنهر الدون « الموجة التاسعة » على حد التعبير المازح بمرارة الذى رد به أحد المقاتلين على سؤال لوكوتوش ·

والآن أدركت ابتشارا هى الأخرى ، أى لقمة سائغة يمثلها هؤلاء الرجال المتعبون الذين يسيرون عبر البرارى بالنسبة للطيران الالمانى ، وأى مجزرة يمكن أن تبدأ ما أن ينبلج الصباح ·

وفى الواقع ، وقبل أن تتمكن الشمس من البزوغ ، سمع فى السماء أزيز طائرة الاستطلاع · انها ماركة « راما » ـ قالت ابتشارا فى نفسها وقد مرت من قبل بتجربتها المريرة ·

انحنى الرجال فى السيارات الأمامية وأخذوا يرقبون الجو بقلق · أما الطريق فقد كان يحمل اثار مرور الخيالة من هنا من وقت قريب · وكان هذا واضحا من روث الخيل · اذن سرعان ما سيتم اللحاق بالأفواج ؟

ولوكوتوش قائد عسكرى اشترك فى الحرب منذ أيامها الأولى، ورغم ذلك لم يكن يفهم ما الذى يجرى فى الواقع · وهذا ما جعله يشعر بالارتياح بعد ما ظهر رجال الخيالة فى الافق بعد المشاة· ورغم أن الأحداث كانت تجرى فى مجرى مأسوى متزايد الا أنه كان يحكمها منطق محدد على الأقل · انطلق لوكوتوش بسيارته الى الامام وأوقف كل السيارات حيث قرر انتظار رجال الخيالة الذين لا يمكن ألا يكونوا رجال الخيالة التابعين للفرقة القوقازية والذين يبغى لوكوتوش اللحاق بهم · الا أن سيارة ركوب خفيفة وصلت قبل الخيالة وخرج منها العقيد كوبانتسيف قائد الفرقة نفسه · وهو يتكىء على عصاه · أسرع لوكوتوش للقاء القائد محاولا عدم الاتكاء على عصاه رغم أن رجله تؤلمه · وحاول أثناء توجهه للقاء القائد تخمين السبب الذى جعل قائد الفرقة يتجه

ناحية المؤخرة ، ولماذا يحمل عصـــا وما الذى يحدث بصـــفة عامة ·

كان قائد الفرقة شاحب الوجه ولا تكاد رجلاه تقويان على حمله ، كما كان صوته خافتا مبحوحا ·

ـ أنظر أيها النقيب ·· هل لديك علم بالموقف ؟

ـ لا ·· ليس لدى أيها الرفيق العقيد ·

ـ هذا واضح فانك غاية فى الهـــدوء · واليك الموقف : الألمان على هذه الضفة · وهل سنتمكن من صدهم ؟ · هذا أمر غير معروف · فالمعارك محتدمة · لقد تلقينا الأوامر باتخـاذ خطوط دفاعية بطول نهر سال فى منطقة ماراتوفكا ، وهى مركز الناحية وعليك توجيه وسائل النقل الى هناك · أما أنت فعليك البقاء هنا فى العزبة ولتأخذ معك حوالى عشرة رجال لاقامة بوابة مرور على الطريق ـ وهنا أراد العقيد أن يرفع صوته الا أنه بح أكثر من قبل ـ ولا ينبغى السماح بالمرور لأحد مطلقا · أجمع الجميع وشكل فصائل ثم أرسلها الى ماراتوفكا · هل لديك خريطة ؟

ـ نعم ·

واستدار كوبانتسيف ناحية السيارة · وهنا سأله لوكوتوش:

ـ أتسمحوا لى بسؤال أيها الرفيق العقيد ؟

لم يلحظ كوبانتسيف العصا فى يد النقيب سوى هـــذه اللحظة فقال له :

ـ أنحن فى البلاء سواء ؟

ـ هذا ما أراه ·

ـ ما الذى تريد الاستفسار عنه كذلك ؟

ـ أين يمكن أن أجد رئيس القسم السياسى خولامبايف ؟

ـ الله أعلم · لقد رحل ليلا لاحضار مهمات القسم السياسى·

شعر لوكوتوش بوخز فى رجله المريضة وكاد يجلس من الالم·

وركب العقيد السيارة وهو يتأوه • وفى مقعـــدها الخلفى كان القوميسير ورئيس الاركان وقائد المدفعية نائمين بين ملق رأسه الى الخلف وبين مدل اياها على صدره • وقبل أن يغلق قائد الفرقة باب السيارة قال للوكوتوش :

ـ لا تنتظـــر الرجال • فانهم يسيرون فى طريق آخر • نفذ ما أمرت به •

ـ حاضر •

كانت ابتشارا نائمة ولا تدرى أن مصيرها قد تغير • أخرج لوكوتوش الخريطة • انه يذكر ماراتوفكا هـــذه القرية القوزاقية المبعثرة بيوتها عند منعطف نهر سال ولذا عثر عليها بسرعة على الخريطة • غير أن الطريق المتجه الى هناك طريق آخر تماما • فقد كان ينبغى السير فى اتجاه مقابل ناحية محطة السكة الحديدية الصغيرة حيث بقى تشورف وأوزيزة وحيث اتجه سلطان خولامبايف ليلا على الأرجح • ولكن اذا كانت مسئولية القائد قد القيت على عاتق لوكوتوش فانه سيجد حتما من يمكن أن يرسل معه الى المؤخرة هذه الفتاة التى وقعت فى غمار الحرب كما تقع الدجاجة فى المـــاء المغلى لينتف ريشها •

جمع لوكوتوش مرؤوسيه حيث كانوا أقل من فصيلة • واختار النقيب من بينهم عشرين فردا وأمر الباقين بالاتجاه نحو ماراتوفكا • استيقظت ابتشارا ورأت فجأة أن المقاتلين يحفرون حفرا ويركبون حاجز بوابة • وتعجبت من ذلك •• هل يأملون فى وقف الألمان بهذه البوابة ؟ ثم تعجبت بعدما وجدت أن السيارات قـــد اختفت • ونزلت بصعوبة من صندوق السيارة واتجهت نحـــو لوكوتوش « للاستفسار عن الموقف » •

ـ لماذا تذهب الى الجبهة فى الوقت الذى تجىء الينا هى

فيه ؟ - حاول لوكوتوش المزاح - لا تقلقى . ان تشورف لن يعود بدونك . وسوف نوصلك اليه بطريقة ما .

غير أن ابتشارا لم تصدق كلمات النقيب ، هذا فضلا عن ان النقيب نفسه لم يكن يصدق كلماته .

حجزت بوابة المراقبة والمرور خلال النهار مزيجا غريبا من الناس وغيرهم . فقد كانت هناك عربة جر محملة بالجرحى ، يسحبها حصان يرغو يكاد يهوى على الأرض . وكان يقـــوده رقيب جورجى الأصل - كان من السهل فهم ذلك من اللكنة التى يتحدث بها - وكانت يده اليمنى مغطاة بالضمادات ، أما يده اليسرى فكانت ممسكة باللجام لتوجيه الحصان الذى استولى عليه ، كما يبدو ، فى الطريق .

احتد الرقيب غضبا وقال :

- لماذا أوقفتمونى ؟ نحن نريد اللحاق بالمستشفى العسكرى. فقد رحل العاملون بالمستشفى على سيارة فأصبح لديهم قوة مائة حصان أما نحن فلدينا قوة حصان واحد وسرعان ما سينفق . أرجو الا تعطلنى أيها النقيب . فمتى سنصل الآن الى بيرفوزفانكا؟

انتفضت ابتشارا حين سـمعت كلمة بيرفوزفانكا . الا أن وسيلة النقل غير مأمونة بهذا الحصان الذى يتعثر فى مشيته ومع الجرحى الذين يئنون وهذا الجورجى المتبختر الذى يبدو الحـزن والسأم فى عينيه .

فى غضون ذلك بلغ عدد المحتجزين عند بوابة المرور حدا كبيرا . وكان من بينهم قادة ومدنيون بدون وثائق اثبات شخصية. وكان لوكوتوش يشك فى أنهم من بين المقـاتلين الذين حوصروا ولكنهم استبدلوا ملابسهم بملابس مدنية ، غير أنه لم تكن لديه امكانية التأكد من ذلك . لم يقترب من بوابة المرور عسكرى عادى واحد ، فأين ذهبوا - هذا غير معروف ، أما الذين تجمعوا هنا فقد

والقوميات القوقازية بصورة رئيسية · ولقبهم لوكوتوش على الفور
وسرعان ما ظهرت المشكلة الرئيسية· يجب اطعام المحتجزين·
هذا بجانب أنهم طلبوا ذلك ·

ـ ماذا دهاكم ؟ هل قررتم اماتتنا جوعا ؟ اذا كنتم قـــد حجزتوننا فيجب أن تكرموننا وتقدموا لنا الطعام · حتى السجون تطعم المساجين ·

ولكن أين يمكن ايجاد طعام يكفى هـــذا العدد ؟ وأرسل لوكوتوش مقاتلين الى العزبة ليبحثا عن طعام · وعاد المقاتلان بحلوف وجداه فى حفرة مغطاة بالقش · ومن الواضح أن الحيوان المسكين قد عانى من العذاب هناك دون ماء ولا طعام أكثر من يوم· والآن يجب وضع حد لعذابه · وحسمت دفعة رشاش الأمر · ووضع اللحم فى القدر وانتشرت الرائحة اللذيذة فى المكان · وتجمهر الناس انتظارا لنضج لحم الخنزير · وهيهات أن يرفض المسلمون الطعام فى مثل هذه الظروف · وفضلت ابتشارا التجول فى العزبة كيلا تضايق نفسها برائحة الطعام وكيلا يسيل لعابها ·

وفجأة حدث ما جعل الجميع ينسون أمر الحلوف الجارى سلقه · فقد عادت عربة جر محملة بالجرحى كانت قد وصلت بهم الى بيرفوزفانكا · كان قائد العربة يضرب الحصان بالسوط ويتلفت وراءه وكأنه خارج من مطاردة ·

وهنا أحس لوكوتوش وكأن نارا قد لسعته : أين سلطان خولامبايف الآن ؟ لقد رحل الى المحطة · اذن : لم يتمكن من

الوصول الى هناك ، أو وقع فى الأسر منذ مدة · واستعجل لوكوتوش المقاتلين الموجودين عند القدر قائلا :

ـ زيدوا الحطب تحت القدر · ليس هناك وقت للانتظار أكثر من ذلك ·

فقد احتجز لوكوتوش وحدة فرعية منسحبة وطلب من المسئول السياسى الذى كان يقودها أمر الانسحاب مكتوبا · وبطبيعة الحال لم يكن هناك أى أمر لدى المنسحبين · وهدد الرجال الساخطون المنهكون الجياع باختراق فصيلة لوكوتوش قتالا · أما المسئول السياسى فكان يصيح بدوره قائلا :

ـ ومن أنت ؟ ومن الذى وضعك هنا ؟ أرنى أوراقك وسأرى هل لك الحق فى مراجعة أوراقنا أم لا ؟

لم يكن هناك أمر مكتوب لدى النقيب لوكوتوش هو الآخر · ولو كان قد مضى قليل من الوقت على هذا الحال ، لكان المقاتلون قد اشتبكوا فيما بينهم ، ولكن لوكوتوش تنازل فى الوقت المناسب قائلا :

ـ حسنا ، يمكنكم المرور ما دمتم شجعان بهذه الدرجة · ان الألمان سيبرزون لكم الآن الأوراق ·

وذهب المسئول السياسى بوحدته الفرعية ·

ولكن قبل أن تمض نصف ساعة وصل الى الأسماع صوت اطلاق النار من البنادق والمدافع الرشاشة ومدافع الدبابات · ولم يكن هناك شك فى أن المسئول السياسى اصطدم بالآلمان واشتبك معهم · لم يستمر اطلاق النار أكثر من خمس دقائق · ولم يبق سوى شىء واحد يمكن عمله هو شد الرحال من هنا · وتخاطف المقاتلون لحم الخنزير الذى لم يتم نضجه كيلا يضيع هباء ، وأخذوا يقرضون قطع اللحم الصلبة وهى تلهبهم بسخونتها · أما المرق فقد سكبوه على النار لاطفائها ·

صعدت ابتشارا الى صندوق السيارة · زأر محرك السيارة· وكان صندوقها قد امتلأ بعدد كبير من الناس لدرجة انه من الصعب تخيل انها يمكن ان تسير · وفى هذه المرة لم يجلس لوكوتوش فى الكابينة · وأخذ يتسمع هدير معركة بعيدة ، ويضع على عينيه بين الفينة والفينة النظارة المعظمة · وظلت ابتشـــارا تنظر من وقت لآخر الى السماء وقد علمتها تجربتها المريرة هذا الحذر · وضع لوكوتوش النظارة المعظمة جانبا وقال لابتشارا :

ـ أعتقد أن كل شىء واضح الآن · فمن غير الممكن الوقوع الآن على أثر لتشورف · كل ما نرجوه أن يكون هو وأوزيزة قد تمكنا من الرحيل ·

ـ يا ترى هل وقعا فى يد الألمان ؟

ـ لا أعتقد هذا · ان ما يقلقنى بصورة أكثر هو مصير سلطان خولامبايف · فمن الخطورة أن يبقى الفرد لوحده فى طريق الجبهة· وهذا يشبه الحبة التى سقطت من الجوال ومن غير الممكن معرفة أى طائر سيلتقطها · ان رجال الاستطلاع المعادين منتشرون فى كل مكان واذا وقع الفرد فى أيديهم فسيأخذونه على الفور ·

ـ وما الذى يجب على أن أفعله ؟

ـ تفعلينه ؟ ـ رفع لوكوتوش غطاءا من المشمع وأراها شيئا ما شبيها بمقعد للاطفال ذى أرجل طويلة وظهر مرتفع ـ هل رأيت من قبل مثل هذا الشىء ؟

ـ ما هذا ؟

ـ محول تليفونات ماركة « م ب » سوف تعملين على التليفون·

ـ ولكنى لا أستطيع ·

فقال أخدهم مازحا :

ـ اذا كنت لا تستطيعين ســــنعلمك ، واذا كنت لا تريدين فسنرغمك · هذا هو قانون الجيش ·

كان كل فكر ابتشارا مركزا على اخيها · ماذا سيقول حين يعلم أن ابتشارا بقيت فى الفوج ؟ سوف يغضب ويقول تركت الأم وحدها ، ولكن هل هى وحدها ؟ فان معها أيرينا ودانوتشكا ، كما ان لديها بقرة يكفى لبنها لثلاثة ويفيض · وهناك ذرة مزروعة فى حديقة المنزل · سيعيشون بدونى ولكن تشوكا لن يغفر لى · فقد أراد أن يدخل السرور فى نفسى باتاحة الفرصة لى لرؤية أخى ، ولكنى جاحدة لصنيعك وما أنا قد خدعته · ولكن هل الذنب فى شىء ؟ الله يعلم أننى كنت أريد العودة الى محطة السكة الحديدية والرحيل الى القرية · ولكن الظروف لم تسمح · انها الحرب · وشكرا للوكوتوش لأنه يريد أن يلحقنى بالعمل على التليفون ·

انطلقت السيارة الى أحد التلال · وهنا وقعت الأعين على وهدة عميقة · كان رجال الخيالة يسيرون فى رتل تشكيل المسير ، وكان بعضهم فى الطريق الى الخروج من الوهدة ، أما البعض الآخر فكان فى طريقه الى الدخول اليها ·

كانت الجياد المتعبة تسير ببطء ، والفرسان يهتزون على السروج ، والركب يصدر صليلا خافتا ، وانعكاس أشعة الشمس الغاربة يتلألأ على مقابض السيوف · وكانت رائحة عرق الجياد تملأ الجو ·

وأخذت ابتشارا تدقق النظر خشية أن تفوتها رؤية أخيها الهيان · انه هنا بين هؤلاء الرجال · والتفتت السيارة من ناحية اليسار حول الرتل · وعثر لوكوتوش على بعض معارفه وقال لهم :

ـ هلم ·· هلم ·· سرعان ما ستبدأ الراحة ؟

كان المقاتلون يبتسمون ردا عليه · وقال له ملازم شاب مازحا :

ـ أرى أنك تعيش عيشة تحسد عليها أيها النقيب · أراك تصطحب حسناء · أليست هذه هى التى ألقت الكلمة أثناء الاجتماع على ما أعتقـد ؟

ـ لقد أصبت ·

ـ وكيف جاءت الى هنا ؟

ـ هل تسلمت طردا هدية ؟

ـ تسلمت · شكرا · وبدون هذا الطرد كادت الامعاء تأكل بعضها البعض ·

ـ انها التى أحضرت الطرود ·

وفجأة تعرف أحد المقاتلين على ابتشارا :

ـ هذه هى أخت البيان !

وتعرف الآخرون فى الحال على ابتشارا وبدأوا يبتسمون لها ويلوحون بأيديهم وهى تلوح لهم · وهل يحتاج المرء الى الكثير كى يصبح سعيدا ؟! كانت ابتشارا سعيدة لوجودها بين أبناء قريتها· وصاحت ابتشارا سائلة :

ـ أين أخى ؟

ـ ابحثى عنه فى الأمام ، على العربات ·

زادت السيارة من سرعتها بعد خروجها من الوهدة العميقة الشديدة الانحدار · وأصبح من الصعب متابعة رجال الخيـــالة فى الرتل · وتعبت عينا ابتشارا من النظر الى الرجال الخيالة ولكنها لم تجد البيان · وشعرت ابتشارا بالأسى لأن السيارة تسير بسرعة كبيرة ·

سمع صوت آلة تنبيه سيارة من الخلف ولحقت سيارة قائد الفرقة المطلية بألوان التمويه بسيارة النقل ، فأفسحت هذه لهـا الطريق ، بل وفرملت كى تمـــر سيارة العقيـــد · وكان أنطون

فيدوروفتش جالسا مستندا على عصاه · وحين رأى ابتشارا بين المقاتلين لمس السائق من كتفه وأمره بالوقوف ·

ـ من أين جاء هذا الطائر ؟

وهم لوكوتوش بالقفز من السيارة لاخبار القائد وفقا لما تقتضى به الأصول العسكرية ، الا أن العقيد أوقفه بحركة من يده وسمح له بالبقاء فى صندوق السيارة ·

ـ لقد جاءت بالطرود ولم أستطع اعادتها · كنت على أمل أن أسلمها الى خولامبايف ولكنى لم أجده ·

ـ حسنا انك لم تجده · لقد وقع خولامبايف ·

ـ كيف ؟

ـ اصطدم بالألمان ·

ـ وهل استشهد ؟

ـ يقولون انه أراد اطلاق الرصاص على نفسه ، الا أنه لم يتمكن ، لأنهم نزعوا سلاحه ·

ـ والآن ؟

ـ الله أعلم · ان الألمان لا يخبروننا بشئونهم · ها انظرى يا عزيزتى كيف حالفك الحظ · لو كنت معه الآن لكان ··

ـ ومتى حدث ذلك ؟

ـ لقد أخبرونى الآن فقط · هل أنت الذى جمعت الرجال ؟

ـ نعم « فصيلة أممية » من أبناء الشعوب القوقازية الصغيرة · انهم يغطوننا من المؤخرة ·

ـ حسنا · من الممكن توقع هدوم العدو من أى اتجاه · ولتبق الفتاة معك حتى أصدر لك الأمر بشأنها ·

ـ حسـنا ·

ـ وماذا عن الوفد ؟ ـ تجاسرت ابتشارا بالسؤال ·

ـ لقد حالفهما الحظ · فقد نقلا الى الخلف على سيارة تسير فى نفس الاتجاه · وقد تم ذلك بين يدى الألمان مباشرة ·

وانطلق العقيد بسيارته الى الأمام ·

وفكرت ابتشارا فى نفسها قائلة : « هذا ما لم يكن متوقعا! ولكن كيف حال طرودنا ؟ يا ترى هل وقعت فى أيدى العدو ؟ »

واصل الجميع مسيرتهم فى صمت · فقد اهتز الجميع لمصير خولامبايف فلم يصلوا الى جبهة القتال ولم يشتركوا فى القتال بعد ، وها هم يفقدون رئيس القسم السياسى للفرقة · هل كان لأحد أن يتصور ذلك ؟ فانه كان على مستوى قائد الفرقة ثم أصبح فجأة أول ضحية فى الفرقة ·

انعطف لوكوتوش الى اليمين قبل أن يصل الى العزبة السابحة فى غسق الماء · وخصص مبنى المزرعة الحيوانية لتمركز الشئون الادارية بالفوج · وكان مبنى المزرعة الحيوانية قد تعرض قبل ذلك للتخريب حيث نزعت الأبواب والشبابيك ، وحظيرة الأبقار خالية تماما ·

واختار النقيب لنفسه منزلا صغيرا كان يستخدم على ما يبدو فيما سبق كمخزن · لقد نجا هذا البيت من التخريب حيث يوجد به على الأقل باب أما النافذة فمسمرة بالألواح الخشبية ·
وفى هذه الأثناء كانت الوحدات الفرعية تتخذ مواقعها الدفاعية بطول شاطىء نهر سال ·

الفصـل الرابع

اللقـــاء

ساد الهـدوء بعد ثلاثة أيام من المعـارك الضـارية · ففى الصباح حيث كان الجميع ينتظرون تجدد الهجمات الألمانية ، لم تطلق طلقة واحدة لم يزأر محرك واحد · وبدأ رجالنا فى خنادقهم يعتقدون أنه ربما رحل الألمان · فان الهجمات السبع السابقة التى قاموا بها وصدها مقاتلونا كانت غالية الثمن بالنسبة لهم رغم أن الفرقة القوقازية تحملت هى الأخرى خسائر كبيرة ·

وسعت أبتشارا عدة مرات لايجاد أخيها فى الخنادق الا أن لوكوتوش لم يتركها تفعل ذلك · بل ولم تكن الظروف تسمح بذلك· استوعبت ابتشارا العمل على محول التليفونات وأصبحت تخدم ثمانية خطوط · وكان مما يثير الأسى فى نفسها انها تسـتطيع الاتصال بمن تريد ـ بالطيارين أو رجال المدفعية ـ ولكن خط الاتصال برجال مدافع الهاون وحدهم كان مفقودا ·

ووعد لوكوتوش أبتشارا بانه سيرتب لها لقاء باخيها ما أن تهدأ الأمور · وها هو الهدوء يسود · وعلاوة على ذلك فقد تم مد خط تليفونى آخر الى كتيبة ابادة الدبابات المتمركزة فى الخنادق بجوار رجال مدافع الهاون ·

وطلب لوكوتوش من ابتشارا أن توصله بهذه النقطة الجديدة٠ وسمعت ابتشـارا فى السماعة كل الحديث ٠ صاح النقيب فى التليفـون :

ـ ثمانية ٠٠ ثمانية ٠ أعطنى الملازم كازانوكوف قائد فصيلة مدافع الهاون المجاورة ٠٠ نعم ، نعم البيان ٠٠ انى منتظر ٠

بدأ قلب ابتشارا يخفق ٠٠ فلم تكن تصدق على الاطـلاق أن هذا حقيقة وليس حلما وكادت ابتشارا يغشى عليها حين سمعت على الطرف الثانى من الخط صوت شـقيقها والذى لم تلمس من الكلمات الأولى أنه أصبح فظا أجشا ٠

ـ أنا الملازم كازانوكوف

ـ النقيب لوكوتوش يتحدث اليك تحية لك : كيف الحـال لديكم ؟ هل يسود الهدوء ؟

ـ هدوء الى درجة الروعة ٠ أليست هذه خديعة ؟

ـ ان الجو لدينـا هادىء انى أطلبـك لأمر ما ٠ لقـد تم اعتقـال فتـاة من قوات المظـلات هنـا وهى موجودة لـدى الآن ، وتقول انها تعرفك بل وانها تمت لك بصلة القرابة البعيدة ٠ وأريد ترتيب لقاء بينكما ٠٠

ـ أية فتاة من قوات المظلات هذه ؟ من أين هى ؟ ـ كان من الواضح أن ألبيان بدا ينفعل وارادت ابتشارا أن تصيح له فى السماعة الا أنها خافت النقيب ٠

ـ أية فتاة ، أية فتاة ٠٠ فتاة عادية من قوات المظـلات ستراها حين تأتى ٠

ـ انى قادم ٠

كان رجال مدافع الهاون متمركزين على بعد ساعة من السير على الأقدام من الشئون الادارية ٠٠ وبعد ساعة بالضبط ظهر ألبيان ٠٠ واستقبله لوكوتوش عند عتبة باب البيت الصغير المنخفض

المبنى من الطوب اللبن ·· وكان هذا البيت يستخدم فيما سبق فى تخزين الملح للماشية · وقد تشبع كل شىء فيه بالملح ·

– أيها الرفيق النقيب ، الملازم كازانوكوف وصل تنفيذا ··

– حسنا لا داعى لكل هذا · أهلا بك · هل كانت المعارك حامية بالأمس ؟

– لقد استنفدنا ثلاثة مجموعات من الذخائر عن آخرها · وكان يجب امدادنا بالمزيد ·

– سوف نمدكم · هل هناك كثير من القتلى ؟

– ثلاثة جرحى من بينهم جريح فى حالة خطيرة لقد مزقت شظية جنبه انه قائد طاقم مدفع هاون · عن أية فتاة من قوات المظلات حدثتنى ؟

– انتظر وسترى · أولا اجلس الى المائدة لنأكل ·

دخل الاثنان البيت الصغير · وعند العتبة مباشرة حيث كان الضوء أكثر اشعاعا – فقد كانت النافذة الوحيدة مسمرة بالخشب الابلكاش – أعدت مائدة على أحد الصناديق كان عليها زجاجة فودكا ومعلبات وسجق مقطع وخبز اسود ، ولاحظ البيان وجود ثلاثة أكواب من البلاستيك فتعجب : أينوى لوكوتوش استضافة فتاة المظلات كذلك ؟ كان النقيب كثير الحركة ، كثير الحديث على غير العادة · انه يخفى شيئا ما ·

– هلم ، هلم اجلس لنأكل · انى أعلم أن الطعام قد تأخر فى الوصول اليكم وانكم تناولتم العشاء فى الساعة الثالثة صباحا· وأنا كذلك جوعان كالذئب ، أنى فى غاية الانهاك · هلم نأكل ·

ملأ لوكوتوش الأكواب الثلاثة ورفع سماعة التليفون واصدر أمرا قصيرا قائلا :

– ابعثوا فتاة المظلات الى ·

وقبل أن يتمكن ألبيان من التعجب مرة ثانية حتى كانت

ابتشارا قد دخلت البيت كالسهم · لم تتمكن في بادىء الأمر من تبين أخيها في الظلام ، كما أن البيان لم يتعرف على أخته في الثوانى الأولى · فانه لم يرها من قبل في الزى العسكرى وطاقية الجيش وقد حزمت وسطها بحزام خشن والأكثر من ذلك أن الحزام بحمالة ·

ـ أخى ! ـ اندفعت ابتشارا الى البيان وكادت تقلب الصندوق بالمأكولات وبدأت كلمات الدهشة المفككة ·

ـ كيف ؟ ومن أين ؟

ـ البيان !

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

ـ لقد هبطت من السماء · اعمل على التليفون ·

ـ اذن هذه هى فتاة المظلات ؟

ـ وهل كنت تعتقد أن هناك فتاة مظلات ثانية؟

ـ فرق لوكوتوش الأخ والأخت المتعانقين ـ اجلسا الى المائدة · ـ فان أمامكما الكثير من الوقت للافضاء بكل ما في نفسيكما · ان الفودكا جاهزة · هلم نشرب الكأس الأول ·· واحد ·· اثنين ـ هب ·

وكانوا قد شربوا الكأس الثالثة الا أن الأخوين لم يستطعا الهدوء بعد من شدة الانفعال · واشرقت ابتشارا بالسعادة وأخذت تنشج · ومن حسن الحظ ان الدموع لم تكن ترى في هذا الضوء الخافت · وانهال عليها البيان بالاسئلة حول البيت دون ما ترتيب ولم يعوقهما لوكوتوش واقتصر على صب الفودكا في الأكواب البلاستيك · أما ابتشارا فقد اسكرها اللقاء وأخذت تتحدث وتحكى وتخرج من هذا الموضوع لتدخل في ذلك ، كما تحدثت عن جمع طرود الهدايا والسفر وأحوال القرية · وفجأة اعتراها الحزن وقالت :

ـ لقد بقى ايصال الأمانة فى حقيبتى · ماذا لو ضـــاع ؟
ـ وما ايصـــال الامانة هذا ؟ ـ ابدى لوكوتوش اهتماما بالموضوع ·
ـ ايصال الامانة · ان الأبقار وزعت مؤقتا ·· ونتعهد فى هذه الايصالات بالاعتناء بالبقرة والمحافظة عليها اذا جاء الألمان· وفى مقابل ذلك يمكن الاستفادة من لبنها · وحين يتم طرد الألمان تعاد البقرة مرة أخرى الى المزرعة الجماعية ·
ـ وماذا لو استولى عليها الألمان ؟
ـ لا تسلمها لهم وحافظ عليها ·
ـ وهل الألمان سيقولون : « اتسمحوا لنا بأخذ بقرتكم من الفناء ؟ · شكرا نتمنى لكم ليلة سعيدة » · وهل وزعتم الكثير من الأبقار ؟
ـ مائة وعشرين بقرة · وسوف نجمع فيما بعد ما يتبقى من هذا العدد فلم يكن من الحكمة بطبيعة الحال ان نترك الأبقار تحت رحمة القدر · واذا تركناها فى المزرعة الحيوانيـــة فان الالمان سيستولون عليها بلا شك ·
ـ أفهم من ذلك أنكم استعددتم للاحتلال ؟

وارتبكت ابتشارا وردت قائلة :
ـ هذا لمواجهة اية احتمالات · ماذا لو جاء الالمان · انى أعلم أن كولوف كان ضد هذا · ولقد تصرف سوسماكوف بصـــفة شخصية · اما كولوف فيعارض حتى تهجير الماشية · ويقول انه يجب الصعود بالماشية بالقرب من سلسلة جبال القوقاز · وهناك سوف يعمل الفدائيون وتصبح الماشية فى حمايتهم بجانب انهـــا ستمدهم بالغذاء · ولقد تم بالفعل تشكيل فصائل الفدائيين · كما تم توزيع كل الشيوعيين والكومسموليين على الفصـــائل وتلازم بعض هذه الفصائل أماكن تواجدها حيث يجرى تدريبها ·

ـ اذن كولوف لا يريد تهجير الماشية · وماذا عن الناس ؟ وأسر العسكريين ؟ ان الألمان سيقتلونهم بالرصاص عن آخرهم ، سيقتلونهم فى غرف الغاز ·

بدأ البيان يشعر بالقلق بعد كلمات لوكوتوش هذه · وأخذ يسأل ـ هل تنوى ايرينا الهجرة هى ودانوتشكا ؟ ·

ـ امى لا تريد السماح لهما بأى حال من الأحوال · فانها فى هذه الحالة ستبقى وحدها كلية · ولكن ايرينا تلتقى بالطبع ـ حين تذهب الى لجنة التجنيد لتسلم المرتب ـ بزوجات الضباط الآخرين· ولقد اتفقن على أشياء كثيرة فيما بينهن · كما ان دانوتشكا تذهب مع أمها الى لجنة التجنيد كذلك · وبينما يقف الجميع فى الطابور لاستلام النقود تقوم دانوتشكا بتسلية واضحاك كل الموجودين حيث تنوى الخروج للحرب هى الأخرى قائلة : ســأذهب الى الحرب الحربية · وماذا ستفعلين هناك ؟ ســـأقتل جميع الألمان · واذا قتلوك ؟ لا لن يقتلونى فان بابا سيدافع عنى · ويضحك الجميع ·

وأخرجت ابتشارا رسالة ايرينا من حقيبتها ·

كان مصير الأهل والأقارب يقلق الجميع · فلم تتمكن قواتنا من ايقاف الألمان عند نهر الدون · وسقطت فى أيديهم مدينـــة رستوف ، وهذا يعنى ان الطريق الى القوقاز أصبح مفتوحا على مصراعيه · وفى مواجهة فرقة الخيالة وحدات فرقة دبابات ولواء من المشاة الميكانيكية · وها هى الجياد ليومها الثالث على التوالى دون ماء ، كما ان هناك نقصا فى العلف · ولا يقتصر الامر على ان الجياد غير ضرورية فى هذه المعارك ، بل تعتبر هدفا ســائغا للطيران · وتحلق الطائرات الالمانية بصفة مستديمة فوق الوهاد والحدائق التى خبئت فيها الجياد · وخلال الأيام الثلاثة الأولى من المعارك لم يحقق أى من الطرفين نجاحا يذكر اذا استثنينا نجاح رجال للخيالة بمعاونة كتائب ابادة الدبابات فى صـــد هجمات

الالمان · وماذا لو تمكن الالمان من اختراق الدفاع فليست هناك أية قوات خلف قوات الخيالة · ولن يلقى الالمان اية مقـــاومة حتى سفوح القوقاز ·

ـ ألم يكن من الأفضل التمركز فى التحصينات التى أقمناها على المسالك المؤدية الى القوقاز ؟ ـ بدأت ابتشارا تفكر بالطريقة العسكرية ـ لقد حفرنا هناك حفرا لا يمكن أن تمر بها أية دبابة لو كانت هناك مدافع ·

وضحك لوكوتوش وقال البيان بحزن :

ـ ان نهر الدون ـ وهو حفرة كبيرة كذلك ـ لم يقف فى وجه الالمان · لقد حفرت حفر لا حصر لها بحيث أصبحت روسيا كلها حفرا · ولكن من الواضح ان الحفر وحدها ليست كافية · فتنقصنا حتى الآن مدافع الهـــاون حيث يوجد لكل طاقمين مدفع واحد · ننتظر حتى تحدث خسائر بيننا لتكفينا المدافع ·

دخل البيت جريا أحد المقاتلين وهو يقول :

ـ ايها الرفيق النقيب · الالمان · موتوسيكل قادم ·

قفز لوكوتوش خارجا من البيت وقد اختطف مسدسه وهو يركض · واندفع البيان خلفه الا أنه استدار ليدخل ابتشارا بالقوة داخل البيت شبيه العشة حيث كانت قد همت بالاسراع فى أثر الرجلين ·

كان هناك موتوسيكل بسبت يجلس به المانى يقترب من البيت· وكان الموتوسيكل يسير بطريقة تدل على تشكك السائق فى الطريق· فقد كان الضابط الجالس فى السبت يمسك على رجليـــه بلوحة طبوغرافية صغيرة حيث عكف على مراجعة المنطقة من واقع خريطة ميدانية · بدت العزبة مهجورة ولذا لم يشعر الالمانيان بالقلق ·

صوب المقاتل بندقيته على الالمانى الذى يقود الموتوسيكل ، أما البيان فاختبأ فى ركن وقد استعد بقنبلة يدوية ·

وأخيرا وقع نظر الالمانيين على سيارة القيادة بالقرب من صومعة العلف ، فتوقفا ٠

وعلى الطريق ظهر الجرحى الذين يسيرون ببطء فى طابور طويل نحو المؤخرة وهنا أدرك الالمانيان انهما قد ضلا الطريق ٠ وزار الموتوسيكل ٠ ولكن كان يجب الاستدارة فى بادىء الأمر كى ينطلق الموتوسيكل ٠ الا أن الالمانيين لم يفلحا فى الاستدارة ٠ فقد كان لوكوتوش أول من اطلق النار من مسدسه ٠ وأمسك الالمانى الجالس فى السبت بمدفعه الرشاش ، الا أن البيان سبقه والقى بالقنبلة اليدوية ٠ ورفع الانفجار مقدمة الموتوسيكل الى أعلى ثم اصطدم بالارض ٠ وانقلب السائق الى الخلف فأجهز عليه مقاتل بطلقة من بندقيته ٠ وفى غمضة عين كان البيان بجوار الموتوسيكل وهجم على الألمانى الجالس فى السبت ونزع الرشاش من بين يديه فاسرع لوكوتوش لمساعدة البيان ٠ واسرع الرجال من كل مكان دون أن يفهموا ما الذى يحدث هنا ٠

وندمت ابتشارا لأنه ليس لديها سلاح ٠ كتف لوكوتوش والبيان الألمانى الجريح ٠ ووضعا الألمانى الآخر بجوار الموتوسيكل وفحصاه لمعرفة هل من الممكن اعادته الى رشده أم لا ٠ غير ان الرصاصة اصابته فى عموده الفقرى وكان رأسه يترنح وكأنه مربوط بحبل ٠ فقد كان ميتا ٠

طار لوكوتوش من الفرحة : « اسير سيمدنا بالمعلومات » ٠ وتذكرت ابتشارا كيف عقد قائد الفرقة مؤتمرا عبر اسلاك التليفون ليلا ٠

ولقد تعجبت ابتشارا ٠ فقد سنحت لها الفرصة لحضور العديد من الاجتماعات ولكنها تشترك لأول مرة فى مثل هذا الاجتماع حيث يجلس كل فرد فى مكانه ويسمع الخطيب بالتليفون٠ لم تكن مشتركة فى هذه المرة فى الاجتماع ، بل كانت تسمع ما يدور عن غير عمد ٠

لم يسم قائد الفرقة أحد بأسمه أو برتبته العسكرية بل كان يستخدم اصطلاح : أيها الرفيق الأول ، أيها الرفيق الثانى ، أيها الرفيق الثالث • وطالب الجميع بشىء واحد هو الحصـــول على اسير بشتى الطرق •

ـ نحن نعمل بصورة عشوائية • افهموا ذلك • وفى الواقع ينبغى علينا معرفة عدونا • هناك مشاة ومشاة ميكانيكية فكم عددهم وما هى وحداتها ؟

أجاب « الرفيق الثالث » ردا على كلمات قائد الفرقة قائلا:

ـ نحن لا نسألهم أسماءهم بل نضربهم وحسب •

ـ لا ، يجب أن نسألهم ـ لم يتقبل قائد الفرقة المزاح ـ وفى هذه الحالة سوف يكون الضرب أوقع • هكذا فمن اذن يمكننى أن أرشحه لنيل المكافأة لاصـــطياد أسير ؟ انى امنحكم مهلة أربع وعشرين ساعة •

وها هو الأسير جاهز • ياترى هل سينال البيان المكافأة ؟ وماذا عن النقيب لوكوتوش ؟ والمقاتل ؟ هل سيقدمون وساما واحدا لثلاثتهم ؟

ـ ضمدى جرحه ـ قال البيان لاخته •

كان الألمانى نحيفا ، طويل القامة ، اسود الشعر والعينين ، مما يجعله يشبه ابناء القوقاز ، جريحا فى عظم وجنته • فقـــد أصابته شظية من القنبلة اليـــدوية فى فكه • كانت الدماء تندفع بغزارة وتسيل الى ما بين الياقة والرقبة ، فأغرقت شارات الرتبة• وقصت ابتشارا رزمة من ضمادات الاسعاف وبدأت تضمد الجرح•

فى هذه الأثناء أبلغ لوكوتوش باعتقال « الأسير » واجلسوا الألمانى على الصـــــندوق ، بل صب له لوكوتوش نبيذا فى كوب نظيف •

ـ لا ضير فلنشرب نحن كذلك نخب نجاحنا ـ كان لوكوتوش فرحا كطفل ـ سوف يحضرون لأخذه الآن · ياله من لئيم : اليس كذلك ؟ وكأنه كان يعلم اننا فى أمس الحاجة الى أسير · فلنشرب أولا ثم نتبين ما هذا الصيد · ابتشارا سنمتحنك الآن فى اللغة الألمانية ·

لم تستطع ابتشارا ان تحيد بعينيها عن الألمانى · انه انسان مثل الآخرين الا انه كم يحمل من الآلام للناس بل ولم تكن تصدق أن أمامها يجلس المانى · هذا الفاشى الذى جاء الى هنا يقتل الناس ويحرق البيوت ويقتل النساء والأطفال فى غرف الغاز · وها هو لوكوتوش يصب له كأسا · ثم ها هى نفسها تضمد جرحه · لماذا ؟ كيف تجاسرت يدها لمس رأسه ؟

ـ أتسمعيننى يا ابتشارا : سوف نمتحنك الآن ·

ـ لا أعرف اللغة الالمانية فقد نجحت فيهـــــا بدرجة مقبول « بصعوبة »

كان لوكوتوش يمـــزح معها · فانه لم يكن ينوى بالمرة تعذيب ابتشارا حيث كان يعرف الألمانية معرفة كافية · واخرج لوكوتوش من محفظة الضابط الخريطة الميدانية لاقليم رســـتوف والتى تحولت بعد فردها من لفة صغيرة مطوية جيدا الى خريطة ضخمة بحجم ملاءة السرير ·

كانت المدن التى استولت عليها قوات الرايخ معلمة بعلامات صليب زرقاء اللون كما كانت العزبة التى يوجدون بها الآن معلمة هى الأخرى بعلامة صليب زرقاء · من الواضح أن رجال غرفة العمليات فى قيادة فرقة الدبابات الألمانية تعجلوا بوضع هذه العلامة مما جعل الضابط الاسير يضل طريقه ·

لم يرفع الألمانى رأسه وكانت شفتاه مطبقتين بقوة وكأنهما قد اتخذتا هذا الوضع كيلا تقولا شيئا · واستمرت الدماء تسيل من تحت الضمادة · كان الألمانى واثقا من أنهم سيطلقون النار عليه · سيحاولون استجوابه أولا ثم يطلقون عليه الرصاص ·

ـ أنظروا مدى تطاولهم ـ قال النقيب لوكوتوش فى هلع ·

فقد كانت هناك مدن توجد على مسافات بعيدة جنوبى نهر الدون معلمة كذلك بعلامات الصليب الزرقاء · ولم تكن الاذاعة قد أعلنت بعد استيلاء الألمان على هذه المدن · فكانت العلامات الزرقاء تشمل مدن رستوف وباتايسك وسالسك وتيخورتسك وخلف نهر الدون قرى تسمليانسكيا وماروزوفسكيا وكالاتش عند منعطف نهر الدون ·

لقد سمع لوكوتوش ان القيادة العليا الهتلرية قد زجت فى هذا القطاع من الجبهة قوات مجرية · وتفضى مهمتها باحتلال اقليم كالميكيا · ومن الطريف معرفة لماذا القوات المجرية بالذات ؟ وما هى الرابطة التاريخية التى وجدها الألمان بين المجريين والشعب الكالميكى ؟ وكان لوكوتوش يعرف قليلا من تاريخ الشعب الكالميكى الذى كان يقطن أثناء حكم القيصر الكسى ميخائيلوفتش (*) التبت ، وجاء ممثلوه الى قيصر روسيا يطلبون منه احتلال الأراضى المهجورة غربى نهر الفولجا وبحر قزوين · وسمح لهم القيصر الروسى بذلك · وتحرك الكالميكيون عبر سيبريا خمس سنوات كى يحتلوا هذه الأراضى · ولقد خططت القيادة الألمانية وهى تضع حملتها الصيفية ـ لاستيلاء القوات المجرية على اقليم كالميكيا ، آخذة فى اعتبارها ، على ما يبدو تلك الأحداث التاريخية التى هزت أوربا كلها قبل الميلاد · فقد تدفقت اعداد هائلة من قبائل الهون على

(*) القيصر الكسى ميخائيلوفتش حكم روسيا فترة ١٦٤٥ ـ ١٦٧٦ ·

أوروبا قادمة من الشرق عبر طرق التجارة بالحرير · وأخذ الهون يخضعون ويبيدون الشعوب التى كانت فى طريقهم ـ وهذا ما يعرف فى التاريخ بغزو الهون · لم يعد الهون الى أراضـــيهم الأصلية واستقروا بين الشعوب التى أخضعوها لسلطانهم واختلطوا بها · ويقولون أن دماء الهون القدماء تجرى فى عروق المجريين الحاليين· وهذا ـ كما يعتقد هتلر ـ ما يقرب بينهم وبين الكالميكيين · الا ان الكالميكيين قد اسدلوا ستار النسيان على عقيدتهم القديمة المتمثلة فى تقديس السلف · واعتنقوا عقيـــدة جديدة دعمت ارادة كل الشعوب السوفييتية ·

ولكن من المرجح أن الاسير كان لا يفهم التاريخ جيدا ، هذا علاوة على ان الذى كان يهم لوكوتوش الآن ليس هو التاريخ · وسأل لوكوتوش الأسير :

ـ أية وحدة كنت تقصد ؟

وتقلقل الألمانى فى جلسته · وأوضح له لوكوتوش سـؤاله قائلا :

ـ أريد أن أعرف هل كنت ذاهبـــا الى الألمان أو كنت تريد الوصول الى الروس ؟ وعلى ما أعتقد انك وصلت الى هنا لأنك ضللت الطريق فان العلامات المبينة على خريطتك دقيقة · أليس هذا صحيحا ؟

لم يرد الألمانى ووصف بيانات الخريطة بانها غير دقيقـــة ومن ناحية أخرى فانه لم يستطع القول بأنه جاء الى الروس عن عمـــــد ·

ـ لقد كنت ذاهبا لا الى الروس ولا الى الألمان ·

ـ اذن الى المجريين ! ـ انتفض لوكوتوش كله ·

ورفع الأسير رأسه باعتزاز وقال :

ـ لن أجيب على الاسئلة المتعلقة بالاسرار العسكرية ·

ـ أية أسرار عسكرية هنا . انى لا أسـألك على سـبيل المثال عن الفرقة الرابعة والاربعين دبابات أو اللواء مائة وثمانية وستين مشاة ميكانيكية . فى هذه الحالة يمكن القول بأن هـذه أسرار عسكرية . أما ما أقصده فليس من الأسرار . واذا كنت غير ذاهب لا الى الروس ولا الى الألمان فليس أمامك سوى طريقين : اما الى الله واما الى المجريين .

وجد لوكوتوش بين الوثائق الألمانية منشورا عليه الصليب المعقوف . كان النص مكتوبا بخط دقيقباللغتين الألمانية والروسيةـ أنه منشور . وكانت الطائرات تلقى فى كثير من الأحيـان هذه المنشورات التى تستهدف الدعوة للانتقال الى صف الألمان فرادى وجماعات على أن يحمل الفرد معه ملغقة (ربما لتناول العصيدة بالزبد بها ؟) كما كانت تعتبر فى نفس الوقت تصريحا يمكن الدخول به الى مواقع القوات الألمانية .

أما هذه المرة فقد كان المنشور مختلفا . فقد كان على أحد وجهيه نداء الى شعوب القوقاز وعلى الوجه الآخر نداء من القائد الى الجنود الذين عليهم القتال فى منطقة القوقاز . وقدم لوكوتوش المنشور الى ابتشارا قائلا :

ـ اقرأى .

كان الجنرال الألمانى يطلب من جنوده الأخذ بعين الاعتبار أنهم سيصطدمون الى جانب الموانع الطبيعية (الجبال) بجماعات المتطوعين المشكلة من أبناء سكان المناطق الجبلية القوقازية وهم ما يطلق عليهم اسم الفدائيين . وحذر الجنرال من ان انتفـاضة شعوب الجبال يمكن ان تكون ذات عواقب وخيمة بالنسبة للألمان ولذلك فمن الضرورى .. ثم يتم سرد ما هو ضرورى لتقريب ساعة التقاء القوات الألمانية بقوات الامبراطور اليابانى فى الهند .

– وتقضى الخطة أن يكونوا فى باكو فى الخامس والعشرين من أيلول – وانهت ابتشارا بذلك قراءة المنشور • وسأل البيان متعجبا:

– نفهم من ذلك أنهم فى طريقهم الى الانتهـــاء من تحقيق أهداف حربهم ؟

وتوجه لوكوتوش بالسؤال الى الأسير من جديد :

– سؤال لا علاقة له بالأسرار العسكرية : هل أنت واثق من انتصار الألمان ؟

وتعجب البيان لسؤال لوكوتوش • أليس واضحا من الوثائق أنه لا توجد لديهم ظلال من الشك فى انتصارهم النهائى • كما انهم حددوا يوم وصولهم الى باكو • وهناك تصبح الهند فى متنـــاول اليد • غير أن الاسير أجاب اجابة أخرى :

– لست أدرى هل سننتصر أم لا • ان الحرب هى الحرب • ولكننا سوف نعلمكم الحرب •

هب لوكوتوش من مكانه ، ولكنه تمالك أعصابه بصعوبة كيلا يلطم الأسير :

– ماذا تقول ؟

– لا أشك فى أننا – نحن الألمان – سنعلمكم الحرب •

وترجم لوكوتوش بضحكة عصبية كلمات الألمانى للباقين ••

– أيها الوغد المسترخى الأذن ! – احتـدم البيـان غضبا هو الآخر :

– اهدأ يا البيان • لقد وقع بين ايدينا صنف شيق من الرجال أنه قادر على التفكير • هلم وصب له نبيذا وليشرب مع « التلاميذ »

رن جرس التليفون فالتقطت ابتشارا السماعة ، كان «الاول» يطلب لوكوتوش • بقبق فى السماعة صوت قائد الفرقة المسرور

ولم يسمع النقيب منـــــذ مدة طويلة « الأول » وهو فى مثل هذا الانفعال والمزاج المرتفع ، وقال قائد الفرقة :

ـ يا عزيزى سمعت أنك اصـــطدت المانيا • هلم به الى • انى أريد التحدث اليه بنفسى • ولتأت معــه كذلك • فقـــد سمعت أنك مقطع السمكة وذيلها فى اللغة الألمانية وسوف تقوم بالترجمة• لقد أرسلت السيارة لاحضاركم •

كان الألمانى يتابع بعينين حمراوين وبقلق وانهاك كل حركة من حركات القادة وتعبيرات وجوههم وكأنه يحاول تخمين من الذى سيطلق عليه الرصاص ليعدمه •

وضع الوكوتوش السماعة • ولم يكن يســـتطيع أن يرسل الأسير الى القيادة قبل أن يعرف بالضبط كيف ينوى هذا الوقح تعليمه القدرة على الحرب • ومن الواضح أن هذه الفكرة لم تكن وليدة هذه اللحظة • فمن المرجح أنه قد سمع الآخرين يرددونهـــا كذلك •

ـ اذن لقد جئت الينا لتشتغل معلما ؟

ارتعدت زاويتا فم الألمانى • ونظر الأسير الى ابتشارا ثم حول نظره الى الصندوق الموضوع عليه المأكولات وابتلع لعابه •

ـ أجب : اية عملية عسكرية سنقوم بتحليلها الآن لنستخلص منها الدروس ؟

لقد اشترك لوكوتوش فى الحرب منذ أيامها الأولى ، وكان من الطريف بالنسبة له أن ينظر الى المعارك من وجهة نظر الألمانى فيعرف كيف يقيم الالمانى نجاحاته واخفاق قواتنـــا • ان عـــامل المفاجأة عاد على الألمان بنجاح كبير فى بادىء الأمر • غير أنهم لم ينجحوا فى جعل الحرب حربا خاطفة • وعلاوة على ذلك فقد

تحطمت عند مشارف موسكو اسطورة الجيش الألماني الذي لايقهر. واذا كان الألماني أخذ على عاتقه دور المعلم ، فليجب - اية عملية سوف نحللها ؟

- ماذا يوقوق حول كيرتش ؟ - تيقظ البيان حين فهم من بين كل ما رطن به الالماني كلمة « كيرتش » فقط .

لم يرد لوكوتوش ترجمة كلمات الألماني فقال :

- انه لا يقدم شيئا . على العموم أمامنا فرصة كبيرة للحديث معه . الآن على تنفيذ الأمر باصطحابه الى « الأول » .

وفي هذه اللحظة وصل الى الأسماع ضجيج السيارة التي أرسلها قائد الفرقة . وخرج يعقوب من السيارة ماركة « م » الملونة بشكل غريب وبدا عليه الزهو والوقار وكأنه هو الذي أعتقل الألمان. وعلى العموم فقد كانت لدى يعقوب أسباب تجعله يشعر بالزهو . فقد كان الزي الجديد يلمع عليه . ثم كان المسدس معلقا في بطنه بالطريقة الألمانية . وفي عروتي الياقة شارة الضباط المثلثة وعلاوة على هاتين الشارتين لا توجد على الزي اية علامات أخرى بحيث يصبح من الصعب فهم هل هو مسئول سياسي أم قانوني عسكري أم قائد محارب . « هل يا ترى حصل على رتبة النقيب على الفور ؟ - تعجبت ابتشارا في نفسها - لقد صعد سلم الترقي بسرعة » .

- وها أنت هنا - قال يعقوب حين رأى ابتشارا - ان صديقيك عضوا الوفد قد رحلا في آخر لحظة . ولو كانا قد تأخرا عشرين دقيقة أخرى لكانا قد ضاعا تماما .

مدت ابتشارا يدها ليعقوب :

- اهنئك .

بدا وكأن يعقوب لم يفهم في بادىء الأمر ، أو كأنه لا يريد أن يهنئه أحد ، وقال لها :

- آه .. أتقصدين هذا ، شكرا .

وهنأ لوكوتوش وألبيـــان كذلك النقيب الحـديث الترقى · ولكنهما كانا يعرفان فى الحقيقة ان يعقوب ليس نقيبا « بل قانونى عسكرى من المرتبة الثالثة » · ولكن يعقوب لن يستطيع أن يصحح كل من يدعوه أيها الرفيق النقيب · ان شارة الضباط لاتحتاج الى توضيح وساله لوكوتوش :

ـ هل جئت لأخذ « المعلم » ؟

ـ أى معلم ؟ ـ لم يفهم يعقوب ·

ـ هذا المعلم الذى يجلس أمامك · انه يريد تعليمنا الحرب· يقول ان مقاومتنا غير مجدية · ويقول أننا انهكنا الألمان بانسحابنا ويقول أننا ننسحب دون الاســـــتفادة الكاملة من كل الامكانيات وينبغى الصمود لا الانسحاب · انه رجل استراتيجية ·

ـ ربما يعرف آخر أوامر ستالين ؟ انه أمر هام جدا ·

ـ أى أمر تقصد ؟ كيف يمكنه معرفة الأوامر السرية للقيادة العليا ؟

ـ انه ليس بهذا القدر من السرية كما تعتقد · هلم نذهب الى قائد الفرقة · وهناك ستتطلع عليه · ان « الأول » ينتظر بفارغ الصبر · لدى في السيارة مكانان شاغران ·

أخذ لوكوتوش ويعقوب بيشتويف الأسير وكل ما لديه من أوراق ورحلا · وأخيرا بقى الأخ والأخت وحدهما · ولكن ما أن جلسا ليفضيا بما يجيش فى صدريهما حتى سمعا صـــــوتا من الخارج يقول :

ـ أين هنا هذه الفتاة ؟ فتاة نالتشيك ؟

وأدركت ابتشارا أن أحدهم يبحث عنها فخرجت قائلة :

ـ من الذى يبحث عنى ؟

ـ السلام عليك · اذن أنت التى جئت بزوجتى الى الألمان ليأسروها ؟

وهنا خرج البيان · وعرف البيان دوتى كوشروكوف قوميسير الفوج فتدخل فى الحديث قائلا :

ـ انها هى أيها الرفيق القوميسير · أقدم ابتشارا اختى · أنا شخصيا لم أعرف بوجودها هنا الا اليوم فقط ·

لم يكن قوميسير الفوج فى سن الشباب من حيث المظهر · فقد استقرت التجاعيد على وجهه بصورة واضحة كان نحيفا ذا عينين رماديتين كبيرتين ، فاتح لون الشعر ولا يشبه الكاباردينى كثيرا · وبدا لابتشارا أنه صارم جدا · ودخل الثلاثة الى البيت وجلسوا الى الصندوق المعد بدلا من المائدة وبدأوا يشربون النبيذ ويأكلون ، وكان لديهم ما يمكن التحدث عنه ·

دوتى كوشروكوف ـ قوميسير الفوج

كان البيـــان مستعجلا ولذا ذهب الى موقعه حيث تنتظـره شئون فصيلته · وقصت ابتشارا على القوميسير ما رأته خلال هذه الأيام ، الا أنها كانت أكثر تشوقا الى سماع الحديث منه واتضح أن أوزيزة كادت تقع بالفعل فى أيدى الألمان ·

ظل تشورف ـ رئيس الوفد التعس ـ واوزيزة ينتظران عودة ابتشارا بصبر فى بادىء الأمر · ولكن بعد ذلك بدأ هرج ومرج ، وتدفقت على محطة السكة الحديدية حوالى عشر ســـيارات من مختلف الجهات ، وأخذ المقاتلون يحملونها بكل ما هو ممكن وهم فى عجلة من أمرهم ثم بدأوا بعد ذلك يستعدون لتفجير المخازن · وبدأ خاتالى ينشط هو الآخر ، وجد ملازما معه سيارة فقدم له ثلاثين طردا للوصول الى مدينة أرمافير · وبدأوا يواصلون انتظار

عودة ابتشارا · وبدأ الملازم يفقد أعصابه فان الطرود لم تعد تغريه الى جانب أنه كان من الممكن أن يأخذ من الطرود أى عدد يريده دون مساعدة من خاتالى · وفى نهاية المطاف قال لخاتالى بحزم أنه سيرحل · وكان هدير المعركة يقترب أكثر فأكثر · ولم يعد أمام خاتالى وأوزيزة خيار فرحلا مع الملازم فى اللحظة التى بدأ فيها تفجير مخازن الذخيرة ·

كما قص دوتى على ابتشارا تفاصيل استشهاد سلطان خولامبايف كذلك · كان سلطان متجها بكل مهمات القسم السياسى الى مكان تمركز الفرقة · ومن المحتمل انه كان قد وصل بسلام لولا أن صادف فى الطريق امرأة قوزاقية لاجئة ومعها جوالان كبيران ممتلآن بمختلف الأمتعة وأخذت المرأة تبكى وأمسكت بيد سلطان ترجوه أن ينقلها حتى محطة السكك الحديدية التى تقع على بعد خمسة كيلو مترات · وكان ذلك يقضى الخروج عن الطريق العام ، الا ان نفس وضمير قوميسير الكتيبة لم يكنا ليسمحا له بترك المرأة وسط الطريق · وزعمت المرأة القوزاقية بأن كل أقاربها ينتظرونها فى المحطة وبعد ذلك سوف تهاجر معهم ·

ونصح مراقب القسم السياسى خولامبايف بمواصلة السير فى طريقهم ولا سيما ان صوت المعارك يصل من ناحية المحطة ، الا أن خولامبايف لم يكن يتحمل دموع النساء كما هو معروف عنه ·

ـ حسنا ـ قال ، أما ليهدأ نفس مراقب القسم السياسى أو نفسه شخصيا ـ ان خمسة كيلو مترات كلام فارغ · ربما تكون الطريق الى الفرقة من هناك خالية أكثر من هنا · فلنوصل المرأة المسكينة ·

وضع الجوالان فى السيارة وأجلس سلطان المرأة فى الكابينة كى ترى الطريق وانطلقت السيارة بالجميع · كانت المسافة

على الخريطة لاتزيد فى الواقع على خمســـة كيلو مترات الا أن الطريق بدا طويلا فضلا عن القلق المسيطر على من فى السيارة • وقبل المحطة مباشرة فرمل السائق بشدة : فقد كانت تسير فى الاتجاه المقابل حاملة جنود مدرعة على جانبها صليب أبيض •

ـ الألمان ! ؟

انعطف السائق الى اليسار فوقعت السيارة على الفور فى مصرف ماء عميق • وأطلق الألمان دفعة رشاش على العجلات • وبدأت المرأة فى الصياح فقفز السائق وأسرع الى حقل قمح • وكان الألمان على بعد مائة خطوة حين التفت وراءه آخر مرة • وسمع عدة دفعات رشاشات من خلفه ، ولكنه لم يفهم هل كانوا يطلقون عليه الرصاص أم على رئيس القسم السياسى ومراقبه • وفى المساء عاد السائق الى مواقع قواتنا •

بينما كان دوتى وابتشارا يتجاذبان الحديث فى هدوء ، عاد لوكوتوش :

ـ هل أوصلتموه بسلام ؟

ـ كل شىء على ما يرام •

ـ هل وقع فى أيديكم المانى كثير الكلام أم محب للصمت ؟

فلوح لوكوتوش بيده • فقالَ دوتى :

ـ لا بأس سيتكلم • لقد كنا أنا وابتشارا نتجـــاذب أطراف الحديث • لقد قصت على كل شىء • كم تحملت هذه المسكينة خلال هذه الأيام •

ـ وانى اتعجب كيف تحملت كل هذا فانها فتاة رقيقة •

ـ من الممكن تحمل كل شىء فى الحرب ما عدا الموت • حسنا فعلت حين الحقتها بالفوج • ولتبق هنا حتى تحين الفرصـــــة فنرسلها الى القرية •

ـ لقد سجلتها فى كشف الملوّن كذلك ٠ أما المشكلة الوحيدة فهى عدم وجود تنورات وحذاء يتناسب مقاسها ٠

ـ حمدا لله انها سليمة ٠

ـ طبعا « يا كأس نبيذ أحمر اللون » ٠

وانتفضت ابتشاراً لهذه الكلمات وسألته :

ـ من أين تعرف هذه الكلمات ؟

ـ لقد قالها لى البيان ٠ وأسفاه على شاعرك ٠ فقد استشهد بطريقة بائخة ٠ ولكن خذ فى اعتبارك أننا قد أخذنا بثـــأره ٠ فها هو المانى ميت ٠

وتدخل دوتى فى الحديث قائلا :

ـ سوف يستمر الفاشست فى دفع الثمن طويلا ٠ ســوف نقتل جميع جنودهم ٠ ورغم ذلك سيبقى عليهم دين كبير ٠

فى ذلك اليوم حين علم كوشروكوف أن زوجته أوزيزة قادمة اليه ، وصل أمر اشراك الفرقة فى القتـــــال ٠ ولكن الرئاسة لم تعترض على ان يبقى قوميسير الكتيبة ليومين حيث يلتقى بزوجته٠ ولكن دوتى نفسه لم يرغب فى البقاء ٠ فقد كان يخشى أن يدخل الفوج المعركة وتفوت على القوميسير فرصة الأخذ بالثـــأر من الألمان ٠ فقد كان عليه أن يكون مع الفوج كل دقيقة ٠

ـ أتدرى ما الذى قاله الألمانى ؟ لقد قال : ســوف نعلمكم الحرب ٠٠ وأنت هنا جالس تتحدث عن الدين ٠ واذا كانت الأمور ستسير على هذا النمط مستقبلا فانى أخشى أن يكبر هذا الدين أكثر فأكثر ٠ هل قرأت أمر ستالين ؟

ـ نعم قرأته ٠ ولم أقرأه وحدى ٠ فقد قرأته فى جميع الوحدات الفرعية ٠ انى قادم الى هنا من الخط الأمامى مباشرة ٠ ان العزم ليملأ المقاتلين بالصمود حتى آخر رجل ٠ وها هو البيان الذى كان هنا منذ وقت قريب ـ أخو ابتشارا ٠ لقد خطب فى الجنود قائلا :

« ان الألمان كثيرون ولكن قذائفنا اكثر ، وتكفى كل الألمان » كما أن الآخرين يفكرون على هذا النحو كذلك · لا يوجد هنا جبناء · وانى على ثقة أن فرقتنا ستحصل على لقب « الجفارديا » (*) ولقد طلبت من محرر صحيفة « الفرقة » ان يطبع لنا المزيد من كشوف الترشيح لنيل المكافآت · لم نحارب سوى يومين فقط ، ومع ذلك تم ترشيح العشرات من المقاتلين والقادة الذين أبلوا بلاءا حسنا لنيل المكافآت وسيبلغ عددهم المئات بعد أسبوع ·

ـ وهل سنصمد أسبوعا ؟

وبهت كوشروكوف لهذا السؤال المباشر وقال :

ـ هناك أمر ··

ـ لو كان الأمر يحل محل كل ما ينقصنا ·· رجال الخيالة يواجهون الدبابات بالسيوف · ولقد هدد الأسير بأنهم سوف يمحوننا عن وجه الأرض غدا · انهم يدفعون الى الأمام بالدبابات والمدفعية والهاونات الثقيلة · انهم مدرعون ولن تؤثر فيهم الالغام · لدينا الكثير من الشجاعة ، ولكن لن يعوقنا عدم وجود مدرعات لدينا · اين التغطية من الجو ؟ اين الحماية ؟

ـ لقد ذكر الأمر كل شيء ·

ـ ها هم الألمان يقتربون بالفعل من أرمافير ·· يتحدث الأمر عن الخنادق ·· لقد كانت مدينة رستوف كلها خنادق · ونهر الدون نفسه مانع مائى كبير ورغم ذلك لم نفلح فى ايقاف الألمان· قدموا لنا خيالة المانية لتكون المعركة معركة الند للند وليكون هناك مجال للتفوق هو الشجاعة والقدرة ·

كان كوشروكوف يستمع الى النقيب باهتمام دون أن يقاطعه رغم أنه لم يتفق معه · وحاول لوكوتوش فهم هذا الضابط النظامى

(*) لقب يمنح للوحدات التى تبلى بلاء حسنا ·

الذى تأثر تأثرا كبيرا بكلمات الألمانى الأسير . وكان ينبغى عليه كرجل عسكرى أن يعرف أن الشجاعة والعزم والثبات تضاعف من القوة .

ـ كنا جميعا نعتقد أننا سوف نحارب وفقا لمبدئك هـذا : دبابات ضد دبابات وطيران ضد طيران وخيالة ضد خيالة ودولة ضد دولة غير أن الموقف تغير . ولو كان الفرنسيون والبولنديون والانجليز قد أوفوا بالتزاماتهم لاختلف وجه الحرب . أما الذى حدث ، فقد استولى هتلر على القوات العسكرية لاوروبا كلها ووجه هذه القوة الضخمة ضد بلدنا . لو انتصر علينا فلن يتمكن أحد بل ولن تتمكن أية قوة من ايقافه وسوف يصول ويجول فى العالم أجمع وترفرف فى كل القارات وعلى مبانى البرلمانات جميعا رايات ، ربما تكون رايات مختلفة ، الا انها ستحمل جميعا علامة الصليب المعقوف . لست أدرى كم من الوقت سنصمد هنا ، ولكن يجب الصمود حتى آخر رجل ، وهذا هو واجبنا .

ـ هكذا بالضبط ان أراضى بلدنا لها نهاية وعندئذ الى اين سنتراجع ؟ يجب علينا ايقاف العدو فى مكان ما . ولكن أين ؟ هذا ما لا أعرفه .

أرادت ابتشارا تخفيف حدة الموقف فأسرعت دون اذن وأحضرت صندوقين هدايا من مخزونها وكذلك الصندوق الكبير الذى كان يستخدم بدل المائدة وفتحت زجاجة نبيذ وصبت فى الأكواب البلاستيك . الا أن الحديث كان قد سيطر على القوميسير ونائب قائد الفوج لدرجة أن أيا منهما لم يمس الطعام أو الشراب .

أخذ دوتى نفسا من سيجارة ثلاث مرات متتالية . وبدأ من وجهه أنه يشحذ فكره ويختار الكلمات لمواصلة الحديث :

ـ أتدرى ما الذى أريد أن أقوله لك ، يجب الصعود الى الجبل كي تعرف ما الذى يجرى وراءه · ربما هناك ماشية ترعى ، وربما أناس يقطعون الحطب · أما أنا وأنت فنخبط الآن خبط عشواء · يمكنك أن تصعد الى القمة التى ينظر منها ستالين على العالم وضع نفسك مكانه واسأل نفسك كيف تتصرف لو كنت مكانه· لست أدرى صورة العالم الذى يرقبه ستالين · ولكنى على ثقة أننى كنت قد تصرفت بنفس الطريقة · وانى واثق من أنه لو كنا قد خرجنا الى ميدان المعركة لمحاربة ألمانيا وحدها ، لجعلناها تركع ·· وتركع فى الشهر الأول · ولا شك لدى فى هذا بالمرة ولكن هتلر فتح فمه كالوحش قائلا : « أعطونى شيئا التهمه والا انهش الاكثر شحما » ·

ومن هنا الأكثر شحما ؟ انجلترا وفرنسا · أمسكت الاثنتان باقليم السوديت والقتا به فى فم الوحش · وابتلع الوحش هذه القطعة وثارت شهيته وأراد المزيد فقدمت له النمسا · وابتلعها هنيئا مريئا · وعندئذ لم يجد الذئب صيادين بجواره ولم يحاول أحد أن يطلق عليه النار ، اذن هات له بولندا على صينية ثم من بعد تشيكوسلوفاكيا ورومانيا والمجر ويوغسلافيا وبلغاريا · وأعجب الوحش بهذه الأكلات والآن اليه بالنبيذ ـ مد دوتى يده الى الكوب واحتسى جرعة وكأنه يؤكد كلماته وسرعان ما وضع الكوب ثانية ليواصل فكرته ـ ولكننا بلد ضخم يصعب على الوحش التهامه فان عظمة ما ستقف حتما فى زوره ·

ـ ولكنه ابتلع قطعة كبيرة من برست الى نهر الدون ورغم ذلك لم تصادفه عظمة ·

ـ كيف لم تصادفه ؟ لقد كسرت أسنانه · وكان من الممكن أن تكون قد كسرت أكثر من ذلك لولا عنصر المفاجأة · ـ أخذ دوتى قطعة سجق مدخن وبدأ يمضغها بصعوبة ·

ـ عنصر المفاجأة ! لقد رأينا أنهم يهاجموننا ورغم ذلك نسمع المسئولين يقولون «لا تنساقوا للاستفزاز» ، «لا تنساقوا للاستفزاز». الألمان يقصفوننا بالمدافع ، فى الوقت الذى لا يسمح فيه قوميسير الفوج بالرد عليهم قائلا أن هذا استفزاز ، طلقة وأخرى وبطاريتنا كأنها لم تكن .

وتذكرت ابتشارا كلمات بيكان ديدانوف حول الحمل الذى يجب عبور التيار به .

ـ كانت مدافعنا الثقيلة مصوبة الى حيث ينبغى ذلك . واذا كان الأمر قد صدر لكنا انزلنا ضربة قوية تجعل الألمان يفقدون سراويلهم . أنا لم أكن بطبيعة الحال على قمة الجبل كى تتكشف لى كل المنحدرات ، كان من الأفضل استباة العدو بساعة وضرب تجمعاته بكل أنواع الأسلحة .. وبطبيعة الحال فاننا فى نظر العالم أجمع ضحية للعدوان وللخداع الغادر .. وهذا عامل معنوى . وبعد الحرب سوف يجدون المذنبين عن الهزائم الأولى وسترى ذلك .

ـ لا لن أرى ذلك ـ قال دوتى بهدوء .

ـ ماذا بك الا تؤمن باننا سننتصر ؟

ـ أؤمن ، ولكنى لن أرى ذلك .

ـ لست أفهمك . تكرر فى كل مكان أن النصر حليفنا وسيهزم العدو ، ومع ذلك تقول لن أرى ذلك .

ـ سوف أموت قريبا . لن أعيش حتى نهاية الحرب.

ـ أعتقد أن هذا لا يتفق وروح القوميسير . ان هذه نزعة تشاؤمية ، ينبغى عليك أن تبث فى قلوب الناس كلمة الأمل ـ سننتصر ، أما أنت فتقول « لن أعيش » . وكيف يمكنك أن تعرف أنك ستموت !

ـ هذا أمر يطول شرحه . لقد شهدت ذات مرة الموت بعينى.

ولقد أنقذنى أناس أوفياء · وعندئذ أقسمت أن أجود بالحياة التى أعادوها الى على أن يكون ذلك بقتل عشرة من أعدائى في مقابلها وليس أقل من ذلك · ولهذا فاننى أوافق قلبا وقالبا على أمر ستالين بالصمود حتى آخر رجل · وانى على استعداد · ولكنى أخاف شيئا واحدا أن تصيبنى قنبلة فتقتلنى · حينئذ سينهار أملى · انى أريد أن أقتل فى المعركة فى النزال · أضرب العدو ويضربنى · أسقط على الأرض وهو يسقط ، أنزف دما وهو ينزف ، اجهز عليه وهو يجهز على ·

ـ يا لك من قوميسير مجنون !

ـ لا أريد أن تكون نهايتى بصورة أخـــرى · سأتوجه الى الكتيبة الثانية خيالة لقراءة الامر · وسأنظم حديثا مع الجنـود وسأناديهم فليتقدم كل من يريد الصمود معى حتى الموت · هـل تعتقد أن أحدا لن يتقدم ؟

ـ سيتقدم · لن يرفض أحد السير وراء القوميسير · ولكنك على هذا النحو تلقى بهم الى التهلكة · ان الحرب فن · وللحرب نظرية ، نظرية وتطبيق · ولا يوجد فن لاهلاك الناس · كما لا توجد نظرية لهذا كذلك · والقتال لا يعنى أن يلقى الانسان بنفسه الى التهلكة ·

كانت ابتشارا تستمع دون تحيد بنظرها عن القوميسير ، ولقد أدركت الآن فقط السبب الذى جعل أوزيزة تتحرق شوقا للمجىء الى هنا رغم أنها حامل · فقد كانت أوزيزة على ما يبدو ، على عـلم بمزاج زوجها ، ولذا كانت تريد أن توحى اليه بالرغبة فى الحياة كما كانت تود أن ترى نفسها لزوجها كى يرى أن هناك خليفة له نصيبه من حياته ولذا يجب عليه أن يفكر فيه كذلك ·

لقد رحلت اوزيزة المسكينة دون أن تحقق هدفها ·

ـ انى أدخل المعركة لا لأموت ، بل أدخلها وأنا على استعداد

للفداء بحياتى مع قتل أكبر عدد ممكن من أرواح العدو فى مقابلها٠ انى أدخل المعركة وأنا أفكر فى الموت كى ترى أنت النصر ٠ انى لا أهتم بأن أخرج حيا من هذه الحرب ٠ ان مثل هذا الاهتمام يبعد ساعة النصر ٠

ــ سوف أخصم ما قلته ٠٠٠

ــ من حساب الحرب ، ــ أضافت ابتشارا العبارة المفضلة ٠

ــ لا ، من حساب ما شربناه من كئوس ٠ أنظرى ، لقد احمر وجه القوميسير انه لا يخفى أفكاره فقط ، بل لا يستطيع اخفاء أنه شرب نبيذا كذلك ٠ ان كل شىء لديه واضح للعيان ٠

ــ حسنا ، ــ فلنترك النظرية جانبا أيها النقيب ٠ هلم نشرب نخب ابتشارا ٠

فأضاف لوكوتوش :

ــ فلنشرب نخب ابتشارا كأس النبيذ أحمر اللون ٠ بكل سرور ٠

ــ فى صحتك يا ابتشارا ، ان عينيك خلقهما الله كى ترى انتصار الناس لا هلاكهم ٠ انى أشرب الكأس عن آخره ٠٠

وشرب القوميسير بدفعة واحدة ثم اتخذ طريقه نحو الخط الأمامى ٠

لغة الحرب

أوقف الالمان هجماتهم لبعض الوقت وحل الهدوء الذى يسمى فترة التقاط الانفاس ٠ الا أن أحدا لم يفكر على الاطلاق فى التقاط الانفاس ٠ فقد كان الاعداد للمعركة الجديدة يجرى على قدم وساق بطول جبهة الفرقة ٠ فقد كان العمل يجرى فى اعداد الخنادق وتعميقها فى الحد الامامى المواجه للعدو مباشرة ٠ وشق ممرات جديدة ٠ واستكملت الذخائر من قذائف والغام وقذائفه

مضادة للدبابات . وأخذت وحدات فرعية جديدة تتدفق من المؤخرة على الخطوط الامامية ووضعت المدافع المضادة للدبابات على المحاور التى يتوقع هجوم الدبابات منها ، ثم تم تمويه هذه المدافع . بل وتأتى على المقاتلين الاشتغال بعمل لا يمت بصلة الى العمل العسكرى . فقد عكفوا على تنظيف الآبار حيث كان الماء لا يكفى لا الرجال ولا الجياد ولا السيارات ولا الرشاشات الثقيلة . كما أمر قائد الفوج بحفر أربع آبار جديدة .

كانت الاوامر تصدر بالتليفون وتمر كلها عبر ابتشارا ، عبر المحول الذى تعمل عليه ، غيرأنها لم تكن تفهم دائما عم يدور الحديث .

فها هو لوكوتوش يطلب « سجائر » والآخر يطلب بعض « العلب » الاخرى وكان الثالث محتاجا الى « قنافذ » .

وكان جندى الاتصال ادموكوف الذى يلازم ابتشارا دائما فى نقطة الاتصالات قد شرح لها بعض هذه الكلمات :

– العلب تعنى الدبابات والقنافذ تعنى المدرعات والسجائر تعنى القذائف . أو حين يصدر على سبيل المثال قائد الفرقة الامر لرجال المدفعية والهاونات بمضاعفة البذور فانه يقصد وجوب مضاعفة الذخيرة . أو تسمع فى التليفون على سبيل المثال العبارة المثيرة للضحك التالية : « كاتيا تطلب بقعا سوداء » ، فيرد صوت قائلا : « ها هى البقع السوداء » ثم يذكر ارقاما . انهم رجال مدافع الهاون الجفارديون يطلبون الاحداثيات التى سوف يستخدمونها فى اطلاق قذائفهم .

كانت ابتشارا تسمع باهتمام وتشوق وتدرس لغة الحرب .

وتذكرت كلمات لوكوتوش : « ان الحرب فن . وللحرب نظرية

وتطبيق » • وقالت ابتشارا فى نفسها : « أمر حسن أن أعمل على التليفون حيث يمكن فهم لغة «الحرب» •

أخذ القلق يزداد من ليلة الى أخرى ففى عمق الليل تسمع قرقعة مدفع رشاش من مكان بعيد ويرد عليه أحد مدافعنا الرشاشة• ولعل دأب الألمان على اطلاق قذيفة مدفع كل خمس دقائق كان يثير القرف أكثر من أى شيء آخر • وكان هدفهم في ذلك انهاك مقاتلينا وعدم اتاحة الفرصة لهم للنوم الا أن مقاتلينا لم يكونوا ينـــامون بدون هذا حيث كانت الأوامر تقضى بالتيقظ ، ولم يكن يسمح لهـم بالنوم الا قبيل الصباح • أما الألمان فكانوا يواصلون اطـــلاق هذه القذائف التى تهز هدوء الليل بانفجاراتها فى رتابة ودون ما تأخير ولو ثانية واحدة • وفى ليلة من هذه الليالى شاهد الالمان على ضوء الصواريخ مطبخ الميدان وهو فى طريقـــه الى الخـط الامامى فانقضوا عليه بعدة قذائف • وذهب لوكوتوش بالليل ليبحث عن وسيلة ما يمكن نقل الطعام بها ، هذا والصواريخ تضيء كل شيء فى المنطقة بحيث يمكن رؤية لا المطبخ فحسب بل وأى امرىء يسير على قدميه •

فى الصباح كان الجميع ينتظرون الهجوم • ونظرت ابتشارا الى الشمس فقد كانت تستطيع تحديد الوقت بدقة فى المزرعة عن طريق الشمس والجبال أما هنا فلا يوجد حولها سوى البرارى • ولو جاب المرء هذه البرارى فلن يجد لا الجبال ولا الشعاب ، بل ولا حتى الوديان الجبلية أو التلال أما ما كان لوكوتوش يطلق عليه اسم جبل ليصيا (*) أو المرتفع خمسة وعشرين ذى الاهمية التكتيكية فلم يكن جبلا على الاطلاق • بل تلا مستطيلا بعض الشيء • والحق

(*) كلمة روسية تعنى صلعة • المترجم •

يقال أنه كان كالرأس الاصلع لا يغطيه شيء · وما أجمل التنزه على الجياد عبر هذه البراري في وقت السلم · ولكن كم تعاني هـذه الحيوانات المسكينة الآن · آه ·· لو رآها بيكان الآن لبكى على الفور من الشفقة · انها محرومة من المياه والعلف · ضف على ذلك الطائرات كم قتلت منها ·

بدأ الصباح الباكر ينتشر عبر البراري · وهل من الممكن معرفة الوقت عن طريق الشمس طالما لا توجد جبال · ولم يكن لـدى ابتشارا ساعة مثلها في ذلك مثل ادموكوف ·

ولكن من كان لديه ساعة فقد كان يرى الوقت فيها جيدا ·

وفجأة ارتعدت الأرض وامتلأ الجو بالهدير والدوي ·· لقد بدأ القصف المدفعي · وارتفع الى السماء غبار الانفجارات المخلوط بالدخان الأسود على شكل ريش القبعات · وانكسرت قممها ، مبينة اتجاه الريح · وتباينت ألوان الدخان · وكان النقيب لوكوتوش يستطيع معرفة نوع القذيفة من ألوان الدخان الذي يثيره الانفجار : هذه قذيفة شديدة الانفجار ، وتلك قذيفة شظايا ، وثالثة قذيفة ثرميت · ولكن ما الهدف من معرفة هذا ؟ وها هو القوميسير هناك حيث غطى كل شيء بالغبار والدخان · وعلى محول التليفونات يعمل ادموكوف الذي حل محل ابتشارا وكان يضع الفيشة بمهارة ويجيب قائلا : « كل شيء جاهز » حاضر « أوصلك بالخط » وكانت الخطوط تعمل بانتظام وسرعان ما سينقطع احدها وعندئذ سيهرع ادموكوف لاصلاحه · وتبقى ابتشارا خلف الجهاز ·

ووصل الى الأسماع من الجو زئير الطائرات المتزايدة بسرعة· انها قاذفات القنابل · وكانت ابتشارا تميزها بالصلبان السوداء

على خلفيتها البيضاء المرسومة بخطوط عريضة على أجنابها . كانت تطير على ارتفاع منخفض مما يدل على أنها لا تخشى النيران. ومالت طائرة القيادة على جناحها ثم غاصت وانهالت منها القنابل السوداء . واختلطت انفجارات القنابل بانفجارات قذائف المدفعية. وبدأت الطائرات الأخرى تغوص على أثر طائرة القيادة وتلقى قنابلها . وشبهتها ابتشارا فى نفسها بالكلاب : ما أن يرفع كلب رجله ويبول حتى تتبعه الكلاب الأخرى . قامت الطائرات بدورة. انها تدق الخط الأمامى وارتفع الدخان الاسود الى منتصف السماء وبدأ الريح ينقل الدخان ويخز الأعين. وراح ادموكوف ينفعل ويتذمر وهو يعمل على المحول . يضع الفيشة فى الفتحة ، لكن الاتصال مفقود اذن انقطع الخط . وهذا ما كان متوقعا . وقال ادموكوف لابتشارا .

ـ هيا اجلسى للعمل اما أنا فسأذهب لاصلاح الخط .

خرج ادموكوف خلال هذه أيام أكثر من عشرة مرات لاصلاح الخط لم يكن ادموكوف شابا . وقد استدعى من ادارة الاتصالات. وكانت ابتشارا معجبة برقته التى كانت تنقص الرجال الآخرين فقد كان طبعه أقرب الى طباع النساء كان ادموكوف يقوم شىء وهدفه فى ذلك الا تخاطر ابتشارا بحياتها لدرجة أن حيطته هذه مست بعض الشىء كرامة ابتشارا . وما من شك هذه المرة أيضا أنه سيصلح الخطأ .

كان أول من تحدث بالتليفون هو « الخامس » .

ـ الدبابات تهاجمنا ومن خلفها رجال الرشاشات . ان عددهم يربو على المائة . عدد الدبابات ثلاث .

ويرد عليه « الأول » قائلا :

ـ كن على استعداد لمساعدة الوحدات المجاورة . فان الضغط عليهم أكثر مما عليك .

ـ من غير الممكن أن يرفع المرء رأسه انهم يطلقون النار وكأنهم يرشوننا من خرطوم مطافىء ٠

ـ أتعلم لماذا سعدت أنا حين ولدتك امك ؟ كنت أعلم أنك ستصبح محاربا ممتازا ٠ واذا لم أكن آنذاك أبا روحيا لك ، فانني أقوم بهذا الآن ٠ انى أعمدك فى خضم المعركة ، أتفهم ؟ وسوف نعطيك الاسم الذى تكون جديرا به فى هذه المعركة وسنغير اسمك الاسلامى الى اسم فيكتور ٠ وفيكتور يعنى النصر أو نسميك فلاديسلاف كى تصبح مالكا للمجد كما يعنى هذا الاسم ٠٠ مجد فوجك أفهمت ؟ هلم اصمد يا بنى أضع كل أملى فيك ٠

وأوصلت ابتشارا قائد الفرقة برجال المدفعية فصاح قائد الفرقة قائلا :

ـ ان الجيش يشكركم ٠ لقد اثبتم عن جدارة أنكم تستحقون لقب اله الحرب وأدخلتم السرور فى نفسى ٠٠ فى نفس هذا العجوز لقد أضفتم دبابتين الى قائمة الدبابات التى دمرتموها ٠ كيف حال الوحدات المجاورة ؟ هل هى صامدة ؟ سيكون اليوم ساخنا ٠ انهم يهاجمون « الخامس » ٠ انتظروا الهجوم عليكم كذلك ٠

ـ نحن ننتظر ٠ لقد انتهينا من تدخين سيجارة واحدة ٠

وفهمت ابتشارا من هذا أن مدفعا قد أصيب ولكن ما أهمية المدفع مقابل تدمير دبابتين ٠٠ ليست الخسارة فادحة على كل حال ٠

أخذت المعركة تزداد حدة ٠ وحول العدو نيران المدفعية نحو مواقع الشئون الادارية ٠ وتوالت انفجارات القذائف وهى تزيد من صمم الآذان ٠ واختبأت ابتشارا فى حفرة كان ادموكوف قد حفرها مسبقا بما عرف عنه من بعد نظر ٠ لم تخل السماء من الطائرات حيث كانت تطير على موجات تحل الوحدات منها محل الأخرى ٠

وغطى الدخان والغبار كل شيء لدرجة أن القصف الجوى لم يعد يقوم على التصويب ، ولذا أخذت الطائرات تلقى قنابلها وتطلق مدافعها ورشاشاتها كيفما اتفق • وحتى العزبة التى يمر من خلفها الخط الامامى للفوج اختفت تماما فى الدخان والغبار •

وعاد صوت انطون فيدورفتش من جديد :

– هل غنيت الاغنية التى تقول كلماتها : « مهارة القتال خير ما تبديه ولا تنس الخندق •• » ؟ اذن عليك بالتعمق فى الأرض انها تحمى من يحميها • ولديك الوقت فاحفر الأرض ان الأرض تحمى المقاتل أفضل من الدرع أنجيرانك حفروا حفرا حتى للجياد•• ماذا ؟ انى أعلم • انى أعلم •

وتتخيل ابتشارا أمام عينيها قائد الفرقة ومن يتحدث معهم• انه يجد الكلمات التى يقولها لكل منهم ويفهمهم بأنه يتابع عمل كل منهم • ويعد أحدهم بالمساعدة ويقول للآخر بالا يعتمد على شيء الا على قواه الخاصة ولكنه يكرر لكل منهم : « لا تخيب أمل العجوز ، هيا ادخل السرور فى نفس أبيك •• » أما أولئك فكانوا يدركون أن قائد الفرقة على مقربة كبيرة منهم يرى كل شيء فى ميدان القتال ويمكن أن يهب للمساعدة اذا اقتضى الأمر • وهذا من شأنه أن يبعث الثقة المكينة فى قلوبهم •

وفجأة يطلب « الرابع » « الأول » وينبىء الصوت عن شدة من الشدائد فتقاطع ابتشارا قائد الفرقة فى منتصف كلامه قائلة : « الرابع » يطلبك – « هيا قد أوصلتك به » • وكان ذلك القوميسير دوتى • كانت ثلاث دبابات بمصاحبة سرية من الرشاشات تهاجم «الرابع» ويحدد القوميسير المنطقة ويطلب اشراك مدافع الكاتيوشا الصاروخية على أن يكون ذلك بسرعة ، ذلك لأن الدبابات ستقترب من الخط الامامى خلال عشرين دقيقة • وتخيلت ابتشارا دوتى وهو

يقف أمامها بقامته القصيرة وظهره المقوس بعض الشيء فى زى قوميسير الجيش الأحمر ، وقد تحزم بحزام عريض وشده بقـــوة حتى آخر ثقب فيه ورغم ذلك يجذب المسدس بثقله الحـــزام الى أسفل · ويرد عليه قائد الفرقة قائلا :

ـ كان الأجدى لك أن تخرج من هنا فقد سمعتهم يقولون أنك تجند فرق الموت ·

ـ لقد أمرنا بالصمود حتى الموت ولذلك فاننى أصمد · يجب أن ندعم الأمر بالعمل ·

ـ حسنا لا بأس · اصمد · سوف تنزل الكاتيــوشا ضربة بالعــــدو ·

لم تمض عشر دقائق حتى ظهرت ست سيارات مغطاة بالمشمع، ان ابتشارا تعرف هذه السيارات التى تشبه من بعيد عربات الجر المحملة بالأعشاب كما تعرف ابتشارا أنه لا ينبغى الوقوف بجانب هذه السيارات فبعد أن تطلق هذه السيارات قذائفها سوف يعلم الألمان موقع هذه السيارات من سحابة الدخان والغبار التى تثار عقب الاطلاق وبالتالى سوف يضربونها بكل أنواع المدافع · ولذا فان سيارات الكاتيوشا نفسها لا تتباطىء وتغـــادر المكان عـلى الفـــور ·

اصطفت سيارات الكاتيوشا فى صف ونزع الغطاء المشمع عن المدافع ثم صوبت بسرعة الى أهدافها ودوى على الفور عواء شبيه بالعواء الذى يسمع فى شعاب تشوبراك حين تجتمع الذئاب فى قطيع لمهاجمة الماشية · وبرقت فى الجو الذيول ذهبية اللون للقذائف الصاروخية · آه لو سمعنا دوتى هذا الآن · يا ترى هل ساعدته هذه القذائف أم لا ؟ وقبل أن تستكمل ابتشارا تخيلاتها سمعت صوت القوميسير يقول فى سرور :

– شطار رجال الجفارديا لقـد جعلوا الألمان كالدقيق المصنوع من الذرة المحمصة !

أصابت القذائف أهدافها بدقة ٠ وساد الذعر معسكر الأعداء٠ والآن لن يلتقط الألمان انفاسهم للقيام بهجمة أخرى قبل مضى وقت طويل ٠

ولقد اشتعلت النار فى احدى الدبابات ٠ وفكرت ابتشارا فى نفسها ٠ ان هذه الدبابة ستصحب من ثمن حياة دوتى وكان العدو بهذا مقدم الثمن كى يستلم حياة القوميسير فى نهاية المطاف ٠

انهالت حمم المدفعية على المكان الذى كانت تقف فيه منـذ برهة سيارات الكاتيوشا ٠ وكان هذا اسـتنفاذ لا طائل وراءه للقذائف حيث أن سيارات الكاتيوشا أصبحت اثرا بعد عين ٠

عاد ادموكوف وهو متعب ومنفعل ٠ فقد شاهد بعينيه المعركة٠ فقد كان العطل بالقرب من مواقع نيران رجـال مدافع الهاون ٠ واضطر ادموكوف للزحف الى هناك لحماية نفسه من نيران المدفعية٠ ولقد سأله البيان عن ابتشارا ٠

– قلت له أنها لا تبعد خطوة واحدة عن المحول وانني أحافظ عليها كما أحافظ على أختى الشقيقة ٠ انى لا أرسلها الى الخطوط ذلك لأنها ليست من أفراد الجيش الأحمر بل تقوم بمساعدتنا تطوعا٠ انها تجلس خلف المحول وهذا فضل كبير ٠

– لا ٠٠ ليس فضلا كبيرا ٠٠ من الآن فصاعدا سوف أذهب لاصلاح الخطوط – قالت ابتشارا وهى تشعر بالحسد نحو زميلها الذى التقى بالبيان – لقد تعلمنا فى دروس الفيزياء كيف نوصـل الأسلاك ٠

ـ ان توصيل الاسلاك أمر تافه ، ولكن الصعب ايجاد مكان انقطاعها ٠

كانت خسائر رجال مدافع الهاون كبيرة ٠ كما جرح قائـد البطارية ٠ ولقد صدر أمر قائد الفوج ـ حين كان ادموكوف هناك ـ بأن يتولى البيان قيادة البطارية ٠ واعتقد ادموكوف بأنه سيدخل السرور فى قلب ابتشارا بهذا النبأ ، الا أنها ازدادت قلقا ٠ وبدا لها ان مصائر الرجال معروفة مسبقا وان الادوار موزعة مسبقا كذلك٠ يجرح ألبيان فتقوم ابتشارا بتضميد جراحه على الفور فتقدم لأخيها الاسعافات الأولية فينقل بعد ذلك الى المستشفى ومن بعد يحكى ألبيان لأمه ولايرينا كيف حدث كل هذا ٠

ـ ربما لن أستطيع ايجاد سبب الانقطاع بين قلوب العاشقين، أما هنا فهذا حقى وسأقوم بتوصيل الأسلاك ٠

وبدأ ادموكوف يدخل فى متاهات كى يثنى ابتشارا عن عزمها الخطر :

ـ ان الأجهزة التى لدينا ليست أجهزة عسكرية ٠ فقد اخذها لوكوتوش من مزرعة حكومية ٠ ولا يوجد مثل هذه الأجهزة فى أى فوج عسكرى ٠ انظرى ان الأجهزة مدنية مما يمكن أن ترينه على مكتب مدير مزرعة حكومية أو رئيس المجلس القروى ٠ ان تليفونات الميدان غير هذه ، انها أبسط بكثير ٠ وعلى هذا يجب أن تلزمى هذا المكان ٠ كما انك لا تستطيعين الزحف على البطن ٠

ـ وكيف يتم هذا ـ الزحف على البطن ؟ مثل السحلية ؟

وبدأ ادموكوف يزيد من التضليل قائلا :

ـ ان هذا علم معقد ٠ والوحدات العسكرية تخصص للتدريب عليه ما لا يقل عن شهر ٠ انه ليس زحفا ببساطة ، بل زحف ذو شكل

أخذ من السحلية والثعبان والكنغارو بل وبعض عناصر قفز العجول ..

- تقول قفز العجول ؟ اننى مديرة مزرعة حيوانية وأعرف ما هو قفز العجول .

- لا - واصل ادموكوف كلامه المضلل - يجب التدريب على هذا الزحف فى الأرض الشبيهة بأرض المعركة . مفهوم ؟

- ان المفهوم لى أمر واحد فقط هو أننى سأذهب لاصلاح عطل الاسلاك فى المرة القادمة .

- اذا سمح لك أخوك يمكنك الذهاب لقد وعدته . انه الآن قائد سرية ولا يكلفك شيئا الاتصال به الآن .

- وهل يستطيع أخى الزحف على البطن ؟

وهنا عاد من جديد صوت ازيز الطائرات فظهرت من ناحية قرص الشمس المحمر ساعة الغروب بقع سوداء كبرت على الفور وانخفضت واصطفت فى دائرة هجوم . وفى هذه الاثناء أخذ الأزيز يزداد علوا .

- الى الحفرة ! - اصدر أدموكوف الأمر فأطاعته ابتشارا وغاصت فى الحفرة . سمع صوت صوصوة وسقسقة فى سماعة الاذن وجاهد ادموكوف من خلال الازيز والهدير فى تبيان أن دوتى يطلب من جديد أن ينزل رجال الهاونات ضربة بزاوية ميل معينة على المنحدر الخلفى لتل ليصيا . وكان دوتى كوشروكوف يصيح فى السماعة قائلا :

- اضربوا « قفا ليصيا » حيث تتجمع قوات العدو للهجوم. ان مدافع الهاون هى الوحيدة التى يمكنها الوصول اليهم . انهم يريدون الاستيلاء على المرتفع بأى حال من الأحوال . انهم يحتشدون وسيقوم الطيران بالتمهيد الآن ثم يبدأون هجومهم . اضربوهم .. اضربوهم قبل أن يتأخر الوقت !

بدأت القنابل تصم الآذان بانفجاراتها وأخــذت الأرض تئن تحت وطأة هزة الانفجارات وسكنت ابتشارا وكمنت فى الحفرة. ومن بين دوى انفجارات القنابل لم تكن تسمع طلقات الهـاونات الضعيفة ، الا أن البيان أخذ يضرب « قفا ليصيا » بكل الهـاونات دون أن يعبأ بالقصف الجوى . وعبثا كان الألمان يأملون أن يلجأ المقاتلون أثناء غارة الطيران الى الخنادق فيكفون عن الحـــركة وعندئذ يمكنهم الوصول الى مواقعنا .

وكانت ابتشارا قد سمعت بفطنة رجال القذائف الخـــارقة للدروع من أبناء منطقة تشوبراك . فقد قام شابان ـ هما طـاقم بندقية مضادة للدبابات ـ بتثبيت مرآة على لوحة صــغيرة من الخشب ثم وضعا هذا النوع من البيرسكوب فوق الخندق بحيث تعكس المرآة ميدان المعــركة . ويجلس طاقم البنــدقية المضـادة للدبابات فى عمق الحفرة ويرى فى المرآة قدوم الدبابة أو ناقلة الجنود المدرعة . وقالت ابتشارا فى نفسها : « ان أبناء تشوبراك يخترعون شيئا ما دائما ـ كان ينبغى وضع المزيد من المرايا فى صناديق الهدايا » .

وما أن عادت القاذفات الألمانية من حيث جـاءت حتى بدأ هجوم جديد هو الأخير فى هذا اليوم . ودب النشاط فى كل مواقع النيران والتى كان العدو يعتقد أن ضربات القنابل قد اسكتتها . وترك العدو فى القطاع الذى كان دوتى قد اختار له الشــجعان المجازفين ـ حوالى أربعين جثة كمقدم « ثمن » لحياة دوتى .

ولم تكن خسائرنا قليلة . ففى غسق المساء وبعدما صدت قواتنا آخر هجوم للألمان وأوقف الجانبان اطلاق النـــار تدفقت مجموعات الجرحى على نقط الاسعاف قادمة من الحد الأمامى .

وكان الجرحى يسيرون الى المؤخرة خلف العـــربات التى تحمل المصابين بجروح خطيرة وقد تمزقت ستراتهم وتخضبت بالدماء ٠

لم تقو ابتشارا على حبس دموعها وهى تنظر اليهم ٠ ها هم تلاميذ الصف العاشر بالأمس ، والمشاكسون عادة ، يجرون أرجلهم الآن وينزفون دما ٠٠ هذا يمسك بيده غير المضمدة جيدا كما لو كان يحمل طفلا مريضا ، وآخر يسير محنى الظهر يبدو من وجهه كم من الآلام تكلفه كل خطوة يخطوها ٠ وها هم اثنان من المصابين بجراح خفيفة يساندان ثالثا لا يقوى على الوقوف على رجليه ، وهذا شاب صغير السن يجر رجله الجريحة يبدو عليه أنه من الشبان الذين يتسمون بالخجل اذا حدث وخرج الى حلبة الرقص ، ورفضت الفتاة الرقص معه سيسرع على الفور وهو يشعر بالمهانة والارتباك الى الاختفاء وسط جمهرة من أمثاله تنقصهم خفة الحركة ٠ أما هنا فانه مقاتل وها هو يسير خلف جمـــاعات الجرحى متكئا على عصاتين وضمادته مدلاة على الارض يسحبها على التراب ٠ ولكن هؤلاء الخجولون الذين يتصفون بالحياء مثله ـ هم الصامدون فى وجه المدرعات طوال هذه الأيام ٠

بدأ صباح اليوم التـالى بخروج لوكوتوش على الموتوسيكل الألمانى فيما يشبه الاحتفال ٠ فقد أخذ لوكوتوش هو والســـائقون يتفننون خلال يوم وليلة فى اصلاح الموتوسيكل حتى تم اصلاحه ٠ وها هو الآن يشرق ســـعادة مثل العريس ليلة الزفاف ٠ انطلق النقيب بسرعة كبيرة الى الأمام ثم استدار بحدة كى يثبت مهارته فى الركوب أمام ابتشارا التى كانت تنظر اليه نظرة اعجاب وهو يقود الموتوسيكل ٠

ـ ما رأيك ؟ ـ ســـأل النقيب ابتشـــارا وكأنها تفهم فى الموتوسيكلات ـ هل يعجبك ؟

ـ نعم ٠

ـ وبما تقضى التقاليد الكاباردينية ؟ اذا عجبك الشىء خذه٠

ـ ولكنى قلت « نعم » دون تفكير ٠ ما حاجتى اليه ؟

ـ كيف هذا ؟ انه يناسبك أنت وادموكوف ، يضع فيه المحول وينطلق الى الامام على السرعة الثالثة ٠ سوف استخدمه أنا أثناء الدفاع أما فى المسير فسيكون لكما ٠

سر ادموكوف بالهدية ٠ فقد كان يستطيع قيادة الموتوسيكل بمهارة لا تقل عن مهارة لوكوتوش ٠ ولم يرجىء اثبات مهـــارته فركب الموتوسيكل وسار به فى أرض المزرعة وقام بدورة ثم لف حول مخازن العلف وبيت الحلابات الذى لم يبق منه سوى الجدران حيث تهدم سقفه ٠

وشعر لوكوتوش بالرضا لأنه يسلم الموتوسيكل الى شخص ذى مهارة ٠

ـ كل شىء جاهز هنا ٠ تجلسين فى السبت بالمحـــول وكل الأجهزة ، أدموكوف يقود الموتوسيكل ويجرى الاتصال ٠ الله أرسل لنا هذا الموتوسيكل ، ولا يمكن ابتكار أحسن منه ٠

والى ان يحين وقت تنفيـــــذ هذه الفـــــكرة توجه النقيب بالموتوسيكل الى نقطة مراقبة الفوج وسألت ابتشارا زميلها :

ـ اين تعلمت ركوب الموتوسيكل بهذا الشكل ؟

ـ اتعتقدين أن الله لم يهب موهبة فهم الماكينات الا للوكوتوش وحده ؟ لقد كنت أعمل قبل الحرب فى محطـة الآلات الزراعية ٠

كان اليوم التالى شبيها بسابقه حيث صـــدت القوات ست هجمات ٠ لم تهدأ المعركة دقيقة واحدة ٠ وجاء ذكر تل ليصيا فى

الأحاديث التليفونية والتقارير أكثر من مرة مما يجعل المرء يعتقد أن ميدان المعركة تمخض عن جبل لا يقل حجما عن جبل ماشوك . أما الواقع فقد أصبح التل أقل حجما نتيجة ضربات القنابل وقذائف الكاتيوشا وهذا العدد الهائل من قذائف المدفعية وقذائف الهاون التي انفجرت على قمتـــــه . كان التل ينتقل من أيدى الألمان الى قواتنا وبالعكس وكأن مصير القوات كلها متوقف على السيطرة على هذا التل . ظل رجال الخيالة محتفظين به طوال اليوم وها هو الهجوم الآلمانى السادس .

كان القادة قد ناقشوا خطة العمليات فى اليوم التالى . بينما كانت الوحدات الفرعية تنظم نفسها ليلا . وتقدم دوتى بالاقتراح التالى : ارسال رجلى اتصال الى الدبابة الالمانية المحترقة حيث يمكنهما توجيه نيران المدفعية من هناك . وكيلا يسحب الالمان الدبابة عمل دوتى على حمايتها بموضع رجال القذائف الخارقة للدروع والرشاشات فى مواقع متقدمة . فقد كان يدرك ان الألمان سيأتون بجرار لسحبها . وقبيل الفجر زحف الى الدبابة رجلا الاتصـــال المسلحان بالقنابل المضادة للدبابات وجهاز للتليفون والرشاشات القصيرة . كما زودهما دوتى بدائرة تصويب مدفعى كى يقـــوما بالمراقبة من فتحة الدبابة مباشرة .

أصبحت الدبابة نقطة مراقبة ممتــــازة . فقد كانت مواقع العدو واضـــحة بعمق كبير من الدبابة . وأخـــذ رجـــلا الاتصال يبلغان بين الفينة والفينة بتجمعات العدو وارتال السيارات القادمة من المؤخرة ومدافع الهاون ومواقع المدفعية . ولم تتوقف مهمتهما عند حد الابلاغ فقط ، بل كانا يذكران الاحداثيات الدقيقة مستخدمين خريطة كودية . وكانت قذائف الكاتيوشا ونيران المدفعية والهاونات تحمل الدمار للألمان ولقـــــد كانت النيران الكثيفة تغطى رجال

الرشاشات الألمان وحاملات الجنود المدرعة والدبابات أثناء التجمع على خط الهجوم مما يجعلهم يفرون في ذعر وتتهدم بذلك تشكيلاتهم القتالية . وكلما ازدادوا فشلا ، ازدادوا ضراوة في هجومهم على التل ليحنيا .

لم يفهم الالمان السبب في هذه الحمم المعدنية التي تنهار على رؤوسهم الا قبيل نهاية اليوم ولذا قرروا سحب الدبابة المحترقة بأي ثمن . ولكن رجال الوحدات المضادة للدبابات من مقاتلينا أبلوا بلاءا حسنا هم الآخرون . وانتهت أولى المحاولات الألمانية باصابة دبابة أخرى لهم . وقام رجال المدفعية بنشر ستار من نيران الحماية حول الدبابة المستخدمة كنقطة مراقبة وعندئذ انهال الألمان بنيران مكثفة على دبابتهم واستشهد المقاتلان اللذان كانا بداخلها .

وكتب كوشروكوف بنفسه منشورا عاجلا عليه خاتم : « اقرأ واعطه لرفيقك » .. وانتقل المنشور من جندى لآخر ومن موقع لأخر وعرف الجميع على الفور أسمى المقاتلين كورمان وعلى . أما الذين كانوا يعرفونهما في حياتهما ، أخذوا يتذكرون كل أمر بسيط كان يربطهم بالبطلين .

القى الألمان بكل قواهم في الهجوم السادس . واستشهدت حفنة الرجال الذين كانوا يدافعون عن تل ليصيا في معركة غير متكافئة واستولى الألمان على التل قبيل الغسق .

ومع صباح الغد سيتمكن الألمان من استكشاف كل دفاعاتنا وعلى هذا ينبغى التخطيط لمواجهة هذا التطور واتخاذ الاجراءات الضرورية .

هالة من النيران بالليل

في الوقت الذى كان الدخان لا يزال فيه منبعثا من الدبابات والعربات المدرعة المحترقة ، ويخرج الجرحى من الخنادق للذهاب الى المؤخرة ، ويفك فيه المقاتلون كتل البيوت المحترقة الخشبية فى العزبة كيلا تصبح علامات مميزة للألمان مع حلول الظلام ، وتفوح فيه رائحة احتراق البارود أو الدماء النازفة حديثا فى أرجاء ميدان القتال ، كان القادة والمسئولون السياسيون مجتمعين فى نقطـــة مراقبة الفوج لمناقشة الموقف · كما جاء الى هنا رجال العمليات من قيادة الفرقة · وتطلب الأمر اعدادا عاجلا لعملية الاستيلاء على المرتفع ليصيا ·

كان فقد المرتفع يقلق الجميع · أولا : سيكون نشاط مدافع الكاتيوشا الآن أصعب عن ذى قبل أو بالأحرى فان اصابتها ستصبح أمرا سهلا بالنسبة للألمان · فسوف تصبح كل مواقع مدفعيتنــــا وهاوناتنا ، وكل نقط نيراننا مكشوفة للألمان · ويمكنهم الآن ضرب لا مدافعنا وسياراتنا فحسب ، بل كل فرد على حدة كذلك ولذا يجب استعادة المرتفع ليصيا · وهذا ما كان يدركه كل فرد ·

واقترح رجال غرفة العمليات الهجوم مع الفجر حيث يغالب النوم الناس فى هذه الفترة خاصة · يجب الاقتراب من المرتفع بقدر الامكان خلال الليل وبعد تمهيد مدفعى قصير ومكثف ينــدفع رجالنا فى الهجوم · وينبغى أن تنتهى العمليـــة لحظـــة شروق الشمس · ان العدو لن يستطيع التحصن وحفر الخنــــادق على المنحدرات الشرقية للتل خلال ليل الصيف القصير ·

وفجـــأة ظهـــرت فكرة أخرى : التسلل خلال الليل عبر

التشكيلات القتالية للعدو وانزال ضربة به من المؤخرة بعد التنسيق بين لحظة الهجوم والتمهيد المدفعى تنسيقا زمنيا دقيقا بالثوانى . كانت الفكرة مغرية الا أنها تحمل بين طياتها مخاطرة كبيرة . فقد كان على المجموعة التى ستتسلل الى مواقع العدو ان تعمل بصورة عشوائية حيث لن تكون على اتصال بنقطة مراقبة الفوج وبالتالى لن تتلقى معونة ولن تستطيع العودة الى مواقعنا فى حالة اصطدامهم بظروف غير متوقعة . وعلاوة على ذلك فان البرارى تخلو من العلامات المميزة المأمونة مما يســــاعد على ان يضل الانسان الطريق بسهولة . كما ينبغى القيام بلفة كبيرة للالتفاف حول المرتفع ليصيا . ومن غير المعروف ما يمكن ان يصطدم به المرء .

– نعم أننا نخاطر بجماعة صغيرة – أكد دوتى كوشروكوف فى عناد – الا أن الخسائر ستكون أكثر حين نقتحم المرتفع . كم من الرجال بقى لدينا فى الفوج ؟ ان عددهم فى بعض الوحدات الفرعية لا يتعدى أصابع اليد الواحدة . وهذا ما يجعلنى أنادى بقبول الخطة الثانية . – وصمت دوتى ونظر الى الحاضرين وكأنه يهدئهم بنظرته كمن يريد قول : لا تنزعجوا ان قرعة الموت لن تكون من نصيب أى منكم . وانهى كوشروكوف حديثــــه قائلا بسرعة – ولا سيما أننى أعرف الشخص الذى سيقود هذه الجماعة .

– من هو ؟ – سأل فى صوت واحد قائد الفوج وأحد رجال غرفة العمليات بالفرقة .

صمت دوتى مرة أخرى بعض الشىء ثم قال :

– أنا قوميسير الفوج . وأعتقد أنه ليس لدينا الوقت كى نناقش ونجادل كما أنه ليس لدينا الوقت للابطاء فى العمليـــة . أتدرون ماذا يعلمنا الميثاق ؟ ان القرار السليم للقائد هو الذى يتخذ بسرعة وينفذ دون ابطاء .. ان الليل قصير والعمل كثير . ولنحاول تنفيذ فكرتى والخطط الأخرى تحت آيدينا .

لم تحظ خطة دوتى بالموافقة على الفور ذلك لأنها كانت تمس كرامة قادة الجيش العامل · هذا الى جانب أن الرائد موتاليف قائد الفوج أخذ يعترض بشدة ، وكان من الممكن أن يصمم على رأيه لولا مفاجأة تأييد ممثل غرفة العمليات بالفرقة للقوميسير · فمنذ اشتراك الفوج فى القتال والقوميسير لم يذهب ولا مرة واحدة الى نقطة القيادة · انه يفضل البقاء طول الوقت فى الوحدات الفرعية· ولقد قال أحدهم للرائد ان دوتى لا يقتصر على توصيل أوامر القيادة العليا للجنود فحسب بل ويطلب من الجميع حلف يمين الولاء لهذه الأوامر جاعلا منه قسما جديدا من نوعيته · كما أنه يطالب المقاتلين بكتابة قسم أنهم سوف « يصمدون حتى الموت » ·

كانت العلاقات بين قائد الفرقة والقوميسير يشوبها برودة الحيطة وعدم الثقة · ولكن بما انه قد تم التصديق على العملية اضطر الرائد الى الموافقة على الفور على الحجة الرئيسية للقوميسير المتطوع من أنه لا توجد دقيقة واحدة من الوقت للدخول فى مناقشات جانبية · فقد كان ينبغى الى جانب ذلك اعداد خطة التعاون بين الجماعة وبين الوحدات الفرعية الأخرى ، وتحديد خط سير الجماعة وتشكيلها وتقديم الوسائل الضرورية لها وحساب كل شىء وفقا للقطاعات والساعات والدقائق ، والاتفاق حول الاشارة والتنبؤ بالتعقيدات المحتملة والتفكير فىكيفية التغلب عليها ·

وزع الرائد بدقة وسرعة المهام على القادة وحدد المهام القتالية لكل منهم وأخذ على عاتقه ادارة هذه «السيمفونية الليلية» مثلما يفعل قائد الاوركسترا ·

ـ ان أية آلة ستشذ عن المجموع سوف تخرج من الاوركسترا الى الأبد ـ قال الرائد محذرا قادة الوحدات الفرعية · كان يتحدث بلكنة اينجوشية قوية حيث كان يركز على المقطع الأول من

الكلمات • ولقد جعل ذلك كلام الرائد يكتسب سرعة اندفاع خاصة ـ الاشارات هى : صاروخ أخضر ، وصاروخ أحمر ، وصـاروخان خضراوان ، وصاروخان حمراوان ، وصاروخ أحمر ، وصاروخ أخضر ، صاروخان حمراوان وصاروخ أخضر ، وصـاروخان خضراوان وصاروخ أحمر ـ كلها سبعة وهذا يعنى سـبع نوت موسيقية وسبع مفاتيح ولنتفق على تحديد الاشـارات لكل قائد وتحديد وقت العمل وكيفيته •

كانت اشارة قائد سرية الهاونات ورجال المدفعية صاروخين خضراوين لفتح النيران على القطاع المحدد ، وصاروخين حمراوين لتحويل النيران الى عمق دفاع العدو ، بهدف نشر سـتارة من النيران حول المرتفع عندما يبلغ قائد الجماعة بالاشارة ـ صاروخ أخضر ـ انه استولى على المرتفع • وتحت ستار ظلام الليل تتجمع سرية وتقترب من المرتفع بقدر الامكان ثم تقتحم المرتفع بعد صدور الاشارة المشتركة وتحتفظ به بمعاونة الجماعة حتى وصول القوات الرئيسية •

وهمس البيان للقوميسير الذى كان جالسا بالقرب منه :

ـ الأفضل أخذ لوكوتوش معك • أنه يسترشد بالخريطـة بمهارة وكأنه واضعها • ومن السهل جدا ضل الطريق بالليل •

ـ وبالطبع من الأفضل أخذه ، فهو يعرف اللغة الألمانية لكن كيف ورجله مصابة ؟ ان الأمر يتطلب الزحف والجرى والقفز كما قد يقتضى الامر حمله على الظهر •

وريثما كان الرائد يشرح لقادة الوحدات الفرعية الاشارات التى يعملون بصددها وكيفية العمل ، همس البيان من جديد الى دوتى :

ـ وعلى فكرة لقد كنت كذلك انجح فى الطبوغرافيا بامتياز دائما •

وابتسم القوميسير وأدرك ما يرمى اليه الملازم فربت على كتفه بود وقال :

ـ لا داعى لذلك أيها الملازم وعلى فكرة ان ابتشارا اختك شاطرة · فما ان تلتقط السماعة حتى تسمع صوتها يقول على الفور : « انى أسمع » « سأوصلك به » ·· أما الخريطة فانى أعرف قراءتها جيدا أنا الآخر ولن أضل فيها ·

سبعة مفاتيح للعزف ، كما وصف الرائد الاشارات السبع ـ عليها ان تعزف السيمفونية الليلية السريعة ، والدقيقة والمليئـــة بالحركة · واذا ما شذت آلة واحدة تصبح الموسيقى موســـيقى جنائزية · وتمت مرة أخرى مراجعـــــة الكود وعلامات الخرائط وضبطت الساعات على ساعة قائد الفوج ·

وحدد دوتى بنفسه أسماء المقاتلين الذين سيأخذهم معه من جميع الوحدات الفرعية وحدد الرائد الوقت الذى يحضرون فيـــه الى القوميسير وأخطرهم بالحضور فى كامل الاستعدادات القتالية وتشكلت الجماعة من حوالى أربعين مقاتلا ·· وهذا العدد يكاد يلحق الضرر بالوحدات الفرعية بعد عدة أيام من المعارك ، ذلك لأنه لم يبق فى السرايا سوى ما يقارب نصف الأفراد ·

توجه ممثل غرفة عمليات قيادة الفرقة الى نقطة مراقبـــة الفرقة لابلاغ خطة العمليـــــة · كما تفرق كذلك قادة الوحدات الفرعية ·

ـ اقسم أيها القوميسير أنك تلقى بنفسك عبثا فى فم الوحش ـ بدأ موتاليف حديثه عندما بقى هو ودوتى وحدهما ـ لماذا تقطع خبزنا ؟ أولا ـ أنك قد أغضبت قادة الجيش العامل حيث يفهم من تصرفك أنهم يتحاشون الخطر وانت وحدك لاتخاف شيئا · ثم ان هذا ليس من أعمال القوميسير · وأنا لم أرد التحدث عن ذلك أمام الجميع ·

ـ وثانيا ؟

ـ ثانيا ، انك قوميسير · انك تعلم كيف يعـــامل الألمان القوميسيرات ·

ـ ـ هذا اذا وقعوا فى الأسر ·

ـ وهل لديك ضمان أنك لن تقع فيه ؟

ـ لن استسلم حيا · انى احتفظ بالرصاصة الأخيرة لنفسى· وأنظر كذلك ـ أخرج دوتى من جيبه قنبلة يدوية تشبه الليمونة ـ هذه لمواجهة الظروف فربما أخطأ فى حساب الرصاص أو لن تكون هناك رصاصة · ان القنبلة معى دائما ·

ـ اقسم أيها القوميسير أنك محكوم عليك بالموت · ولكن حسنا سوف أقود السرية بنفسى ونلتقى على المرتفع · موافق ؟ سيكون هذا رائعا · القائد والقوميسير يحددان لقاء على المرتفع الذى استولى عليه الألمان ·

ـ اتفقنا ·· هات يدك فى يدى ·

بدأ المقاتلون يصلون ما بين عشرة واثنى عشر فردا من كل وحدة فرعية · وما أن سمعوا الأمر « استريحوا الى حين » حتى استقلوا فى ثقل على الحشائش · وكان المقاتلون متعبين طويلى شعر الذقون تورمت عيونهم من قلة النوم ، عازفين عن الكلام · وكان القوميسير يعرف المقاتلين وهم يعرفونه · ويحكون كيف قاد دوتى فصيلة بالأمس · وفى الواقع لم يكن قد بقى فى الفصيلة سوى حوالى عشرة أفراد · فقد كان المقاتلون ينقلون قائدهم من ميدان القتال وهو ينزف دما وصاح فيهم دوتى « ارجع ! » وهنا قال له أحد المقاتلين وهو يكاد يبكى :

ـ « أيها الرفيق القوميسير ان الألمان يلقون على مرتفـــع ليصبا قنابل ضخمة لدرجة يصعب معها التنفس · » فرد عليه دوتى قائلا : « ولكننا جئنا هنا للصمود حتى الموت · هل قرأت الأمر ؟»

وحمل الجريح الى المؤخرة مقاتل واحد فقط ، وعاد المقاتلون الآخرون بقيادة القوميسير الى الحد الأمامى • وكان كل ذلك تحت سيل من نيران العدو • وعندئذ سرت بين المقاتلين أحاديث تقول بأن القوميسير محاط بتعويذة ولذا لا تستطيع أية رصاصة أو أية شظية اصابته •

وريثما كان أفراد الجماعة يتجمعون اتصل قائد الفرقة بالتليفون ، وانهال القائد على الرائد بسيل من التعنيف لأنه أوكل هذه العملية المعقدة والخطرة لدوتى كوشروكوف « هل تتستروون وراء ظهر القوميسير ؟ » طقطق صوت قائد الفرقة فى السماعة • لم يحاول الرائد تبرير موقفه وأخذ يسمع فى صمت ، بل وكان يؤكد على كلام قائد الفرقة قائلا : « ان القوميسير متحمس جدا ، يقطع عيش قادة الجيش العامل » • وأخذ العقيد يهدأ تدريجيا ثم قال : حسنا هذه آخر مرة يقبع فيها قادة الجيش العامل فى خنادقهم يتسكعون ويحارب القوميسير بدلا منهم » •

كان من طباع قائد الفرقة : يحتدم أولا ويقول كلاما كثيرا وقد يبث الرعب فى النفس ثم يزول عنه كل هذا • ففى بعض الأحيان تراه يهاجم قائدا قائلا : « ان هذا استبداد ، أتريد اهلاك الرجال ؟ لماذا لم تحفر خنادق للالتجاء فيها ؟ أتريد أن أحفر لك حفرة أوريك بها ؟ هذا هو ما سأفعله • سأطلق عليك النار • ان عقاب عدم تنفيذ أمر القتال هو اطلاق الرصاص فى الحال • نعم سأطلق عليك النار ! » ثم يشخط بأنفه ويقول : « نحفر الخنادق أولا ثم اطلق عليك النار • كيف لم تعلم الرجال حفر الخنادق ؟ اذا رأيتك غدا سوف أطلق النار عليك » • ثم يلوح بيده قائلا : « أيها القوميسير اطلق عليه الرصاص • أتمنى لو لم تره عيناى » • وبعد ذلك يمسك بالجاروف ويبدأ فى حفر الأرض وهو يلهث حتى

يزول عنه الاحتدام نهائيا . ويقترب من القائد الذي يكون قد وصل حد اليأس ، ويضع يده على كتفه ويقول له فى هدوء كما يحدث الأب أبناءه : « لا تغضبوا مني . انى منفعل نتيجة شدة اهتمامي بكم . انى لا أريد أن تكون نهايتكم سخيفة . فكم مرة قلت الأرض تحمى من يدافع عنها . عليكم النزول الى الأرض واحفروها بعمق كبير . لقد صحت فيكم وانتمكذلك صيحوا فى مرؤوسيكم واجبروهم على حفر الخنادق . واذا كانت لديكم دقيقة تخلو من العمل فأحفر فيها الارض . احفر ثم احفر ثم احفر ! »

فى هذه الاثناء كان القوميسير يعرف المقاتلين بخطة العملية كى يصبح لدى كل منهم تصور كامل عن كل دقائق المهمة وصعوبة تنفيذها وحذرهم قائلا :

ـ ان الليل مليىء بالمفاجآت والمخاطر وليس من المقدر أن يعود الجميع سالمين معافين . ولذلك يجب ان تعـــدوا أنفسكم لأسوأ الأحوال . واذ كان فيكم من لا يثق فى نفسه ليقل وسأعيده الى سرية الخيالة . ذلك ان جبانا واحدا يصيح دون ما قصـــد و يجرى فى الوقت غير المناسب ، يمكن ان يكون سببا فى هلاك جميع الآخرين . فمن الذى يريد العودة الى السرية ؟

ولم يجبه أحد ، ولم يحرك أحد ساكنا . وهذا ما كان يعتقده كوشروكوف . فلم يكن اختياره قد وقع على كل من يصادفه ، بل اختار الرجال الذين صمدوا معه فى الخنادق فى الحد الأمامى وعلى نفس مرتفع ليصيا ذاته لعنة الله عليه .

ـ من الذى يذكر الأبيات التى قالها بوشكين فى ملحمتـــه الشعرية « الأسير القوقازى » ؟ ـ فجأة سأل دوتى الجنود . ولكى لا يضعهم فى موقف حرج شرع يلقى الأبيات بنفسه :

جركس مدجج بالسلاح
يفخر به وفيه عزاؤه
يحمل درعا وغدارة وجعبة سهام
وقوسا كوبانيا وخنجرا وحبلا
والسيف صديقه الأبدى
فى عمله ووقت فراغه
لا يستثقل سلاحه
ولا تسمع له صليلا
وسواء كان سائرا أم راكبا
فهو جركسى بقلبه وقالبه
وعزم لا يلين ولا يقهر

– هذا هو ما وصف به أبو الأدب الروسى جدنا القديم · وكل منا مدجج بالسلاح كذلك · ولكنه بطبيعة الحال ليس السلاح الذى كان يفتخر به أجدادنا ، ولكن أنظروا قوله « لا يستثقل سلاحه ولا تسمع له صليلا » هلم نرتب مهماتنا بحيث لا يصدر منها أقل صوت يمكن أن يؤدى الى الكشف عنا · لقد طلبت كلا منكم بالاسم ليكون فى تشكيل هذه الجماعة لاننا سنقوم بمهمة خطرة · ان كلا منكم فى عينى « لا يقهر ولا يلين عزمه » كذلك ·

أخذ المقاتلون يقفزون فى الظلام بعض الوقت للتأكد من أن مهماتهم لا تحدث صوتا أثناء قفزهم · ولم يصدر عنها صوت · وقبل بدء التحرك كان المدخنون من المقاتلين قد أكثروا من التدخين لعلمهم بأن هذه هى آخر مرة يدخنون فيها حتى انتهاء مهمتهم · وبدأ المقاتلون فى التحرك فتخطوا الحد الخلفى الذى يفصل بينهم – بين هؤلاء الأربعين – وبين باقى الفوج وباقى الجيش وباقى الحياة · ومن وقت لآخر كانت الصواريخ تضىء فوق حقول القمح،

مما جعلهم ينحنون أكثر وينظرون دون ما ارادة الى ذلك المرتفع الذى خرجوا من أجله · وهناك على المرتفع يرى فى ضـــوء الصواريخ المرتعش الألمان وهم يتحركون · وكانت تسمع من هنا وهناك أصوات دفعات قصيرة من الرشاشات ما تلبث أن تخبو ·

كان الجنـــود يسيرون فى صمت كل منهم خلف الآخر فى صفين · وكان دوتى يتوقف فى بعض الأحيان ويرهف السمع فى الظلام ثم تهدأ نفسه · وواصلوا سيرهم · وكان المقـــاتلون قد بدأوا مسيرتهم وهم يكادون يسيرون على أربع ويزحفون ، الا أنهم سرعان ما تعودوا وتشجعوا فنصبوا قاماتهم بعد ذلك · فمن غير الممكن قطع مسافة كبيرة بالسير مع ثنى الجسم حتى يكاد يلامس الأرض · وكان حفيف القمح يسمع فى كل مكان · وكان من السهل الاختفاء ، غير أنه كان من السهل أيضا الاصطدام بدورية المانية مختبئة أو نقطة نيران مستورة · وكان دوتى يوقف الجماعة فى بعض الأحيان ويرسل رجلين أو ثلاثة رجال الى الأمام للاستطلاع كيلا تصدم الجماعة عفويا بماسورة مدفع رشاش المانى لا يحتاج الا الى أقل من دقيقة كى يحصد أفرادها جميعا من جذورهم ·

أخذ مرتفع ليصيا ينتقل بالتدريج ناحية اليمين ثم بدأ يرجع الى الوراء مثلما تنتقل أبراج النجوم فى السماء خلال الليل ، اذن فالحد الأمامى الألمانى يوجد على بعد خمس عشر خطوات من هنا · وكانت سنابل القمح تزاح بحذر ودون احداث صوت · ولو حدث فى هذا الهدوء ووقع بعض الغبار فى انف أى من المقاتلين وعطس، لكانت هذه هى نهاية العملية التى أعدت بهذا القدر من الجهد ·

وصل الى الأسماع من ناحيـــة اليمين حديث ، ربما كان بالألمانية وربما كان بالمجرية ــ المهم لم يكن من الممكن تبينه ثم سمع

صليل جاروف وأصبح الحديث أكثر وضوحا • وقرفص المقاتلون وانصتوا السمع • أجل ان الألمان يحفرون الأرض ويخشخشـــون بالقمح ويتبادلون الحديث • وظل المقاتلون جالسين على هذه الحال فى صمت ودون حراك حوالى عشر دقائق • وسمع صوت قرقعـة عجلات عربة جر • توقفت العـــربة • يا ترى هل وصل المطبخ الميدانى لا •• لم يكن مطبخا ، فقد بدأت طرطشة الميـــاه ورنين الكيزان •• وهرع الجنود الألمان من كل مكان على الماء ، بل وكادوا يصطدمون بمقاتلينا • كان الألمان يشربون ويضحكون وينتحـون جانبا كى يصل غيرهم الى العربة • وشعر مقاتلونا كذلك بالرغبة فى الشرب لدرجة أن حلق القوميسير نفسه قد جف من العطش

وأخيرا انطلقت عربة المياه تواصل طريقها • وبدأ مقاتلونا كذلك التحرك من جديد • وفجأة تسمر دوتى فى مكانه حين ظهرت أمامهم مباشرة خطوط غريبة • وانتظر دوتى حتى اضيىء المكان بصاروخ • واتضح أنهم كادوا يصطدمون بمنصة مدفع هاون ذى ست مواسير • وكان الألمان قد خلعوا ملابسهم حتى الوســـط وأخذوا يصبون المياه على أنفسهم ويقهقهون بصوت عال • هذا حسن • فليواصلوا ضجيجهم • ان القطا الأطرش (*) يسمى هكذا لأنه لا يسمع الضجيج من حوله أثناء احداثه هو الضجيج •

وسر مقـــاتلونا بهذه المنطقة كذلك • وكلما زاد تعمقهم فى دفاعات العدو ، ازدادوا تيقنـــا ان عدم الاكتراث يسيطر على تصرفات الألمان ، وأنهم لا يعتقدون بأن الخطــر يمكن ان يداهمهم هنا • وكلما ازداد توغل رجالنا فى عمق العدو ،أحسوا بازدياد الحركة بين قواته : فتتحرك بين لحظـــة وأخرى مجموعات من

(*) القطا الاطرش ـ اسم طائر •

الجنود ويسمع ضجيج عجلات سيارات النقل وحاملات الجنــود المدرعة · ولعله من الممكن الاسراع بالخطى هنا لأن الألمان يمكن ان يعتبروا رجالنا من أفرادهم ولكن بشرط الا يصطدم أحد منهم بأى من الألمان عن قرب · ان المهم هو الا يخرج المرتفع المشئوم عن دائرة الأعين · وكان المرتفع يبدو من ناحية الألمان بصورة مغايرة حيث يرتفع قليلا فى الأفق فيشبه كوما مائلا من أعشاب العام الماضى وقد هبطت تحت وطأة الثلوج والأمطار ·

الوقت يمضى ويقترب موعد بدء القصف المــدفعى · ينبغى الاقتراب من المرتفع بقدر الامكان بحيث لا يقع مقاتلونا فى دائرة نيران مدفعيتنا وهاوناتنا · لم يهجع الألمان للنـــوم ، فقد كانوا يعيدون توزيع تجمعاتهم ويسحبون احتياطياتهم · وكان من الصعب فى زراعات القمح الكثيفة تمييز كل ما يجـــرى الا أن ضجيج السيارات يدل على أنهم يسحبون قوات كبيرة ·

كان المقاتلون فى دهشة من أمرهم ، بل ولم يصدقوا أنفسهم فى أنهم يوجدون فى جحر العدو · فمن الذى كان يمكنه ان يفكر فى النهار أنه يسير هكذا وفى حـــرية تامة تقريبا بين صفوف الألمان ؟ ولم يشعر المقاتلون بأى تعب نتيجة شدة الانفعال · كما ان كلا منهم كان يفكر فى أنه لو حالفه الحظ ونجا بحياته فسوف يحدث رفاقه كيف بدا أمرا غريبا أن يسير المرء وسط الالمان ·

كان المرتفع طول الوقت فى دائرة بصر مقاتلينا ، غير انه كان من الصعب تحديد المسافة اليه فى الظـــلام · الوقت يمضى والمقاتلون يسيرون والمرتفع لا يزال بعيدا · كم يخشى رجالنـــا التأخير ·

وكان يتأتى على رجالنا البواسل بين الفينة والفينة الالتفاف حول مدافع ومواقع هاونات وجنود غلبهم النعـــاس بالقرب من

عرباتهم المدرعة ٠ وكم كانت الرغبة قوية فى فتح نيران المدافع الرشاشة أو القاء القنابل اليدوية والزجاجات الحارقة عليهم ٠٠ آه كم من الذعر يمكن ان يصيب الألمان فى هذه الحالة ٠ وكاد يتحتم على المقاتلين أن يفعلوا ذلك حين صـــاح أحد الحراس فى المتجولين فى الظلام ان يتجهوا الى اليمين ٠ حسنا ان دوتى فهم أمر الحارس ، أو الأصح انه فهم كلمة « الى اليمين » فقط ، فغير اتجاهه بشدة مطيعا صيحة الحارس المرعبة ٠ والتف مقـــاتلونا حول الهاونات ذات المواسير الست التى يحرسها الألمان بعناية كما نحرس نحن الكاتيوشا ٠

أضاء صاروخ المكان فوق المرتفع ٠ وقاسى دوتى المســافة بنظره فوجدها حوالى الكيلو متر ٠ ينبغى الاقتراب أكثر من ذلك للوصول الى المرتفع فى قفزة واحدة بعد ذلك ٠

أخذ عدد حفر دانات القذائف يزداد باقتراب المقـــاتلين من المرتفع وكانت المساحات السوداء الجرداء تغطى زروعات القمح حيث احترقت من قذائف الثرميت وقذائف الهاون وكان ســـائقى جرارات سكارى أو عميان قد شوهوا الحقل بمحـــاريثهم بالطول والعرض ٠ وانبعثت فى كل مكان رائحة الشياط والغلال والعظام المحترقة ٠ وأخذ دوتى يبحث الآن عن مكان بين القمح لم يمســـه الحريق للانبطاح فيه ٠ وانبطح الرجال كيفما كان ٠ وأصبحت نقط نيران العدو المواجهة الى مواقعنا الأمامية أمام مقـــاتلينا وعلى مقربة منهم واتخذ مقاتلونا موقعهم خلف العــــدو ، ومن خلفهم المدفعية والهاونات الألمانية وعربات مدرعة مموهة بأغصان القمح حديثة الجز على اســـتعداد للتحرك ٠ وفى عمق الدفاعات على المرتفع كانت تصلصل إما دبابات واما جرارات فقد كان من الصعب تبين ذلك ٠ وكانت الصواريخ تصعد الى السماء فوق الحد الأمامى ثم تنطفىء ببطء كما كانت تسمع فرقعة الرشاشات ٠ ومرت بالقرب

عربية اسماف . ولا ريب أن الألمان قد رأوا الرجال الراقدين فى مزارع القمح ولكنهم اعتقدوا أنهم من رجالهم .

وبدأ أن الوقت قد توقف تماما . ولكن الساعة تسير وتصدر تكتكتها المعهودة . وبدا الشحوب يزحف على طرف السماء . وسرعان ما سينبلج الفجر . وفجأة امتلأ الجو بالهدير والوميض وتلاحقت القذائف على المرتفع وغاب المرتفع وسط الدخان . وأدرك دوتى ان « الأول » يقدم المساعدة بالنيران حيث بدأت المدافع الكبيرة العيار تدوى بصوتها الجهورى . واختلطت الانفجارات فى دوى متصل . وبدأ الالمان يندفعون هنا وهناك حيث لم يكونوا قد تمكنوا بعد من حفر الخنادق على المرتفع . وانهالت القذائف من المدفعية والهاونات بكثافة وزحف الدخان والغبار على منحدرات المرتفع وردت المدافع والهاونات من عمق الدفاعات الالمانية . وبدأت قذائف الكاتيوشا ترعد وكأنها تؤكد كل أمجادها السابقة . وأضاءت القذائف الصاروخية السماء وغرق المرتفع فى بحر من النيران وتحركت خلال بريق الانفجارات أجسام الرجال واندلعت النيران فى بقايا حقل القمح وأصبح المكان مضيئا كما فى النهار .

كان الرجال المذعورون مندفعين فى ذهول من ناحية منحدر المرتفع ويبدو من صيحاتهم أنهم مجريون . واندفع الآخرون خلفهم محاولين النجاة كذلك . وتوقف القصف المدفعى فجأة كما بدأ فجأة وعندئذ انهض القوميسير الرجال واندفعوا تجاه المرتفع بصمت وبدا وكأنهم يسرعون لمساعدة المدافعين عن المرتفع . ولكن ما أن أصبحت المسافة التى تفصلهم عن المرتفع لا تزيد على المائة خطوة حتى صاح دوتى « اورا » وتلقفها المقاتلون . لم يفهم المجريون ما الذى يجرى فى مؤخرتهم فعادوا الى مواقعهم التى تركوها لتوهم غير أن نيران المدافع الرشاشة أخذت فى حصدهم من الخلف

كما بدأت القنابل اليدوية عملها هى الأخرى • واحتل القوميسير الخنادق على المرتفع واطلق صاروخ الاشارة •

وبدأت المدافع اطلاق نيرانها من جديد غير ان قذائفها كانت هذه المرة تنفجر خلف المرتفع مكونة حلقة من النيران حوله كما تم الاتفاق •

اعتقد الرائد موتاليف أنه تم الاستيلاء على المرتفع فاصدر الأمر للمشاه باقتحام المرتفع لمساعدة دوتى فى الاحتفـــاظ به • وأصبحت قوات العدو التى كانت تحتل منحدرات المرتفع المواجهة لخطوطنا الأمامية محصورة من الناحيتين • وأدرك دوتى خطـــأ الرائد الذى لم يحسب للحظة انزال الضربة • ولكن ينبغى من ناحية أخرى عزف « سيمفونية الليل » حتى النهاية وقبل حلول الصباح كيلا يتمكن الألمان من تقدير القوات التى تجاسرنا بالعمل بها وهذا ما جعل الرائد يتعجل بالهجوم •

لقد كانت كلمات قائد الفرقة « تريدون الاختبـــاء خلف ظهر القوميسير » تقلقه • ولم يكن ليسمح بأن يستولى القوميسير على المرتفع وحده حيث كان المرتفع ذا أهمية تكتيكية للفرقة كلها • ولم يكن عبثا ان يرسل قائد الفــرقة أربع دبابات لتكون تحت تصرف قائد الفوج لتدعيم الهجوم •

واقترب المشـــــاة من المرتفع وهم خلف الدبابات غير ان الألمان كانوا قد أفاقوا وصبوا حميم نيرانهم على المهاجمين • بدأت الهاونات ذات المواسير الست تعوى ، واطلقت المدافع الرشاشـــة الثقيلة والخفيفة نيرانها • وفكر الرائد : ياترى هل اخطأ وتلقى اشارة غير الاشارة المخصصة له ؟ ولكن الوقت متأخر الآن للعودة الى الوراء • وما من شىء يمكن عمله الآن ســـوى التقدم والتقدم

فقط · وصل المقاتلون الى منحدر المرتفع وعندئذ سقط الرائد مصابا بشظية ولم يعد هناك بالنسبة له وجود لمرتفع أو لنيران أو لضرورة تقدم لمساعدة القوميسير ·

وتم اللقاء الذى كان يتحدث عنه قبل ذلك قائد الفوج ، ولكنه لم يكن ذاك الذى تصوره · واستشهد من رجال القوميسير أكثر من الثلث كما منيت جماعة المهاجمين بخسائر فى الأرواح · ومع ذلك تم تحقيق النصر · كان نصرا صغيرا بحجم المرتفـــع · غير أنه لا يمكن تحقيق حتى مثل هذا النصر دون دماء كثيرة ·

هدية المانية

أشرقت الشمس والقمح لا يزال يواصل احتراقه · وسـار دوتى بين القتلى وأخذ يخرج من جيـوبهم الوثائق والصـور والرسائل ويجمعها ثم يضعها فى حقيبته الميدانية · ستطير اليـوم الى سفوح جبال القوقاز اشعارات الاستشهاد اللعينة · ولكن هل ستتمكن من الوصول الى هناك ؟ الن يسبقها الألمان الذين تمكنوا بالفعل من اختراق التحصينات المقامة على ضفاف نهر كوبان خلف مدينة أرمافير وخرجوا الى المسالك القريبة المؤدية الى جبـال القوقاز ، رغم انه لا تزال تجرى هنا فى برارى نهر سال معركة غير متكافئة ·

وعند احدى حفر القذائف كان مقاتل منكبا على وجهـه · قلبه دوتى بعناية وكأنه يخشى ايقاظه فعرفه ، كانت الدماء قد خثرت فى شعره الاسود الكثيف ، كما كان خيط داكن الحمـرة منهـا لا يزال ينبجس من زاوية فمه ، وعينـاه نصف مفتـوحتين · انه سكرتير جماعة الكومسمول للفوج الشاب الذى أهداه دوتى لوحته

الطوبغرافية القديمة كى يبرز سكرتير جمـــاعة الكومسمول عن الآخرين بشىء ما · لم تكن لديه رتبة عسكرية بعد · كان السكرتير الأسود العينين خزانة مرح متنقلة ، وفى كل مكان يتوقف فيـــه يلتف حوله الرجال · فقد كان يعرف عددا لا حصر له من الفكاهات والقصص المرحة والنكات · وعلى ما يبدو انه كان يؤلف بعضها بنفسه وذلك لأنه من غير الممكن تذكر كل هذا ·

أخرج دوتى من جيب صدر سكرتير جمـــاعة الكومسمول بطاقة عضوية الكومسمول وصـــــورتين فوتوغرافيتين · كانت الصورة الأولى لفتاة بدا الخوف فى عينيها وشـــعرها مصفف جيدا · والصورة الأخرى لامرأة غير شابة تبدو الجدية فى عينيها ـ انها والدة الشاب وذكر دوتى فى نفسه : انها هى التى ســوف تتسلم اشعار استشهاده ـ وحمل المقاتلون جثة سكرتير جمـــاعة الكومسمول · واقترب دوتى من جثة أخرى ـ وكانت الجثث كثيرة على منحدرى المرتفع · واخرج دوتى من جيب القتيل كراســـة سوداء الغلاف وقلم رصاص · كانت الصفحات مكتوبة بخط صغير واللغة التى كتبت بها ليست معروفة · من الواضح انها قصائد شعر ولكن بأية لغة كتبت ؟

وذكر دوتى فى نفسه قائلا : « سأعرضها فى الفوج ربمـــا يفسرها أحد ما » · ولم يكن هناك شىء آخر فى جيب القتيل سوى كراسة الأشعار هذه · من المؤسف حقا الا يعرف اسمه · وفى هذه الحالة سيبقى الشاعر المجهول الى الأبد ضمن « المفقودين » ·

سمع صوت أزيز طائرة فأسرع دوتى الى الخنادق · وكان المقاتلون المجهدون يسوونها ويعمقونها · وكانت تسبح فى سماء الصباح طائرة استطلاع واحدة من طراز « فوكيفولف » ولقد تعود المقاتلون على ان ظهور طائرة الاستطلاع فى السماء يجر وراءه

البلايا · ينبغي حفر مقبرة للملك فى قاع الخنـــدق · فمن عادة الكاباردينيين حين يدفنون موتاهم عمل تجويف عميق فى جدران المقبرة حيث يضعون الجثة · وبعد ذلك يسدونهـــا من الخارج بالطوب الأحمر مكونين بذلك قبوا يتلقى فيه المرحوم سؤال القبر · أما بالنسبة للملوك فان هذه التجاويف تحفر منخفضة كى يتحاشى المرحوم متحججا بالضيق الملكين الهابطين لسؤاله ·

اقتربت طائرة الاستطلاع الألمانية · كانت تحلق على ارتفاع منخفض فالألمان على يقين من أنه ما من شيء على الأرض يتهددهم· وقامت الطائرة بدورة والآن سوف تلقى قنابلها انها تحمل عددا قليلا من القنابل ، ولكن الله يحفظ من يحافظ على نفسه · وانحنى الجنود وصوب الألمانى الى الهدف · وانفصل عن الطـــائرة شيء ما ولكن صفيره وهو يسقط لم يكن يشبه صفير القنابل ·

اصطدم الشيء بالأرض محدثا صوتا خافتا ولكنه لم ينفجر · ربما هذه قنبلة زمنية ؟ وتمضى الثوانى وما من انفجار · ويسمع صوت جزع :

ـ انها ليست قنبلة ، أيها الرجال !

ـ ممنوع الاقتراب منها ! ـ ويضع دوتى النظارة المعظمة على عينيه ·

كان يبرز من الأرض لوحان خشبيان · شيء غريب · وخرج بنفسه من الخندق وذهب لرؤيته · وكانت الطـــائرة قد غادرت المكان ·

كان هذا الشيء عبارة عن تابوت عادى مصنوع من الألواح الخشبية الغير مسحجة · وكان التابوت مربوطا من الخارج بكابل تليفون ، كما كان غطاءه قد انفصل عنه وأصبح ملقى على الأرض وحده · وقرأ دوتى كلمات كتبت على الغطاء بالطبـــاشير تقول

« طيران أعمى للقوميسير » · « ولكن ما شأن القوميسير هنا ؟ » ـ تعجب دوتى وهو يقترب بتحفظ ناحية التابوت · ونسى المقاتلون كذلك أمر الحيطة وقفزوا من الخنادق وأسرعوا ناحية التابوت ·

كان فى التابوت جثة انسان مشوهة وقد انحشرت رجلاها فى عظام القفص الصدرى وبدا الرأس وكأنه بدون رقبة وسقطت العينان من محجريهما · ورغم ذلك كان من الممكن التعرف على الجثة (وتعرف عليها دوتى) فقد كانت جثة سلطان خولا مبايف قوميسير الكتيبة السابق · وكانت هناك فى التابوت حول جثة القوميسير أكوام من المنشورات ·

صورة بشعة من صور الموت · يا ترى هل وضعوا خولا مبايف حيا فى التابوت ؟ ان الدماء الموجودة على جدران التابوت لا تترك موضع شك · وبين أكوام المنشورات وجد دوتى رسالة ساخرة يبدو أنها كتبت بسرعة قبل « ارسال » القوميسير مباشرة وبيد شخص لا يعرف اللغة الروسية جيدا :

« أنا القوميسير أحمل لوحدتى المنشورات كى أجىء برجال الخيالة الى الأسر الألمانى · أسألكم مساعدتى بشتى الطرق » ·

وأمر دوتى الجنود بحفر مقبرة خاصة فى أعلى نقطة من مرتفع ليصيا لدفن سلطان خولا مبايف مع أداء كل المراسم العسكرية · وليحمل المرتفع اسم « سلطان » ·

وصنع المقاتلون من غطاء التابوت شاهد قبر ووضعوه فى البرارى الجرداء من الغابات وكتبوا عليه : « هنا يرقد جثمان قوميسير الكتيبة سلطان خولامبايف الخالد الذكر · فليحمل المرتفع اسمه » ·

بعد دفن سلطان خولامبايف جمع دوتى المدافعين عن المرتفع وفكرهم باحتمال قيام العدو بالهجوم عليهم . فان الألمان لن يهدأوا قبل ان يلقوا بنا من هذا المرتفع . واذا القوا بنا من هذا المرتفع فانهم سيتقدمون الى الأمام . آن المرتفع ليصيا يقف كالعظمة فى الزور بالنسبة لهم يعوقهم عن رؤية العــــالم ولذا من المتوقع ان يجروا عملية جراحية لازالة هذه العظمة وما من وسيلة أخرى غير الصمود حتى الموت لكى تبقى هذه العظمة فى زور العدو . وقرأ دوتى على المقاتلين أحــد المنشــورات التى كانت بجــوار الجثـة فى التابوت حيث يوجه الهتلريون كلماتهم الى جنود فرقة الخيالة قائلين : « ان القوات الألمانية الظافرة سوف ترفع الراية فى القريب العاجل على جبال البروس . ومن لم يكن أعمى فهو يرى اننـــا نقترب من النصر . وعليكم ، اذ لم تكونوا تريدون أن يكون مصيركم السحق. الاسراع بالانتقال الى جانبنا وبهذا تحافظون على حياتكم» ثم جاء بين قوسين : « يمكن للقوميسيرات واليهود الا يقلقوا فاننا لا نأخذهم فى الأسر » . وقال القوميسير للجنود :

ــ من السهل التنازل عن الشىء ولكن من الصعب استعادته وها هو المرتفع ــ لعنه الله ــ كيف كان من الصعب استعادته . وكم لدينا ما يجب استعادته كذلك ؟ ولكن لا بأس سوف نستعيد كل شىء شبرا وراء شبر ومرتفعا وراء مرتفع .. سنستعيد كـل قطعة أرض ولكن يتحتم علينـــا ان نروى الأرض بالدماء ونبللها بالدموع . ولهذا يطالبنا ستالين بعدم التراجع خطوة الى الوراء . وهل نحن نصمد أم لا ؟ الألمان يدقوننا من الجو ونحن صامدون . الألمان يدوسوننا بدباباتهم ونحن صامدون . اذن يمكن الصمود . ولكن المهم ان تتشبث بالأرض فقط . ان الأرض أرضنا ــ انهـا تحبنا . انها عزيزة علينا ولا تريد فراقنا . انها ترجونا بدموعها كى نحميها من العدو . لقد سألتنا امرأة قوقازية : اين ستقفون فان للأرض حدود ؟ ولقد أجاب ستالين فعلا على سؤالها : الصمود

حتى الموت · لقد كان نصيبنا الدفاع عن برارى القوزاق · انهـــا أرضنا جميعا · أرضنا السوفييتية ونحن جميعـــا سوفييتيون · اصمدوا ، أيها الرجال · اصمدوا ، يا اعزائى ·

ـ نقسم بشرف الكومسمول أننا لن نتراجع خطوة واحدة ·

ـ قال مقاتل يبدو فوق شفته العليا خط رفيع من الشعر الأسود · ولم يكن هذا الشاب قد سبق له أن حلق ، ولذا كانت الشـــعيرات طويلة وقليلة · وكانت عيناه متوقدتين ومحمرتين من الليـــــالى المؤرقة وتذكر دوتى مدفعجى الهاون هذا وهو يعمل أثناء القتال · لقد وضع الشاب مدفع هاون السرية بين رجليه ولصـــقه بركبتيه بالأرض وأخذ يضع القذائف فى ماسورة المدفع ويطلقها ثم ينظر اين تطير · واذا كانت تصيب الهـــدف فهذا حسن ، وان كانت تخطئه يقوم بتعديل التصويب بالتخمين ودون جهـــاز التصويب الخاص بالمدفع ·

وتوجه دوتى الى نقطة مراقبة الفوج بعد ان وعد بعدم التأخر فى المؤخرة كى يكتب تقريره السياسى · لقد كان هناك ما يستحق الكتابة · وأخذ دوتى معه كل المنشورات والرسالة الألمانية المزورة حيث كان يود عرض كل هذا على قوميسير الفرقة الذى لم يكن قد تمكن بعد من الاتصال به تليفونيا · هذا الى جانب انه : هل يمكن الحديث عن كل شىء بالتليفون ؟ لقد هزه تابوت جثـــــة خولامبايف · وكان يكرر فى نفسه : ان كل ساعة حياة الآن هبـة من القدر ومكافأة منه ذلك لأننى أخذت من الألمان مسبقا ثمن حياتى وحياة سلطان وانى على استعداد للموت والأغنية على شفتى ·

كانت نقطة مراقبـــة الفوج توجد فى جرن قديم حيث كان يستخدم كوم ضخم من الأعشاب المصفرة القديمة للمراقبـــة · وكانوا يصعدون الكوم على سلم وهنا أعد تجويف فى الأعشـــاب

كان يجلس فيه يعقوب بيشتويف ويقوم بالمراقبة بالنظارة المعظمة ·
أصبح لوكوتوش قائدا للفوج بعد اصابة موتاليف · وفى هذا الجرن كذلك وضع محول التليفونات فى أسفل الكوم · واتقنت ابتشارا العمل على الجهاز جيدا · والأكثر من ذلك أوجدت لنفسها تنورة وهو ما كان ينقصها لاستكمال زيها العسكرى · كما برزت على طاقيتها نجمة الجيش الصغيرة ، وتدلى من تحت الطاقية على كتفيها شعرها الأسود الكثيف ·

لم يرهم دوتى لعدة أيام فقط ، ورغم ذلك بدا له انه لم يرهم دهرا كاملا ·

ـ لقد أوصلنا خطا الى مواقع رجال الهاونات · ـ لم تستطع ابتشارا اخفاء فرحتها وكأن ذلك كان الشىء الوحيد الذى يمكن ان يدخل السرور فى نفس دوتى كوشروكوف ·

ـ أهلا بك أيها القوميسير ـ خرج لوكوتوش وهو يعرج على رجله لملاقاة القوميسير · واحتضن دوتى دون أن يترك العصا من يده ـ لقد كنت أعتقد أننى لن اراك ثانية · كيف بقيت على قيد الحياة ؟ لقد تسللت الى فم الذئب ، بل الى بطنه ـ اذا جاز التعبير ـ وها أنت سليم معافى · والأكثر من ذلك أنك كسرت أنياب الذئب وانت فى طريقك ·

ـ فى الحكاية يطلق الصيادون سراح ليلى ذات القبعة الحمراء بعد أن يفتحوا بطن الذئب ، أما دوتى فقد خرج بنفسه ـ أضافت ابتشارا ·

ـ الحق حق ولا جدال فيه ـ واصل القوميسير الحديث المازح بنفس اللهجة ـ كان الجو مظلما كما فى بطن كلب أسود ·

ـ وكيف يكون غير ذلك ؟ الوقت كان ليلا ·

نزل يعقوب من الكوم فقد كان لا يزال ينتظر الحصول على

منصب رغم حصوله على الرتبة . ولم يأتمنوه فى الفوج الا على النظارة المعظمة وحدها كى يقوم بمراقبة العدو . وكان يعقوب يقوم بذلك بكل اعتزاز فضلا عن سعادته للبقاء فى نقطة المراقبة . ان أهم شىء بالنسبة له كان البقاء هنا وعدم ارساله بعيدا عن هذا المكان . أما تجاسر القوميسير وقيامه بهذه العملية البالغة الخطورة تطوعا فقد كان فوق ادراكه .

اندمج القوميسير فى الحـــديث ولم يلحظ ان لوكوتوش قد أصدر الأمر باعداد ما يمكن أكله . وريثما كانوا يعدون المائدة ، تحدث دوتى عن تابوت جثة سلطان . فلم يقرب أحد من الموجودين الطعام . وبكت ابتشارا . فقد تخيلت سلطان أمام عينيها . هذا الانسان الحى الرقيق الشهم الذى لا يحتمل دموع النساء . كيف يمكن تصور ان هذا الانسان قد استشهد نتيجة الطيبة ؟

جلس الجميع فى ظل الكوم .

– فلنشرب نخب أول قطرة نصر . ان هذه القطـــرة تبشر بسيل . – رفع لوكوتوش كوب البلاستيك بالفودكا . لقد كانت هذه آخر زجاجة احتفظ بها لأية مناسبة خاصة – فى صحتك أيهـــا القوميسير .

وشرب الجميع . وكان بيشتويف أول المتحدثين .

– اننى قانونى من حيث التعليم . وقد حصلت على تعليم عال .

شعرت ابتشارا بالاشمئزاز عندما عاد بيشتويف الى الحديث من جديد عن تعليمه العالى . فقالت له :

– نعرف هذا .

– لا استطيع فهم شىء واحد فقط : لماذا يعامل الألمان الأسرى

بهذه الوحشية · لقد كلفت ذات مرة على سبيل المثال باحضار ضابط اتصال المانى أسير · وحذرونى ثلاث مرات : انتبه واحضره سليما · وجئت فى طلبه بسيارة ركوب خفيفة وبعد استجواب قصير أرسلوه الى قيادة الجيش بنفس السيارة · لقد احيط بكل سبل الراحة · وانى لعلى ثقة من انه يعيش الآن عيشة طيبة · لقد انتهت الحرب بالنسبة له ولكن أنظروا كيف عاملوا خولامبايف ؟ لقد سمروه حيا فى التابوت وهوب ·· القوا به من الطائرة ·· ان الكلاب لاتعامل بمثل هذه الطريقة ·· هل الانسان الذى يقع فى أسر الألمان يفقد كل حقوقه ؟

ـ نعم يفقدها ·

ـ لماذا ؟

ـ هناك العديد من « لماذا » هذه ـ قال دوتى ·

ـ أذكر لى حتى ولو اثنين أو ثلاثة ·

ـ أول « لماذا » : اننا نخوض حربا غير عادية ليست كالحروب التى تدور بين مختلف البلدان · ان الحرب ضد الفاشية هى استمرار لثورة أكتوبر الاشتراكية · ان أساس هذه الحرب هو صراع الأفكار : اية ايديولوجية يجب ان تدير دفة التاريخ الانسانى : الأيديولوجية الشيوعية أم الفاشية ؟ انها حرب من أجل المثل ومن أجل المبادىء · انها حرب طبقية وتمس أسس المصائر الانسانية لكل الشعوب الكبيرة والصغيرة ·

وابتلع يعقوب جرعة من الفودكا ونظر الى القوميسير الذى أحس فجأة ان النعاس يغالبه ـ لقد أجبت على أول « لماذا » فما هى « لماذا » الثانية ؟

ـ ليست هناك حرب دون اسرى · هذا ما يدركه الجميع ـ هب لوكوتوش لمساعدة القوميسير ـ غير ان الوقت الذى كانوا يغنون فيه للأسير أغنية « لا ، انك لست أسيرى بل ضيفى العزيز »

قد مضى ، لقد نكلوا بالقوميسير بوحشية . ويجب ان نتوقع ما هو أبشع . فكلما ازدادت انتصارات العدو ، زاد قسوة وجورا . وليس من الصعب تصور مصير الذين وقعوا فى الأسر الألمانى . سوف يسلخ الألمان جلودهم لصنع النعال منها .

ـ انك قانونى أنهى تعليمك العالى ـ وركز القوميسير على كلمة « العالى » هذه المرة لا لكى يمس كرامة يعقوب ـ وعليك ان تأخذ فى الحسبان ان الفاشية الألمانيـــة قد داست أولا على الحركة العمالية وقضت على قيادات الطبقة العاملة وزجت فى الســجون بزعمائها فى المانيا ، وذلك قبل ان تعادى ايديولوجية العمـــال والفلاحين فى العالم اجمع . وبعد ذلك قامت بالهجوم علينـــا . ولهذا فان مهمتنا صعبة من ناحيتين فينبغى أولا ان نطرد العدو من أراضينا ، وثانيا : يجب علينا كذلك أن نعيد مثل الطبقة العاملة الألمانية اليها . ان التفكير فى سبيل الى الخروج حيـــا من هذا الصراع يعنى الخيانة . انى أفكر بهدوء فى الموت فى المعـركة . ان الموت يعتبر بمثابة مكافأة بالنسبة لى . لقد كنت فى شبابى من أفراد لجنة الطوارىء وها أنا الآن قوميسير . ان أول رصاصـة صنعها الألمان مخصصة للقضاء على ، أما الرصـــاصة الثانية فتستهدفكم أنتم الشيوعيين وما من موت أفضل بالنسبة للشيوعى من الموت فى المعركة أثناء نزال العدو وهو ينفذ الأمر بعدم التراجع خطوة واحدة الى الوراء . ان هذا هو الموت الذى تحدث عنـــه الكاباردينى قائلا : لقد سرج جواد الخلود بالموت . من الســهل على أن أحارب . فاننى لا أهتم بجلدى .

سمعت ابتشارا اشارات النداء فاندفعت نحو المحول . كان البيان على الخط .

منذ أن تم توصيل خط الى سرية مدافع الهاون وابتشـــارا

تحاول الاتصال كل يوم تليفونيا باخيها سائلة : « كيف الأحوال ؟ » فقد كانت تود أن يتحدث البيان طويلا ويحكى لها عن كل مقاتل لديه · ولكن البيان كان يرد عليها بدلا من ذلك قائلا : « ألأنت مرة أخرى ؟ » · وعندئذ تبدأ ابتشارا هى فى الحديث وتذكر ايرينا ودانوتشكا وتسأل البيان هل فقد الورقة التى رسمت عليها دانوتشكا صورة يدها وقدمها ·

كان البيان هذه المرة يطلب لوكوتوش · وأخذ قائد الفوج السماعة وقام القوميسير من خلف المائدة كذلك وهو يقول :

ـ انى ، أيها الأخوة ، سوف أرقد للنوم ساعة ·· لا أستطيع مقاومة النوم أكثر من ذلك ·

لقد كان للقوميسير كل الحق فى النوم ، واستلقى على القش أسفل الكوم وراح فى سبات عميق على الفور ·

صعد يعقوب كذلك الى الكوم حيث نقطة المراقبة · وهناك كان التجويف المعد فى كوم القش يصلح كذلك للرقاد والتفكير · وفى هذه المرة كان يعقوب يرغب فى التفكير فى كلمات القوميسير· الا أن ابتشارا قطعت عليه تفكيره حين وصل اليه صوتها من أسفل وهى تقول :

ـ أيها الرفيق القانونى · يطلبونك فى التليفون ·

قفز يعقوب من رقدته وانزلق من على الكوم على بطنه وأمسك بالسماعة وهو ينفض القش عن نفسه · فقد كان وكيل النيابة الذى يشغل المكان المخصص ليعقوب ـ هو الذى يطلبه ـ وكان الوكيل يحاول بشتى الطرق أن يجد عملا ليعقوب وكأنه يشعر بالذنب تجاهه · وفى هذه المرة كان يحتاج الى يعقوب فقال له فى التليفون: « يجب المجىء فورا الى مؤخرة الفرقة » ·

ـ هل هناك شيء هام ؟ ـ سأله لوكوتوش فأجابه يعقوب :
ـ سوف نحاكم أحد الجبناء ٠

أعاد يعقوب بيشتويف النظارة المعظمة الى لوكوتوش وغادر المكان ٠ فكانت الرغبة تتنازعه فى أن يقول شـــيئا ما لقوميسير الفوج ، الا ان القوميسير كان نائما أسفل الكوم ، ولم يكن لأحد ان يجرأ على ايقاظه الآن ان لم تكن الحرب ستأخذ على عاتقها هذه المهمة ٠

الفصل الخامس

المرتفع

كادت ابتشارا تكون أول من يعلم بما يحدث من شذرات العبارات التى يصعب نقلها بالشفرة · وأدركت على الفور ان الألمان حولوا ضربتهم وانقضوا على الفرقة الكالميكية المجاورة التى كانت تدمى جراحا مثلما كانت الفرقة الكاباردينية البلكارية كذلك· لقد تظاهر الالمان بالهجوم بطول الجبهة كى لا تتمكن قيادتنا من معرفة الوجهة التى يمكن ان ترسل اليها الاحتياطيات · ونفقت الجياد نتيجة لغارات الطيران المكثفة ونيران المدفعية · وأصبحت المدفعية التى تجرها الجياد عاجزة عن الحركة · وتحتم نقل المدافع الى المواقع الجديدة عن طريق دفعها باليد · وكان من الممكن الا تتمكن الدبابات الألمانية من التوغل فى المؤخرة حتى فى مثل هذا الموقف حيث كان من الممكن ضربها فى عمق الدفاعات لو لم يكن قائد الفيلق ـ وهو برتبة جنرال ـ موجودا فى نقطة مراقبة الفوج · وكان وجوده فى النقطة محض صدفة فى هذا الوقت · وكان هذا الجنرال قد طلب قبل ذلك بوقت قصير من قائد الجيش ارسال كتيبة دبابات · ووعده قائد الجيش بارسال الكتيبة · ولم تمض ساعة على هذا الطلب حتى ظهرت الدبابات فى الأفق ·وابلغ المراقبون بهجوم دبابات العدو · واستعد رجال المدفعية للضرب بالنيران المباشرة ولم يكن ينقصهم سوى صدور الأمر · الا أن الدبابات كانت قادمة من الجانب ، أى من نفس الاتجاه الذى كانت ستصل منه كتيبة الدبابات التى وعد بها قائد الجيش · ولذلك أصدر قائد الفيلق الأمر بعدم فتح النيران ·

ـ ان هذه دباباتنا ـ قال الجنرال بثقة واعرض عن المتحدثين مشيرا الى أن الحديث قد انتهى ٠

كان لوكوتوش يتمتع بنظرة الخبير ٠ فقد كان يستطيع تمييز دباباتنا عن الدبابات الألمانية وحتى الفرنسية من الهيكل ووضع البرج وعيار المدفع ، ولذا تجرأ على معارضة الجنرال قائلا :
ـ أرجو المعذرة أيها الرفيق الجنرال ـ ان هذه دبابات المانية ٠ ينبغى فتح النيران ٠

وقبل أن يتمكن الجنرال من الاجابة توجه اليه ياوره قائلا :
ـ اسمحوا لى بنقل سيارتكم الى الملجأ ٠
كانت تجلس فى سيارة الجنرال ماركة « ام » زوجته ـ وهى طبيبة عسكرية ٠
ـ لا داعى لنقل السيارة ٠ ان الدبابات القادمة هى دباباتنا٠ لقد طلبتها من قائد الجيش ٠
لم يمتد الجدل طويلا ٠

فقد هجمت الدبابات الالمانية سريعة الحركة علىمواقع المدفعية وسحقت المدافع ٠ وأراد قائد الفيلق ركوب السيارة ولكن دفعة رشاش عاجلته قبل أن يتمكن من فتح بابها ٠

غير أن الدبابات لم تلحظ الذين تمكنوا من الاختباء تحت كومة القش وفى الحفرات المموهة الا أنها اطلقت على كل حال عدة قذائف على الكوم وواصلت طريقها بسرعة ٠ كان تحت الكوم ابتشارا ولوكوتوش ٠ لم يكن معهما ادمكوف الذى كان يصلح الخط فى مكان ما ٠

عندما ابتعد هدير الدبابات اطلت ابتشارا من القش وكأنها كتكوت كسر البيضة واطل منها ٠ وفكرت ابتشارا فى ان الدبابات

ستهجم الآن على سرية مدفعية الهاون وتسحق البيـــان وحاولت الاندفاع من الكوم الا أن لوكوتوش امســـكها من حزام الطبنجة واعادها قائلا :

ـ هل جننت ؟ اجلسى ٠

الا أن الدبابات كانت قد اتجهت ناحية العزبة ولم يبق منهـا سوى آثار جنازيرها التى بدت فى مزارع القمح وكأنهـــا خطوط ماكينات جمع المحصول وتناثرت على الطريق الزراعى الذى كان يوصل فيما مضى بين العزبة المسالمة والبيدر المسالم كذلك بقـايا السيارات التى كان يسيل من تحتها الزيت الاسود مخلوطا بالدماء الانسانية الحمراء ٠

لم تكن هناك دبابات ولكن طلقات المدافع والأسلحة الخفيفة كانت تدوى فى كل مكان بحيث كان من غير الممكن تحديد مصدرها واتجاهها ومن الذى يطلقها ٠

جلس لوكوتوش الى التليفون كى يســـتفسر عن الموقف ٠ وبدأت ابتشارا تدخل أصبع التوصيلة الفتحة تلو الأخرى بنشاط من أجله ٠ وكانت تصيح بكل ما لديها من قوة لأنها لم تكن تسمع صوتها بين دوى الانفجارات فقد كانت المدافع تطلق النيران من عمق الدفاعات ومن عمق المؤخرة ومن الحد الأمامى ومن الجوانبـ من كل مكان ٠ وكانت القذائف تطير فوق الرؤوس بهـدير فظيع وهى تصفر ٠ وانتشرت النيران لتشمل كل نظام دفاع الفرقة ٠

وظهرت دباباتنا ـ التى كان ينتظرها قائد الفيلق ـ فى نهاية المطاف واصطدمت برتل الدبابات الألمانية المتجه ناحية العزبة ولكن الدبابات الألمانية كانت قد فرغت لتوها من سحق خيمات الـكتيبة الطبية المليئة بالجرحى ٠

كانت الدبابات الالمانية قد استنفدت قذائفها وهى تدق المؤخرة

حيث لم يكن أمامها ما يمكن أن تخافه . وحين اصطدمت بدباباتنا تحولت الى أهداف عاجزة عن الرد وأخذت النيران تشتعل فيها الواحدة تلو الأخرى .

كانت القاذفات تحوم فوق ميدان القتال . وبدت وكأنها تسخر من الأرض ومن الناس الذين حفروا فيها الخنادق . لم تكن الطائرات تطير هذه المرة فى دائرة مغلقة ، بل كانت كل منها تطير وحدها تبحث عن الحفر والخنادق ونقط النيران والمقاتلين الفرادى. ويبدو أنها لم تكن ترى أهدافها واضحة من أعلى وسط الدخان والغبار ولذا فقد أنزلت ضربتها هذه المرة بالدبابات الألمانية الموجودة بالقرب من العزية .

وظهرت فوق ميدان المعركة طائرة تحمل نجمة حمراء تشبه برميلا صغيرا ذا أجنحة . كانت طائرة مقاتلة سوفييتية تطير على ارتفاع منخفض هاربة من طائرتين المانيتين من طراز « ميسير » تلاحقانها لدرجة أنهما كادتا تلتصقان بذيلها . وأخذ المقاتلون السوفييت يطلقون النار على الطائرتين الألمانيتين كل بما لديه من سلاح سواء بنادق أو مدافع رشاشة ، أو بنادق مضادة للدبابات. وسرت الفرحة بين الجميع حين اشتعلت احدى الطائرتين وهوت مصطدمة بالأرض . وفى هذه الأثناء كانت المقاتلة السوفييتية والطائرة الالمانية الأخرى قد اختفتا عن الأعين ولم يعرف كيف انتهى الأمر بعد ذلك .

كانت الشظايا تتطاير وتصفر من حول ابتشارا وهى تصطدم بالقمح وكأنها قنابر ترفرف بأجنحتها وتطير خارجة نحو السماء من بين سنابل القمح الناضجة . كانت أصابع ابتشارا ترتعش مما جعلها لا تستطيع وضع الأصبع فى الفتحة المطلوبة على الفور .

أخذ لوكوتوش دون انقطاع يتصل بالتليفون حيث كان

يستفسر عن الموقف ويصدر أوامره · واشترك فى القتال المزيد من قوى العدو · وحدث ما يعرف « بطحن القوات » · وامتلأت الحفر والخنادق وممرات الاتصال وكل مكان بالجرحى الذين يطلبـــون المساعدة · ولم يكن يستطيع المقاتل فى كل الأحوال تضميد جراح رفيقه ذلك لأنه كان يتحتم عليه صد ضغط هجوم الهتلريين · ولقد عبرت الدبابات الألمانية الحد الأمامى أكثر من مرة ، ولكن المقاتلين لم يتركوا أماكنهم · فقد كان لوكوتوش يطالبهم قائلا : لا ضير الا تتمكنوا من تدمير الدبابات ، فان رجال المدفعيـــة سيجهزون عليها ولذا ينبغى على رجال المشاة الا يتراجعوا خطوة واحدة الى الوراء وعليكم أن تحصدوا مشاة العدو وتبيدوهم · وكان البيـان يعلم ذلك · فقد كان يفتح النيران على المشاة المهاجمين من أول اشارة ، أما « الكاتيوشا » فقد كانت تهز الارض ما أن يصبح العدو فى مدى ضربها ، وكان رجالنا يحصدون رجال رشاشات العدو ، ولذا أصبحت الدبابات لا تجرؤ على التقدم بدون مشاة ، فكانت تستدير وتعود على أعقابها وهى تدافع عن نفسها باطلاق النـار وذلك كى تصل الى مواقعها الأصلية وتعود من جديد جالبة معهـا وحدات جديدة من رجال الرشاشات لتلقى بهم الى حتفهم ·

وفجأة اقتحم حديث لوكوتوش بالتليفون صوت قائد الكتيبة بولوتوكوف الذى كان لديه ثلاثة مدافع ممـــوهة للضرب على الدبابات بالنيران المباشرة ·

ـ ها هى سبع دبابات قادمة ولا يرى حتى الآن مشاة خلفها · ولكن الدبابات لا تسير عادة دون أن يكون لها « ذيل » من المشاة ·

ـ حسنا ·· تصرف كما يتراءى لك ·

فقد كان لوكوتوش يعرف قائد الكتيبة بولوتوكوف · فهـو قائد ذو خبرة ولا داعى لاصدار تعليمات له · فقد حدد هدفا معينا

لكل مدفع كيلا يضيع الوقت فى التصويب والبحث عن الهدف فى الميدان . هذا بجانب ان جندى التصويب الذى يعرف هدفه يشعر بمزيد من الثقة ويجعل الهدف يقترب منه كثيرا . وهنا يتقرر الأمر فى ثوان : من الذى يقضى على الآخر . واذا حدث واكتشف الألمانى المدفع فى هذه اللحظة فلن تكون هناك فرصة لاطلاق النار عليه ولذا يجب اطلاق نيران المدفع قبل أن يكتشف أمره .

كانت أغصان الغاب هى الوسيلة التى استخدمها بولوتوكوف فى التمويه حيث غرزها فى كل مكان ووضع أكواما وحصائر مصنوعة منها فى كل مكان مما لا يدع مجالا للشك فى أن المرء يرى أمامه دغلا من الغاب. ومن المعروف ان الغاب ينبت فى المستنقعات وحول الماء ولذا لا تتجاسر الدبابات الألمانية على التوغل فى الغاب فتحاول الالتفاف حوله بسرعة وهنا تطلق مدافع قائد الكتيبة الثلاثة بولوتوكوف نيرانها . يا له من ثعلب ماكر !

اتصل لوكوتوش بقائد الفرقة وأبلغه بالدبابات السبع فرد عليه قائد الفرقة قائلا :

ـ أعرف ذلك سأرسل لمساعدتهم أربع « علب » لا يوجد لدى أكثر من ذلك .

اطل لوكوتوش من الحفرة فوجد أربع « علب » تخترق الدخان والغبار : منها ثلاث دبابات من طراز « ت ٣٤ » السريعة الراسخة الخطى ودبابة صغيرة ، شكلها غريب ومدفعها مرفوع الى أعلى ، فبدت لابتشارا وكأنها فيل صغير مشاكس .

كان من الممكن ملاحظة الدبابات الألمانية من الوهج المصاحب لطلقات مدافعها حيث كانت لا تزال تضرب حدنا الأمامى من بعيد كى لا يضطر المشاة الالمان الى الفرار من جديد .

واتصل لوكوتوش بالمرتفع :

ـ كيف تسير الأحوال على المرتفـــــع ؟ هل هى فى منتهى العظمة ؟

ـ نعم فى منتهى العظمة ـ رد عليه قائد سرية الخيالة بصوت مبحوح ثم أضاف عدة كلمات خشنة قائلا ـ لا توجد ميـــاه ٠٠ والرشاش طراز « مكسيم » يكاد ينصهر من السخونة ٠

ـ لست أدرى هل هو مدفع أم قاطرة ؟ فقـــد كانت لديك احتياطات من الماء ٠

ـ نعم كانت هناك احتياطات ولكنها نفدت ٠٠ ان المعـركة حامية لا مثيل لها والمدفع الرشاش لا يطلق الرصاص بل يبدو وكأنه يبصقه ٠٠ ها هم قادمون من جديد ٠٠ أرجوك ٠

ـ ركز على المشـــــاة ٠٠ اجعلهم لا يرفعون رؤوسهم من الأرض ، أما الدبابات فلا تقلق بالك بشأنها وســـوف نتولى أمر الدبابات ٠ ان رجال المدفعية فى انتظارها ٠

ـ مفهوم ٠ سوف نصمد ٠ امدنا « بالسجائر » فانها تكاد تنتهى ٠

ـ سوف نمدك فى الوقت المناسب ٠

ـ ها هم يقتربون وسوف أبدأ فى العمل ٠ المشاة علينـــا والدبابات عليكم ٠

ـ هلم ، واعمل ـ انهى لوكوتوش الحـديث مع قائد سرية الخيالة الثالثة ووضع السماعة واستلقى بظهره على المقعد ٠

اتخذت الدبابة « المشاكسة » الصـــغيرة موقعها بمحاذاة جانب حاملة جنود المانية محترقة ٠ وبدأ اشـــتباك بين الدبابات وازدادت المعركة حدة وأخذت قذائف الهاون تطير مصـــفرة فوق الرؤوس ٠ وكان من الصعب تحديد القذائف المنطلقة من هاوناتنا

والمنطلقة من هاونات العدو · ودهشت ابتشارا : كيف لا تزال على قيد الحياة ، ربما تحميها تعويذة ؟ أو ربما تحميها دعوات حبيبة· ان المكان من حولها قد تحول الى جحيم · هل سيحين وقت وينتهى فيه كل هذا ؟ لم يكن الرجال يأكلون سوى الخبز الجاف ويزداد الشعور بالعطش من الخبز الجاف · وما من نقطة مياه واحدة ·

بدأت النيران تشتعل فى « الفيل الصغير المشاكس » ·

لم تكن ابتشارا تعتقد من قبل ان الدبابة يمكن ان تحترق بهذا الشكل ، انها ليست مصنوعة من خشب ، أخذت سحب الدخان الأسود تتلوى فوقهـا لتغطى حقل القمح · وواصلت الدبابات الأخرى تقدمها وكأنها وضعت نصب عينيهـا الثـأر « لاختها المشاكسة » وهذا ما حدث بالفعل فقد انبعث ذيل أسود من الدخان من احدى الدبابات الألمانية · انها تحترق بنفس الطريقـة التى تحترق بها دباباتنا · وابتهجت ابتشارا وأخذت تردد فى نفسها : هلم اضربوهم أكثر ·· اضربوهم ·· وخذوا بثـأر اختكم ·· وثأر الجميع ·· وأصابت دباباتنا دبابة المانية أخرى فاشتعلت فيهـا النيران وكأنها ردت بذلك على نداء ابتشارا ·· واشتعلت ابتشارا حماسا وبدأت تصيح :

ـ اضربوهم يا اعزائى ·· اضربوهم أيها الأحباب ··

وفجأة قفز لوكوتوش من جلسته وصاح بأعلى صوته وهو يلوح بعصاه :

ـ ارجعوا ·· ارجعوا ··

ورأت ابتشارا أن المدافعين عن المرتفع يفرون منه ·

واندفعت ابتشـارا من تحت الكوم دون تفكير ودون وعى مسرعة نحو المرتفع لملاقاة المنسحبين غير عابئة بقذائف المدفعيـة والهاونات ·

وصاح لوكوتوش وهو يشق حنجرته ويسب :

– أين ؟ قفى وارجعى ايتها الفتـــاة الخرقاء · أقول لك ارجعى ·

تشعث شعر ابتشارا الأسود بسبب الرياح المشوبة بالدخان·

وضرب لوكوتوش الأرض بعصاه فى غضب صائحا :

– يالك من فتاة مدنية حمقاء تعمل بالجيش !

لم تكن ابتشارا تحتمل هذه الكلمة ، وكان من الممكن أن تغضب من النقيب الى الأبد ، لولا أنها كانت تجرى ولا تسمع شيئا ولا تلتفت وراءها · كانت تقع وتقوم من جديد وتعـــاود الجرى وتختفى فى الدخان ثم يخفق شعرها الطويل من جديد ممتدا وراءها لمسافة تقارب الخطوة ·

لم يكن لديها أى سلاح · ولذلك فتحت ذراعيها حين التقت بالمدافعين عن المرتفع المنسحبين فبـــدت كمن تريد جمع الدجاج المتفرق فى فناء البيت بفتح ذراعيها ، ثم اندفعت الى أحد المقاتلين وصاحت :

– أعطنى الرشاش·· انك جبان ·· اعطنى اياه·· – وحاولت ابتشارا انتزاع السلاح بالقوة من يد المقاتل – ايها الكومسموليون، أيها الرجال هل بينكم رجال ؟ اذا لم يعد هناك وجود للرجال للدفاع عن النساء فان هناك نساء يمكنهن الدفاع عن الرجال · اعطونى الرشاش ، أيها الرجال اتبعونى الى الأمام ! سوف ندافع عن مقبرة سلطان ، أيها الجبناء كيف يمكنكم الفرار ، أيها الرجال الى الامام! والى الخلف أيها الجبناء الى الخلف ! – وأخذت ابتشارا تجرى من مقاتل الى آخر والدموع تسيل على وجنتيها – الى الأمام أيهـــا الرجال هل نسيتم الأمر : الصمود حتى الموت ؟ سوف اصمد أنا حتى الموت · هلم أعطنى بندقيتك انها تعوقك عن الجرى ، أعطنى ياها ، الى الامام !

لم يعطها أحد سلاحه ٠

ـ من الجبان ؟ ـ كان أول المتوقفين عن الجرى أحد رجال مقاومة الدبابات يحمل على كتفه بندقية مضادة للدبابات على النحو الذى يحمل به حامل دلوى المياه ـ هلم اسرعوا قبلما يحتل العدو خنادقنا !

وأسرع الجميع نحو المرتفع من جديد بمصاحبة ابتشارا وهم يصرعون الخوف ٠ ولم يختف أحد فى زروعات القمح سوى اثنين فقط تمكنت ابتشـــارا من معرفة احدهمـــا ٠٠ كان ذلك يعقوب بيشتويف ٠

كان من الممكن ان يفقد المدافعون عن المرتفع خنـادقهم لو تأخروا نصف دقيقة ٠ ولكن بينما كانوا مسرعين فى طريقهم الى أماكنهم سقط منهم الكثيرون وبقيت جثثهم على الأرض المحترقة من قذائف الترميث وكانت الدبابات التى يجرى من خلفها رجال الرشاشات الألمان بملابسهم الرمادية متناثرين قد اقتربت ٠ وكانت اثنتان منها تزحفان نحو المرتفع مباشرة ٠

اتضح أنه لم يكن لدى المدافعين عن المرتفع ذخيرة تقريبـــا وهذا ما جعلهم يتركون المرتفع ٠ وصاح الجنود برجل مقـــاومة الدبابات :

ـ اطلق النار على الدبابات ٠٠ اطلق ٠

ـ بماذا أطلق ؟ اطلقها بـــ ٠٠ ؟ ـ لم تسمع ابتشارا كلمـة السباب التى قالها المقاتل من جراء هدير وصليل عجلات الدبابات الألمانية المرعبة المقتربة والتى لم تكن قد رأتهـــا عن قرب ، ذلك والأهم من هذا كله ان الدبابات كانت تزحف نحوها ٠

ـ اضربهما يا عزيزى بشىء ما ـ لم تعد ابتشارا تصيح كانت تبكى وتولول ٠

ولكن لم تكن هناك ذخيرة لضرب الدبابات كما لم يكن هناك من يقود الرجال · فقد قتل قائد سرية الخيالة فى الحفرة وانهارت جدرانها عليه · ولم يتجاسر أحد فى هذه اللحظـــة على تولى مسئولية قيادة بقية أفراد السرية الثالثة ·

أخذت ابتشارا تتوسل أن يطلقوا النار على الدبابات وبدأ للمقاتلين أنها تولول مدة طويلة كما فى المنام وان الدبابات الألمانية تزحف نحو المرتفع مدة طويلة جدا ، كما فى المنام ، لكن ذلك لم يكن فى الواقع سوى عدة ثوان فقط ·

والتقط مقاتل لم يظهر شاربه يبدو انه لا يزال فتى يافعـــا قذيفة كبيرة العيار وأحاطها بيده وزحف للقاء احدى الدبابات · كان المقاتل ينوى وضع القذيفـــة تحت جنزير الدبابة كى تدوس الدبابة على القذيفة وتضغط على رأس التفجير فتدمر نفســـها بنفسها · وواصل المقاتل زحفه حتى أصبحت المسافة الفاصلة بينه وبين الدبابة لاتتعدى بضع خطوات ، نهض منتصب القامة ، وتمكن من وضع القذيفة ورأسها الى أعلى ، كما تمكن من الصياح كذلك قائلا :

ـ الصمود حتى الموت !

ولكن لم يحدث أى انفجـــار · فقد قامت الدبابة بدورة فى مكانها · وضربت المقاتل بالأرض واندفعت نحو ابتشارا مباشرة وهى تصلصل بجنزيرها وتصدر لهيبها وشاهدت ابتشـــارا بطن الدبابة فوقها وجنزيريها اللامعين وقد علقت بهما بقع الدماء وقطع اللحم الآدمى ، فالتصقت ابتشارا بقاع الحفرة · انبعجت جدران الحفرة الترابية وكبس الظلام من أعلى وفى اللحظة التالية بدأت ابتشارا تتدحرج على منحدر جبل لانهاية له ، واقترب وتزايد من أسفل صوت هدير نهر تشوبراك ·

بدأ النهر يفيض ولذا ينبغى انقاذ العجول · وصاح أحدهم

بأقوى صوت : « انقــذوا تشيرنوشكا ٠٠ تشــيرنوشكا ٠٠ ان تشيرنوشكا يغرق » وبعد ذلك اختفى كل شىء فجأة فلم يعد هنــاك تشوبراك ولم يعد هناك عجول ، بل ساد الظلام والهدوء ٠

ما أن ظهر ادموكوف حتى ارسله لوكوتوش الى المرتفع على الفور قائلا :

ـ وصـــل لهـم أمرى بالانســحاب الى العزبة ما أن يحل الظلام ٠ وهناك أمر خاص لك : عليك ان تحضر الى هنا ابتشارا ٠ لم يكن ينقص سوى جان دارك ثانية هنا ٠

لم يكن من الصعب على ادموكوف توصيل الأمر ولكنه لم يجد ابتشارا فى أى مكان ٠ اين هى ؟ لم يكن أحد يعرف بالضبط ٠ لقد كانت هنا ، ولكن اين اختفت هذا ما لا يعرفه أحد ٠ من المحتمل أن تكون قد عادت الى المؤخرة ٠ ولكن لم ير أحد فى خضم المعركة كيف عادت ٠ غير ان أحد رجال مقاومة الدبابات اعوجت بندقيته بعد ان داست عليها احدى الدبابات ـ أشار الى ادموكوف على آثار الجنزير الذى ردم الحفــرة ، وبدأ ادموكوف يجرف التراب المنهار بيده مباشرة ٠ واسرع الآخرون لمساعدته ، لم يكن من الممكن رفع التراب المنهار بالجاروف وحده ولذا استخدم الجميع أياديهم فى جرفه فأخذتكتل التراب الثقيلة المتحجرة من الحرارة تتطـاير خلف المتراس ٠ وأخيرا ظهرت رجل ابتشارا ٠ وكان رجل مقاومة الدبابات يريد شدها منهـــا ، الا ان أدموكوف لم يسمح بذلك ٠ ولحسن الحظ كان رأس ابتشارا فى مكان خال ٠

رفعوا الفتاة الى أعلى ٠

ووضع ادموكوف اذنه على صدرها ٠ كان قلبهـــا لا يزال ينبض ٠

ـ اقسم بالله انها حية ـ صاح رجل مقاومة الدبابات ـ كنا نعتقد أنك ستذهبين الى حيث سلطان ٠

23—3127

ـ اترك هذا الكلام الفارغ ·

وارتشفت ابتشارا جرعة من الماء وسألت :

ـ أين أخى ؟ البيان ·

ـ سوف يعثر عليه ـ ابتهج ادموكوف ـ انه فى عمق المؤخرة، حياته الآن ليست فى خطر ·

لم تدرك ابتشارا ما تعنيه هذه الكلمات · كيف يمكن لاخيها أن يكون فى عمق المؤخرة فى الوقت الذى توجد فيه سريته قريبة جدا من هنا ؟ لم تكن ابتشارا تعرف بعد ان أخاها جرح وارسل الى كتيبة الخدمات الطبية ثم ارسل من هناك الى مستشفى الجيش العسكرى ·

كانت ابتشارا تشعر بغثيان ودوار فى الرأس وضجيج فى الأذن ·

ـ هلم بنا الآن ـ ابتسم ادموكوف سعيدا ـ ياجان دارك ، هكذا أسماك النقيب · لقد قدت الجنود الى هنـــا والآن سنقودك نحن ·

وساعد المقاتلون ابتشارا على الوقوف على قدميهـــا ولكن قواها لم تكن تسمح لها بالوقوف · وارادوا أن يحملوها ولكنها لم تسمح لهم قائلة :

ـ لا داعى · سوف امشى وحدى ·

وسار أدموكوف وجندى مقاومة الدبابات بابتشارا وقد تأبطا ذراعيها ·

لم يفارق جندى مقاومة الدبابات بنـدقيته شبيهة بحـــامل لدلوين لحظة واحدة وهو يقول :

ـ لا بأس سوف أطلق النار من مكان منزو ·

تكاثف الغسق وزحف على المكان هدوء لم تتعود الأذن عليه·

وتقاطرت من مختلف الجهات على العزبة مجموعات صغيرة ممن بقى على قيد الحياة من الرجال · كانوا يحملون الرشاشات ومدافع الهاون المفكوكة · وكان رجال المدفعية يقودون الجياد المنهكة ، أربع جياد تجر مدفعا واحدا بصعوبة بالغة ·

وغرق فى الظلام المرتفع الذى سمى باسم سلطان خولامبايف والذى اريقت من أجله كل هذه الدماء · وكانت صواريخ الاضاءة تطير الى السماء تارة هنا وتارة هناك كما هو الحال دائما · فقد كان الالمان لا يزالون يعتقدون أن العدو مختبىء أمامهم · وكانوا لا يزالون يخافون من أن يتسلل رجال الرشاشات الى تشكيلاتهم القتالية من جديد ·

ولمواجهة أية احتمالات وضع لوكوتوش حراسة مشددة حول العزبة التى احتشد فيها من بقى من الفوج ·

على الجسر عبر نهر سال

امتلأت العزبة بالناس وعربات الجر والجياد وعربات المدافع التى تسحبها جياد ، وأحاط زحامها بالآبار ، فقد كان يسيطر عذاب العطش لا على الجياد التى ظلت أكثر من يوم دون ماء وعلف فحسب ، بل وعلى المقاتلين كذلك · الا أن المقاتلين جعلوا الجياد تشرب أولا · وبدا وكأن الجياد قد تحولت الى خزانات مياه لا يمكن ملؤها بالماء · فقد كانت ترتعش وتضرب الارض بحوافرها من شدة لهفتها · وتزاحمت الجياد حول الماء حيث كانت عدة رؤوس تمتد فى الدلو الواحد دفعة واحدة مما يجعل الماء يفيض منه · ولم يكن الوقت يكفى كى تتجمع المياه فى الآبار مرة أخرى،

فكانت الادلاء تصطدم بقيعانها الخاوية · واذ بدا وكأن الرجال قد نسوا خلال هذه الأيام التحدث بصوت عال ، الا أنهم لم يتمالكوا أنفسهم من الابتهاج والدهشة حين التقى بعضهم ببعض فتعالت صيحاتهم :

– هل أنت حى ؟ لقد عدت من الجحيم !

– من غير الممكن معرفة قيمة الجنة دون رؤية الجحيم ·

– ها نحن الآن فى الجنة ·· فهنا الماء والهدوء ·

وأخذ الرجال يتحدثون وهم يقاطعون بعضهم البعض عن الشهداء والجرحى ومن بقى على قيد الحياة بمعجزة · وانتشرت أسطورة ابتشارا التى أعادت الجنود الفارين الى المرتفع واحتفظت به · وزعموا أنها انتزعت من أحد المقاتلين الرشاش والقت له بجونلة مقابله قائلة : « خذ ·· هذه هى ملابسك أيها الجبان » · وأضافوا زا ين بأن ابتشارا كانت تمتطى جوادا تشق به الدخان والغبار وان الألمان لم يطلقوا عليها النار لاعجابهم بشجاعتها ·

وحول الآبار كان يدور حديث عن شيء آخر · فقد تم القبض على جندى وسوف يقدم للمحاكمة لفراره من ميدان القتال ·

تجمهر عدد كبير من الناس عند مبنى المدرسة الابتدائية فقد كان القلق مسيطرا على قادة الوحدات الفرعية فمن المستحيل البقاء هنا طويلا فى الوقت الذى لم يصدر فيه الأمر بالانسحاب بعد · فمن الممكن أن يعرف الألمان بأن المواقع تفتقر الى التغطية فيلقون بدباباتهم · لم يكن أحد يعرف الموقف · اين قواتنا واين قوات العدو ؟ ما هى الوحدات المجاورة من ناحية اليسار ومن ناحية اليمين ؟ اين يمكن اتخاذ مواقع دفاعية ؟ لا أحد يعرف · الوقت يمضى ويحمل معه الاشاعات المتضاربة · ولم يحمل الضابط الذى وصل من قيادة الفرقة معه شيئا سوى معلومات غير دقيقة عن الفرقة الكاملكية التى اتجهت ناحية الجنوب لتلافى الحصار فى

الوقت الذى ينبغى على الفرقة الكاباردينية البلكارية الانسحاب فى اتجاه الشمال الشرقى · ولم يبق الآن فى فيلق الخيالة سوى فرقة وفوج · أما الخبر الأكثر وقعا فهو ان الألمان قد وصلوا الى الجبال ولم يعد من الممكن الآن العودة الى القرى فى القريب · هذا ما كان يشغل بال كل فرد ·

كان ادموكوف من بين القلائل الذين لم يكونوا فى حاجة الى الاعتناء بالجياد فالموتوسيكل الغنيمة يقف على أســـتعداد وقد وضعت فى السبت لفـــائف الكابلات والمحـــول وأجهزة التليفون والمعدات · وخصص مكان لابتشـــــارا فى السبت · وجلس هو وابتشارا بالقربمن الموتوسيكل وحصل ادموكوف على زمزميـــة ماء · وحين قال ان هذا الماء لابتشارا ملأوا له الزمزمية كلها ·

بعد ان شرب الرجال ملء بطونهم غلبهم تقريبا النعاس على الفور لدرجة أنهم لم ينتهوا من أكل تعيينهم الجاف حتى آخره · واستلقى المقاتلون على الأرض من فرط الانهـــاك وبعضهم ممسك بالخبز الجاف فى يده والبعض الآخر مغلق فمه على الخبز الذى لم يمضغه كله بعد ، وانتقلوا الى عالم آخر لم يعد به أثر للمعركة الأخيرة ، وليل البرارى الموحش ، بل ويوم الغد الذى قد يكون أكثر عسرا · الا أن حق النوم لم يكن يملكه اولئك المكلفون بحراســـة العزبة ·

نامت الجياد وهى واقفة وأخذ وميض الصـــواريخ الألمانية يضىء الأفق على فترات متقطعة · الألمان اذن لا يعرفون بعد ان الفرقة تركت خطوط دفاعهـــا وانسحبت · وكان ذلك الوقت هو أنسب الأوقات للانسحاب الى خط دفاعى جديد حيث ما من شىء وما من أحد يمكن ان يغطى انسحاب رجال الخيالة سوى الظلام · وطيران الألمان لا يضيع فرصة لضرب القوات أثناء المسير وطحنها

ودكها بأرض البرارى . ان هذا أفضل وقت للانسحاب . ولكن لا يوجد أمر بذلك والجنود نائمون دون أن ينتهوا من مضغ خبزهم الجاف وها هى دقائق الليل الثمين تمضى هباء .

كان من الممكن أن يهب لوكوتوش بالموتوسيكل ويسرع الى غرفة عمليات الفرقة . ولكن أين يمكن ايجادها الآن ؟ ومن يمكن سؤاله عن مكانها ؟ وقد يتكرر ما حدث مع الضابط الألمانى الذى ضل الطريق وجاء بنفسه الى الاسر .

لم يغمض جفن للقوميسير دوتى كوشروكوف كذلك . وأخذ دوتى يتجول بين الوحدات الفرعية بين المقاتلين النائمين . وكان اذا وجد من بينهم من لم يهجع للنوم ، يسأل عن الأحوال والمآثر القتالية التى شهدتها هذه الأيام ويستفسر عن الخسائر ويشجع المقاتلين ، فقد كان بحاجة الى البيانات الخاصة بالمآثر القتالية للتقارير السياسية والمنشورات العاجلة . وكان هذا هو هدفه حين كان يبحث عن ابتشارا . فان مأثرتها يمكن ان تزين التقرير السياسى للقوميسير كوشروكوف بحق .

كانت ابتشارا فى هذا الوقت تفكر فى أخيها . فلم تصدق فى بادىء الأمر ان البيان جرح ونقل الى المؤخرة الا ان ادموكوف قص عليها كل التفاصيل وتحتم عليها ان تصدق .

لقد اتضح ان تلك الدبابة الألمانية التى دفنت ابتشارا حية قد توغلت الى مواقع رجال الهاونات ولم يكن لدى البيان أى سلاح مضاد للدبابات . وأصدر البيان الأمر لعمل حزمة من القنابل اليدوية واتضح انه لم يبق فى السرية سوى ثلاث قنابل فقط . وحزم المقاتلون القنابل الثلاث وأخذ البيان الحزمة . وأصدر الأمر للجنود الباقين بملاقاة المشاة بالنيران اذا ظهروا فى أثر الدبابة .

وأخذت الدبابة الرهيبة الزاحفة « تتراقص » متلافية النيران وتحرك مدفعها لتختار ضحيتها وتطلق الرصاص من مدفعها الرشاش • ولكنها حين رأت مواقع الهاونات ارتجفت وكأنها سرت لوقوعها على هذا الكنز ، واستقامت فى طريقها واستعدت لتدمدم على مواسير الهاونات البارزة من الخنادق والشبيهة بمداخن السماورات •

فى هذه اللحظة انتصب البيان وحزمة القنابل فى يده وأطل من فوق متراس الخندق وأخذ يبحث عن مكان فى الدبابة يمكن ان يلقى عليه القنابل • ووقع اختياره على الجنزير الأيمن واستطاع تطويحها وقذفها على الدبابة • ودوى انفجار واستدارت الدبابة على جنزيرها الأيسر وبذا تحولت عن مواجهة البيان لعدة ثوان • وانتهز الملازم هذه الفرصة وقفز على الدبابة والقى معطف المطر على فتحات الرؤية بها فغطاها • وأخذ برج الدبابة يتحرك تحت البيان يمنة ويسرة • وأعد البيان القنبلة اليدوية الصغيرة الشبيهة بالليمونة والتى يحتفظ بها لنفسه كما نصحه القوميسير • ها هى فتحة الدبابة ستفتح الآن ويلقى البيان بالقنبلة داخل الدبابة ويدوى انفجار بين جدرانها الفولاذية •

أوقفت دفعة رشاش من دبابة أخرى الصراع الدائر بين الانسان والدبابة • وانحدر البيان من على الدبابة مصابا برصاصتين وسحب رجال الهاونات قائدهم وبدأوا بعد ذلك فى القاء كل ما تحت ايديهم على الدبابة « العمياء » • وتطايرت الزجاجات الحارقة (قنابل مولتوف) بل وقذائف الهاونات كذلك • وانفجرت الدبابة •

ـ لقد أراد أخوك أن يركب الدبابة كما يركب الحصان ويخضعه لسبطرته • ـ قال ادموكوف بلهجة اعجاب بمأثرة البيان فضلا عن

أنه كان يرغب فى قول ما يدخل السرور فى نفس ابتشـــارا كى يشجعها ـ وهذا ما حدث بالفعل · ويتضح للمرء على الفور من افعاله انه أخوك · وآذا لم يغط فتحة الرؤية لكانت العواقب وخيمة لكانت الدبابة فتحت النيران من كل اسلحتها وبالتـــالى كان من الممكن الا يبقى على قيد الحياة أحد من رجال الهاونات · يا لكم من أسرة ! الأخ جدير بأخته ·

ـ آه اه ·· ها انتم هنا ـ ظهر دوتى من الظلام ـ هل رأيت ياجان دارك النشرة العاجلة؟ خذى أنظرى لاينقصها سوى صورتك ـ ·· وقدم القوميسير لابتشارا ورقة صغيرة عبـــارة عن جلادة كراسة رمادية ـ أتودين الاحتفاظ بهـــا للذكرى ؟ لقد قال محرر جريدة الفرقة انه سيطبعها · لقد اصـــــدرها سكرتير جماعة الكومسمول بالفوج · للأسف أنك لن تستطيعين قراءاتها لأن الدنيا ظلام · انها تحتوى على شعر كذلك · أقلت اذا لم يعد هناك رجال للدفاع عن النساء فان هناك نساء للدفاع عن الرجال ؟ ·· انك باسلة بحق ·

ـ لقد قالت أيضا : ايها الرجال الى الأمام وأيها الجبنـــاء الى الخلف ! ـ أضاف ادموكوف ـ كلمات لا يمكن ابتكارها على الفور · أليس هذا ما كنت تصيحين به ؟

ـ لا أنكر ·

وجلس القوميسير وقال :

ـ لا اشك فى أننا سوف نحصل على لقب الجفارديا · المجندة ابتشارا الحاملة للقب الجفارديا ·· ان وقعها حسن على السمع ·· ما رأيك اليس كذلك ؟

ـ اذا اردت الدقة فستكون المدنية المســـتخدمة فى الجيش ابتشارا الحاملة للقب الجفارديا ·

ـ من أين لك بهذه الكلمات ؟

فرد أدموكوف قائلا :

ـ ان لوكوتوش يسميها هكذا حين يغضب ٠

ـ لا تسمعي هذا الكلام ٠ أى مدنيون مستخدمون فى الجيش هنا ؟ لقد رشحناك لنيل مكافأة بصفتك مجندة ٠ ان الشىء الوحيد الذى لم نستطع القيام به هو تقديم الزى العسكرى الذى تقضى به القواعد ٠ وحين يسمح الموقف سوف نخيط لك زيا عسكريا كما فى أفضل محلات الخياطة ، وحسب قوامك بالضبط ودون ثنية واحدة ٠ أما بشأن أخيك فلا تقلقى ٠ فانه الآن فى مستشفى الجيش العسكرى ولقد تأكدت من ذلك بنفسى ٠ ان حالته مرضـــــية ٠ لقد اخترقت الرصاصتان جسده : أحداهما جنبه الايمن ، أما الثانية فاخترقت الترقوة ٠ من المؤكد أنه سيظل على قيد الحياة وسيعود الى الخدمة فى الجيش ٠

لم يبق من رجال المدفعية الا ما يعد على الأصـــابع ٠ اما المدافع فبقى منها مدفعان ٠ لقد صمد رجال المدفعية حتى الموت ٠ وكان ثمن حياتهم تدمير دبابتين ٠ كانوا يقاتلون بضراوة ودموع الغيظ تقرض أعينهم ٠

ـ اعتقد انك كنت بينهم أيها الرفيق القوميسير ٠

ـ كنا نحارب سويا ٠ كنت أحمل لهم القذائف حيث لم يكن فى مقدورى مساعدتهم بأكثر من ذلك ٠

ـ وبقيت على قيد الحياة ؟ أمر عجيب أحقا ما يقولون ؟

ـ وماذا يقولون ؟

ـ يقولون أن هناك تعويذة تحميك فلا يصيبك الرصاص ٠

فضحك القوميسير وقال :

ـ وأنت ؟ ان الرصاص لا يصيبك كذلك ٠ ان الرصاصـــة تخاف الشجاع والسونكى لا يصيب الشـــجاع ٠ هل سمعت هذه الاغنية ؟ وأنا وأنت لسنا من زمرة الجبناء ٠

ـ وأدموكوف مثلنا كذلك · ما الاخبار هناك ؟ ـ وأومأت ابتشارا برأسها الى مكان ما مجهول وسط هذا الظـــــلام الا ان القوميسير أدرك ما تريد · واختفت علامات المرح المصـــطنع من وجهه وقال :

ـ ما من اخبار سارة · ومن الصعب الحكم على الموقف من واقع نشرة مكتب الأعلام السوفييتى · فالنشرات قديمة وتصـــل الينا متأخرة · ولا يمكن فهم ما يدور حولنا · فها نحن مثلا قطاع صغير ورغم ذلك لا نستطيع ادراك الموقف ، أما موســـكو فيجب عليها ادراك ما يجرى على كل الجبهـــــات ، والآن اجلســــوا واستريحوا ·

بدأ ضوء الفجر ينتشر فى الوقت الذى وصل فيه ضـــابط الاتصال المنتظر يحمل مظروفا · مزق لوكوتوش المظـروف وكأنه يصب جام غضبه فيه · كان أمر قائد الفرقة قصير للغاية · التحرك تحت ستار الظلام نحو ماراتوفكا واتخاذ مواقع دفاعية فى الطرف الجنوبى الغربى لمركز الناحية هذا ·

ـ من اين لنا الآن بستار الظلام ؟ لقد نمنا على أنفسنا ـ قال لوكوتوش فى غيظ وأصدر أمره بايقاظ الفوج بنوبة انذار بالهجوم·

وبعد نصف ساعة كانت سلسلة طويلة من راكبى الجيـــاد وعربات الجر والسائرين على أقدامهم قد امتدت على الطريق · وفى نهاية هذا الرتل غير المنظم سارت سيارات النقل وبينهـــا الموتوسيكل الغنيمة وتعجبت ابتشارا حين خرج الفوج الى الطريق فلم تكن تعتقد ان مثل هذا العدد من الرجال قد ظل على قيـــد الحياة · ولكن لو قورن هذا العدد بعدد رجال الخيالة فى الفوج والذين كانوا فى عرض الوداع آنذاك لكان الآن ··

وفجأة ظهرت فى السماء طائرة استطلاع المانية ·

وساد القلق الرتل ·· وأصدر لوكوتوش الأمر بالانتشـــار والتحرك بسرعة أكبر كي يتم الوصول الى المكان المحــدد قبل ان تتمكن الطائرة طراز « فوكي ـ فولف » من اســـتدعاء الطيران · وانتشر الفوج في البراري · ولم يبق على الطريق ســوى عربات الجر والسيارات · وأخذ الجميع يتابعون الجو في قلق · لم يعد يفصلهم الكثير من ماراتوفكا التي توجد عند منعطف نهر سال · وحاول رجال الخيالة في بعض الأماكن عبور النهرخوضا ، الا ان النهر ، كما اتضح ، كان عميقا وشواطئه شديدة الانحدار · ولم يكن من الممكن العبور الى الجانب الآخر الا عن طريق الجسر المقام على النهر ·

أخذ الاحساس بحرارة أشـــعة الشمس يتزايد · وكانت البراري المحترقة تتنفس أنفاسا حارة فقد كانت الأيام الأخيرة من تموز قائظة بصفة خاصة ولم يكن من المســـتطاع رؤية الخضرة الا ذلك الخط الضيق الأخضر بمحاذاة النهر · فقد تحولت حشائش البراري منذ مدة طويلة الى مســـحوق مرير مثل التبغ الخشن الرخيص ·

وفجأة توقف شيء ما في الأمام · وبدأ الرتل الممتـــد على الطريق ينكمش بالتدريج مثل منفاخ الهارمونيكا · وتوقفت مقدمة الرتل وواصلت المؤخرة الضغط على المقدمة واسرع لوكوتوش الى الأمام · وكان سبب التوقف أمرا غير متوقع · فقد توقفت دبابة على الجسر المقام على نهر سال · وحاولوا سحب الدبابة الا ان المحاولة ادت الى تعقد الوضع · فقد نزعت الدبابة أرضية الجسر الخشبية ومالت بأحد جانبيها مكان الأرضية المنزوعة · وأخذ رجال الدبابات والخيالة يسبون ويلعنون بأقذع الكلمات الا ان هذا لم يساعدهم ·

دبت الحركة بين القادة وآخذوا يصيحون ويحدثون الـكثير

من الضجيج فى الوقت الذى تراكمت فيه القوات عند الجسر مثلما يتراكم الماء الجارى أمام سد مفاجىء ٠ وكان ظهور طائرات العدو متوقعا بين لحظة وأخرى واذا حدث وجاءت طائرات العـــدو ، فستبدأ مجزرة حقيقية عند نهر سال ٠ ولم ينتظر لوكوتوش حتى يتم سحب الدبابة من الجسر فأصدر الأمر لراكبى الجياد والسائرين على الاقدام بعبور النهر خوضا وكيفما يستطيع كل منهم واتخاذ مواقع دفاعية على وجه السرعة ٠ وكان لوكوتوش نفسه أول من قفز فى النهر من جرف الشاطىء كى يحذوا الآخرون حذوه ٠ الا ان المثل الذى كان يود ان يحتذى به الآخرون لم يحالفه الحظ ٠ فقد طار لوكوتوش من السرج وأصبح تحت الجواد ٠ وأخذ الجواد يتخبط فى الماء فركل النقيب فى جنبه ٠ ومن حسن الحظ ان رجل الجواد لم تكن بها حدوة ٠٠ وطفا لوكوتوش الى سطح الماء بعد ان ابتلع منه الكثير وتلقف المقـــاتلون الذين كانوا بالقرب قائد فوجهم ٠

كانت ابتشارا جالســـة فى سبت الموتوسيكل لأن ادموكوف توجه الى الجسر ٠ ورآها دوتى كوشروكوف فسألها :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟ هلم اعبرى النهر الى الشاطىء الآخر٠ ان السائرين على الأقدام يعبرونه الآن ٠وسوف يلحق بك ادموكوف فيما بعد حين يتم اخلاء الجسر من الدبابة ٠

كان الأمر فى منتهى السهولة بالنسبة للسائرين على الأقدام بالفعل ٠ فقد عبروا الجسر محاذين الدبابة ، بل وتسلقها البعض كى يمضى فى طريقه وأخذ المقاتلون على الشاطىء الآخر يبتعدون عن موطن الخطر ٠ وتصرفت ابتشارا على هذا النحو بالضبط ٠

وفى هذه الاثناء ساد الهرج والمرج بين راكبى الجياد أمام الجسر ٠ فقد كانت الجياد لاتريد القفز من الجرف فى الماء ولذا

أخذوا يدفعونها من الخلف ، فتسقط فى الماء برؤوسها ثم تتخبط فى الماء وتطفوا على السطح ثم تصعد الشاطىء المقابل بصعوبة بالغة · وكانت بعض الجياد لا تطفوا على السطح بالمرة·

أخذ لوكوتوش شاحب الوجه مبتل الملابس يحث الباقين على الشاطىء على الاسراع ـ وكانت رائحة عرق الجياد تنبعث من ماء النهر ·

واقترح القوميسير القاء الدبابة فى النهر · الا أن رائد الدبابات انقض عليه قائلا :

ـ هل نلقى فى النهر بالعتاد الحربى كى نخلى الطريق لعربات الجر ؟ هل ستحارب الدبابات الألمانية بعربات الجر ؟

ـ واذا كانت تعوقنا عن اتخاذ خط دفاعى ؟ لست وحدى بحاجة الى ذلك · لقد حان الوقت بالنسبة لكم كذلك أن تكونوا حيث ينبغى أن تكونوا ·

ـ اذا كنت ترى أن الوقت قد حان فاذهب · لم يكن ينقصنا سوى هذا الجسر ، ويقول الق العتاد الحربى فى النهر · عشنا وشفنا يلقى بكل شىء ويمتطى عربة جر ·

ـ وأنت احذر أن تمتطى مقعدا فى قفص الاتهام ·

سحب رجال الدبابات الدبابة المنحوسة ونزعت القلعة الفولاذية بجنزيرها كل أرضية الجسر · لولا الحبال الفولاذية التى كانت تسحب بها الدبابة من مؤخرتها لكانت قد هوت فى النهر حيث مالت مقدمتها وكان مدفعها قد غمرته المياه بالفعل ·

وحدث فى نهاية المطاف ما كان لوكوتوش يخشاه · فقد اكتشف الالمان الخنادق الخالية فتحركوا بدباباتهم متتبعين أثر قواتنا · كانت دباباتهم تسير فى رتلين نحو مركز الناحية بهدف عدم اتاحة الفرصة للفوج ليتحصن في خط الدفاع الجديد ودخول ماراتوفكا قبل قواتنا · ولقد تمكنوا من تحقيق هدفهم ·

قبل أن يتمكن كل الذين استطاعوا عبور الجسر سيرا على لأقدام أو عبر النهر سباحة من الوصول الى أطراف مركز الناحية، شاهدوا الدبابات الالمانية تتقدم فى جبهة عريضة عبر مزارع القمح الناضجة نحو مركز الناحية قادمة من الاتجاه المقابل • لم تكن الدبابات تطلق النار لأن رجال الخيالة لم يكونوا قد خرجوا بعد الى خط الدفاع ولم يكشفوا عن أنفسهم ولكن الذى حدث أن رتل قواتنا كان يتحرك فى مواجهة الدبابات المعادية المندفعة بسرعة•

أصدر لوكوتوش الأمر بالانتشار فى المنازل ، والحدائق الملحقة بالبيوت فى القرية القوزاقية لملاقاة الألمان حتى ولو بأية صورة واعاقة تقدمهم حتى ولو لبضع دقائق ، وصاح لابتشارا:

ـ اسرعى الى الجسر وقولى لهم ان الدبابات الالمانية قادمة سوف نشتبك معها وليساندوننا بالنيران وبعد ذلك اركبى الموتوسيكل • وهناك ستجدى دوتى كوشروكوف فالزمى جانبه •

لم يرسل لوكوتوش ابتشارا الى الجسر لأنه لا يوجد من يمكنه القيام بمهمة الاتصال غيرها . بل لأن الموقف عند الجسر كان أقل خطورة • فهناك توجد على كل حال مدافع ، أما هنا فما من شىء سوى القنابل اليدوية ولذا يمكن التنبؤ بما ستنتهى اليه هذه المعركة •

أسرعت ابتشارا نحو الجسر فى الوقت الذى أخذ الرجال ينتشرون فيه بسرعة فى القرية • وكان عليهم اخفاء الجياد أولا قبل أن يخفوا أنفسهم لذلك سحب رجال الخيالة الجياد الى الأكواخ الموجودة بالقرية ، بل وسحبها البعض الى البيوت نفسها • لم يكن الالمان قد لاحظوا بعد ـ كما هو واضح ـ الحركة التى شهدتها شوارع القرية •

الا أنهم فتحوا النيران على القرية لمواجهة أية احتمالات • وبدأت الجياد التى كانت تدرك جيدا ما الذى

يعنيه القصف المدفعى ـ تجفل وساد بينها الهرج والمرج ، وامتدت ما بين القرية والنهر سيارات وعربات مؤخرات قوات غير معروفة كانت فى مركز الناحية منذ المساء · وبالقرب من الجسر بدأت فوضى حقيقية · وهنا وصل الى الاسماع ازيز القاذفات الالمانية ·

أصدر القوميسير الأمر بالانتشار ولكن أحدا لم يسمع أوامره وربما لم يكن أحد يريد الابتعاد عن الجسر لمسافة كيلو مترين أو ثلاثة فى البرارى · قفز دوتى فى الموتوسيكل وقال لادموكوف :

ـ أدر المحرك وامض وسط هذا السوق ·

ـ حاضر ·

وسار بالموتوسيكل وهما يناوران وسط هذا الحشد الكبير من الناس والسيارات وعربات الجر ، وأخذ دوتى يصيح وهو يقف فى السبت :

ـ عليكم الانتشار فى مدى ثلاثة كيلو مترات ، انتشروا فى مدى ثلاثة كيلو مترات ·

لم ترفع ابتشارا ناظريها عن القــــاذفات المقتربة · ودبت الحركة عند الجسر وتحركت عربات الجر والسيارات والدبابات والمدافع · وأسرع المقاتلون بالانتشار ولم تعد هناك حاجة الآن لمواصلة السير بالموتوسيكل والتنبيه على كل فرد بالانتشار ·

كان ادموكوف يعتقد أن الوقت قد حان للتفكير فى الاحتمــاء من الطيـــران الا أن دوتى تصرف على نحـــو مخالف · فقد أمر ادموكوف بالاختباء فى مكان ما والانتظار حتى نهــاية القصف الجوى ، أما هو فأسرع ناحية الجسر · كانت الدبابة التى تسببت فى تقسيم الفوج قد ألقيت فى النهر وبرز مدفعها من الماء ·

هزت انفجارات القنابل الأولى الجو فى الوقت الذى قــاد دوتى فيه الرجال نحو مركز الناحية واصدر أمره بفك بيت خشبى· وبدأ المقاتلون يعملون بسرعة ونشاط ، كما صعد القوميسير بنفسه

الى السطح وأخذ يهدمه كما أنه كان أول من حمل الكتلة الخشبية الأولى الى النهر · كان من الممكن اصلاح الجسر فى حوالى ساعة حتى تتمكن الدبابات من التوجه لمساندة لوكوتوش · ولكن الألمان رأوا الرجال وهم يعطون عند الجسر فأمطروهم بالقنابل وتطاير كل شيء الى النهر · وأصابت شظية ساخنة يد دوتى الا أنه لم يتوقف وبدأ العمل فى فك بيت خشبى آخر ·

تمكن المقاتلون من اصلاح الجسر كيفما كان · الا أن الألمان كانوا قد دمروا دبابتين · واندفعت الجياد مسعورة فى الحقل وهى تجر العربات نصف مدمرة · واشتعلت النيران فى السيارات المحملة بقذائف المدفعية وهرع الرجال فى مختلف الاتجاهات مبتعدين عنها ·

كان صهيل الجياد وأنين الجرحى اليائس وهم يطلبون المساعدة يسمع وسط دوى القنابل والقذائف وطلقات المدافع · وأخذت ابتشارا تتصيد تلك الصيحات فتسرع للمساعدة · ووجدت مقاتلا جالسا ينظر فى ذعر الى رجله التى شوهتها شظية فتهدئه ابتشارا وتحاول تضميد جرحه ، ولكنه يئن متوسلا :

ـ لا داعى لذلك ·· اقتلينى ·· اقتلينى يا أختى ·

وما أن تلمس ابتشارا رجل الجريح حتى يفقد الوعى ويسقط على ظهره · كيف يمكن مساعدته الآن ؟ ان هذا ليس فى مقدور ابتشارا ذلك لأنه فى حاجة الى عملية جراحية عاجلة ·

وتواصل ابتشارا زحفها ، فتجد رجلا ضخما يرقد فى بركة من الدماء ، يتصبب العرق من جبينه · كان الرجل برتبة مساعد، غطى شعر كثيف ذقنه ، وبجواره عربة وبعض الجياد المقتولة وجواد آخر لا يزال يتنفس · كان الجريح يتلوى على جنبه الأيسر وعندما رأى الفتاة توسل قائلا :

– ارجوك لا تلمسينى · أرجوك · ولكن ارجوك أن تساعدينى فى الرقود على العربة والا نسونى · انهم لن ينسون العربة ، أما أنا فسينسونى · ســـاعدينى على الوقوف اصعد الى العـــربة بنفسى ·

– لا تخف لن ألمسك · ولكن لسمح لى برؤية جرحك ·

– لا ·· لا ·· أعطنى جرعة ماء وضعينى على العربة ·

رفعته ابتشـــارا وسترته العسكرية مشبعة بالدماء · كـــان جرحا كبيرا · فقد انغرزت شظية بحجم الدرهم تحت عظم اللوح الأيمن · وكانت الدماء تندفع من تحت الشظية · ونزعت ابتشارا الشظية بسرعة وكأنها تلتقط فحمة ساخنة من النار ، فاطلق الجريح صيحة مدوية ·

– هكذا ، انتهى كل شىء ، خذ الشظية للذكرى – وقدمت ابتشارا للجريح الشظية حمراء من الدماء – والآن سوف اضـــمد الجرح ثم أنقلك الى العربة ·

تقدمت الدبابات على الجسر · كان عددها ست · وبقيت دبابتان على مقربة من الجسر · أنهى الألمان القصف الجوى · وما أن اتجهت طائراتهم عائدة تجاه الغرب حتى ظهر القوميسير · كان يبحث عن ادموكوف وابتشارا ·

وأخيرا وجد دوتى موتوسيكل ادموكوف ، الا أن ادموكوف كان قتيلا · ودار بالموتوسيكل عبر الحقل المملوء بالسيارات المحترقة وبالجياد المقتولة · ثم دعا دوتى كل الاحياء من المقاتلين للتقدم ·

كانت معركة ضارية تدور خلف النهر فى شوارع القـــرية القوزاقية وأخذت النيران تلتهم البيوت · وامتدت على الطـــريق ارتال اللاجئين ·

كانت الدبابات الالمانية فى عجـــلة من أمرها وهى تقتفى « الآثار الساخنة » لقواتنا · كانت تسير بسرعة وبدون تغطية من

مدفعية وبدون مشاة · فقد كانت تبنى حســـــاباتها على المفاجأة والسرعة فضلا عن أن رجال الدبابات الألمان رأوا من بعيد كيف كان الطيران الألمانى يدك الرتل الذى فوجىء أثناء المسير · فـكانت تطير مسرعة غير مغلقة فتحاتها للقاء النصر السهل ، وبذا ستتمكن أخيرا من القاءهؤلاء القوقازيين نصف المتوحشين فى النهر · لم يكن لديها شك فى أن القوى الرئيسية توجد خلف النهر حيث يدق الطيران فريسته بصورة متواصلة ·

تمكن لوكوتوش من تحديد المهام للوحدات الفرعية ، والبيوت والحدائق التى سوف تشغلها كل وحدة ، وأشار الى البيت الصغير ذى القبو المقام من الطـــابوق الأحمر والذى سيكون هو فيــه وحذرهم قائلا :

ـ لا تستخدموا القنابل اليدوية الا للدبابات فقط · لا توجد لدينا وسائل أخرى لمقاومة الدبابات · ان المدفعية خلف النهر ، كما أن دباباتنا هناك أيضا · عليكم بالصعود الى الأسطح كى تضربوا الابراج بدقة · واحتفظوا بنيران البنادق والرشاشات للمشاة · فان رجال الرشاشات الألمان سوف يتبعون الدبابات الآن أو بعـد قليل · سوف نجعل من ماراتوفكا جحيما للالمان ليرقصوا بعض الشىء · ان الدروع تحميهم أما نحن فتحمينا جدران بيوتنا الحبيبة· لا تخافوا الدبابات تذكروا قائد البطارية · ألم يركب فوق الدبابة؟ ولم يحدث له شىء وبقى حيـــا وأصبحت الدبابة لا ترى شيئا · سيسهل عليكم مقاومة الدبابات خاصة فى الشوارع الضيقة ·

فقال مقاتل :

ـ اللعنة على تلك الدبابة التى جثمت على الجسر ولم تتحرك·

ـ لا بأس ، لدينا مدفعية « جيب » ممثلة فى القنابل اليدوية· ان جدران المنازل تحمينا فاصمدوا ·

وارسل لوكوتوش على الفور رجال الاتصال الى الوحدات

المجاورة التى كانت قد اتخذت خطوطا دفاعية بالفعل وذلك كى يتم تنظيم التعاون معها · والاهم من ذلك تحذيرها من أنه لا توجد مدفعية على الاطلاق لدى لوكوتوش سوى مدفعية « الجيب » هذه·

تقدمت الدبابات الالمانية نحو قوات لوكوتوش مباشرة وكأنها تعرف أين توجد نقطة الضعف · كانت مندفعة بسرعة وهى تصلصل بجنازيرها نحو القرية وتحاول الاختفاء خلف المنازل لأن الوحدات المجاورة لقوات لوكوتوش كانت قد بدأت فى اطلاق نيرانها لتغطية قطاعه · وتطايرت على الدبابات مِن أسطح المنازل الحزم الأولى من القنابل اليدوية · وأخذت الدبابات تنطح البيوت المبنية من الطوب اللبن فتهدمها مثيرة سحبا من الغبار · وبدأت النيران تشتعل فى احدى الدبابات ·

– ان الجرو يمكنه سلخ جلد الذئبة العرجاء ·· اجهزوا عليها ·· أجهزوا عليها ! – أخذ لوكوتوش يصيح رغم أن أحدا لم يكن يستطيع سماع صوته ·

فتح الالمان فتحة الدبابة ·· وأطل رأس من الفتحة ثم غطس من جديد الى داخل الدبابة على أثر دفعة رشاش اطلقت على الدبابة ·

ظهر حاملوا الرشاشات خلف الدبابات فأمر لوكوتوش القوات :

– اتركوهم حتى يقتربوا ينبغى اطلاق الرصاص عن قرب · فليس هناك ما يجعلنا نتعجل ·

وهنا حدث ما يعتبر مفاجأة لا للالمان فحسب . بل وللوكوتوش كذلك ، فقد تقدمت على الجسر الذى تم اصلاحه كيفما اتفق الدبابات التى نجت من طيران العدو · ومدفعية الفوج والهاونات وكان يسير مع فلول قواتنا القوميسير دوتى كوشروكوف الجريح · وارتفعت روح لوكوتوش المعنوية ·

تنفيذ الحـــكم

آه ·· لو كان كل هذا حلما تستيقظ من النوم بعده · كانت ابتشارا فى بعض الأحيان · ترى فى المنام كوابيس فترى أن صدرها يضيق وتسقط عليها صخرة فتدهمها بزاويتها الحادة مما يجعلها لا تستطيع التنفس ولا الحركة · كما كانت ترى فى كثير من الاحيان أن عجوزا بشعة تطاردها ، وتحاول الهرب منها الا أنها لا تستطيع· وها هى العجوز تمد يدها التى غطى الجلد عظمها وتمسك بابتشارا من ملابسها وشعرها وتبدأ ابتشارا فى الصـــياح ثم تستيقظ من صياحها ·

وتجد ابتشارا الهدوء من حولها فى البيت · ولا تسمع سوى الانفاس الثقيلة لصديقاتها الحلابات النائمات · من الصعب عادة دفعهن للنوم مساءا أما فى الصباح فمن الصعب ايقاظهن · وترى من النافذة الجبال المغطاة بالثلوج تميل قممها الى الورى · وكان ذلك نذيرا بأول بصيص من ضوء النهار · وكانت الأبقار تخـــور فى الحظائر حيث تعرف أفضل من الحلابات أن الوقت قـد حان للاستيقاظ وبداية اليوم · ان الابقار لا تتأخر بخوارها دقيقة واحدة حيث تعلن به عن رغبتها باحضار العجول لها ·· هـــذه العجول السريعة والكثيرة الحركة المثيرة للضحك والتى لا تخطىء الضرع الذى ترضع منه رغم تزاحمها · ربما تعرف ضرعها من رائحـة اللبن ·

تبدأ الحلابات فى الحركة أثناء النوم ويتضح لابتشارا أن ما من عجوز بشعة تطاردها وان هذا كان مجرد حلم ·

لا يمكن أن يفيق المرء من مثل هذا الكابوس البشع الــذى تعيشه ابتشارا · فقد استشهد بالأمس ادموكوف الطيب القلب الذى

اشتهر بمهارته فى كل ما يوكل اليه من عمل · وكان ادموكوف يقول لابتشارا طوال الوقت : « ان أكثر ما أخشاه أن أكون بين المفقودين دون أثر ذلك لأننى فى ميدان القتال دائما وحدى أبحث عن المكان الذى انقطع فيه الكابل · من الذى يرانى ومن الذى يحتاج الى ؟ « ذهب ولم يعد » وهذا كل شىء · وبدلا من أن تتلقى أمى اشعار الاستشهاد تتلقى أشعارا يقول « لقد فقد ابنك بدون أثر » بل وربما ينسون دفنى كذلك · ولكن عليك أن تتذكرى يا ابتشارا أن جنود الاتصال لا يمكن أن يفقدوا دون أن يعلم أحد عنهم شيئا ـ ثم يضيف مازحا ـ ان جندى الاتصال كله معرفة بما يجرى » ·

كان يريد بالامس مد خط للاتصال بين شاطئى النهر ويوصله حتى لوكوتوش الذى استقر فى القرية القوزاقية · ولكن لم يبعد عن موتوسيكلهحوالىعشر خطوات حتى مزقت شظية قنبلة نصف صدره · وقامت ابتشارا بدفنه بنفسها · وعبرت الجسر مرة أخرى وقطفت زهورا من حديقة أحد المنازل ووضعتها على قبره ·

من غير الممكن أن يفيق الانسان من هذا الكابوس المستمر وتسير الشمس فى بطء نحو الأفق ، فشعرت ابتشارا بالرغبة فى أن تصيح لها « هلم اغربى بسرعة · اغربى قبلما يعاود الالمان هجومهم الجوى » ·

ولكن المعركة التى كانت تدور فى القرية هدأت ·· وخرج الرجال والعربات من كل مكان وأخذوا يجوبون الحقل بحثا عن معارفهم · وكان رجال الخيالة يطلقون النار من مسدساتهم على الجياد التى تتخبط فى دمائهم · والجياد تمتاز بالذكاء ·· فحين يرى الجواد انهم يجهزون على جواد آخر يقوم باخفاء رأسه ويحشرها تحت ذيل الجواد النافق الموجود بجواره · وترى الدموع الصافية تنهمر من أعينها البارزة المنتفخة · يالبيكان المسكين ! لقد

كلف بالمحافظة على سلالة الجياد الكاباردينية الأصيلة فى الوقت الذى تموت فيه هنا اعدادا ضخمة من هذه السلالة !

جلست ابتشارا بجوار الموتوسيكل · ومع غروب الشمس بدأ سكان القرية فى الخروج من الأقبية · وظهر الاطفال · وبدأ الجنود ينقلون لبعضهم أمر لوكوتوش بالاستعداد للسير لمواصلة الانسحاب ·

وجاء جندى من عند لوكوتوش · وكان النقيب قد قال له بالحرف الواحد : عليك أن تجد ابتشارا اما حية أو ميتة وانتظرنى هناك · وشعر الجندى بالفرح حين رأى ابتشارا لا لأنه نفذ أمر القائد ، بل لأنه كان غاية فى التعب ، لا يستطيع الحركة بعد ذلك · وما أن جلس الجندى بجوار الموتوسيكل حتى راح فى سبات عميق على الفور · كان ينام فى وضع غير مريح مستلقيا على جنبه لدرجة أن ابتشارا أرادت مساعدته ولكنها لم تكن تدرى هل يستدعى الأمر اقلاقه ·

امتد من ماراتوفكا رتل فلول الفوج قليل العدد · وكان كل الرجال يسيرون على أقدامهم حيث لم يكن بينهم راكب جواد واحد· وكانت كل مدفعية الفوج هى مدفع وحيد ومدفعا هاون ·

عرفت ابتشارا لوكوتوش على الفور من عصاه · فقد كان يعرج كما سبق وبدا أنه يعرج أكثر من الأول حيث ترك سقوطه فى النهر أثره · وبطبيعة الحال لم يكن لوكوتوش هو الوحيد الذى سقط فى النهر · فقد سقط كثير من الفرسان الذين ورثوا الفروسية أبا عن جد ، الا أن لوكوتوش وجد نفسه بين الخيالة بمحض الصدفة حيث أنه من رجال الدبابات فى الأصل ولو كانت لديه دبابة الآن لشعر بأنه يركب « جواده » المطيع له ·

أدركت ابتشارا لم يبحث لوكوتوش عنها حية أو ميتة · فقد كان فى حاجة الى الموتوسيكل لأنه لا يستطيع الآن ركوب الجواد

برجله المريضة • هذا الى جانب أنه لم تكن هناك جياد بالمرة • فقد دخلت القوات مركز النـــاحية بجيـــادها وخرجت منه على الأقدام •

كان القوميسير يرقد على العربة الوحيدة التى برزت منهـــا ماسورة مدفع هاون • فزيادة على الشظية التى انغرزت تحت عظم اللوح الأيسر أصابته رصاصة فى صدره بجرح ولقد خرقت الرصاصة الرئة ومزقت جنبه • وتم وقف نزيف الدم بصعوبة • وكان القوميسير يفقد الوعى بين آن وآخر •

والى جانب هذه العربة كان يسير النقيب وهو يتوكأ عـــلى عصاه • أسرعت ابتشارا لملاقاة النقيب •

ـ أأنت على قيد الحياة يا أبتشارا يا كأس النبيذ !• شكرا لك ـ وظهرت على وجهه بين المعاناة والألم ابتسامة ـ فنحن كمـــا ترين ••

لم تفهم ابتشارا ما تستحق الشكر عليــــه • هل هى التى اختارت هذا المصير لنفسها ؟

ـ هل قتل دوتى ؟

ـ انه مصاب بجرح خطير وينبغى نقله الى المستشفى على الفور •

كان دوتى يعانى من اصابته فقد غطت وجهه حبات العـــرق واستطالت ذقنه • وخثرت الدماء المختلطة بالطين والقش على شعر وجنتيه الغائرتين • وتحولت سترته الى خرق • ووضع على الجرح قميصا ممزقا بدلا من الضمادات • وفوق هذه الخرق الممزقة حزام وسط عادى •

ـ أتعرف ماذا حدث لادموكوف ؟ ـ وبدأت ابتشارا تنشج •

ـ هل استشهد ؟ هذا أمر سيىء ، بل غاية فى الســـوء • يالسوء الحظ • فقد كان كل أملنا فيه حيث كان يمكنه نقل القوميسير

الى الكتيبة الطبية · ان حياة دوتى قد لا تمتد ثلاث ساعات دون أطبـــاء · لا بأس لو كان من بين الجنـــود من يســـتطيع قيادة الموتوسيكل ·

وسأل لوكوتوش المقاتلين الباقين على قيد الحياة · ولكنــه لم يجد من بينهم سائق موتوسيكل · هل ينقل القوميسير على عربة جر · لا أحد يدرى متى ستصل به والمسافة حتى الكتيبة الطبية تقارب الاثنى عشر كيلو مترات ·

جمع لوكوتوش القـــادة وشرح لهم على الخريطة اتجاه تحركهم · وصعد على العربة وأشار من أعلى بيده الى الطـــريق الزراعى الممتد فى الظلام وقال : ـ ينبغى السير فى هذا الاتجـاه المستقيم · ولا يجب الراحة فى الطريق حتى الالتقاء بقيادة الفرقة· يجب علينا أن ننفصل عن العدو خلال الليل كى نجمع الوحـدات الفرعية المشتتة وننظمها · وسوف ننقل أنا وابتشارا القوميسير بالموتوسيكل · وسأحاول لقاءكم على الطريق بعد حوالى أربعين دقيقة وليس أكثر من ذلك والا لن يتم ما نريد · ويستحيل أن نفقد القوميسير فانه ليس عزيزا على وحدى ·

ـ مفهوم أيها الرفيق النقيب ·

ـ لن يحدث شىء خلال أربعين دقيقة ·

ـ ان الألمان يفضلون النوم بعض الشىء كذلك ·

جلست ابتشارا كيفما اتفق فى سبت الموتوسيكل حيث وضع القوميسير بصعوبة بالغة فبدت وكأنها تجلس فوق السبت · وكان دوتى يئن ويصيح ويهذى مهمهما بشىء ما · وظـــل وجهه هادئا بصورة غريبة وكأنه يستعد للهجوم ·

لم يدر محرك الموتوسيكل طويلا · وكانت كل حركة ضغط على البدال تسبب الألم والمعاناة للجريح · وكان دوتى حين يحضره

الوعى ويفقده من جديد يهذى بكلمات غير مفهومة ٠

ـ حمل ٠٠ يجثم على الكتف ٠٠ مقدم الثمن ٠٠ ســـــوف احمل ٠٠ اتركونى ، البرارى ٠٠ حمل على الظهر ٠٠ هدوءا ٠٠ حسنا لا ينبغى الذهاب ٠٠ سوف أحمل ٠

ولم يكن أحد يفهم ما هو هذا الحمل الذى على ظهر القوميسير والى أين يحمله ٠ وأخذت ابتشارا تمسح العرق عن جبين القوميسير بمنديلها ، وتحاول وقف الدماء المتسربة من تحت الضمادة ٠

ـ انك تعانى أيها القوميسير ٠٠ صبرا ٠٠ يا عزيزى ٠٠ صــبرا ٠

الا ان دوتى لم يسمع كلمات ابتشارا وواصل الهذيان بكلماته غير المفهومة :

ـ الأمر ٠٠ صمدنا ٠٠ نحن نصمد ٠٠ لقد انكسرت الحدوة٠ نعم انكسرت حدوة السعادة ٠ ان الحديد يتكسر اما نحن فصامدون ٠٠ شكرا أيها الاصدقاء ممنوع التراجع خطوة واحدة ٠ اضرب واقتل افتحوا النيران انسحبوا ٠ أأنت ابتشارا ؟ من ؟ أهذا أنت يا ابتشارا ؟ أأنت هنا ؟ اعطنى يدك يا ابتشارا قولى لأوزيزة اننى لم أجبن ٠ قولى لها ٠

جاء أحد المقاتلين جريا وقال للوكوتوش ٠٠

ـ هنـاك ســـيارة تحمل الجـرحى من مواقع الدبابات الى المستشفى ٠

كان لوكوتوش قد اعتزم نقل القوميسير بنفسه ، الا أن السيارة أكثر راحة وأمنا بالنسبة للجرحى حيث فرشت أرضية صندوقها بعيدان القمح الخضراء مما يجعل الأرضية لينة على الجـرحى ٠ واتضح أن رائد الدبابات الذى كان يتشاجر مع دوتى فى الصباح بين الجرحى ٠

ـ والآن الن يتشاجرا ؟ ـ لم يتحمل النقيب حين وضعوا كوشروكوف بجوار الرائد ·

اختفت السيارة فى الظلام · وبدأت فلول الفوج تحركها · وتم تحميل الموتوسيكل على عربة الجر · وسار لوكوتوش وابتشارا على الأقدام مع الرتل · وقطع الفوج حوالى ثلاثين كيلو مترا خلال الليل · حسنا أن القوميسير قد نقل الى المستشفى · لو كان لوكوتوش نقله بالموتوسيكل لما تم قطع كل هذه المسافة · ولم يجد الفوج مؤخرة الفرقة حيث ينبغى أن تكون · وعند منتصف الليل دخل الفوج عزبة ساليونى ولكنها كانت خالية · ونظر لوكوتوش الى الخريطة ووجد أن النقطة السكنية التالية هى مزرعة حكومية تضم بضع عشرات من البيوت · وتبلغ المسافة حتى المزرعة حوالى خمسة عشر كيلو مترا وربما عشرين ·

كان المقاتلون يسيرون فى صمت ولم يكن يسمع سوى صوت لوكوتوش وهو يصدر أوامره بين وقت وآخر لحث الرتل على الاسراع · والآن أدركت ابتشارا كذلك ماذا يعنى الانفصال عن العدو ·

كانت رجلا ابتشارا تخطوان وتخطوان من نفسيهما ، أما راسها فكان مشغولا بحياتها الخاصة · وتذكرت ابتشارا فى حزن كيف كانت الفتيات فى المزرعة يتعلمن القتال بالتلاحم : « الصف الايسر اضرب ·· الصف الايمن اضرب » ·· أمر مثير للضحك والبكاء فى نفس الوقت ، وكيف الحال يا ترى هناك الآن ؟ هل وصل الألمان الى شعب تشوبراك ؟ واذا كانوا قد وصلوا فما هو مصير ماما وايرينا ودانوتشكا ؟ ان تشوكا سيهاجر وبيكان سيهجر جياده هل تمكنوا من انزال الماشية من الجبال ؟ فقد كان كولوف يتحدث

طوال الوقت عن خطة التهجير المعدة مسبقا · ان ابتشارا تذكر جيدا كل هذه الاجتماعات · يا الهى هل وصل الألمان الى القوقاز بالفعل ؟ ولكن اذا فكرنا فى هذا فسنجد أن الاجتماع الاخير كان منذ فترة وجيزة جدا · وبدا وكأن ابتشارا قد ودعت أمها بالامس فقط · ولقد رفضت حبيبة حتى سماع كلمة الهجرة حيث قالت :
« أين اذهب وأنا لا أعرف لغة أخـرى ؟ من الذى يحتاج الى ؟ »
الا أن السبب الرئيسى لا يرجع للى عدم معرفة لغة أخرى · فان حبيبة لن تترك بأى حال من الاحوال قبر زوجها · فسيوجد من بين أبناء القرية من تسول له نفسه خدمة الالمان ويحاول انتهاك حرمة قبر هذا الرجل الحزبى وتصفية الحساب معه ، ولكن حبيبة لن تسمح بذلك · ولكن ما الذى يمكن أن تفعله · سيأتى الالمان ويتولون أمرها هى الاخرى ·· هذه الدجاجة البلشفية لا يمكن اخافتها بالموت فان المثل الذى تردده هو : « ان الموت لا يسلب الشجاعة » · وكانت قد طلبت فى ذلك اليوم الذى دفن فيه زوجها أن يخصص لها مكان بجوار قبر زوجها · انها الآن ستدق جدار قبره فيرد زوجها سائلا:
« أهذا أنت هنا يا حبيبة » ؟ فترد عليه قائلة :
« ها قد لحقت بك · أكنت تظن انى لن ألحق بك ؟ »

لم تلحظ ابتشارا وهى مندمجة فى أفكارها أن الفجر بـدأ يبزغ ويغطى البرارى بنوره ··· لم يكن فى المنطقة ما يشير الى وجود أية قرية · وأخذ لوكوتوش ينظـــر بين الفينة والفينة الى السماء الوردية اللون قلقا · فقد كانت حتى هذه اللحظة صافية· لقد ابتعدوا عن القوات الالمانية بالفعل ·

فتح لوكوتوش لوحة الخريطة الطبوغرافية ونظر اليها للتأكد من أنه يقود الفوج فى الاتجاه الصحيح · كان الرجال يجـــرون أرجلهم بصعوبة ولكن النقيب كان يخشى ايقافهم ومنحهم راحـــة

حتى ولو لخمس دقائق اذ لن يستطيعوا النهوض بعد ذلك ٠

ـ لا تتأخر فى السير ! ـ أصدر لوكوتوش الامر وسرى أمره من مقدمة الرتل حتى مؤخرته ٠ وفى بعض الاحيان كان من الممكن سماع أحد الجنود وهو يشجع جنديا آخر قائلا :

ـ أراك تراخيت ولا تستطيع ملاحقة النقيب الاعرج ٠

تقول الخريطة أن الفوج دخل حدود كالميكيا ٠ وهذا ما كان بالفعل حيث رأى الجنود بندرا بالقرب من الطريق تعمل فيها فتيات كالميكيات ٠ ودب النشاط فى المقاتلين المتعبين حين شاهدوا الفلاحات التعاونيات يعملن وهن شبه عرايا ٠ كانت هذه الصورة غريبة على رجال الجبال الذين تعودوا على أن تستر المرأة أكثر ما يمكن ستره من نفسها ٠ وأخذ الجنود يمزحون ويلقون بالنكات اللاذعة والفظة ولكن بنبرات جريئة ٠

ـ انظر كيف يعملن بجد اذ هن يعملن بنشاط وضمير تحت شعار الخبز للجبهة ٠ ولكن من الذى سيحصل عليه ؟

ـ الخبز غير مهم ٠٠ الأهم من ذلك أن لا يحصل عليهن أنفسهن أحد ما ٠

ـ انهن عرايا ٠٠

ـ أوقفوا المزاح ! ـ أصدر لوكوتوش أمره ثم أوضح لابتشارا المزيد قائلا ـ ممن يمكنهن أن يخجلن هنا فى هذه البرارى؟ ما من رجل واحد هنا ٠ ينبغى الاقتراب منهن والسؤال عن الطريق ٠

لم تخجل النساء قرب البندر على الاطلاق حين اقترب منهن الجندى الذى أرسله لوكوتوش ، بل وكان خجل الجندى أكثر من خجلهن ولذا كان يحاول الا ينظر اليهن وهن يشرحن له الطريق الى المزرعة الحكومية ٠

نفض اللقاء مع الكاميكيات التعب عن الجنـــود وبعث فيهم النشاط وواصل الفوج سيره بحيـــــوية أكثر · كما هدأت نفس لوكوتوش كذلك · فما دامت الفلاحات التعاونيات يعملن فى هدوء هكذا فى البندر فهذا يعنى ان الألمان لم يصـــلوا بعد · وسرعان ما ظهرت بلدة صغيرة من وراء بحر مزارع القمح ·

واتضح أن قيادة الفرقة وفلول الوحدات الأخرى قد تمركزت كذلك فى هذه البلدة · ولم يكن ينقصهم ســـــوى فوج النقيب لوكوتوش · وسر قائد الفرقة لأن هذا الفوج قد لحق بهم هو الآخر· وأعطاهم من فرط فرحته ست ساعات كاملة للراحة · ورغم ذلك لم يجتمع الجميع للراحة مرة واحدة ذلك لأنه لم تكن هناك نهاية للحكايات الحزينة والاسئلة المشحونة بالحسرة · لم يكن أحد يعلم بعد عدد من بقى على قيد الحياة · ولكن الخيالة بقيت دون جياد · ولحسن الحظ ان القوات استطاعت الاستيلاء على عدة سيارات نقل كغنائم · وبدون هذه السيارات كان يصعب الابتعاد عن العدو ولمسافة كبيرة · كما تم الاستيلاء على مطبخ ميدان صالح للعمل· والآن يقوم الطهاة باعداد شوربة الكرنب بلحم الضأن · وبعد تناول الشوربة نام الجميع ·

فتحت ابتشارا عينيها بصعوبة فوجدت ان بقايا الفرقة قد اصطفت · وكانت ابتشارا على استعداد لأن تواصل النوم ثلاثة أيام متوالية ولا تستيقظ خلالها مرة واحدة رغم أن المكان من حولها كان يعج بضجيج · وعلى كل حال ، فمن المرجح ان أحدهم قد أيقظها وحين رأت ابتشارا ان الرجال قد اصطفوا ، اعتقدت أن الغرض من ذلك هو عد الأفراد الذين بقوا على قيد الحيـــاة · واتجهت ابتشارا وهى تصلح من شعرها نحو رجال الهـــاونات الواقفين فى الجانب الأيسر · فقد كانت نفسها تميل اليهم ، لأن

أخاها الحبيب البيان كان يحارب معهم لدرجة أنهـا اذا سئلت : « أين تريدين أن تخدمى ؟ » لما ترددت فى الاجابة قائلة : « فى سرية هاونات » ٠

وتنبأ أحد الجنود قائلا :

ـ اعتقد أنهم سوف يتلون أمر ستالين ٠

فرد عليه أحد الواقفين :

ـ لقد قرىء فى الخنادق ٠

وقال ثالث :

ـ لقد قرىء حقا وينادى الأمر بالصمود وعدم التراجع خطوة واحدة ٠ ولكن قل لى ، كم خطوة تراجعتها خلال الليل ؟

ـ ولكن كيف أصبحت أنت بجانبى ؟

كانت الفرقة تقف فى صفين أمام المنزل الصغير المربع المغطى بالاردوار ٠ واعتقدت ابتشارا أنه سوف يتم حصر جميع الأفراد ثم تواصل الفرقة المسير ٠ ووقفت ابتشارا فى الصف الأول كى يحصوها هى الأخرى ٠

وتوقفت الأحاديث فى الصفوف ٠ فقد خرج من البيت المربع الصغير العقيد والقادة والمسئولون السياسيون ٠ وحين رآهم لوكوتوش صاح بصوت جهورى : « انتباه » ثم توجه للعقيد قائلا : « أيها الرفيق العقيد ٠ لقد جمعت الفرقة كما أمرتم » ٠

تقدم العقيد بضع خطوات الى الأمام ٠ وكان متوترا ومتجهما وتبدو عليه الشدة ٠ لم تره ابتشارا بمثل هذه الحال من قبل ٠ كان العقيد منفعلا ولذا لم يتمكن من بدء الحديث بأى حال من الأحوال، كما أنه لم يستطع رفع رأسه لينظر الى وجوه المقاتلين والقـادة

وقد انهكتهم المعارك ٠ وشد قائد الفرقة الحزام ذا الحمـــالة الى أسفل وكأنه يريد بذلك ان ينتزع من داخله تلك الفكرة التى ظلت حتى هذا الوقت لا تطيعه ٠ وبدأ العقيد حديثه قائلا :

ـ ان الاحســـاس بأداء الواجب أمام الوطن ، وأمام وجوه الجبال وأمام الشعب هو أسمى وأطهر وأنبل احساس ٠ ولا يستطيع المرء ان ينظر فى أعين الاهل والأقارب الا اذا أدى واجبه العسكرى ولم يصم وجه شعبه بالجبن والخسة ، ولم يختف أثناء القتال كى يفلت بجلده ٠ انى رجل عجوز وهذه ثانى حرب أخوضها ٠ كنت أقود فى الحرب الأهلية فصيلة ، أما في هذه الحرب فقد أوكلوا لى مهمة قيادة فرقة كاملة ٠ لقد ائتمننى الكاباردينيون والبلكار على ابنائهم على أمل ـ وهنا ارتعش صوت قائد الفرقة ، ونظر العقيد نحو قدميه ـ على أمل أن أعود اذا لم يكن بالجميع فبأكبر عدد منهم الى عرسانهم وزوجاتهم ، أمهاتهم وآبائهم ٠ ان أملهم لن يتحقق ٠ فلا يزال أمامنا المزيد من المسير والعديد من الطرق التى ينبغى علينا ان نسلكها ٠ ان خسائرنا لا تعوض ويجب علينا الا نخـــاف الحقيقة ٠ سوف نفقد أصدقاء لنا غير الذين فقدناهم ٠ ولكن العزم يملؤنا وسوف نقاتل حتى آخر رجل فينا ٠ وان لم يكن من المقدر لنا ان نرى ضوء النصر فان آخرين غيرنا سوف يرونه ٠ وان لم يكن من المقدر ان يلتقى بكم أهلكم وذووكم فان آخرين سوف يلتقون بأهلهم وذويهم ٠ لم يكن الحظ بجانبنا ٠ فقد اصطدمنا بقبضـــة العدو المدرعة ، خيالة ضد دبابات ، ولم يكن يليق بنا ان نتملص من الضربة فتلقيناها وصمدنا ٠ نعم صمدنا كما انزلنا بالعـــدو خسائر كذلك ٠ ويمكن القول وضمائرنا مستريحة اننا صمدنا حتى الموت ، واثبتنا بما قمنا به أن العـــدو ليس قويا بالدرجـــة التى يعتقدونه فيها ٠ فاذا كان العدو اقوى منا بسلاحه ، فنحن اقوى منه بروحنا ٠ وما من سلاح يستطيع الصمود أمام قوة الروح ٠ واذا كان هناك سلاح لمقاومة كل درع ، فان السلاح الوحيد الذى

يقوض روح المقاتل هو الجبن · ان الجبن يلتهم الروح مثلما يأكل الصدأ الحديد ولذا لا هوادة مع الجبن ·

وصمت العقيد برهة ثم التفت الى الخلف وقال بحدة :

ـ اقرأ الحـكم !

لاحظ لوكوتوش ان يدى العقيد ترتعشان · كان النقيب يعرف قائد فرقته معرفة جيدة ·· هذا الضابط الذى كان يخدم فى الجيش القيصرى قبل الثورة · لم يتفوه العقيد بالسباب فى أى وقت من الأوقات · وكلما أراد أن يسبب أحدا ، كان يستدعى ياوره ويقول له « ذكره بأمه الحبيبة » والآن لم يكن لوكوتوش يستطيع فهم ماذا تعنى « اقرأ الحكم » · كان الياور يقف بالقرب صامتا · ولكن لم يستمر تخمين ما يقصده القائد طويلا ·

اقتيد من القبو شخص بدون حزام وغطاء رأس يرتدى سترة ممزقة وحذاءا باليا واسمالا باهتة اللون متسخة بالطين · وكان هناك مقاتلان يحرسان المقبوض عليه وقد شهرا سيفين وبجانبهما كان يعقوب بيشتويف ممسكا بورقة فى يده · كان يعقـــوب كثير الحركة وكأنه يتعجل طمس أثر شىء ما · أما المقبوض عليه فكان يتصرف فى هدوء وبدت من خلال شعر ذقنه الأسود الكثيف ابتسامة مشوبة بالشعور بالذنب ·

كانت ابتشـــــارا تقف بعيدا عما يجرى ، ورغم ذلك تذكرت كيف اندفع اثنان من المقاتلين فرارا من المرتفع قاصـــدين مزارع القمح · وكان أحد هذين الاثنين هذا المقاتل ، أما الآخر فلم يكن سوى يعقوب بيشـــتويف بلحمه ودمه · وهذا ما يمكن ان تقسم ابتشارا بصحته ·

كان يعقوب بيشتويف يقرأ فى هذه اللحظة الحكم بمهـــارة

العارف بالأمور والناطق المفوه ٠ فأخذ يتلو طويلا البيانات التى يتضمنها ملف الجندى ٠ أما التهمة نفسها فقد عرضت باقتضاب « جبن وهرب من ميدان القتال دون أمر من القائد ٠٠ وبالتالى أصبح جبانا حقيرا وخائنا للوطن ٠٠ كما خان القسم العسكرى ٠٠ ويستحق أقصى درجات العقاب » ٠

وكان المتهم قد ألقى القبض عليه ونقل الى فصيلة قومندان الفرقة ٠ ولقد حدث ذلك فى الوقت الذى كانت تجرى فيه مناقشة الأمر الخاص باقتراح معاقبة الجبناء الذين يفرون من ميدان القتال بغير رحمة ٠ واقترح يعقوب بيشتويف باصرار على النائب العسكرى اعدام شخص ما أمام أعين الآخرين لجعله عبرة لغيره ٠

الا أن المقبوض عليه هرب من حراسته واتجه الى الحد الأمامى الى المدافعين عن المرتفع سلطان كى يكفر عن ذنبه ويثبت أنه ليس جبانا (وهذا ما خفف التهمة) وجد بيشتويف فى أثره ، الا أنه لم يعثر عليه على الفور ٠ فقد عثر عليه بعد أن كاد يفقد الأمل تماما وذلك أثناء القتال وفى نفس اللحظة العصيبة التى كانت تزحف فيها الدبابات الألمانية على المرتفع ٠ كان كل منهما يعرف الآخر ٠ فاندفع الجندى الهارب نحو مزارع القمح وأسرع بيشتويف وراءه ٠

كان بيشتويف أثناء مطاردته للجندى الهارب يبغى فى بادىء الأمر انقاذ نفسه بالفرار من ساحة القتال ولذا لم يصح فيه ولم يهدده بالسلاح حتى أصبح الاثنين بعيدا عن الحد الأمامى ٠ وهناك توقف الجندى نفسه واقترب من بيشتويف ٠ وعندئذ أخرج بيشتويف مسدسه وصاح فيه :

ـ مكانك أيها الوغد !

25—3127

وقاد بيشتويف المقبـــوض عليه الى فصيلة القومندان وقدم تقريره حول تنفيذ المهمة • واستمرت جلسة المحاكمة طويلا • ولم يتمكن بيشتويف من تحقيق ما كان يريده •

وتلى الحكم •

وسيطر على المكان الهدوء • ولم تفهم ابتشارا كل شيء • فقد كانت تود معرفة مصير هذا الشخص الذى اتهم بهذه التهمة البشعة •• ربما يرجعوه الى بيته طالما لا يستطيع القتال نتيجة الجبن • وتذكرت ابتشارا أنها أعادت ذات مرة من مزرعة وادى الحملان البيضاء فتاة الى بيتها لانها كانت تخاف الابقار فضلا عن عدم صلاحيتها للعمل كحلابة • ولم يكن هنا ضير فى ذلك حيث استمر العمل بدونها •

ـ أين سيرسلونه الآن ؟ ـ سألت ابتشارا لوكوتوش الذى كان قريبا منها •

ـ الى سرية المذنبين ـ جاءها الرد •

لم تكن ابتشـــارا تعرف ما هى « سرية المذنبين » ، ولكنها صمتت •

وداعا ايتها الفرقة

ـ النقيب لوكوتوش ! قائد الفرقة يطلبك !

ودب النشاط بين القادة والمقاتلين : ان طلب القائد للوكوتوش يعنى ان الفرقة سرعان ما ستواصل مسيرتها •

تزاحم رجال الأركان والمهمات أمام المنزل الصغير المربع حيث

جمع بينهم الاهتمام بنشرة مكتب الأعلام السوفييتى التى تلقاها قائد الفرقة · فقد كانوا يريدون معرفة هل استولى الألمان على مدينة نالتشيك أم لا ؟

كان قائد الفرقة يضع على الخارطة العلامات الرمزية بقلم رصاص أحمر ، حيث كان الموقف طبقا للمنشور التعبوى الذى تلقاه لتوه من قيادة الجيش · ولاحظ قائد الفرقة وجود لوكوتوش، فرفع رأسه قائلا :

ـ آه ·· أيها النقيب تفضل بالتعرف على الموقف ، فانك « مقطع السمكة وذيلها » فى الطبوغرافيا · هلم اطلع على الخريطة ·

وشق لوكوتوش طريقه نحو المكتب ورأى فى الركن الأعلى من الخريطة عبارة : « الموقف فى أول أب ·· » وتفحص النقيب الخريطة وانتقل بفكرة من الخريطة الى الأرض ومناطق الجنوب الشاسعة · فقد كانت كل المدن الكبيرة والمناطق السكنية كلها والواقعة فى المنطقة ما بين رستوف ـ نا ـ دانو ومدينة أرمافير محاطة بخط من قلم رصاص أزرق وعلى هذا فلم تعد تحت سيطرة قواتنا · أما السهم الأزرق الكبير فقد كان موجها بمنحنى نحو ستالينجراد · وكانت كل المناطق السكنية الموجودة فى منعطف نهر الدون محاطة بدوائر زرقاء · كما كان السهم الأزرق الثانى متجها نحو جبال البروس ·

ـ هل الموقف واضح ؟ ـ سأل القائد الموجودين ·

شد الجميع قاماتهم ولكنهم لم يستطيعوا رفع أعينهم عن الخريطة ·

ـ واضح أيها الرفيق العقيد · ـ رد النقيب بصوت مكتوم نيابة عن الجميع ·

ـ طالما الموقف واضح فاسمعنى يا عزيزى · لقد سرنا معا

دربا قتاليا صعبا رغم قصره · ولقد أثبت انك قائد جدير تتسم بقوة الارادة والمعرفة · وانى لاشعر بالألم لفراقك · ولكن ما من شيء يمكن عمله · ونحن جنود ·· أليس كذلك ؟

شد لوكوتوش أعصابه ، فلم يكن يستطيع أن يفهم ما يرمى اليه قائد الفرقة ولكنه رد عليه قائلا :

ـ نعم كذلك أيها الرفيق العقيد ·

ـ لقد تمكنا من الاتصال لتونا بقائد الجيش · لم يعد هناك وجود لفيلقنا · ان الفرقة الكاليكية تنسحب تجاه الجنوب · أما الفوج التشيتشينى الاينجوشى فانه ضمن احتياطى قيادة الجيش · ولهذا فاننا نتبع الآن قيادة الجيش مباشرة · وانك ترى بنفسك ما بقى من الفرقة ·

صمت العقيد هنيهة وذرع الغرفة جيئة وذهابا ثم استطرد :

ـ لقد تلقينا أمرا باختيار مجموعة مدعمة من بين الفرقة وارسالها الى هنا ـ وأشار قائد الفرقة باصبعه الى الخارطة ـ الى هنا ·· الى اليستا عاصمة كالميكيا · ان أقصى ما يمكن لى أن اختاره هو ما لا يزيد على مائتى فرد وثلاثة مدافع ومدفعى هاون· لم يبق فى الفرقة من الجياد الصالحة للركوب سوى القليل وسأقدم الجياد كلها ، كما اننى سأقدم سيارات نقل كذلك · ولقد تشاورنا هنا بشأن الشخص الذى يمكن تعيينه قائدا لهذه المجموعة ·

ونظر قائد الفرقة الى النقيب :

ـ انى على استعداد أيها الرفيق قائد الفرقة ·

ـ لست على استعداد تماما يا عزيزى · فان جرحك لم يلتئم نهائيا بعد · فلا تزال تسير مستخدما عصا ·· ولكن ·· ـ وهنا فتح العقيد ذراعيه دلالة على عدم وجود مخرج آخر ·

ـ كما أنه غير ثابت تماما وهو على ظهر الجواد ٠ ـ أضاف أحدهم مذكرا لوكوتوش بحادثة سقوطه من على ظهر الجواد أثناء عبور النهر ٠

هذا أمر يغتفر ، فان تخصصه هو الدبابات والمدفعية أما الجياد فهى لعبتنا ٠ اسمعنى كذلك أيها النقيب ٠ ان اليستا مدينة صغيرة من مدن البرارى بل ولا يزال من الصعب تسميتها مدينه ٠ فلا توجد بها مؤسسات صناعية كبيرة يمكن أن تكون ذات أهمية دفاعية كما لا يوجد بها خط حديدى ٠ والمدينة بعيدة عن الطرق الرئيسية ٠ وعلى هذا فان العدو لن يوجه اليها قوات كبيرة حيث يحتاج اليها فى المحور الرئيسى بهدف الاستيلاء على البترول والرصاص والمولبدنيوم والفولفرام فى شمال القوقاز ٠ ويرسم العدو خططه على أساس احداث شقاق وتأليب أبناء الجبال بعضهم على بعض ، وريثما يتناحرون فيما بينهم ، يستولى هو على ثروات كل الشعوب ٠ وقصارى القول ـ ووضع العقيد اصبعه من جديد على الخارطة ـ لقد قررت بناءا على أمر قائد الجيش ارسال مجموعة مدعمة مهمتها التحصن فى هذه المرتفعات المحيطة بمدينة اليستا والاحتفاظ بالمدينة حتى وصول القوات الرئيسية ٠ وانك مستقل تماما فى كل شىء ٠ ينبغى البدء فى العمل على الفور فان كل دقيقة غالية الثمن فمن الممكن أن يسبقك الألمان ٠ ولذلك فقد جمعت كل القادة قبل مجيئك ٠ ان كلا منهم يعرف عدد الرجال الذين سيضعهم تحت تصرفك ٠ خذ الرجال وتوكل على آلله ٠ انى أدرك مدى صعوبة المهمة الموكلة اليك ٠ ان مائتى أو ثلاثة مائة صغيرة ٠ ولكنى لا أستطيع تقديم أكثر من ذلك ٠ انك تعلم ما يتبقى رجل عدد يثير الضحك بالنسبة للدفاع عن مدينة مهما كانت هنا ٠ وعليك بتعبئة أهل المدينة ٠٠ عبىء الجميع للدفاع عن مدينتهم ٠ عليك ان تعمل باسم الوطن وباسم انتصارنا وأرينا ما يستطيع القيام به الجنود الذين قرروا الصمود حتى الموت ٠

ونظر قائد الفرقة برقة الى لوكوتوش ومد له يده ووضع اليد الأخرى على كتفه وقال :

ـ هلم اذهب أرجو من الله ان نلتقى ثانية ٠

ـ وهذا ما أتمناه ـ وهم لوكوتوش بالذهاب ولكن العقيد أوقفه قائلا :

ـ انتظر اريد معرفة رأيك فى موضوع ٠ لقد عين يعقوب بيشتويف قوميسيرا للمجموعة الخاصة وان هذا القرار ليس قرارا نهائيا فان قوميسير الفرقة يلح فى تزكيته حيث يعتقد أن بيشتويف أثبت انه مقاتل شجاع فى المعارك التى دارت من أجل الاستيلاء على المرتفع ليصيا ٠ أما فيما يتعلق برتبته ـ قانونى حربى من المرتبة الثالثة ـ فانها أمر ثانوى ٠ ان المهم هنا ان يجمع الانسان بين أفضل مزايا المسئول السياسى ومزايا القائد العسكرى ٠

كان قائد الفرقة يتحدث عن بيشتويف فى الوقت الذى لايشعر فيه بميل نحو هذا الشخص ٠ كما لم يكن لوكوتوش هو الآخر يميل الى بيشتويف ولكن من ناحية أخرى لم يكن لدى النقيب أساس للاعتراف على اقتراح العقيد ٠

ـ لا مانع لدى ٠ ـ انتزع النقيب الموافقة من نفسه ٠

ـ اذن وهذا الموضوع قد وصلنا فيه الى قرار ٠ اذن أبدأ العمل ٠ وبعد ساعة عليك ان تقدم تقريرا عن أحوال استعداد المجموعة الخاصة للعمل فى محور اليستا ٠

ـ حاضر ـ وحاول لوكوتوش أثناء خروجه من عند قائد الفرقة ان يقلل اتكاءه على العصا بقدر الامكان ٠ وعند الباب اصطدم بيشتويف ٠

ـ هل نضع يدا فى يد ؟

ـ لا مانع عندى ٠ سوف نكون بمثابة نصلى خنجر واحد ٠

ـ لن أخلى بك

ـ لقد صدرت الأوامر لنا بتقديم تقرير حول استعداد المجموعة بعد ساعة ·

وتم حل كل المسائل عدا سؤال واحد : ما العمل بالنسبة لابتشارا ؟ هل تأخذها المجموعة معها الى اليستا ام تبقيها فى قيادة الفرقة ؟ أى من المكانين أكثر خطورة ؟ وفى أى المكانين يزداد الأمل فى نجاتها ؟ ان تخصيص مجموعة صغيرة للدفاع عن مدينة أمر مثير للضحك · حقا ، فمن غير الممكن الصمود طويلا · ومن أين ستأتى هذه القوات الرئيسية اذا كان الجيش كله قد أصيب بالانهاك فى المعارك · ولم يكن عبثا ان يقول العقيد : أرجو الله ان نلتقى · ان المجموعة المدعمة تتجه نحو التهلكة بتقدمها الى اليستا · هذا الى جانب ان قيادة الفرقة ليست هى الأخرى فى نزهة · ولذا قرر لوكوتوش ان يتيح الفرصة لتختار ابتشارا بنفسها ·

كان الرجال يتقاطرون من مختلف الوحدات والوحدات الفرعية ليكونوا تحت تصرف النقيب · لقد كانت سرية الكيماويات بكامل أفرادها ، وكذلك فصيلة القومندان ووحدة الشئون الادارية وبقايا وحدات المؤخرة الفرعية الأخرى · ولم يسمح الوقت للنقيب الا بتسجيل أعداد الرجال ووحداتهم وتفقد الذخيرة الشخصية للمقاتلين ومراجعة صلاحية العتاد الحربى والذخائر والمواد الغذائية والمواد الطبية · وكان رجال المؤخرة يأتون وايديهم خاوية دون سلاح · وكان ينبغى تسليحهم على الفور وتوزيعهم على الوحدات الفرعية وسيارات النقل ·

وأسرع يعقوب بيشتويف الى مكتبة المزرعة الحكومية · فقد اعتقد انه سيتأتى على المجموعة التزام الدفاع فترة طويلة ولذا سوف يدرس مع الرجال تاريخ الحزب · وعلى هذا كان ينبغى ان ياخذ من المكتبة ولو عدة نسخ من كتاب « تاريخ الحزب المختصر » ·

ـ ماذا قررت؟ هل ستذهبين معنا؟ ـ سأل لوكوتوش ابتشارا ·

ـ لماذا تسألنى ؟ ألا تريد ان تأخذنى معك ؟
ـ من ناحيتى أريد ..
ـ سأذهب الى حيث تذهبون .
ـ اذن استعدى سوف نركب سيارة نقل وسنضع عليهـا الموتوسيكل كذلك . ان سبت الموتوسيكل مخصص لك وتحت تصرفك وقتما تشائين .

ووضعت ابتشارا لنفسها خطة . فيمكنها من مدينة اليسـتا الوصول الى محطة بروخلادنيا فى أية سيارة متجهة الى هناك ، ومن بروخلادنيا ستجد الطريق بنفسها الى قريتها ماشوكو . من المستحيل ان يكون الألمان قد استولوا على الخطوط الدفاعية التى شاركت الجمهورية كلها فى اقامتها لمدة تقارب نصف عام .. هذه الخطوط الدفاعية بمنشآتها المختلفة . من خنادق مضادة للدبابات ودشم خرسانية مسلحة ومعاقل نيران وحواجز مضادة للدبابات وغير ذلك . ان ابتشارا تذكر هذه الخطوط . ان قواتنـا ستتخذ حتما مواقعها الدفاعية هناك وتوقف العدو وتغطى مدينة نالتشيك وستعود ابتشارا الى القرية وتهدىء من نفس حبيبة وتهاجر معها الى أى مكان وتساعد ايرينا ودانوتشكا .

تم تشكيل المجموعة الخاصة واستعدت للسير . وخطر على بال ابتشارا ان تودع قائد الفرقة . ورغم انه لا يعرفها جيدا الا أنه يذكرها بالطبع . ولقد شعرت الفتاة أكثر من مرة بنظرته الأبوية نحوها . وأسرعت ابتشارا بغية العودة فى الوقت المناسب وكانت غاية ما تخشاه ابتشارا هو ان يكون عنده أناس . فقد كانت تريد وداعه على انفراد .

كان الباب مواربا والغرفة شبه معتمة . وخطت ابتشارا عتبة الباب وقلبها يكاد يتوقف عن النبض . وكان هناك خط رفيع من الدخان الأسود يتلوى منبعثا من مصباح الكيروسين الموجود على

المكتب . وكان العقيد جالسا على الكرسى وقد اسند ذراعيه على ركبتيه مطبقا بيديه على رأسه . كان محتضنا رأسه الاشيب براحتى يديه ويهتز وخياله الأسود الضخم يهتز هو الآخر على جدار الغرفة .

اعتقدت ابتشارا فى بادىء الأمر ان العقيد أصيب بنوبة سعال ، الا أنها حين وقفت بعض الشىء أدركت أنه ينتحب . وكانت تنبعث من صدر العقيد كلمات كلها مرارة تختلط مع بكائه ونحيبه. ولم تكن ابتشارا تستطيع لا الخروج من الغرفة ولا وقف هذا النحيب المريع ، فالتزمت مكانها وأخذت تستمع لما يقول .

ـ لم تعد هناك فرقة . لقد استشهدت كلها تحت الدبابات والقنابل . أين سأجد الكلمات لتبرير ما حدث أمام الناس ؟ هل سيفهمون فى وقت ما اننا بذلنا كل ما فى وسعنا بل وأكثر مما فى وسعنا ؟ يا الهى ، اذا كنت موجودا ادعوك أن تمنحنى الفرصة للثأر من العدو . انك ترى أننى لم أبخل بنفسى ولم أبخل بالرجال. لقد وهبنا كل ما نملكه كى نصبح بمثابة حجر لا أكثر ولا أقل فى الدعامة التى سيقام عليها جسر النصر . ان تيار التاريخ سيغمر هذه الدعامة ولكنه لن يجرفها أبدا فانها دعامة مقواة بدمائنا ودموعنا . واذا لم يكن ذلك فلماذا سكبت دماؤنا ؟ يا الهى اتعلم كم من الدماء سكبت ؟ لم نكن سوى حجرا صغيرا فى دعامة الجسر ولم يكفينا البارود ولم تكفينا الدماء نفسها كى نصبح أكثر من ذلك .

صمت العقيد دقيقة وسمع ان أحدا ما يبكى معه فى الظلام. رفع رأسه وتبين وجود ابتشارا .

ـ أنت ؟ يا بنيتى كيف جئت الى هنا ؟

نفض العقيد دموعه بسرعة وحاول أن يضفى على صوته هدوءا وثباتا كما حاول أن يشد قامته ولكنه لم يستطع ايجاد

الكلمات الضرورية الموزونة نتيجة الاضطراب ٠

ـ انها الأعصاب أرجو المعذرة اننى رجل عجوز ولدى الآن حفيد بالفعل نعم حفيد ٠ ان الصلب ذاته يتفتت فى القتال مثل الخبز الجاف ، وما نحن بالمقارنة بالصلب ؟ اننا بشر ٠ ان أعصابنا ليست من الأسلاك الفولاذية وها أنا كما ترين ٠ لدى حفيد الآن٠٠ ارجو أن أكون رئيسا للمأدبة فى حفل زواجك ٠ نعم سنعيش حتى هذه اللحظة ولكن لا تبتئسى سوف تتزوجين قائدا جديرا ـ وأخذ صوت العقيد يقوى بالتدريج ويصبح أكثر نقاءا لدرجة وضوح نبرات رنانة فيه ـ ان روسيا لاتهزم ٠٠ فقد أراد الفرنسيون هزيمتها ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ٠ وكم من أمة أرادت أن تفعل ذلك ٠ لقد جاءوا اليها قاصدين نهب خيراتها ولكنهم كانوا يعودون بخفى حنين ٠٠ ولكن ما سبب مجيئك الى ؟ ٠٠

ـ للوداع ٠

ـ للوداع ؟ وداعى ! شكرا يا بنيتى أقول لك صراحة أننى لم أكن أتوقع ذلك ، هل ستذهبين الى اليستا مع لوكوتوش ؟

ـ نعم ٠

تراجع العقيد خطوة الى الوراء وعاد الى المكتب وانشغل بمصباح الكيروسين يصلح من فتيله فى الوقت الذى كان يقر ونفسه تتعذب : هل يترك الفتاة تصاحب النقيب فى حملته الخطرة أم يجد لها عملا فى أى مكان هنا فى قيادة الفرقة ؟ أين يكمن الخطر الأكبر ؟ ولكن من الذى يستطيع ان يؤكد فى هذه الحرب اين يكمن الخطر الأكبر ؟ ان القدر وحده هو الذى يقرر ٠٠

ـ وهل قررت ذلك بمحض ارادتك ؟ ـ سألها العقيد ٠

ـ نعم لقد قررت بنفسى ٠

ـ اذن اذهبى معهم ٠ شكرا أنك جئت لوداعى ٠ أما ما رأيتيه هنا ـ وأشار العقيد بعينيه على الكرسى الذى كان ينتحب عليه ـ فلا تخبرى أحدا قط ٠ هل تعدينى بذلك ؟

ـ سيكون سرا أحمله معى الى القبر ٠

ـ لا داعى للحديث عن القبر الآن فان الوقت مبكر بالنسبة لك ٠ ومن ناحيتى فاننى أعدك كذلك بشىء ٠ ان أخاك جريح وانه لقائد شجاع جدير وأعدك الا يخرج من دائرة اهتمامى وحين يبرأ سآخذه عندى وسوف اعتنى به واحافظ عليه ٠ أعدك بذلك ٠

انفجرت ابتشارا فى بكاء متشنج فقد كانت لا تدرى ما الذى يجعلها تشعر بالألم لفراق هذا الرجل الأشيب المسن ٠ انه قائد فرقة صلب وهو فى نفس الوقت جد طيب القلب ٠ واستدارت ابتشارا وأسرعت نحو المجموعة الخاصة التى كانت قد اصطفت استعدادا للتقدم ٠

فى برارى كالميكيا

قفز يعقوب بيشتويف على السرج وشعر بأنه فارس حقيقى ٠ لقد ذهب عنه الخجل الذى شعر به ذات مرة أثناء ركوب الخيل ٠ وحينئذ أجرى العقيد تدريبات فى ركوب الخيل للقادة المسئولين السياسيين فى قيادة الفرقة ٠ وخرج يعقوب الذى كان قد وصل لتوه الى مكان الخدمة الجديد ولم يكن يشغل بعد أى منصب ٠ خرج كذلك للتدريب وقد استعار جوادا من أحد رجال القيادة والذى كان مسئول النوبة فى هذا اليوم ٠ وكان المطلوب فى هذه التدريبات عرضا للجلوس فى السرج ولمهارة الركوب التى قد تبدو أمرا بسيطا لأول وهلة ولكنها لا تكتسب فى الواقع الا بعد تدريب يستمر سنوات ٠

لم يكن الفرس حسن الطاعة ذلك لأنه تعود على صاحبه ٠ وبصفة عامة فان الجواد يشعر دائما براكبه ويعرف من يطيع وبمن يمكنه أن يستخف كذلك ٠ لقد شعر الفرس بأن راكبه مشغول بنفسه

وبمظهره أكثر من أى شيء وليس بالاندماج مع الجواد فى وحدة متكاملة حيث يكمل الجـــواد الراكب ويكمل الراكب الجواد وهو ما لا يمكن أن تقوم للفروسية قائمة بدونه · وعندما خرج بيتشويف الى منتصف الدائرة وهو يضع يده على خاصره بصورة جميلة متلفتا حوله كالمنتصر ، توقف الفرس فجأة وباعد رجليه الخلفيتين ورفع ذيله برشاقة وملأ الساحة برنين انبجاس بوله والذى سرعان ما ضاع وسط قهقهة القادة ·

ولكن من الذى يذكر هذا الآن ؟ ومن المؤسف ان لا يســتطيع بيشتويف الآن أن يسير بجواده بجانب جواد قائد الفوج ليثبت له مهارته · فقد رفض النقيب ركوب الجواد وركب فى كابينة سيارة النقل · ووضع الموتوسيكل فى صندوق السيارة واجلسوا ابتشارا فى سبت الموتوسيكل · كان كل شيء واضــحا من أعلى · رجــال الخيالة يقودهم يعقوب بيشتويف كانوا أول من خرجوا فى المسير وبعدهم بدأت سيارات النقل وهى تجر المدافع وراءها تحركها على فترات تفصل بينها ثلاث دقائق · أخذت العزبة تبتعد الى الخلف ، وتذوب فى ظلام المساء ·

لم يتذكر لوكوتوش أنه لم يحدد لدى قائد الفرقة المحور الذى يتبعه فى حالة الانسحاب الاضطرارى ، واين يجـد قيادة الفرقة ــ الا عندما ابتعدوا عن المزرعة الحكومية · كما ان العقيد لم يقل شيئا · وكان من الممكن العودة وتحديد كل هذه الأمور · ولكن لوكوتوش رأى ان قائد الفرقة نفســـه لا يعرف على الأرجح اين ستكون الفرقة فى القريب العاجل · ان الفرقة ستتجه نحو الشمال الشرقى فى اتجاه ستالينجراد فى الوقت الذى تتحرك فيه المجموعة الخاصة نحو الشرق وبالتالى سيفترق طريقيهما · ومن المرجح ان قوات أخرى ستحل فى المنطقة الشـــاغرة ، وربما تكون وحدات الجيش الثامن والعشرين التى تعمل فى مكان ما غربى مدينــــة

استراخان • وفى نهاية المطاف أليس سواء بسواء أن ينضم الى اية قوات فى حالة الانسحاب الاضطرارى ؟ وينبغى أن يقول الحقيقة لنفسه : لم يعد هناك وجود للفرقة القوقازية ولم يزد الطريق القتالى الذى قطعته الفرقة منذ بداية اشتراكها فى المعارك حتى تجمعت فلول الوحدات الفرعية المنكسرة عن تسعة أيام فقط • واذ لم تحتل الجمهورية فان الفرقة ستكمل تشكيلها دون شك وتقول كلماتها عاليا حتما •

لحقت سيارة النقل برجال الخيالة حيث قرر لوكوتوش التقدم الى الأمام وانتظارهم • ولوح يعقوب له بيده • وكان يجلس فى السرج وقد وضع يديه على خاصرته ورغم ذلك كان واضحا ان ركوب الخيل أمر لم يتعود عليه ولذا لن يتحمل الركوب طويلا •

كان القمر يضىء البرارى وكان كل شىء واضحا للأعين فى جميع الاتجاهات وخاصة بالنسبة لابتشارا • فالطريق المستقيم يتلألأ تحت ضوء القمر كالماء ويقطع البرارى الى جزئين مظلمين، ويلتقى بأفق السماء بعيدا هناك حيث تبدو بقعة وردية سرعان ما تتحول الى الشمس ذاتها بعد هذه الليلة التى ولت بسرعة •

« نسير للقاء الشمس ـ قالت ابتشارا فى نفسها ـ سيكون الطريق سعيدا » ولكن الهالة الحمراء المائل لونها الى لون الدماء أخذت تفيض ببطء وكأن السماء غمرت طرفها فى بحر من الدماء واصبحت تتشبع بها بالتدريج •

وفجأة لمع فى الطريق ضوء مصباح أحمر وسمعت صيحة وظهر بعض الناس وتوقفت السيارة الأمامية عند حاجز طريق هناك • « هل يحرسون الطريق ؟ ـ تساءلت ابتشارا فى نفسها ـ ولكن من الذى يمكنه سرقته ؟ »

ـ ماذا هناك ؟ ما سبب توقفنا ؟ ـ أطل لوكوتوش برأسه من الكابينة •

ـ أعدوا الوثائق لمراجعتها ٠

خرج النقيب من الكابينة وشد قامته بعد هذه الجلسة الطويلة غير المريحة فى السيارة ٠ لم يكن الموقف يقلقه هذا بجانب وجوب انتظار راكبى الجياد ٠

دار النقيب حول السيارة وخبط عجلات السيارة برجله ثم أطل على أبتشارا فى صندوقها وسألها :

ـ كيف حالك هنا ؟ الست نائمة ؟ صباح الخير ٠

ـ نعم لقد حل الصباح ٠

ـ ان الخيالة تعوقنا ٠ وان لم يكن ذلك لكنا قد وصلنا الى هدفنا منذ مدة طويلة ٠ الم تتجمدى من البرد ؟

ـ ان سبت الموتوسيكل مكان دافىء ٠

اقترب أحد المقاتلين من السيارة الأمامية مسرعا وقال للوكوتوش :

ـ أيها الرفيق النقيب ، أنهم يطلبونك ٠ يطلبون مراجعة الوثائق ٠

وعند بوابة الطريق كان يقف رئيس حرس البوابة وسط عدد من المقاتلين يرتدون زى قوات الحدود ويمسكون بالمدافع الرشاشة ٠ كان رئيس حرس البوابة ملازما شابا ذا شارب مرسوم بعناية تلوح على ملبسه الأناقة ، ومن تحت الكاب تبرز غرة مجعدة كثيفة ٠ وعلى ما يبدو ان الملازم قرر ان الوقت قد حان ليستطيع اثبات ولائه للواجب والوطن ٠

ـ وثائقكم من فضلك ؟ ـ قال الملازم للنقيب بصوت صارم ٠

وأخرج لوكوتوش دون ما عجلة هويته الشخصية التى تثبت رتبته ومنصبه وريثما كان الملازم يتفحص الهوية ويقارن فى تعنت بين الصورة ووجه لوكوتوش ، حاول النقيب ان يشرح له انه يقود مجموعة خاصة وان نقطة الوصول هى مدينة اليستا ٠ وسأله الملازم :

ـ ما رقم الوحدة أو الوحدة الفرعية ؟

ـ لا يوجد رقم · لقد قلت لك أننا مجموعة خاصة ·

ـ لقد سمعت هذا · اين فرقتكم ؟

ـ لا أستطيع معرفة هذا الآن ، فانها فى مكان ما هناك ·

وابتسم الملازم ابتسامة خبيثة ذات مغزى ولم يعد ينوى اعادة هوية الشخصية الى النقيب ·· وسأل الملازم النقيب :

ـ كيف حدث هذا ؟ فرقتكم هناك وأنتم هنا ؟

ـ نحن نقوم بتنفيذ أمر قيادة الفرقة ·

ـ وأين هو هذا الأمر ؟

أدرك لوكوتوش ان الأمور تسير فى غير وجهتها الصحيحة ·· فلم يكن لديه أمر مكتوب ، كما أنه لا يستطيع تقديم ما يمكن ان يحل محل الأمر ، ومد النقيب يده على كل حال محاولا أخذ الهوية ·

ـ انتظر ، لقد طلبت منك أن تقدم الأمر الذى تنسحبون بموجبه · واذا لم تقدمه ينبغى على ان أحجزكم واما ··

ـ وأما ماذا ؟

ـ وأما ستتوجهون الى الوحدة التى سأرسلكم اليها · وهناك سيحددون لكم قطاعا تدافعون عنه ·

وأدرك لوكوتوش ان وحدة من الوحدات قد قطعت الطريق بهدف ايجاد رجال لاستكمال تشكيلها · فقد كان لوكوتوش نفسه قد قام بأمر من قائد الفرقة بتشكيل سرية امنية على هذا النحو · ومن المؤكد أن هناك خلف هذا الملازم أما كتيبة وأما فوج ، ولكن النقيب لا يملك الحق فى الخضوع له ·

ـ أقول لك مرة أخرى ، هذه مجموعة فى طريقها الى تنفيذ مهمة خاصة وسيصل الآن رجال الخيالة ·

وفى الواقع كانت طلائع رجال الخيالة قد ظهرت فى البرارى

الا ان هذا لم يقنع الملازم واطلت ابتشارا من سبت الموتوسيكل وقد تقنفذت من البرد · لقد كانت تدرك هى الأخرى خطورة التوقف فى الطريق ·

ـ الديك أمر بالانسحاب ؟ ـ ورفع الملازم صوته وهو يشعر بسلطته وسلامة موقفه ·

ـ ايها الرفيق الملازم نحن مجموعة منظمة ·

ـ أنكم مجموعة منظمة من الفارين ·

ـ اباك والاهانات ·

ـ اننى لا أهينك · انمـا انتم الذين اهنتم الوطن بفراركم · الفرقة هناك وانتم هنا · سوف تجازى لهذا · ـ واخفى الملازم هوية لوكوتوش فى محفظته العسكرية · ـ لقد انتهى الأمر وليس لدى استعداد لمواصلة الكلام فيه ·

اقترب يعقوب بيشتويف على جواده المغطى برغاء العرق · ولفح الجواد الملازم بالبخار الساخن المنبعث من أنفه وبرائحة عرقه· وتساءل يعقوب :

ـ ما الذى حدث ؟ ما سبب هذه الاعاقة ؟ ان كل دقيقة غالية بالنسبة لنا ـ ولم يكلف يعقوب نفسه عناء الترجل عن الجـواد متدلى البطن الذى كان يهتز تحته ·

ولم يعر الملازم يعقوب اهتماما ·

ـ أعد لى هويتى ـ قال لوكوتوش وهو يكاد يهجـم على الملازم ـ والا سوف أمحو بوابة الطريق وأمحوك كذلك ·

ـ ليس هذا فى استطاعتك ·واذا كنت شجاعا بهذا الشكل فلماذا تفر من القتال ؟ ان الشجاعة لازمة هناك وليس هنا ·

ـ ولذلك اراك تتسكع هنا ·

ـ اننى هنا لأن الاوامر صدرت لى بذلك · أما أنت فهنا بدون أمر · انى أطلب اما تقديم أمر الانسحاب واما ··

ـ واما ماذا ؟ ـ قفز يعقوب من الجواد ·

ـ واما سوف تحتجزون ٠

ـ نحتجز ؟! ـ واشتعل يعقوب غضباً ـ أتفهم ما تقول ؟ أمر عجيب أن ينبغى احتجاز المجموعة المتوجهة للدفاع عن المدينة ٠ أيها النقيب أطلب منك أن تصدر الامر بالاستعداد للقتال ! هذا الرضيع الذى لم يفطم بعد ولا يزال لم يعرف رائحة البارود ويتجرأ « بالاحتجاز » !

ـ أعد لى هويتى ، هذه آخر مرة أطلبها منك ٠ ـ ازداد لوكوتوش غيظا وارتجف الملازم تحت ضغط المقاتلين وقال :

ـ حسنا سأعيد الهوية ولكنى لن أسمح لكم بالمرور دون أمر الانسحاب ـ وألقى الملازم الهوية فى وجه لوكوتوش ـ ان عددكم أكبر ولكنكم لن تحققوا شيئا بالقوة ٠ ان الأمر الذى أصدره ستالين يقول : ان الوطن يلعن من يتنازل عن الأرض السوفييتية للعدو ٠ انتم المقصودون بهذه الكلمات ٠

كان لوكوتوش يدرك جيدا سخافة الموقف والحل الوحيد هو احضار أمر كتابى ٠ من المرجح أن قيادة الفرقة لا تزال فى مكانها ويجب ارسال أحدهم الى هناك بالموتوسيكل وفى هذه الأثناء يمكن للرجال أن يستريحوا فضلا عن الجياد التى تجر أرجلها جرا من شدة الانهاك ٠

وتردد من جديد السؤال عمن يستطيع قيادة الموتوسيكل وتجمع السائقون ولم يتجرأ أحد منهم على ركوب الموتوسيكل الالمانى الغريب عنه ٠ هل ترسل سيارة نقل ؟ اذا جاز ذلك فينبغى تفريغها أولا الى جانب أنها لن تعود بسرعة ٠ ونصح بيشتويف لوكوتوش قائلا :

ـ اذهب أنت وبسرعة ٠ لن يحدث شىء ، سأحل محلك هنا ٠

تردد لوكوتوش فمن غير الممكن ترك المجموعة وخاصة فى مثل هذا الموقف ٠ ولكن ما العمل ؟ من غير الممكن ارسال رجال الخيالة

الى قيادة الفرقة · والواقع أنه لن يحدث شىء خلال ساعة أو ساعة ونصف يستغرقها الطريق وها هو القوميسير يلح فى ذهابه · وربما القوميسير على حق · ان أفضل قرار هو القرار الذى يتخذ وينفذ على الفور · هذا الى جانب أنه ما من مخرج آخر ·

تم انزال الموتوسيكل من السيارة · وبعد دقيقة كان يطير حاملا لوكوتوش مبتعدا عن المجموعة · لم يشعر النقيب بالهدوء النفسى · فلم يكن من الممكن ترك المجموعة ذلك لأنه فى حالة حدوث أى شىء فان الشخص الوحيد المسئول عن ذلك هو قائد المجموعة وحده ـ النقيب لوكوتوش ـ ولكن الموتوسيكل منطلق بسرعة كبيرة وكأنه يطير · وها هى نسمة الصباح الرطبة تنعش الوجه والطيور تطير مرفوفة تخلى الطريق أمامه ·

وقبل مضى ساعة ظهرت أسطح بيوت المزرعة الحكومية · وكانت تبدو بنفس صورتها السابقة وسط مزارع القمح الناضجة· وزاد الموتوسيكل من سرعته ·

ولكن القلق أخذ يزداد فى قلب النقيب وصدق ما توقعه فلم يكن هناك أثر للسيارات أو العربات ، كانت البلدة خالية · وقفز لوكوتوش الى البيت الذى كانت به القيادة والى عدة بيوت أخرى ولكن لم يجد أحدا فى أى مكان · وفى أحد البيوت وجد عجوزا كالميكية أخذ يسألها لدرجة أنه هزها من كتفها إلا أن العجوز البليدة ظلت تكرر نفس الشىء :

ـ لقد رحلت ·· رحلت باستا ·

أية باستا ؟ ماذا تعنى باستا ؟ هل هى « النهاية » أم تراها اسم جغرافى ؟ وجرى النقيب بعينيه على الخريطة واصطدم بكلمة « باستا » انها بلدة تبعد حوالى عشر كيلو مترات ومن هناك طريق يوصل الى المجموعة · وستستغرق الدورة ربع ساعة · ادار محرك الموتوسيكل بسرعة نصف دورة · ان هذا الموتوسيكل الغنيمة ممتاز وسريع ، هيا بسرعة الى باستا !

وفى هذه الأثناء شهدت منطقة بوابة الطريق أحداث مأساوية ٠

فقد قرر يعقوب بيشتويف وقد أصبح قوميسيرا مطلق السلطة، أن يتصرف بطريقته ٠ فقد سحب المجموعة الى الخلف ونشر المدافع وكأنه يستعد للقتال وذلك بغية التأثير سيكلوجيا على الذين يحتجزونه ٠ فقد بدا له أن الملازم سيفتح بوابة الطريق حين يرى أن المدافع مصوبة نحوه وعندما يعود لوكوتوش سيسمح له بالمرور بل والأكثر من ذلك سيعتذر له ٠ وتخيل يعقوب مدى دهشة النقيب حين يعلم أن القوميسير قد قام بما لم يفلح قائد عسكرى فى القيام به ٠ غير أن كل شىء جاء على غير ما توقع يعقوب ٠

كانت ابتشارا الجالسة فوق قمة احدى السيارات المشحونة بالمهمات بمثابة برج مراقبة ٠ وكانت أول من رأى على بعد رتلا من المركبات التى تشبه الدبابات ٠ واختفت القرية الكالميكية التى كانت تبدو فى الافق بين سحب الغبار٠ فقد دخلها من ناحية الغرب صف لا نهاية له من الدبابات وناقلات الجنود وسيارات النقل المغطاة بالمشمع ٠ وابتلعت القرية الصغيرة الرتل ٠ وصاحت ابتشارا ٠

ــ انظروا ٠٠ انهم الالمان !

اتخذ بيشتويف قرارا فوريا ٠ فلم يبلغ البوابة بظهور العدو، بل أصدر الأمر الى يرمان بالوف الذى لم يفترق عن بوق الفرسان خاصته منذ أن بدأت المجموعة تحركها ــ أن يعلن نوبة جمع ٠ وفرح الموسيقى الشاب بهذه الفرصة التى ستمكنه من ابراز مهاراته ٠

فليطلب الملازم الآن من الالمان أمرا كتابيا ٠٠ ولماذا نحرمه من فرصة استعراض شجاعته ؟ ولذا قرر يعقوب قيادة رجال الخيالة عبر حقول القمح مباشرة ، أما سيارات النقل الأربع فقد سارت فى الطريق الفاصل بين الحقول ٠ لم يفكر بيشتويف فى تخطى البوابة، بل قرر الخروج الى البرارى ٠ ان فكرة الدفاع عن اليستا فى هذا الموقف تبدو فكرة سخيفة ٠

« سيكون كل شيء على ما يرام – أكد يعقوب فى نفسه – سوف نتجه نحو القوقاز ونصل حتى شعب تشوبراك ونسبق الالمان. أن الجيش الالمانى يتحرك كله نحو اليستا . وما الذى يمكن أن تفعله مجموعتنا فى مواجهة هذا الجيش ؟ ولذا ينبغى الخروج بها من تحت الضربة وانقاذها . وعلى هذا ينجو شيء ما من الفرقة القوقازية وها هو يعقوب بيشتويف يصل بالمجموعة حتى كاباردينو– بالكاريا وسيقول « اننى أنا الذى جئت بهم وليس العقيد كوبانتسيف الذى صنع له أفضل سروجى سرجا خاصا ، بل وليس النقيب لوكوتوش الذى ترك المجموعة فى اللحظة الحرجة » . وعلى الأرجح سوف يتم القبض على لوكوتوش وسيكون مصيره هو نفس مصير سلطان خولامبايف . واذا حسبنا الوقت فسنجد أنه قد وصل الآن لتوه الى المزرعة الحكومية » ..

لم تقطع مجموعة بيشتويف من الطريق غير الممهد سوى حوالى سبع كيلو مترات حتى دوى من الخلف هدير القتال. وتوالت طلقات المدافع . فقد دخلت الفصيلة التى تحرس الطريق فى معركة غير متكافئة مع الالمان . والآن سيقدم الالمان وثائقهم للملازم .

قاد يعقوب بيشتويف المجموعة عبر حفر ووديان عميقة كيلا يكشف عن موقعها . وهدأت المعركة بسرعة كبيرة . وهل يتطلب الأمر وقتا طويلا من مثل هذا الجيش لضرب حوالى عشرين من الرجال ؟ وحين كانت المجموعة تنتقل من واد الى آخر صعدت مكانا مرتفعا فرأت انتشارا عمودين من الدخان الاسود من بعيد .

ظهر طريق زراعى بين مزارع القمح . واتخذت المجموعة هذا الطريق على أمل أن يؤدى بها الى أية منطقة سكنية .

وفى باستا لم يجد لوكوتوش قيادة الفرقة . فقد قرر قائد الفرقة الابتعاد عن العدو كما يجب . وهذا أمر مفهوم حيث لم يكن تحت أمرته سوى ثلاثمائة وخمسة وستين رجلا من بينهم ما لا يزيد

على المائة من الجنود . وهذا كل ما تبقى من الفرقة بعد تشكيل مجموعة لوكوتوش منها .

لم تعد الفرقة قادرة على القتال . وفى الواقع لم يعد لها وجود . وعلى الاحرى قاد العقيد الرجال الى قيادة الجيش .

عاد لوكوتوش . فقد انقضت ساعتان ونصف منذ أن ترك المجموعة . لا بأس . ليست هذه مدة طويلة . ولكن عندما اقترب لوكوتوش من المكان لم يجد أثرا لا للمجموعة ولا للملازم ، بل رأى صورة المعركة التى دارت هنا منذ وقت قريب . ولم يدهشه فى الامر سوى شىء واحد هو أنه لم ير بين القتلى رجلا واحدا من مجموعته ، ولا جثة جواد واحد .

وأدرك لوكوتوش أنه بقى وحيدا فى مؤخرة العدو .

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته وشكل عرضه ، وطباعته ، وأعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ٢١

موسكو ، الاتحاد السوفييتى

أعلام الأدب السوفييتى

تصدر دار التقدم ابتداء من عام ١٩٧٣ ســـلسلة جديدة : « التقدم · أعلام الأدب السوفييتى » تضم أعمالا لأعظم رجال الأدب السوفييتى المتعدد القوميات · وسيطلع القارىء الأجنبى لأول مرة على صورة كثيرة الشمول وبمنهجية للطـريق الذى قطعه الأدب السوفييتى خلال أكثر من نصف قرن ممثـــلا فى أنصع ظواهره الفنية وتعدد أساليبه وأشكاله الأدبية ، الرواية ، القصة الطويلة، القصة القصيرة ، الشعر ، الدراما ·

ان السلسلة الجديدة هى سجل فنى حى لحيـــاة الشعب السوفييتى وتاريخه وحاضره ·

وقد صدرت فى الأعوام السابقة الـ تالية .

« عودة البصر » مجمـــوعة قصص ثلاث مسرحيات عن الثورة » ، « هيبيربولويد مهنـــدس غارين » لأليكس تولستوى ، « قصص مختارة » لجنكيز ايتماتوف ·

وسيصدر قريبا : « الطلقات الأخيرة » ليورى بونداريف ، « الروح البحرية » لسوبوليف ، وغيرها ·

رقم الايداع ٧٩/٢٠٢٣

يصور لنا الكاتب السوفيتى المشهور عليم كيشوكوف فى أيام الهجوم الهتلرى على القوقاز صيف وخريف عام ١٩٤٢.

ويحدثنا المؤلف أيضا عن الرجولة والقوة الروحية التى تطلبتها تلك المعركة القاسية من أجل الحرية. لقد دخلت صفحات رواية كيشوكوف هذه فى السجل الفنى للشعب السوفيتى أعوام الحرب الوطنية العظمى.

التقدم

أعلام الأدب السوفيتى